

ثروت الخرباوي

سر المعبد

الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين





سر المعبد

الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين

تأليف

ثروت الخرباوي



العنوان:

سر المعبد
الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين

تأليف:

ثروت الخرباوي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

الترقيم الدولي: 977-14-4559-4
رقم الإيداع: 9721 / 2012
الطبعة الأولى: نوفمبر 2012

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

أُسطورةُ الكِتابِ

إذا كنْتَ ستَقرأُ هذا الكتابَ لِتأخُذَهَ كما هو فلا تَقرَأْهُ، وإذا كنْتَ ستَقرؤُهُ وقدِ اتَّخذْتَ مُسبَقًا قرارًا برفضهِ فلا تَقرأْه، ولكنِ اقْرأْ وفَكِّرْ، ثم بعدَ ذلك ارفُضْ أوِ اقْبلْ، ارْفُضِ الكُلَّ أو ارْفُضِ البعْضَ، واقبلِ الكلَّ أوِ اقْبلِ البعْضَ، قراءةٌ بلا تفكيرٍ ليسَتْ قراءةً ولكنَّها تلقينٌ، الأحرارُ فَقطْ هُم الذي يُفكِّرونَ حينَ يَقرَءُونَ، قراءةً مُضمَّخةً بالتفكيرِ تُعطيكَ عُمْرًا جَديدًا، وفي هذا الكتابِ أَهَبُ لكَ بعضَ عُمْري.

ثروت الخرباوي

قَبْـضُ الـرِّيــحِ

أيُّهَا الإنسانُ هل تَعرفُ حَجمَكَ؟ أنتَ بالنِسبةِ لِحَجمِ الكونِ صِفـر، تكادُ تكـونُ عَدَمًا، وعُمـرُكَ بالنسبةِ إلى عُمرِ الكونِ صفر، وكأنَّك لم تَدِبَّ على الأرضِ أصلًا، فَلْنَفترِضْ أنَّ اللهَ بسَطَ لأحدٍ خَلْقَهُ في الجسـمِ فَجعلَهُ في حَجْمِ الكون، ولْنَفـترِضْ أنَّ اللهَ جعـلَ هـذا المخلـوقَ يعَيشُ من بدايةِ خلقِ الكونِ إلى قيامِ الساعةِ، ثم وَقَفَ هذا المخلوقُ ينظرُ إلى الكونِ فهلْ سيَراكَ ويَلحَظُ زَمنًا مرَّ عليكَ؟ أنتَ أيُّهَا الإنسانُ مثلُ «قَبْضِ الريحِ».

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظنُّ أَديمَ الـ

أرضِ إلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجسـادِ

﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾.

صدق الله العظيم

«يَبدأُ الإنسانُ الحياةَ عندَما يَستَطِيعُ الْحَياةَ خَارجَ نَفَسِهِ»

ألبرت أينشتاين

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾

صدق الله العظيم

الفصلُ الأولُ

صوتُ الحريةِ

أزمنـةٌ وأمكنةٌ تتجمّعُ في إنـاءٍ واحدٍ ثم تَتَفرّقُ فيذهـبُ كلٌّ منها إلى حالِ سـبيلهِ، تَتَجمّعُ الأزمنـةُ والأمكنةُ في عقلي ثم تُغـادرُني فأقتفي أثرَها، أبحثُ عَـن الحقيقةِ فيُخاطِبُني صـوتٌ يَنبعثُ من داخلي: إنك لا تَبحَثُ عن الحقيقةِ ولكنكَ تبحثُ عن الطريقةِ، حررْ نفسَـكَ من الطريقةِ لتجدَ نفسَـكَ في قلبِ الحقيقـةِ، ولكنْ ما زالَ الطريقُ أمامكَ طوَيلًا لتتَخلّى عن الطريقةِ، أُصِمُّ أذنيَّ عـن سَماعِ الصوتِ لكـنَّ القلوبَ مُرهَفـةٌ، ما يمرُّ عليهـا ينطبعُ فيهـا، أَفتحُ بصـيرتي فأجدُ الطريـقَ خلفي ولكنّني أُحـاولُ أنْ أتجاهلَ خُطوطَـهُ التي تمرُّ بقلبـي فَتنتصِبُ كحجـرٍ ماردٍ أمامـي يَعُوقُني عن الرؤيةِ، حَطِّـمْ هَذا الحجرَ الماردَ، اذهبْ إليهِ وأعلنْ ثورتَكَ ضدَّه تسقِطْ كلَّ الطرقَ، ولكنَّ ثورةَ النفس غـيرُ دَفْقةِ الـروحِ، إنّما تَثورُ النفسُ عَـلى الواقعِ، وأمّـا الأرَواحُ بدَفْقاتِها فإنّها تَخـترِقُ الواقـعَ وتَتجـاوَزُه، فَبالدّفْقاتِ نَخـترِقُ الطريقةَ ونَصِـلُ إلى الحقيقةِ، وذاتَ ثـورةٍ خَرجْتُ ثائرًا، أَحمِلُ في جوَانِحي نفسِيَ الثّائرةَ، ورُوحِيَ المتأهّبةَ، كانَ الشارعُ كبيرًا غاصًّا بالثُّوّارِ، وفي الثوراتِ التي تَندمجُ فيها الأنفسُ تَنفعِلُ

الأرواحُ فَتسمُو وترَتقي، وعندَ انْفعالِ الروحِ رأيتُه، رأيتُني، عرفْتُه، عَرفْتُني، أَدركْتُـه، أدركتُنِـي، تَنفصِـلُ الروحُ عن الجسـدِ حينَ يَموتُ الإنسـانُ وحينَ يُحِـبُّ، فإذا أحـبَّ تدفَّقتْ رُوحُه مُتسرِّبـةً من الوعاءِ، فَترَى نفسَـها وتَتعرَّفُ عليهـا، حينهَـا، وحينهَا فقَط لا طَريقَ ولا مكانَ ولا زمانَ ولا طريقةَ، ولكنْ فقط هِي في حَقِّ الحقيقةِ.

في قلبِ الثوارِ كانَ صديقي مَعِي، ثائرٌ قديمٌ جاءَ يُجدِّدُ ثورتَه، فالثورةُ مثلُ الوُضُوءِ، أَمسَـكَ خالد داود يَـدِي حينمَا انْهالَتْ علينا قَنابـلُ الغازِ والدخانِ مَخافةَ أنْ نفترِقَ، فَافترَقْنا، سمعْتُ صَوتَه من بعيدٍ يُحذِّرُني، حَاسِبْ، حَاسِبْ، قنابلُ الغازِ مُميتة، بحثْتُ عنهُ فلمْ أجدْهُ، احتميْتُ بمدخلِ عمارةٍ في محاولةٍ منّي لأستنشـقَ هواءً، بعضَ هواءٍ ولو كانَ مُلوّثًا تلوُّثًا يسمحُ ببصيصِ حياةٍ، هَدأَ خَاطِـرِي وانْتظمَ نفَسِـي فخرجْتُ أبَحثُ عنهُ فإذا بصِياحٍ من بعيدٍ: حاسـبْ يـا حاج، حاسِـبْ يا حاج، مَنْ هُو هَذا الحـاجّ؟! وبعدَ أنْ تلقّيتُ ضربـةً صمّاءَ بَكْـماءَ عَـلى ظَهْرِي أدرَكْـتُ أنّ الحاجَ كانَ أنـا، وحينَ الْتَفـتُّ إلى مَنْ ضَرَبَنِي وَجدتُ بعضَ الوُحوشِ الجائعةِ المسكينةِ التي لا تَعرِفُ شيئًا عَنْ شَيء، كانوا قـد وَضَعُوها في أقفاصٍ حديديّةٍ، وعَلّمُوها ما يُريـدونَ، ولَقَّنُوها ما يَنفَعُهم لا مـا يَنفعُهُـم، تلـكَ الوحوشُ المسـكينةُ كانَتْ في يـومٍ من الأيامِ تَسـعَى في مناكـبِ الأرضِ لكَسْـبِ الرزق، يَعبُدون اللهَ بالفِطرةِ، حتى ولو لم يَسـجُدُوا أو يَركَعُـوا أو يَقرءُوا القرآنَ، أو يَعرِفوُا أَحـكامَ الصّيامِ والحجّ، هُمْ من أَهلِنا الذينَ يرَضَونَ بالقليلِ مِنَ الزَّادِ، ويخافُونَ مِنْ سَطوةِ الحكّامِ، ما يَقُولُه القائدُ في مُعسـكرِهم هـو الحقّ ولا حقَّ غيرُه، هؤلاءِ الثـوّارُ عُملاءُ يُريدُونَ تخريبَ البلـدِ، حَافِظُوا على بلدِكم واقْضُوا عليهـم، وكلمةُ القائدِ حقٌّ، دِينٌ، عَقيدةٌ،

نظرْتُ إليهم وجدْتهُم ضُعفاءَ خائفينْ يائسين، في قلوبهم وَجَلٌ، وفي أفئدتهم ذُعرٌ، يَضرِبُونَ بقوةٍ وانتقامٍ وكأنّني أنا الوحشُ، لم أشعرْ بوَقْعِ الهَراواتِ على رُكبتِيْ، ولا بجذبِهم العنيفِ ليَديَّ، ولا بسحبِهم لجسدِي الضعيفِ على الأرضِ، فقد كنْتُ قد تركْتُ جَسدِي، أيتركُ الإنسانُ جَسدَهُ قبلَ أنْ يَموت؟ نعَم، يَتركُه في الحُلُمِ، ويَتركُه حينَما يُصبِحُ الحلُمُ حقيقةً، رأيتُني وأنا أَنظرُ لِنفسي من مكانٍ مرتفعٍ، فَعرفْتُنِي، وأدركتُني، أنَا ذلكَ الشيخُ الضعيفُ صاحبُ اللِّحيةِ البيضاءِ، وهم ثلاثةُ ضعفاءَ أيضًا وُجوهُهم مثلُ وُجوهِ أهلي بالريفِ، وُجوهُهم فِيها طِيبةٌ ولكنّها الطِّيبةُ التي تَختلِطُ بالذُّعْرِ فَتُحِيلُ صاحبَها إلى كائنٍ لا يَعرِفُ نَفسَهُ، طَيِّبونَ هُمْ ولكنَّهم يرتَدونَ أقنعةَ الوحوشِ، وُجوهُهم التي يَضرِبُونَ بها ليسَتْ هي وُجوهَهم الحقيقيَّةَ، كانَ الثلاثةُ يَضربونَ الشيخَ صاحبَ اللحيةِ البيضاءِ بعُنفٍ على ركبتِه بهراواتِهم ثم يَجرُّونَه جَرًّا على الأرضِ، يَذهبونَ بهِ إلى سيارةِ الأمنِ المركزيِّ الرابضةِ على ناصيةِ الطريقِ، بحَثْتُ من المكانِ المرتفعِ الذي أُحلّقُ فيهِ عن (خالدِ داود) فلم أجِدْه، فرَّقَتْ بيننَا السُّبُلُ، دارَ في خَلَدِي كيفَ أنَا أرَاني الآنَ؟ أأنَا هُو؟! وكيفَ أنَا في هَذا المكانِ المرتفعِ، وأنَا علَى الأرضِ أتلقَّى الضَّرَباتِ فَلا أَشعرُ بألمِ الضَّرْبِ ولا وَجَعِ تَهشُّمِ العِظامِ؟! هل هَذا هُو الموتُ؟ هُو انسِحابُ الروحِ مِن الجسدِ؟ وهَلْ يَموتُ الإنسانُ مِنْ وَقْعِ عصًا علَى رُكبتِه!! أم أنَّ قلبي لم يتحمَّلِ الثَّورةَ وجَسدِي لم يَتحمَّلِ الدَّفْقةَ، فَانْطلقتِ الرُّوحُ إلى عوالمِها شَغفًا وحُبًّا وهُيامًا، ولكنّني شَعرْتُ بروحي مَا زَالَتْ مرتبطةً بجَسدِي لم تُفارِقْهُ بَعدُ، وأنَا في مَكانِي الذي أُحلّقُ فيهِ أُراقبُ كلَّ ما يَحدُثُ، وأَشعرُ

بصفاءٍ غريبٍ لا يُمكِنُ أنْ يَصفَه أحدٌ، تَعجَزُ الأَقلامُ والأشعارُ والأفكارُ عن نَقْلِ كيفيَّتِهِ للناسِ، لا يُمكِنُ أَنْ أَقولَ كيفَ هُو، فمَنْ كانَ في قلبِ الكيفِ يَعِشْ لذَّتَه ويُدرِكْ حَلاوَتَهُ ويَعجزُ عن وَصْفِهِ، مِنَ المكانِ الذي أُحلِّقُ فيهِ رأيتُ نَفقًا انْفَتحَ في السَّماءِ فجأةً وأطلَّ منهُ نورٌ غيرُ النورِ الذي نَعرِفُه، نَظَرتُ للشيخِ صاحبِ اللِّحيةِ البيضاءِ فَاسْتَشعرْتُ كأنَّه لَيسَ أَنا، شَعَرْتُ بابتعادِي عن هذا الجسدِ الهشِّ الضعيفِ، واقْتِرابي مِنَ النَّفَقِ النُّورانيِّ الغريبِ، وبَغتةً رأيتُ ثلاثةً آخرِيْنَ، ثلاثةَ شبابٍ في عُنفوانِ قُوَّتِهم يُسرِعُونَ الخُطَى ناحيةَ الشيخِ المسحوبِ المضروبِ، اشتبكَ الثلاثةُ معَ الثلاثةِ وتكاثرَ الثوارُ معَ الثلاثةِ فصَاروا رَهْطًا، ولم يَنضَمَّ للثلاثةِ الجنودِ الضاربِيْنَ أحدٌ ففرُّوا وتَركُوا الشيخَ في يدِ الثوّارِ، حَمَلَ الثوارُ الشيخَ إلى مَدخَلِ عِمارةٍ شاهقةٍ فَتلاشَى نَفَقُ النورِ الذي انْفَتحَ في السماءِ من أَمَامِي، ورأيتُني وقد هَبطْتُ فجأةً إلى جسدِ الشيخِ الهشِّ الضعيفِ من تلكَ الآفاقِ التي كنتُ أُحلِّقُ فيها دونَ أنْ أشعُرَ بزمنٍ، تحوَّلَ جَسدِي إلى مِغناطيسٍ بَشَرِيٍّ جاذبٍ للروحِ، فأصبحْتُ أنا في داخلِي، وفي مَدخَلِ العِمارةِ كانَتْ فِرقةُ إسعافٍ تُداوِي عَدَدًا مِنَ المصابِيْنَ، أَحدُهم أُصيبَ برصاصةٍ تَبغِي مَقتَلَهُ، وكانَ المسعفونَ يتحلَّقونَ حولَه، وأحدُهم كانَ ملقىً بجوارِي وكانَتْ عينهُ خارجَ مُقلتِه، لم أشعرْ بزمنٍ ولم أشعرْ بألمٍ ممّا لحِقَ بي، ولكنَّني كنْتُ عاجزًا عَنِ الوقوفِ وكأنَّ قَدَميَّ كلتيْهما انْفَصلتَا عن جَسَدِي أو كادتَا، وكأنَّهما تَبحثانِ عَمَّنْ يَحمِلُهما لا عَمَّنْ تَحمِلانِه.

شُهورٌ وجَسدِي مُعطَّلٌ عن الحركةِ، تَعطَّلَ قَبلَ العمليةِ الجراحيَّةِ التي

أَجراها الأَطباءُ لرُكبتِي ومَفاصِلي وأَوتارِي وعَضَلَتِي الرُّباعيةِ المزَّقة، وتعطَّلَ بعدَ العمليةِ مِنَ الرُّقادِ في حَبسِ الجِبْس، والثورةُ مثلي، ثارَتْ وانْفعلَتْ وحَرَّكَتِ الأحجارَ الثقيلةَ الرَّاكدة، ثم انْكسَرتْ ورَقدَتْ وتَعطَّلَت عن الحركة، كَسرَها ومَزَّقَ أوتارَها جنودٌ من خيرِ أجنادِ الأرضِ من أصحابِ الوجوهِ الطيّبةِ والخُوذاتِ الصُّلبةِ والأقنعةِ الشرّيرة، وعَطَّلَها عن الحركةِ جنودٌ من خيرِ أجنادِ الأرضِ من أصحابِ اللّحَى الطيّبةِ والنِّيّاتِ الطيبةِ والأجسادِ الطَّيِّعةِ، خيرِ أجنادِ الأرضِ، نحنُ نتَفاخَرُ بذلكَ، فهَذا وَصْفُ الرسول ﷺ لنَا: «**فإنَّ فيها خيرَ أجنادِ الأرضِ**» ولِمَ هذهِ الخَيريَّة؟ خَيريَّةُ الجنديِّ يُدرِكُها قُوَّادُ الجيوشِ، الجيشُ الذي فيه خيرُ أجنادِ الأرضِ هو الذي لا يَتمرَّدُ ولا يَتنَمَردُ، يَسمَعُ كلَّ ما يقولهُ له قائدُه، يُطِيعُ الأوامرَ حتى ولو كانَتْ ضدَّ طبيعتِهِ الإنسانيةِ، هل أدركْتَ لماذا لم يَقُلِ الرسولُ ﷺ إنَّ جنودَ مصرَ هُمْ أَقوى جنودِ الأرضِ؟ أو أَقسَى جنودِ الأرضِ؟ أو أبرعُ جنودِ الأرضِ؟ أو أَذكَى جنودِ الأرضِ؟ ولماذا قالَ إنّهم «خيرُ» جنودِ الأرضِ؟ لأنّهم عندَما يَنتظِمُونَ في تَنظِيمٍ يُصبِحُونَ أكثرَ الناسِ طاعةً لمن هُمْ أَعلى منهم في التَّنظِيمِ، أكثرَ الناسِ طاعةً لقادتِهم، ولا يُفضَّلُ جُنديٌّ على جُنديّ إلا بالطاعةِ، وتلك هي الخَيريَّة.

قواتُ الأمنِ المركزيِّ، وعساكرُ الشرطةِ مِصريُّونَ مثلَنا، طَيِّبونَ مثلنا، مُطِيعونَ مثلَنا، كلٌّ واحدٍ منهم بينَ يدي قائدِه كالْميْتِ بينَ يَدَي مَنْ يُغسّلُه يُقلّبه كيفَ يشاءُ، وجُنودُ الإسلامِ الذين يَبحثُونَ عن دولةِ الخلافةِ مصريُّونَ مثلَنا، طيبونَ مثلنَا، مُطيعونَ مثلَنا، كلٌّ واحدٍ منهم بينَ يَدَي مُرشِدِه كالميّتِ

بـين يَدي مَنْ يَغسِّـلُه يُقلّبُه كيف يشـاءُ، سَـترغمُكَ مَشـاعِرُكَ الطيبةُ على أنْ تحبَّ جُنديَّ الأمنِ المركزيِّ الذي انْهالَ عليكَ ضَرْبًا، وجُنديَّ الشرطةِ وأمنِ الدولـةِ الذي أَطلقَ عليكَ الرصاصَ، فهم يَسـمَعُونَ ويُطِيعون وليسَ لهمْ في الأمرِ حيلةٌ، وبقَدْرِ قَسـوتِهم معَكَ سيَكونُ حُبُّكَ لهم، وستَعذِرُهم حَتْمًا، فهم يَظنُّونَ أنَّهم يُصلِحُونَ حالَ البلـدِ ويُنقِذُونَه من تلكَ الطُّغْمـةِ الشّرّيرةِ التي تُريدُ لبلدِكَ الخرابَ، وسيُرغمُكَ الحبُّ على أنْ تُحبَّ جُنودَ «جيشِ الإسلام» الذينَ ينهالُونَ عليكَ سَبًّا وقَذْفًا وتَجرِيحًا وتكفيرًا وتَخوِينًا، سيُرغمُكَ الحبُّ علـى أنْ تُحِبَّ الذينَ يُمزِّقُونَكَ ويُمزّقونَ سُـمعتَكَ إذا اخْتلفْتَ معهم في رأيٍ أو فكرٍ، ستُحبُّهم وهـم يَضرِبُونَكَ ضَرْبًا مُبرّحًا إذا وَقفْتَ في وَسـطِ جَمعِهم وأنـتَ المختلِفُ معهَـم، فهم يَظنُّونَ أنَّهـم وهم يَضربونَكَ ويَعتـدونَ عليكَ يُصلِحُونَ حـالَ البلـدِ ويُنقِذُونهَـا مـن تلـكَ الطغمـةِ الشّريرةِ التـي تُحاربُ الإسـلامَ وتقفُ ضدَّ الدِّينِ، سـيُرغمُكَ الحـبُّ على أنْ تحبَّهم لأنكَ إنسـانٌ، وقد خَلَقَ اللهُ الإنسانَ لكي يُحبَّ، فَإذا زَادُوا في كَراهِيَّتِهم زِدْ في حُبِّكَ، وذَاتَ يومٍ سيَعلمُونَ أنَّ الإسلامَ هو الحبُّ.

■■■

لكلّ منّا أُسطورتُه، حُلمُه، كَنزُه الذي يَختبِئُ في مكانٍ ما، تَحكِي الأُسطورةُ أنَّ الإنسَـانَ مَنـذُ اللحظةِ الأُولى لَهُ وهو يَحلمُ بكنـزِهِ، فيَظلُّ يبَحثُ عنهُ طُولَ عُمـرِهِ، تَنقضِي الأعمارُ فلا يَجِدُ بَعضُنا كَنزَه، تَتوُه الأحلامُ مِـن بعضِنا فيفقدُ أَملَه في كَنزِهِ الأُسـطُورِيّ، يَصِلُ مُعظمُنا إلى كنوزٍ مُزيَّفةٍ لا قيمةَ لَها فيَقنعُ بها،

وتَصلُ قِلَّةٌ نادرةٌ مِنَ البشرِ إلى كنزِهم الحقيقيِّ، فإذا فَقَدَ بعضُنا طريقَه وتَاهَ في أحراشِ الحياةِ فلم يَعثُرْ على كَنْزِه ظَلَّتْ أُسطورتُه في قلبِه.

تَحكِي أُسطورتي أنّهُ ذاتَ يومٍ منذُ زَمنٍ بعيدٍ تَسرَّبتْ رُوحي فَدخلْتُ جماعةَ الإخوانِ، وذاتَ زمنٍ آخرَ تَسرَّبتْ روحي فَخرجْتُ من تَنظيمِ الإخوانِ، وبينَ الزمـنِ والزمنِ كانَتْ لي أيامٌ أَبحثُ فيها عنِ الكنزِ الأُسـطوريِّ، وكلّما ظَنَنْتُ أنَّني اقْتربْتُ منهُ وَجدتُه قَدِ ابْتعدَ عنِّي بمقدارِ ما اقتربْتُ منه، تَحكِي أُسطورتي أنني وأَنا أبحثُ عنِ الكنزِ صِرْتُ مِنَ الإخوانِ... وصَارَ الإخوانُ منِّي.

وفي الإخوانِ نزَفْتُ نفسِي.

وللإخوانِ سَكبْتُ نفسِي.

وفي الإخوانِ نَسيتُ نَفسِي... فَتلاشَيْتُ.. كقطرةِ ماءٍ تَبخَّرَتْ .

وحـينَ يـومٍ وقعَتْ قطرةُ الماءِ من السّـَحابةِ.. فَتألَّمْتُ.. ومن أَلمِها سَـتَنبتُ شَجرةُ الكنزِ.

وذاتَ يومٍ عَرفْتُ قَطرةَ الماءِ أنَّ الضِّياءَ يُنيرُ الطَّريقَ ولكنَّه أَحيانًا يُعمِي الْبَصَرَ.

■■■

مَـرَّتْ سَـنَواتٌ وأَنا في قلبِ الإخـوانِ، رأيتُ فيها أَفـكارًا تَرتفعُ وأَفكارًا تتَهـاوَى، شَـخصياتٍ حَملَـتِ الْجماعةَ، وشَـخصيَّاتٍ حَملَتْها الْجماعـةُ، كانَ في ظَنِّـي أنَّ التَّنظِيمَ ما هُوَ إلَّا وسـيلةٌ لِتوجيهِ طاقاتِ الفـردِ الإبداعيَّةِ وتَنميتِها، فَإذا بهِ وَسـيلةٌ لِتكبيلِ الفردِ في سِلسـلةٍ بشريةٍ طويلةٍ أشـبهَ ما تكونُ بسلسلةِ

العبيدِ التي كانَتْ تُحمَلُ إلى أمريكا من بدايةِ القرنِ السادسَ عشرَ، الفارِقُ أنَّ «كُونتا كِنتي» الشابَ الإفريقيَّ المسكينَ الذي كانَ يتِمُّ أَسْرُه مِنْ غَرْبِ إفريقيا قَهْـرًا وغَصْبًـا لِيَدْخُلَ في سلسـلةِ المُسـتعبَدِيْنَ، كانَ لا يَنفكُّ عَـنِ التمرُّدِ على العبوديةِ إلى أنْ يَستنِيمَ لها مُجبرًا، ولكنَّه يَظَلُّ أبَدَ الآبدِيْنَ مُستعبَدَ الجسدِ طليقَ الـروحِ والنفسِ، ثم تَخـرجُ مِنْ صُلْبِهِ بعدَ ذلكَ أجيالٌ لا تَعـرِفُ إلاَّ العُبوديَّةَ فَتظنُّهـا الحياةَ وحينَهـا تكونُ هذِهِ الأجيالُ هي أَعدَى أعـداءِ الحريةِ، ويكونُ السَّجَّانُ هُوَ سيِّدَها وقرةَ عينِها، أمَّا الذي يَفتَحُ لهَا الأبوابَ المغلَّقةَ لِتَنطلِقَ إلى حُرِّيتِها فهُوَ العدوُّ الذي يَجِبُ أنْ تُقاوِمَه.

عُبوديةُ التَّنَظِيماتِ الحديديةِ هي أشـدُّ وأنكى مِنْ عُبوديَّةِ «كُونتا كِنتي» إذْ إنَّها عُبوديَّةُ الأجسادِ والأرواحِ والأنفسِ، هي أشبهُ ما تكونُ بقِصَّةِ «فاوست» الذي كانَ يبَحثُ عَنْ «حَجَرِ الفلاسفةِ» فَباعَ برغبتِهِ رُوحَهُ للشَّيطانِ، ما أقسَى أنْ تَرهِـنَ رُوحَكَ لِآخرِيْنَ حتى ولـو كانُوا ملائكةً، وما أَروعَ أنْ تكونَ عبدًا للهِ وحـدَه، حينَ قَرأْتُ ترجمةَ الفيلسـوفِ المـصريِّ عبدِالرحمن بـدوي لقصةِ «فاوسـت» لجوته أدركْتُ أنَّ شَقاءَ الإنسـانِ لا يكـونُ إلاَّ بفِعْلِهِ، ولكنْ هل يُدرِكُ الإنسانُ حَجْمَ المأساةِ التي تُنتجُ عَنْ تَفريطِهِ في حرِّيتِهِ؟! لا شَكَّ أنَّه قَدْ لا يُدرِكُ عُمقَ المأسـاةِ وقتَ التفريـطِ في الحريةِ، ولكنَّه قَدْ يَعرِفُ فَداحةَ فِعْلِهِ بعدَ حينٍ، وقد يَظلُّ عُمرَهُ كلَّه جاهلًا ما وَقعَ فيه، انْظُروا إلى هَذا الشابِ غَضِّ الإهابِ، الذي لم يُعجَمْ عُودُه بعَدُ، والذي تَدفَعُه عاطفتُه الدينيةُ إلى الوقوفِ في صفِّ السلسـلةِ البشريةِ المستعبَدةِ مُنتظِـرًا دَورَهُ في التكبيلِ التنظيميِّ على أَحَرَّ مِنَ الجمـرِ وكأنَّه يتعبَّدُ للهِ حينَ يُصبِحُ فردًا يَقـودُه رَاعِي البشرِ، ما أغنانا

حـينَ يَقُودُنا الرَّاعِي بعصـا الديـنِ والأخلاقِ والشريعـةِ، ونحنُ نَهشُّ لـه، يـاللهِ!! كَـمْ مِنَ العُبوديَّاتِ تُرتَكَبُ باسْـمِ اللهِ،! أصابَ طاغـورُ الحكيمُ حينَ قالَ: «ثَقيلةٌ هِي قُيودِي والحريةُ هِيَ مُنايَ، ولكنَّني لا أَستطيعُ أَنْ أَحبُوَ إليها؛ فمَنِ اسْتَعبَدُوني رَفَعُوا لافتاتِ الفضيلةِ وجَعلُوها حَائِطًا بَيني وبينَ حُرِّيتي».

■■■

هل من الممكنِ أن أَصِفَ لكُم مشاعرِي وأبثَّ لكم شُجوني، أَنا الآنَ أُحلِّقُ في السماءِ، كالطيرِ يجنَحُ نحوَ الأفقِ، أو كَسَهمٍ مَرَقَ، ولعلَّني اليومَ أَعرِفُ مدى سـعادةِ الطيرِ وهو يجُـوبُ الآفاقَ حرًّا، لا تظُنَّ أَبدًا أنَّ الهـواءَ هو الذي يحمِلُ الطـيرَ حينَ يُحلِّقُ، الحريـةُ فقط هي التي تحمِلُه، ما أعظـمَ الحريةَ حينَ تُداعِبُ مشاعرَ مَنْ عاشَ مُقيَّدًا مُكبَّلًا، كانَتْ آخرُ أيَّامِي في تنظيمِ الإخوانِ هي أسعدَ أيـامِ حيـاتي، ويالهـا من أيـامٍ أدركَ قَلبـي فِيها أنَّ تنظيـمَ الإخـوانِ كانَ سَرابًا يَدفَعُني نَحو التّيهِ، كنْتُ قد عَقدْتُ العَزْمَ على التخلُّصِ من تلكَ القيودِ الثقيلةِ التـي أَقعدَتْنِي وعَرقلَتْنِي وحاولَـتْ تكبيلَ أفكارِي، فالنفسُ السَّـوِيَّةُ ترفُضُ الاسـتبدادَ حتى ولو كانَتْ قيودُه مِنْ ذَهَبٍ، أو كانَتْ جُدرانُه قد شُـيِّدَتْ من لافتـاتِ الفضيلـةِ، ها هي اللحظاتُ الأخيرةُ تداعـبُ خَيالي من جديدٍ، تَحُثُّ ذاكِـرتي على العَودةِ إلى لحَظَـاتِ الخروجِ، تلكَ اللحظاتِ التـي اعتَبرتُها أزمنةً قُدسـيّةً، زمنُ الحصولِ على صَكِّ الحريةِ هو الأعظمُ في تاريخي، قَبلَها نَشَـبَتْ معركـةٌ طاحنـةٌ بـينَ قلبي وعَقلي، هَـلْ أتركُ الجَماعـةَ، أم أظلُّ فيهـا حتَّى ولَوْ تحكَّمَ فيها الاسـتبدادُ؟ فتَحتُ حِواراتٍ معَ أَصدِقائي عَنْ قيمةِ الحريةِ، قلتُ

لِعاطف عوَّاد الـذي تَركَ الْجماعةَ قَبلي: عَظيمةٌ هي قِصَّةُ «وداعًا شاوشـنك» تلـكَ القصـةُ الرائعةُ التـي كَتَبَها «سـتيفن كينج» ثم تَحَوَّلَتْ إلى فيلم سينمائي بطولةِ «تيم روبنز» و«مورجان فريمن» دخلَ روبنز سـجنَ شاوشـنك ولكنَّه ظلَّ عشرينَ عامًا يبَحثُ عن حُرّيتهِ إلى أنْ حصلَ عليها في الوقتِ الذي أصبحَ فيهِ هذا السـجنُ هو كلَّ الدنيا لمسـاجِيْنَ آخريْنَ، لا يعَرفونَ غيرَه ولا يَتقبَّلُونَ سِـواهُ وكأنَّه هُوَ الحياةُ، أظنُّ جماعةَ الإخوانِ تَحَوَّلَتْ إلى سـجنٍ بَشَريّ لا يَحفَلُ كثـيرًا بقيمةِ الحريةِ، يَسَتَحِقُّونَ الرِّثاءَ، مَنْ عَاشُـوا في الظـلامِ ويَنزعِجُونَ من النورِ، مَنْ يَقبعُونَ في أَقبيتِهم وسَرادِيبِهم الضيقةِ وهم يَحسَـبونَ أنَّ الطريقَ إلى الدينِ والفضيلةِ لا يكونُ إلاَّ من خلالِ الأقبيةِ والسراديبِ المغلقةِ.

قـالَ عاطف «الذي أَصبـحَ فيما بعدُ عُضوًا بالهيئةِ العُليا لحزبِ الوسـط»: وكأَنَّكَ تَسـتَعِيدُ يـا صَدِيقي قَولَ لامارتـين: «أيُّ قيمةٍ للفَضِيلـةِ إذا لم تُوجَدْ حُرِّية!».

قلـتُ لـه: لامارتـين!! لو سَـمِعُوكَ لَقالُـوا إنَّـكَ صَبَـأْتَ وأَصبحْتَ من الليبراليينَ أو العِلمانيّين، وساءَ أُولئكَ رَفيقًا، ثم اسْتَطردْتُ وأَنا أُغالِطُ نَفسِي: ولكـنْ هَـلْ يطُاوِعُنـي قَلبي عَلى أَنْ أَتـركَ جماعـةً أَحبَبْتُها.. أتَركُها والفَسـادُ يَعشّـشُ في رأسِـها ويَضربُ بجذورِهِ في أَطنابِهـا.. لكَ أنْ تعَـرِفَ أنَّ العديدَ مِـنَ الإخوانِ النُّبهاءِ من أصحابِ العقولِ النـيّرةِ والقلوبِ المضيئةِ يُجاهِدُونَ داخـلَ الجماعـةِ حتَّـى لا تُصبِحَ خاويةً على عُروشِـها بلا مُصلِحِـيْنَ... فَلماذا أَترُكُهم وحدَهم؟ أكونُ حينئذٍ قدْ تَخلّيْتُ عنهم.

قالَ وقد نَفِدَ صَبرُه: يا سيِّدي.. الإصلاحيُّون لا يَستطِيعُونَ التَّنفُّسَ داخلَ جماعةِ «كَتْمِ النَّفَسِ» هذهِ.. عبدُالمنعم أبو الفتوح يَظنُّ أنه يستطيعُ الإصلاحَ ويُحاوِلُ أن يَجمَعَ معَه جيلَ الوَسطيِّينَ مثلَ إبراهيم الزعفراني وآخرِينَ ولكنَّهم جميعُهم يَعيشُونَ على وَهْمٍ لن يَتحقَّقَ.. إنَّ الفريقَ الذي سَرقَ الجماعةَ يقومُ بدَورِه بنَجاحٍ مَلحوظٍ وهم يَسحبُونَ حاليًّا كلَّ الملفَّاتِ التي كانَ أبو الفتوحِ مَسئُولًا عنها، أَصبحَ عبدُالمنعمِ الآنَ يَجلِسُ في الجماعةِ بلا عمل.. وأَظنُّ أنَّهَ سيَستيقِظُ ذاتَ يوم من حُلْمِ الإصلاحِ هذا على قطارِ الإخوانِ وقدِ ابْتعَدَ عنهُ وتَركَه وَحيدًا بلا جماعةٍ.

تأَمَّلْتُ قَولَهُ وانْتابَتْني لَحظةُ صَمْتٍ وسُرعانَ ما قَطعْتُها قائلًا: أُصَدِّقُكَ القولَ.. لقد كُنْتُ أشعرُ منذُ آمادٍ طويلةٍ أنَّ هذهِ الجماعةَ سِجنٌ وقيودٌ وأنا السجينُ الذي لا يَستطيعُ أنْ يَحبوَ إلى حرّيتِه.. ثقيلةٌ هي قيودي... نَدَّتْ عنِّي ابتسامةٌ ساخرةٌ وأنا أقولُ: أخشَى أنْ أكونَ قد أدمنْتُ السجنَ والسَّجَّانَ.

الآنَ وبعدَ سنواتٍ عديدةٍ من يوم الخروجِ من الجماعةِ أَجلِسُ في غرفةِ مكتبي وَحيدًا أَخطُّ هذهِ الذِّكرياتِ، أذكرُ آخرَ لقاءٍ جَمَعَنِي بالمستشارِ مأمونِ الهُضَيْبِي، كانَ ذلكَ في غُضونِ عامِ 2002 صَدَمَنِي الرجلُ بكلماتِه الجافَّةِ الخشنةِ، أهكذا يكونُ الدُّعاةُ!! كانَ اللقاءُ قد دفعَنِي إليهِ الدكتورُ عبدُالمنعم أبو الفتوح من أجلِ تخفيفِ حدَّةِ الهجومِ ضدِّي داخلَ الجماعةِ، كانَ من المفترَضِ وُفقًا لما وَقَرَ في يقيني أنَّ لقائي بالمستشارِ مأمونِ الهضيبي سيكونُ ثريًّا لـه قيمتُه.. فالرجلُ يحملُ فوقَ كتفيه تاريخًا ويختزنُ في مكنونِ ذاتِه كمًّا متنوعًا من المعارفِ القانونيةِ والخِبْراتِ السياسيةِ والتنظيميةِ.. إلاَّ أنني تذكّرتُ عندَ لِقائي الأخيرِ معَه ذلكَ المَثلَ العربيَّ الذي يقولُ: « أنْ تَسمَعَ بالمُعَيْدِيّ خيرٌ من

أَنْ تـراه».. ويَبدُو أنَّ معارفَ الإنسانِ وخِبْراتِه قد تكونُ عِبئًا عليه أو يكونُ هو عبئًا عَليها إنْ لم تكنْ له بصيرةٌ وسِعَةُ أفقٍ، كذلكَ الجَواهِريُّ الذي وَهَبَهُ اللهُ ذهبًا وجواهرَ نفيسةً فقذفَها في اليمِّ إلى غيرِ رَجْعةٍ!

كانَتِ العديدُ مِنَ اللّقاءاتِ الإخوانيةِ التنظيميةِ قد جمعَتْني بالمستشارِ الهُضَيْبي سابقًا إلاَّ أنه في الغالبِ الأعمِّ كانَ قليلَ الكلامِ يَميلُ إلى الاستماعِ ولا يُعقِّبُ إلاّ بكلماتٍ قليلاتٍ... وكانَتْ معظمُ الحِواراتِ التي جَمَعَتْنا تَدورُ في مُجمَلِها حولَ شُئونٍ تنظيميةٍ وحَرَكيّةٍ لا علاقةَ لها بالفِكْرِ، كما لم تكُنْ لها علاقةٌ بالإنسانياتِ والمشاعرِ، لذلكَ لم تُتَحْ لي الفُرصَةُ كي أختبرَ عن كَثَبٍ بصيرةَ هذا الرجلِ وقلبَه، إلاَّ أنَّني لاحظْتُ من خلالِ خِبْرتي في التعاملِ معَهُ كَما لاحظَ آخرونَ أنَهُ يتّسمُ بضِيقِ الصّدرِ وسُرعةِ نَفادِ الصَّبْرِ.

كانَ لقائي مَعَهُ هو خاتمةَ قِصّتي معَ الجَماعةِ، حينَ تكلَّمَ ظَهرَتْ على قَسَماتِ وَجْهي مخايلُ الدهشةِ حتى إنّني كِدْتُ أهزُّ رأسِي لأُعيدَ عَقلي إلى مكانِهِ المعهودِ، هَممْتُ بالوُقوفِ للانصرافِ، فَدَفَقاتُ الكلامِ الذي خَرَجَ من فَمِهِ يُوحِي بأنه كانَ يعيشُ في مَرحلةٍ ذهنيةٍ متأخّرةٍ.

أشَارَ لي بيدِهِ يَأمُرني بالجلوسِ وهو يَقولُ: اُقعُدْ.. اقعدْ.. هَلْ تظنُّ أنَّ «دُخولَ الحَمّامِ كما الخروجِ منه».

جَلسْتُ وأنَا أقولُ في نَفسِي بعدَ أنْ غالبتُ ابتسامةً طَفَتْ على سَطْحِ وَجْهِي «ما دامَ الرجلُ يَعتبرُ بيتَه حمامًا فكانَ مِنَ المفروضِ أنْ أدخلَ بقدَمِي اليُسرى وأقولَ وأنَا داخلٌ: اللّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ الخُبُثِ والخَبائثِ».

ودونَ تمهيدٍ بادَرني بلهجةٍ يَشُوبُها الاستعلاءُ وكأنّه رئيسُ مجلس إدارةِ شَركةٍ يُخاطبُ أحدَ الموظّفينَ عندَه: أنتَ أخطأْتَ في حقِّ الجماعةِ يا ثروت.. ويبدُو أنَّكَ لم تعرِفْ ما قالَه حسنُ البنا.. قالَ نحنُ جماعةٌ انْتظَمْنا في صفٍّ واحدٍ فإذا خرجَ منّا واحدٌ، لَنْ يقولَ الناسُ خرجَ واحدٌ ولكنْ سيقولون صفٌّ أعوج. ترَكْتُه يَسترسِلُ في حَديثِه إلى أنْ قالَ: نحَنُ نَتحالَفُ معَ مَنْ يَستطِيعُ أنْ يُقرِّبَنا مِنْ دوَائِرِ صُنْعِ القَرارِ.. نَحنُ تحالَفْنا فِي الأطبّاءِ معَ حمدِي السيدِ ومعَ حسب الله الكَفراوي في المهندسِيْنَ لهذا السَّببِ.. وأيُّ شَخصٍ قريبٍ مِن دوائرِ السلطةِ العُليا ستَتَحالَفُ معَه ولن نَقبلَ أنْ يخرجَ أيٌّ واحدٍ منّا عَلى هَذا القانونِ.. هَذا هُو دُستورُ الجَماعةِ.. دستورُ الجماعةِ.. وأنتَ رجلُ قانونٍ.

انتظرْتُ إلى أنِ اسْتكملَ كلامَه ثم قُلتُ: قانونُ التّحالفِ معَ مَنْ يكونُ قريبًا من السلطةِ أظنُّ أنّهُ مِنَ الممكنِ أنْ يكونَ وسيلةً مرحليةً وليسَ دُستورًا دائمًا.

ظهرَ الضِّيقُ على وَجْهِهِ ثم قالَ بنَفادِ صبرٍ: لا تُجادِلْني.. أنتَ رَجلُ قانونٍ.. لِماذا وَضَعتِ الدولةُ قانونًا للمرورِ؟ طبعًا حتى لا تتَصادَمَ السَّيّاراتُ.. مَاذا لَوْ خالفَتْ سيارةٌ قانونَ الدولةِ وقَطعَتِ الإشارةَ الحَمراءَ؟ قَطْعًا ستَقعُ حوادثُ وستَصطدِمُ السّياراتُ بالمارةِ.. ماذا لو أقامَ أحدُهم بنايةً دونَ ترخيصٍ من الحيِّ وُفقًا للقانونِ؟ سيُصبِحُ الحالُ فوضى... هُناكَ قانونُ للعُقوباتِ.. مَنْ يُخالفُه يكونُ قدِ ارْتكبَ جَريمةً أليسَ كذلكَ؟

تَنفّستُ الصُّعَداءَ وأنَا أقولُ: لا ليَسَ كذلكَ.

مَاذا تَقصِدُ؟ قالَها مُقاطِعًا وهو يُبدِي اسْتِغرابَه.

أكملْتُ كلامي وأنا أتناولُ كِتابًا كانَ على المنضدةِ وكأنّه لم يقاطِعْني: هُناكَ موادٌّ في القانونِ يتمُّ محاكمةُ الإخوانِ بموجَبِها مثلُ المادة 86 من المدوّنةِ العقابيةِ.. وبالمناسبةِ الإخوانُ يُخالِفُونَ هذهِ المادّةَ ويرتكبونَ بمخالفتِهم هذهِ جريمةَ إنشاءِ تنظيمٍ دونَ أنْ يكونَ لهذا التنظيمِ رُخصةٌ مِنَ الْجهاتِ الرّسميّة.. فَإذا كانَ قانونُ الجماعةِ في رأيكَ يجبُ أنْ يتمَّ احْترامُه كما نَحترِمُ قانونَ المرور وقانونَ العقوباتِ فَحينئذٍ يجبُ أنْ نعلنَ عن حَلّ الجماعةِ لأنها تخالفُ قوانينَ الدولةِ لأنهَا نشأَتْ دونَ رخصةٍ كَما البناياتِ التي تُنشَأُ مِنْ غيرِ رُخصةٍ، وإلاّ لأدّتْ هذِهِ المخالفةُ إلى اصْطِدامِ السياراتِ ووقوعِ الحوادثِ وإشاعةِ حالةِ فوضى.. أليسَ كذلكَ؟

هبَّ الرجلُ وَاقِفًا وهو يقولُ بعصبيّةٍ وحِدّةٍ وهو يُشيرُ إلى البابِ: اتْفضَّلْ يا أستاذ المقابلةُ انْتهَتْ.

تَجمّعَ في ذِهني في تلكَ اللحظةِ كلُّ العمرِ الذي قَضيْتُه في الْجماعةِ وكلّ ما مرّ بي مِنْ أحداثٍ.. مَرّ شريطُ الذّكرياتِ وكأنّهُ دهرٌ ولكنّه مرّ في جُزءٍ من الثانيةِ.. رأيتُ أمامَ عينِ خيالي تلكَ المشاهدَ الرائعةَ التي شارَكْتُ فيها أو اقتربْتُ منها أو تفاعَلْتُ معَها... رأيتُ أشَخاصًا أَفذاذًا في الفِقْهِ والفَهْمِ وسِعَةِ الأُفقِ.. رأيتُ عُقولًا مَوسوعيّةً وقلوبًا نورانيّةً.. والآنَ وَاحَسْرتاه أرَى جماعةً بلا قلبٍ.. هذا هُوَ قلبُ الإخوانِ!! في مكانِهِ فراغٌ، فقد تَبخّرَ القلبُ وتَناثرَ خَلْفَ مَنْ مَاتُوا ومعَ مَنْ خَرجُوا.. اندثرَ القلبُ وضَاعَ مِنْ يدِ مَن قَلَبَ الإخوانَ إلى ناحيةٍ أُخرى... الآنَ آنَ لِي أنْ أَختارَ.. آنَ لي أنْ أَحسِمَ أمري.. أحببْتُ جماعةَ الإخوانِ ووَهبْتُها قلبي ومشاعِري وعقلي.. فَضّلْتُها

على نفسي وبَيتي وأَولادِي.. لم أَكُنْ أُحبُّها لِذَاتِها كذَلكَ المحبِّ الوَلهِ العاشقِ الذي يَتدلَّهُ حبًّا في محبوبتِهِ لذاتِها.. ولكنَّني أحببتُها لما تَرمي إليهِ.. لأنَّها دعوةُ وحِكمةٌ ووَسطيةٌ وفَهمٌ واعْتِدالٌ.. والآنَ تبَدَّلَ الحالُ فلِمَ أبقَى؟ لِمَ أَظلُّ أسيرًا في حَبائلِ تلكَ الجماعةِ التي فَقَدَتْ قلبهَا.. لمْ أَرْضَ بالأسرِ والحَبْسِ في أسوارٍ عاليةٍ تمنعُ الرؤيةَ وتَحجُبُ الرؤيا فلا خيالَ ولا إبداع؟ أينَ كنزي الذي كنْتُ أبحثُ عنه؟ أينَ الطريقُ الذي سَيَقُودُني إلى أُسطورَتي؟ أأظلُّ رَهينةً في مَحبَسِهم الوَهميِّ مُكبَّلًا بأَغلالِهم وأنَا مَنْ تَاقَتْ نفسُه إلى سماءٍ بلا قيودٍ وأرضٍ بلا حدودٍ كطائرِ الباتروس الذي يَقضِي حَياتَهُ مُحلِّقًا فوقَ مياهِ البحارِ والمُحيطاتِ؟ طِرْ أيُّها الطائرُ.. غَادِرْهُم.. اِذهَبْ إلى سَمائِكَ.. وَاحْذَرْ مِنْ أُولئكَ الذينَ سَيَقولُونَ لكَ إنَّكَ ستَطيرُ في سماءٍ ملبَّدةٍ وتَسيرُ في أرضٍ مظلمةٍ.. فالنورُ في قلبي وبينَ جَوانِحِي فعَلامَ أخشَى السَّيرَ في الظَّلْماءِ؟ عَلامَ أَخشَى الطَّيَرانَ في العَتْماءِ؟ كُنْ كَالنِّسرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ ولا تكُنْ كدودةِ الأرضِ في جُحرٍ كئيبٍ وجُبٍّ سحيقٍ.. لكَ نَظَرٌ ولكَ بصيرةٌ، فأينَ انْتِفاعُكَ بنظرِكَ ونَظْرتِكَ؟ للهِ درُّ المتنبيِّ حينَ قالَ:

ومَا انْتِفاعُ أَخِي الدُّنيا بناظِرِهِ ... إذا اسْتَوتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

قُمِ الآنَ وأَمعِنِ النَّظرَ ويَجبُ إذا نَظرْتَ أَنْ تُحسِنَ الخُروجَ كَما أَحسنْتَ الدُّخولَ.

قُمْتُ مُتثاقِلًا ثم قُلْتُ بهدوءٍ وأَنَا أَنظرُ إلى الناحيةِ الأُخرى: المقابلةُ انتهتْ قبلَ أَنْ تبدأَ.. الآنَ آنَ لي أنْ أختارَ الصَّوابَ.. أنَا الآنَ لسْتُ معَكُم في الإخوانِ.

خَرجْتُ مِنْ بيتِ المستشارِ الهُضيبي وقد عقَدْتُ العَزْمَ على الانْطلاقِ،

وحينَ وَطِئَتْ قَدَمايَ أَرضَ الطريقِ شَعرْتُ بخِفّةٍ في رُوحي، وسَعادةٍ في قَلبي، حتَّى إنَّني أَخذْتُ أَنظرُ في وُجوهِ الناسِ وأنا أَبتسِمُ ابتسامةً عريضةً، سِرْتُ في الطريقِ مُبتَعِدًا عن سَيَّارتي لا أَلوِي عَلى شَيءٍ، وكأنني أُجرِّبُ الحرِّيةَ لأولِ مرةٍ، فوَجدْتُني في مَيْدانِ الجامعِ القريبِ من بيتِ مأمونِ الهُضَيْبي، وأَمامَ جَامعِ جمالِ الدينِ الأفغاني. توَقّفتُ، لم أكنْ صَلّيتُ العشاءَ بعدُ وكانَتِ الصلاةُ قدِ انْتَهتْ وخَرجَ المصلّونَ إلى حالِ سَبيلِهم، ومعَ ذلكَ خُيِّلَ إليَّ أنَّ المؤذّنَ يرفعُ الأذانَ، وسَمعْتُه بقلبي وهو يَختِمُ الأذانَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر، لا إلهَ إلاَّ الله. تَردَّدت الشّهادةُ في قَلبي حتى ظننْتُ أنَّها كانتْ ترجُّني رَجًّا، لا إلهَ إلاَّ الله. دخلْتُ إلى المسجدِ وكانَ أولُ ما فَعلتُه حينَ دَخلْتُ أنْ سَجدْتُ للهِ ربِّ العالمين، كانَتْ هذهِ هي سجدةَ الشكرِ للهِ ربِّ العالمين، وأثناءَ صَلاتي شَعرْتُ بمَذاقٍ رُوحانيٍّ غريبٍ لم أشعرْ بهِ من قبلُ، كانَ هذا هُوَ مذاقَ الحريةِ عندمَا يَختلِطُ بالعِبادةِ، آهِ ما أروعَ عبادةَ الأحرار!

فَررْتُ بقلبي مِنْ تنظيمٍ لا يعرفُ القلوبَ ولا يأبهُ للمَشاعِرِ، إلَّا أنَّني رَأيْتُ وأنَا خارجَ قلبِ الإخوانِ أشياءَ تحارُ منها الألبابُ وتستَعْصِي عَلى التّصديقِ.

■■■

الفصل الثاني

إيكاروس

تقولُ الأسطورةُ اليونانيةُ إنَّ «إيكاروس» كانَ يعيشُ معَ أبيهِ في جزيرةِ كريت، أَحبَّ إيكاروس الطَّيرانَ، فَصنعَ لنفسِهِ أجنحةً أخذَها من الطيورِ، ولَصقَها في يديهِ بالشمعِ، ثم تهيَّأَ للطيرانِ، وقبلَ أن يطيرَ نَصَحَهُ أبوه: لا تَرتفعْ كثيرًا يا إيكاروس، لا تفكِّرْ في الوصولِ للشمسِ، فإنَّكَ إنْ وصلْتَ إليها فَقدْتَ حياتَكَ، ولكنَّ إيكاروس كانَ طَمُوحًا للمعرفةِ فلم يَستَمِعْ لنصيحةِ أبيهِ وطارَ وطارَ وطارَ محلِّقًا في الأجواءِ حتَّى اقْترَبَ من الشمسِ، اقتربَ من الحقيقةِ التي كانَ توّاقًا لها، ولكنَّ أشعةَ الشمسِ القويةَ الحارقةَ أذابَتِ الشَّمعَ وحَرقَتِ الأجنحةَ فَوقعَ إيكاروس مَيْتًا قبلَ أنْ يصلَ إلى مُبتغاه.

فَهلْ كنْتُ كإيكاروس عندمَا حاولْتُ أنْ أَصلَ للحقيقةِ في جماعةِ الإخوانِ، وهل سَأنالُ ما نالَه؟ كانَتْ رحلتي نحوَ الحقيقةِ قد بدأَتْ مُصادفةً بغيرِ ترتيبٍ مُسبقٍ، إذْ لم يَردْ في خَاطِرِي أنَّ جماعةَ الإخوانِ تُضمِرُ في نفسِها حقائقَ مُفزِعةً لا يعرِفُها مُعظمُ أفرادِها، فالأسرارُ محفوظةٌ عندَ الكَهَنةِ الكبارِ، في صندوقٍ

خَفِيّ لا يَستَطِيعُ أحدٌ أنْ يَطَّلعَ على مَا فيهِ، إذْ إنَّ العَتْمةَ التي يَعِيشُها أفرادُ الجماعةِ تَحجُبُ عنهُم نُورَ الحقيقةِ، وحينَ سِرْتُ وَراءَ بَصيصِ الضَّوءِ أراني اللهُ ما يَعجَزُ العقلُ عن اسْتِيعابهِ لأولِ وهلةٍ، فمَنْ عاشَ في العَتْمةِ زمنًا يُفاجِئُه النورُ فيَعْشِي بَصرَهُ للَحظاتٍ ويَصعُبُ على حَدقتَيْهِ استيعابُ الضِّياءِ، وقتها قد تُنكِرُ العينُ الضَّوءَ وتَستنكِرُه، وما أَصعبَ أنْ نَستنكِرَ الحقيقةَ!

اِنكببْتُ في فترةٍ من حياتي على القراءةِ عن الماسونِ والماسونيّينَ، وكانَ ممَّا قرأتُه أنَّ الأفرادَ العاديّينَ للماسونِ لا يَعرفُون الأسرارَ العُظمَى لِتنظيمِهم العالميّ، تلكَ الأسرارُ تكونُ مَخفيّةً إلاَّ على الذينَ يُؤتمَنونَ على الحفاظِ على سِرّيتِها، وتكونُ هي الهيكلَ الذي يَحفظُ كِيانَ الماسونيةِ، وعندَ بَحثِي في الماسونيةِ استَلفتَ نظرِي أنَّ التَّنظيمَ الماسونيَّ يُشبِهُ من حيثُ البناءُ التنظيميُّ جماعةَ الإخوانِ، حتَّى درجاتُ الانتماءِ للجماعةِ وَجدْتُها واحدةً في التّنظيمَيْنِ!!.

وعندَما كنْتُ طالبًا في السنةِ النهائيةِ بكليةِ الحقوقِ وَقعَ تحتَ يدي طبعةٌ قديمةٌ لأحدِ كُتبِ الشيخِ محمدِ الغزالي، وإذْ جرَتْ عيني علَى سُطورِ الكتابِ وَجدْتُه يَتحدَّثُ عن أنَّ المرشدَ الثاني حسنَ الهُضَيبي كانَ ماسونيًّا! لم تَتحمَّلْ عيني استكمالَ القراءةِ فأغلقْتُ الكتابَ ووَقعْتُ في حَيرةٍ مُرتابةٍ، كنتُ في هذهِ الفترةِ قد أحببْتُ الإخوانَ وشُغِفْتُ بتاريخِهم، وكنتُ في ذاتِ الوقتِ مُنشَدِهًا للشيخِ محمدِ الغزالي وخُطبِه وكُتبِه وطَريقتِه الثائرةِ، كانَ جيلي كلُّه يَعتبرُ الغزاليَّ إمامَ العصرِ ومُرشِدَ العقلِ، لذلكَ كانَتْ كلماتُ الشيخِ محمدِ الغزالي التي اتّهمَ فيها المرشدَ الثاني حسنَ الهُضَيْبي بالماسونيةِ بمثابةِ صفعةٍ

عَلى مَشاعِري، أيُّهما أَصدَقُ؟ الإخوانُ الذينَ طَهَّرَهُم اللهُ فأصبحُوا جماعةً «رَبّانيةً» أم الشيخَ الإخوانيَّ حتَّى النُّخاع، العالمُ الفقيهُ المجاهدَ الثائرَ المجدِّدُ محمدَ الغزالي؟ هَلِ الغزاليّ يَكذِب؟! ويَكذِبُ عَلنًا أمامَ كلِّ الناسِ!! هَلْ كانَ حَاقِدًا فأَمسَكَ مِعْولَهُ لِيهدِمَ الإخوانَ؟ أم أنّه كانَ صَادِقًا وكانَ الإخوانُ يُعلِنونَ غيرَ ما يُسِرُّونَ؟ لم تَنتهِ حَيْرتي ولكنَّني وَضَعْتُها في زاويةٍ مهجورةٍ من عَقلي، لا أقتربُ منها أبدًا ولا أتطرَّقُ إليها لا معَ نفسِي ولا معَ آخَرِيْنَ، قَرَّرتُ ألاَّ أفتحَ هذِهِ القصةَ أبدًا بمجرّدِ أنْ أغلقْتُ الكتابَ، بل إنَّني أصدرْتُ أمرًا لنفسِي ألاَّ أفتحَ هذا الكتابَ أبدًا، وكم كانَ سُروري حينَ وَضعَتْني الأقدارُ أمامَ هذا الموضوعِ نفسِه بعدَ عدةِ أيامٍ من إغلاقِي الكتابَ، وكأنَّما تأبى الأقدارُ إلاّ أنْ أُمعِنَ النّظرَ في ماسونيةِ الإخوانِ، فقَدْ دعَاني الأخُ خالد بدوي الذي كانَ أميرًا للجماعةِ الإسلاميةِ في كليةِ الحقوقِ لحضورِ ندوةٍ في المدينةِ الجامعيةِ للشيخ «إبراهيم عزَّت» الذي كانَ أميرًا لجماعةِ التبليغِ والدعوةِ في مصرَ آنذاكَ، وكانَ في ذاتِ الوقتِ مُقرّبًا مِنَ الإخوانِ بحَسْبِه كانَ في إحدَى فَترَاتِ عُمرِه عُضوًا بالجماعةِ، وبعدَ الندوةِ تلقَّى الشيخُ إبراهيم عزت سؤالًا من أَحدِ الحاضِرِيْنَ عن حقيقةِ اتّهامِ الشيخِ الغزالي لبعضِ قياداتِ الإخوانِ بالماسونيةِ؟ وكانَ ردُّ الشيخِ أنَّ هذا الكلامَ كتبَهُ الشيخُ الغزالي في ثورةِ غَضبٍ بعدَ خلافٍ بينهَ وبينَ الجماعةِ ثم إنَّه بعدَ أنْ هدأَتْ ثائرتُهُ بعدَ ذلكَ قامَ بحَذْفِ هذه العباراتِ من الطَّبْعاتِ الجديدةِ للكتابِ، بل إنَّه وقبلَ وَفاةِ الأستاذِ حسنِ الهُضَيبي زارَه وسَلَّمَ عليهِ وصَلَّى خَلْفَه، كانَتْ إجابةُ الشيخِ إبراهيم عزت مُريحةً لنفسِي إلاَّ أنهَّا لم تكنْ كافيةً؛ ذلكَ أنهَّا فتَحتْ مجالًا في عَقلي

لاتِّهامِ الشيخ الغزالي بالكَذِبِ وتَلويثِ سُمعةِ مَنْ خَالَفَه في الرأي بِغيرِ حقٍّ! ولكنَّني فعلْتُ ما انْتويْتُ عليهِ وهو أنْ يُغلِقَ عقلي معَ نفسِي بابَ النقاشِ في هذا الموضوعِ.

ومرَّتْ سنواتٌ وسنواتٌ وهَذا الموضوعُ من المحرَّماتِ التي لا يجُوزُ أنْ أقتربَ منها أو أبحثَ فيها، بل إنَّني كنْتُ أنظرُ ساخرًا لمن يَفتحُ هذا الموضوعَ وأنا أقولُ لنفسِي كيفَ يَلتقِي الدينُ معَ اللَّادينِ؟ كيفَ يلتقي الإسلامُ الذي تُعبّرُ عنهُ جماعةٌ ربانيةٌ بالصُّهيونيةِ التي تُحاربُ الإسلامَ وتحاربُ جماعةَ الإخوانِ؟ إلى أنْ تَداخلَتْ أحداثٌ كثيرةٌ في حياتي فَأخذْتُ أبحثُ عن الأصولِ الفكريةِ لجماعةِ الإخوانِ، كيفَ فكَّرَ حسنُ البنا في إنشاءِ الجماعةِ؟ ولماذا؟ وما هِي الأدواتُ التي أمسكَ الإخوانُ بتلابيبِها لكي يُحققُوا هدفَهم الأعظمَ، وقتَها وَقعَتْ تحتَ يدي مقالاتٌ كانَ الأستاذُ سيدُ قطب قد كتبَها في جريدةِ «التاجِ المصريّ» وأثناءَ بحثي عرَفْتُ أنَّ هذهِ الجريدةَ كانتْ لسانَ حالِ المحفَلِ الماسونيّ المصري!! وكانَتْ لا تَسمَحُ لأحدٍ أنْ يكتبَ فِيها من خارجِ جمعيةِ الماسونِ، وهُنا عادَ ما كتَبهُ الشيخُ الغزاليّ في كتابهِ «ملامحُ الحق» إلى بُؤرةِ الاهتمامِ، خَرجَ كتابُ الغزالي من الزاويةِ المهجورةِ داخلَ عقلي إلى أرضِ المعرفةِ، الإخوانُ والماسونيةُ!! عُدتُ إلى الكتابِ الذي كنتُ قد عَزمْتُ عَلى أنْ لا أعودَ إليهِ لأقرأَ ما كتَبهُ الشيخُ فوَجدْتُه يقولُ في كتابهِ: «إنَّ سيدَ قطب إنحرَفَ عن طريقِ البنا وأنه لم يَشعرْ أحدٌ بفَراغِ المَيدانِ مِنَ الرِّجالاتِ المقتدرةِ في الصفِّ الأولِ من الجماعةِ المسمَّاةِ الإخوانِ المسلمينَ إلاَّ يومَ قُتلَ حسنُ البنا في الأربعينَ من عُمرهِ، لقد بَدا الأقزامُ على حقيقتِهم بعدَ أنْ ولّى

الرجلُ الذي طالمَا سدَّ عجزَهم، وكانَ في الصفوفِ التاليةِ مَنْ يَصْلُحونَ بلا ريبٍ لقيادةِ الجماعةِ اليتيمةِ، ولكنَّ المتحاقدينَ الضعافَ من أعضاءِ مكتبِ الإرشادِ حَلُّوا الأزمةَ، أو حَلَّتْ بأسمائِهم الأزمةُ بأنِ اسْتَقدمَتِ الجماعةُ رَجلًا غريبًا عنها ليتولّى قيادتَها، وأكادُ أُوقنُ بأنَّ مِنْ وراءِ هذا الاستقدامِ أصابعَ هيئاتٍ سريةٍ عالميةٍ أرادَتْ تَدويخَ النشاطِ الإسلاميِّ الوليدِ فتسلَّلتْ من خلالِ الثغراتِ المفتوحةِ في كِيانِ جماعةٍ هذه حالُها وصَنَعتْ ما صَنَعَتْ، ولقد سَمعْنا كلامًا كثيرًا عن انْتِسابِ عددٍ من الماسونِ بينهَم الأستاذُ حسنُ الهُضَيبي نفسُه لجماعةِ الإخوانِ ولكنَّني لا أَعرفُ بالضبطِ كيفَ اسْتَطاعَتْ هذه الهيئاتُ الكافرةُ بالإسلامِ أن تَخْنُقَ جماعةً كبيرةً على النحوِ الذي فَعَلَتْه؟ وربما كَشَفَ المستقبلُ أَسرارَ هذهِ المأساةِ».

هذا هو نَصُّ كلامِ الشيخِ محمد الغزالي، لعلّهَ لم يَتحسَّسْ كلماتِه وهو يَكتُبُ كتابَه هَذا إلاَّ أنَّني وجدْتُني مضطرًّا ونحنُ في هذا الجوِّ الاستثنائيِّ المشحونِ مِنْ تاريخِ مصرَ إلى أنْ أتحسَّسَ الكلماتِ، ولكنْ هَلْ أنا الذي أكتبُ؟ أنا فقط أنقلُ ما كتَبه الشيخُ الغزالي، وأكتبُ تاريخَ ما لم يُنكِرْه التاريخ، هَلْ قالَ التاريخُ إنَّ حسنَ الهُضَيبي وحدَه هو الذي كانَ ماسُونيًّا؟ أو إنَّ سيدَ قطب ارتبطَ معهَم بصِلاتٍ وكَتَبَ في صُحفِهم؟ لا، مُصطفى السباعي مُراقبُ الإخوانِ المسلمينَ في سوريا كانَ ماسونيًّا هو الآخَرُ، الموضوعُ جدٌّ خطيرٍ لا شكَّ في ذلك، لا يجوزُ الدخولُ فيهِ بمجرَّدِ تخميناتٍ أو شُكوكٍ، حتى إنَّني قرَّرتُ حقيقةً أنْ لا أخوضَ في هذا الموضوعِ، ولكنْ أأتركُ أمرًا في مثلِ هذهِ الخطورةِ دُونَ أنْ أفحصَهُ وأتبيَّنَ حقيقتَهُ؟ قد تكونُ نتيجةُ البحثِ في غيرِ

صَالـح الإخوان، وقد تكونُ النتيجةُ في صالحِهـم، وفي كلتا الحالتين يجبُ أنْ يَستكشِفَ التاريخُ هذه الفرضيةَ، ما علاقةُ الإخوانِ بالماسونيةِ؟

■■■

لماذا أكتبُ هذه الذكرياتِ؟ يَلُومُني البعضُ عَليها ويقولونَ إنَّك بها تَفُتُّ عَضُدَ الجماعةِ التي تَربّيْتَ فيها، ولكنّهم لا يعلمونَ أنَّ الحكاياتِ التي نَكتبُها ولا نَكتبُهـا تُصبحُ غنيمةً لأعدائِنا، لا يعلمونَ أنّنا لا نَرتفعُ إلاّ إذا تعلَّمْنا من تجاريـبِ الحياةِ، ومن يَقُصُّ عَلينا تلكَ التجاريبُ أبـدَ الدهرِ لا أَبالَكَ يرَفَعُنا وينفعُنا.

حـينَ اختلفْـتُ مَعَ تنظيمِ الإخـوانِ، كنتُ ما زلتُ في قلبـهِ، أخذْتُ أقلّبُ الفِكـرَ، هَلْ أَنا الذي اختلفْتُ معَهم أم أنّهـم هم الذين اختلفُوا معي؟ ثم هل يُعقَلُ أن يختلفَ شخصٌ مع نصفِ مليونِ شخصٍ! كيفَ هذا؟! هَلْ همْ آلاتٌ مضبوطةٌ مـن المصنعِ على حركةٍ واحدةٍ ولَفتةٍ واحدةٍ وإيماءةٍ واحدةٍ؟! أَيُعقَلُ أن يكونَ نصفُ مليونٍ من البشرِ على رأيٍ واحدٍ وفكرٍ واحدٍ وعقلٍ واحدٍ؟! أَفَهمُ أنْ يكونَ ملايينُ البشرِ على دينٍ واحدٍ، ولكنْ حتى عالـمُ الدينِ المقدّسِ تَجِـدُ الناسَ يختلفونَ فيهِ، يختلفُ المسـلمونَ ويفكّرونَ بطـرقٍ متعددةٍ، فيكونُ مِنهم أهلُ السـنةِ والشـيعةُ والمعتزلةُ والأشاعرةُ والخوارجُ والمرجئةُ وغيرُهم، يختلفونَ في العقيدةِ، ويختلفونَ في الشريعةِ، ويَنقسِمُونَ إلى مذاهبَ، وفي داخلِ المذاهـبِ يختلفُ المذهبيّـونَ في المذهـبِ الواحدِ، ويختلفُ أصحابُ المدرسـةِ الواحـدةِ في المذهـبِ في عَـشَراتِ بـل مئاتِ المسـائلِ، بلْ إنَّ الإمامَ الشـافعيَّ

اختلفَ معَ نفسِه فكانَ في شطرٍ من عُمرِه على فِقهٍ معيَّنٍ، وفي الشطرِ الثاني كانَ على فقهٍ آخرَ، وكذلكَ المسيحيَّةُ انقسمَ أهلُها إلى فِرقٍ وطوائفَ، اختلفُوا في فَهْمِ ذاتِ اللهِ وطبيعتِهِ فكانُوا طرائقَ عدّةً، هذهِ هي طبيعةُ البشرِ، طَبيعتُهم التي فَطرَهُم اللهُ عَليها هي الاختلافُ؛ لذلكَ قالَ سُبحانَه وتعَالى في القرآنِ الكريمِ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ثم قالَ: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

المجموعةُ التي لا يَنبغي لهَا أنْ تختلفَ أو تخالفَ رأيَ القائدِ هي الكتيبةُ العسكريةُ التي تخرجُ في عمليةٍ قتاليةٍ، في وَسطِ أجواءِ القتالِ لا يجوزُ أنْ يكونَ هناكَ أكثرُ من رأيٍ أو أكثرُ من قرارٍ، ولكنْ أينَ هذا من حياتِنا المدنيّةِ؟ لذلكَ بلغَ اسْتِغرابي مَداهُ عندمَا وَصَفَني بَعضُهم قبلَ أنْ أتركَ الجماعةَ بأنّني نَغمةُ نشازٍ وَسطَ سيمفونيةٍ موسيقيةٍ إخوانيةٍ، إذْ تَصوَّرتُني درجةً من درجاتِ السُّلَّمِ الموسيقيِّ التي لم يَستطعِ الموسيقارُ أنْ يَضعَها في موقعِها المناسبِ من السيمفونيةِ، فإذا بالموسيقارِ ينَهالُ لوَمًا عليها ويُقرّرُ الاستغناءَ عنها، فَلْتَسقُطْ هذهِ النَّغْمةِ!! ومعَ ذلكَ فإنَّ السيمفونيةَ الموسيقيةَ التي يُؤلّفُها البشرُ تقومُ على توظيفِ الاختلافِ لا الاستغناءِ عنه، ولا تُصبحُ السيمفونيةُ رائعةً إلاّ بمقدارِ الاختلافِ المُبدِعِ الذي تُنتِجُه قريحةُ الموسيقيِّ المبدعِ بينَ النَّغَماتِ ودَرَجاتِ السُّلَّمِ الموسيقيّ، ولكنّني في كلِّ الأحوالِ أَرفضُ أنْ أكونَ نَغْمةً في سيمفونيةٍ يُديرُها إنسانٌ، أنَا إنسانٌ، لي عقلي وفكرِي وقلبي، مَنْ أرادَ أنْ يَتعامَلَ مَعِي عَلى ذلكَ فأهلًا وسَهلًا، ومن لم يُردْ فهو وشَأنُه، العازفُ الذي يَجلسُ في الفرقةِ الموسيقيةِ لا يَستطيعُ أنْ يُحرّكَ آلتَه الموسيقيةَ إلاَّ إذا أشارَ له

المايسترو بذلك فإذا لم يُشِرْ له كانَ عليهِ أنْ يظلَّ ساكنًا، وأنا لسْتُ كذلكَ، فَقدِ اكتَشفْتُ عندَما احْتَدَمَ خِلافي معَهم أنَّني أُحِبُّ العَزفَ المُنفرِدَ.

■■■

تَنقسِمُ جمَاعةُ الإخوانِ من حيثُ الهيكلُ التنظيميُّ إلى مناطقَ وأقسامٍ، يَعملُ الأخُ في الإخوانِ من خلالِ منطقِته، ويَعملُ كذلكَ من خلالِ أيِّ قسمٍ من الأقسامِ، وأشهرُ أقسامِ الإخوانِ هي قسمُ الطَّلبَةِ وقسمُ المِهنيّينَ وقسمُ أساتذةِ الجامعاتِ وقسمُ الدعوةِ وقسمُ التربيةِ وقسمُ الأَخَواتِ الذي تمَّ تَفعيلُه حَديثًا، وظلَّتْ بعضُ الأقسامِ بعيدةً عن عيونِ أفرادِ الجماعةِ لا يَعرِفُ عَنها أحدٌ شَيئًا، وكانَ أخطرُ هذهِ الأقسامِ وأكثرُها أهميةً هو قسمَ «الوَحْدَاتِ» وهو الخاصُّ بأنشطةِ الإخوانِ داخلَ الجيشِ والشرطةِ.

كانَ القسمُ الذي باشَرتُ فيه نشَاطي داخلَ الجماعةِ هو قسمُ المهنيّينَ وكانُوا يعتَبِرُونَني أنشَطَ أفرادِ هذا القسمِ وأكثرَهم تأثيرًا خاصةً فيما يتعلّقُ بالانتخاباتِ ودُروبها ومَسالكِها وخُططِها، ولأنَّ قسمَ المُحامِيْنَ الذي هو أحدُ فروعِ قسمِ المهنيّينَ كانَ أكثرَ أقسامِ الجماعةِ إثارةً للجَدَلِ لَدى الرَّأيِ العامِّ، فقد كانَ بطبيعةِ الحالِ أكثرَ الأقسامِ إجهادًا للجَماعةِ، فَقَدْ كانَ البعضُ يَعتبِرُ أنَّ قِسمَ المحامينَ يعدُو بخطًى واسعةٍ تتَجاوزُ خُطَى الجماعةِ، حتى أنَّه لمَّا فَرضَ النِّظامُ على نِقَابةِ المحامينِ ما يُعرَفُ بالحراسةِ القَضائيّةِ لم يَسكُتِ القسمُ ولم يقبلْ هذِهِ الحراسةَ صاغرًا بل ثارَ عليها بكلِّ الوسائلِ المُمكِنةِ، واسْتَطاعَ المحامونَ الذين يَنتَمونَ للإخوانِ التحالفَ معَ كلِّ القُوى السياسيةِ الفاعلةِ في

النِّقابةِ من أجلِ إنهاءِ هذِه الحراسةِ، وبعدَ أَنْ نَجحَتْ مَساعِي المحامينَ وصَدَرَ حكمٌ قضائيٌّ نهائيٌّ برفعِ الحراسةِ عن النِّقابةِ قرَّرَ قسمُ المهنيّينَ أنْ يَعقِدَ اجتماعًا لمناقشةِ هذِه التطوُّراتِ، وتَسرَّبَ خبرُ هذا اللقاءِ للجهاتِ الأمنيةِ.

تقريرٌ من مُرشِدٍ سرّيّ إلى مباحثِ أمنِ الدولة: «سيتمُّ عَقدُ اجْتماعٍ لِقسمِ المهنيّينَ في الإخوانِ في مَقرِّ جمعيةٍ هندسيةٍ إسلاميةٍ تابعةٍ لِنقابةِ المهندسينَ، مَقرُّها في المَعادِي، وسيَحضرُ الاجتماعَ كلٌّ مِنْ، محمد بديع، مختار نوح، خالد بدوي، مدحت الحداد، سعد زغلول العشماوي و، و، و، وسيكونُ الاجتماعُ في منتصفِ أكتوبرَ عامَ 1999». أي في عامِ ألفٍ وتسعمئةٍ وتسعةٍ وتسعين

وكانَ أنْ تمَّ القبضُ عليهم وإحالتُهم إلى نيابةِ أمنِ الدولةِ التي أَجرَتْ معهَم تحقيقاتٍ قضائيةً موسَّعةً، ولأنَّكَ في مدينةِ الإخوانِ قد يَستغلِقُ عليكَ الفهمُ أَحيانًا فقد بَدوْتُ كرجلٍ عَييٍّ بَطيءِ الفهمِ وأنا أَرى أَنَّ ردَّ فعلِ الجماعةِ على المستوَى الإعلاميِّ والسياسيِّ لهذِه القضيةِ رديءٌ بطيءٌ، وحينَ وَجدْتُ وأنا أضرِبُ كفًّا على كفٍّ أنَّ الجماعةَ لم تُلْقِ بالًا لهذِه القضيةِ، أَخذتُ أَبحثُ عن سرِّ هذا التهاونِ، فالمُستغرَبُ أنَّ بعضَ المقبوضِ عليهم كانُوا من كبارِ قياداتِ الجماعةِ، فمِنْهُم الدكتورُ محمد بديع عضوُ مكتبِ الإرشادِ وقتَها ومرشدُ الإخوانِ فيما بعدُ، ومنهُم أَيضًا الدكتورُ محمد بشر عضوُ مكتبِ الإرشادِ، والأستاذُ مختارُ نوح مسئولُ قسمِ المحامينَ بالجماعةِ وغيرُهم، إلّا أنَّني لم أَصِلْ في الأشهرِ الأُولى للقضيةِ إلى شيءٍ، فقدْ شَغلَتْني الأحداثُ عن تَتبُّعِ «حقيقةِ الإعراضِ».

كانَ مِنَ المجهدِ لي ذهنيًا ذلكَ الفُتورُ الباردُ الذي وَجدْتُ الإخوانَ عليهِ وقتئذٍ، فقد صَنَعُوا لأنفسِهم أُذنًا من طينٍ وأذنًا من عجينٍ؛ لذلكَ أَخذْتُ أدفعُ قِسمَ المحامينَ إلى القيامِ بدورٍ فاعلٍ ومؤثّرٍ، وكانَ الدكتورُ محمدُ بديع وإخوانُه في السجنِ يُرسِلُونَ لي رسائلَ شِبْهَ يوميةٍ يَطلبُونَ فيها مِنّي أَنْ أتحرّكَ معَ المحامينَ على المُستوى السّياسيّ والقانونيّ بعيدًا عَنْ أقسامِ الجماعةِ الرسميَّةِ التي رَأَوا أنها خَذلَتْهُم، كانَتْ رسائلُهم لي تَقطُرُ حُزنًا وأَسىً من إخوانِهم في اللهِ الذينَ تركُوهم بلا اهْتِمامٍ، حتّى إنَّ مكتبَ الإرشادِ عندَما قرّرَ تخصيصَ مرتّبٍ شَهريٍّ لأُسرِ الإخوةِ المَحبُوسِيّنَ، أَغدَقَ على البعضِ وحَرَمَ البعضَ الآخرَ!! كانَ شهرُ أكتوبرَ منْ عامِ 1999 هو الشهرَ الذي تمَّ القبضُ فيهِ على الإخوانِ في هذهِ القضيّةِ، وكانَ شهرُ الخريفِ هو الشهرُ الذي أَسفرَ عن بَصِيصِ الضوءِ الذي تَتبّعتُه لِأَصِلَ إلى صندوقِ الأسرارِ، وفي مُنتَصَفِ شهرِ نوفمبرَ من نفسِ العامِ صَدَرَ قرارُ رئيسِ الجمهوريةِ بإحالتِهم للمحكمةِ العسكريةِ، وكانَ قرارُ الإحالةِ هذا على غيرِ ما أَنبأنَا بهِ الوُسَطَاءُ!! لذلكَ كانَ وَقْعُه على نَفسِي مُؤلمًا جَارِحًا، وبعدَ يومٍ من قرارِ الإحالةِ للمحكمةِ العسكريّةِ عَقَدْنا في قسمِ المحامينَ بالجماعةِ اجْتِماعًا في مكتبِ الأخِ بهاءِ عبدِالرحمن المحامي عضوِ مجلسِ نِقابةِ المحامينَ عَنِ الإخوانِ المسلمينَ، كانَ لهذا الاجتماعِ ضرورةٌ قُصوى، فالقضيّةُ تمَّ إحالتُها للقضاءِ العسكريِّ ولهذا الأمرِ مَغزاهُ عندَنا، وكانَ هَذا الأمرُ يَعنِي أنَّ كلَّ جُهودِ الوُسَطاءِ قد فَشِلَتْ وذهبَتْ أدراجَ الرياحِ، وكانَ يجبُ أنْ يجتمعَ قسمُ المحامِيْنَ لِينَظُرَ ماذا سيَفعلُ في الأيامِ القادمةِ على مُستَوَى كافةِ الأصعدةِ، هَلْ سنسَتمرُّ في طَرْقِ أبوابِ

الوَسَطاءِ، أَمْ سَنَلجأُ للمُنظَّماتِ الحقوقيَّةِ العالميّةِ أم سنلجأُ للقُوى السياسيةِ الليبراليةِ والاشتراكيةِ والناصريةِ والعِلْمانيةِ لنَتدثَّرَ بها كي نَبدُوَ أمامَ المجتمعِ العالميِّ في صورةِ القوةِ السياسيةِ المُضطَهَدةِ والتي يُؤمنُ بقضاياها كلُّ ألوانِ الطَّيفِ السّياسيِّ في مصرَ فيُعطِي هَذا ثِقْلًا لِتحرُّكاتِنا؟ أم أنَّنا سنفعلُ كلَّ هَذا وغيرَه أيَضًا، وكانَ اختيارُ مكتبِ بهاءِ عبدِالرحمن كمقرٍ لهذا الاجتماعِ على أساسِ أنَّ مساحةَ مكتبهِ كبيرةٌ كما أنه في منطقةٍ مُتميّزةٍ في «وَسطِ البلدِ» وكانَ بهاءُ قد حَصَلَ على هذا المكتبِ بوساطةٍ مِنَ المحامي النّقابيّ الشهيرِ المرحومِ عِصمَت الهواريّ الذي كانَتْ ترَبطُه به صِلاتٌ قويةٌ، وقد كانَ هذا المكتبُ في يومٍ من الأيامِ مكتبًا للدكتورةِ سميحةِ القليوبي أستاذِ القانونِ التجاريِّ بحقوقِ القاهرةِ والتي كانتْ أيَضًا عُضوًا بارزًا في الحزبِ الوطنيِّ.

ومن تَصاريفِ القَدَرِ أنَّ بهاءَ عبدِالرحمن كانَ مِنَ الإخوةِ الذين كانَ مِنَ المفترضِ أنْ يحضُروا الاجتماعَ الذي تَمَّ القبضُ فيهِ على الدكتورِ بديع وإخوانِه ولكنَّه حَضَرَ متأخِّرًا، كانَتْ طبيعةُ بهاءِ الشخصيةُ هي الحضورَ متأخرًا في كلِّ اللِّقاءاتِ، وكانَتِ الدُّعابةُ التي نُداعبُه بها حينَ نُكلِّمُه على الهاتفِ نَستفسِرُ منهُ عن سببِ تأخِيرِه في الحضورِ في أيِّ اجتماعٍ أنْ نقولَ له قبلَ أنْ ينبسَ ببِنْتِ شَفَةٍ: أنتَ الآنَ على كُوبري أكتوبر والكوبري عليهِ حادثٌ يُعرقِلُ حَركَةَ المرورِ وإنَّكَ عَلى وَشْكِ أنْ تتجاوزَ مكانَ الحادثِ. فيَضحَكُ قائلًا: هو كذلكَ. وكانَ مِنْ حُسنِ طالعِ بهاءَ أنِ اصْطَحَبَ معَهُ لحضُورِ هَذا الاجتماعِ المَشئومِ الأخَ أحمدَ ربيع فأصبحَ التأخيرُ حَتميًّا، وحينَ اقْتَربَ أحمدُ وبهاءُ من مقرِّ الاجتماعِ وَجَدا حركةً غريبةً في الشارعِ وشَاهَدا قُواتِ الأمنِ تحيطُ

بالمكان فقرّرا الانصراف، ومن الغرائب أن اقترب منهما ساعتئذ بعض الجنود وألقوا القبض عليهما، وأخذوا منهما بطاقتي تحقيق الشخصية الخاصة بهما ووضعوهما بالفعل في «البوكس» إلّا أنّ أحد الضبّاط جاء مسرعًا من السيارة وقال للجنود: منْ هؤلاء؟ قالوا: وجدْناهما يسيران بالقرب من المقرّ يا فندم، فقال للجنود: (بلاش مضيعة وقت، انزلْ يا أستاذ انت وهو، فارْقونا). فأسرع بهاء وأحمد في الانصراف وبهاء يقول للضابط: (طيّبْ وبطاقات الشخصية يا فندم؟) وأخذ يكرّرها وأحمد يلكزه في جانبه ليُسرع في الانصراف وهو يقول له: (طلّعْ بدلْ فاقدْ يا بهاء وما تودّيناش للدّاهية تاني) ونجا بهاء وأحمد من عمليّة القبض هذه ليكون لنا أنْ نعقد هذا الاجتماع في مكتبه.

مكتب بهاء عبدالرحمن يقع في منطقة عابدين وهو مكتب متّسع الحجرات والرّدْهات، بدأتْ وفود الإخوة تهل على المكان حتى اكْتمل الجمع في الساعة العاشرة صباحًا، وحين بدأتْ وقائع اجْتماعنا تحدّث الأستاذ محمد طوسون عضو الجماعة وقال إنّ الدكتور محمد بديع المحبوس في القضية طلب من القسْم تشكيل لجنة إخوانية تكون مهمّتها إدارة معركة هذه القضية من الناحيتيْن السياسية والقانونية، واقترح الأستاذ طوسون أنْ يكون اسم هذه اللجنة هو: «لجنة إدارة الأزمة» وأنْ تكون بالانتخاب وُفْقًا للائحة قسم المحامين، أخذ كلّ واحد من الإخوة يدلي برأيه في الاقتراح، وتحدّث كلّ ممثّلي المحافظات، كان كلام الجميع حماسيًّا إلّا أنّني لاحظْتُ أنّ كلام المشاعر كان خطابيًّا بليدًا كأنّه منْ تماثيل الشمع التي تشبه الحقيقة ولكنّها ليستْ هي، نظرْتُ للإخوان الذين يتحدّثون وكأنني أنظر إلى التماثيل التي تزيّن أروقة متحف «مدام تيسو»

للشمع في لندن!! تخيّلتُ أنني أقتربُ من حماسِهم المتدفق لألمسَهُ وأتبيّنَ حقيقتَهُ فإذا بي أكتشفُ أنه بلا حياة، مزيفونَ، كلّهم مزيّفونَ، إلاّ هُو، شعرْتُ بصدْقِهِ وحَرقةِ قلْبِهِ، أحمد ربيع غزالي... كانَ أحمد ربيع يتولّىَ مسئوليةَ قسمِ الأشبالِ بجماعةِ الإخوانِ في محافظةِ الْجيزةِ، وكانَ عُضوًا بمجلسِ شُورى الجماعةِ وأمينًا لصُندوقِ نِقَابةِ المحامين بالْجيزةِ، كانَ هو أَعلَى الموجوديْنَ في رُتبتِهِ الإخوانيةِ، وشَعرْتُ أنه أَعلاهُم في رتبتِهِ الإنسانيةِ، والحقَّ أنني لم أكنْ من أصدقاءِ أحمد ربيع المقرّبيْنَ، ولذلكَ لم أكنْ أَراهُ كثيرًا قبلَ وقائعِ هذهِ القضيةِ، ولكنّني كنْتُ أشعرُ بنفسِي تهفُو إليهِ دُونما سببٍ ظَاهرٍ، ولَكأنّما كانَتْ جرْأتهُ في الحقِّ هي سببَ انْشِداهي له، ولربّما كانَ صِدقُه هو الرابطةَ التي أوصلَتْه لِفُؤادي، وأَشهدُ أنّني لم أكنْ أراهُ من قبلُ إلاّ مِنْ خلالِ ضَوءٍ ضعيفٍ، هو ضَوءُ «الروابطِ الإخوانيّةِ» وهو أخفَتُ مِنْ ضَوءِ الشمعةِ، وضوءُ الشمعةِ لا يَكفِي لكي تَكتشِفَ الجمالَ الإنسانيَّ فيمن تُحبُّهم.

وعَلى آخرِ النهارِ تمّتِ انتخاباتُ «لجنةِ إدارةِ الأزمةِ»، وانتخاباتُ الإخوانِ لها طبيعةٌ خاصّةٌ، فَلا يجوزُ فِيها أنْ يتقدَّمَ أحدٌ للترْشيحِ، ولكنَّ الكلَّ ينتخِبُ، والكلُّ مُرشّحٌ، وأسفرَتِ الانتخاباتُ عن فوزي برئاسةِ لجنةِ الأزمةِ «بالإجماعِ» ما عَدا صَوتي أنا فقَد ذَهبَ لأحمد ربيع، ونَجَحَ في عضْويةِ اللجنةِ تسعةُ أعضاءٍ كانَ منهُم أحمد ربيع وبهاءُ عبدالرحمن وجمالُ حنفي عضوُ مجلسِ الشعبِ فيما بعدُ وبعضُ أفرادٍ آخريْنَ، وأخذَتِ اللجنةُ بعدَ ذلكَ دورَها في إدارةِ الأزمةِ، ويبدُو أنَّ هذهِ اللجنةَ كانَتْ مَصدَرَ قلقٍ للجماعةِ، وكانَ الذي أثارَ انْدِهاشِي أنَّ الأستاذ محمد طوسون عندَما رَأى

السُّرعةَ التي نَسِيرُ بها لِنصرةِ إخوانِنا كانَ يَقولُ لي ولأحمد ربيع مُستنكِرًا وقد اشتدَّ بهِ الحَنَقُ: لماذا هَذا الحَماسُ؟! هذهِ لِيسَتْ أولَ قضيةٍ يتمُّ حَبسُ الإخوانِ فِيها، خَفِّفا عَنكُما فقدْ يكونُ حَبسُهم فيهِ مصلحةٌ لِلْجَماعةِ!!

■■■

في إحدى الجَلَساتِ الهامةِ بالمحكمةِ العسكريةِ التي انْعقَدَتْ لمحاكمةِ النِّقابيينَ الإخوانِ تَذكَّرْتُ واقعةً خطيرةً كانَتْ قَدْ حَدثَتْ عامَ 1995، كانَ النظامُ قد قَبضَ على عددٍ كبيرٍ من الإخوانِ ما بينَ عامَيْ 1995، 1996، وكانَ المقبوضُ عليهم مِنْ أعلى قِياداتِ الجماعةِ، فمنهُم عِصامُ العَرْيانِ وخَيرتُ الشاطرِ وعبدُالمنعمِ أبو الفتوح وعبدُالحميدِ الغزالي ولاشين أبو شنب وجمعة أمين ورشادُ البيومي ومحمدُ حبيب ومحمود عزت ومهدي عاكف وإبراهيمُ الزعفراني وسَعدُ الحُسيني، وحسنُ الجمل والسيدُ النزيلي ومحسنُ راضي ومُحيي الزايط وحِلمي الجزّار وأبو العلا ماضِي وآخَرونَ وأَخذَتْ هذِهِ القَضايا أرقامَ 8، 11 لسنة 1995، 5 لسنة 1996، وكانَ الدكتورُ محمدُ سليم العوا هو رئيسَ هيئةِ الدفاعِ ومعَه مختارُ نوح الذي كانَ مُنسِّقًا لهيئةِ الدفاعِ، وقتَها قامَ الإخوانُ باسْتِقدامِ عددٍ من المحامينَ الإنجليزِ لحضورِ جَلَساتِ المحاكماتِ بصِفتِهم مُراقبيْنَ، وكانَ مَنْ حَظِّي أنْ كنْتُ مُكلَّفًا مِنَ الإخوانِ معَ بعضِ المحاميْنَ الإخوانِ بمُرافقةِ هَذا الوفدِ، كانَ الدكتورُ العوا هو الشخصَ الوحيدَ الذي كانَ مؤهَّلاً للتَّعامُلِ معَ هَذا الفريقِ، أمَّا نحنُ فَقدْ كنَّا مجرَّدَ رُفقاءَ طريقٍ، فالدكتورُ العوا لَديهِ كلُّ تفْصِيلاتِ القَضايا

بحسبِ مَوقعِه في رئاسةِ فريقِ الدِّفاعِ كما أنَّه يجيدُ الإنجليزيةَ إجادتَه للعربيةِ، وفي هـذهِ الفترةِ عَرفْتُ مِنْ خلالِ أحـدِ الإخوةِ المقرّبينَ مِنَ الدكتورِ العوا أنَّه أي الدكتـورُ العوا تَدخَّلَ سِياسيًّا للصُّلْحِ بينَ جماعةِ الإخـوانِ والنِّظامِ، كانَ هدفُ الدكتورِ العوا مِنَ الوَساطةِ للصُّلْحِ أنْ يتيحَ للحركةِ الإسلاميةِ مساحةً كبيرةً في الحركـةِ الدَّعَويةِ، فالدَّعوةُ هي الوسـيلةُ الإنسـانيّةُ الرفيعةُ التي مِنْ شَأنِها الارتقاءُ بمَفاهيمِ وقِيَمِ الناسِ، وتَرشـيدِ سُـلوكيَّاتِهم، وبالدعوةِ تَقومُ الحضاراتُ، فما مِنْ حَضَارةٍ إلاّ ولها دعَوةٌ ودُعاة.

طلَبَ الدكتورُ العوا مقابلةَ اللّواءِ عُمر سـليمان مدير المخابرات فحدَّدَ لَهُ الأخـيرُ مَوعِدًا، وفي الاجتماعِ عَرضَ العوا الوَسـاطةَ في الصُّلْحِ، فَوافقَ عمر سـليمان، إلاَّ أنَّه اشْـتَرطَ عدةَ شُروطٍ، منها أنْ يَمتنِعَ الإخوانُ عَنْ خَوضِ أيِّ انتخاباتٍ نِقابيّةٍ أو بَرلمانيةٍ لمدةِ خَمسِ سَنَوَاتٍ، عَلى أَنْ يُتيحَ لَهُمُ النِظامُ مِساحةَ حركـةٍ مِن خلالِ المسـاجدِ، فَإذا وَافقَ الإخوانُ على هـَذا الشَّرطِ يَتمُّ الإفراجُ عَـنْ كلِّ المحبوسـينَ الإخوانِ، كانَ هذا العَرضُ مُرضِيًـا للدكتورِ العوا، ظَنَّ وقتَها أنَّ قياداتِ الإخوانِ ستُوافقُ على هَذا العَرْضِ وسَتُرحِّبُ بهِ أيَّما تَرحيبٍ، فَهِـي فُرصةٌ نادرةٌ لا تَتكرَّرُ، وقبلَ أَنْ يُغادِرَ العوا مكتبَ عمر سـليمان قالَ لهُ هـذا الأخيرُ: عَلى فكـرةٍ يا دكتور.. الإخـوانُ لَنْ يُوافِقُوا عَـلى هَذا الْعَرضِ، مأمونُ الهُضيبي سَـيَرفضُ بشِـدّةٍ... ويَبدُو أنّ الدكتورَ العوا أصابَتْه حالةٌ مِنَ الاندهاشِ عندَما جَاءَ لَهُ ردُّ المستشارِ الهُضَيبي قَاطِعًا برَفْضِ العَرْضِ!! كيفَ يَرفُضُ الهُضَيبي اتّفاقًا كهذا، وأنّى لِعمر سليمان أَنْ يَعرِفَ الرَّفضَ مُسبَقًا! إلاَّ إِذَا كَانَ صُندوقُ الأَسرارِ لا يَزالُ يَرفضُ البوحَ بأَسرارِه.

جَرتْ هذهِ الذّكرياتُ في خَاطِري وأنَا في المحكمةِ العسكريةِ أَنتظِرُ معَ بَاقِي المُحامِيْنَ مشَاهدةَ شَريطِ الفيديو الذي سَجَّلَتْه مَباحِثُ أَمنِ الدولةِ لِلمُتَّهمِيْنَ لحَظةَ القَبضِ عليهم في الاجتماعِ الذي عَقدُوه بالمَعادي، انعقدَت الْجلسةُ برئاسةِ اللواءِ أحمد الأنور، وبعدَ الإجراءاتِ القانونيةِ الأُولى تمَّ استدعاءُ شَاهدِ الإثباتِ الأولِ الذي كانَ ضَابطًا بِمَباحثِ أمنِ الدولةِ ومَسئولَ قسمِ الإخوانِ بالْجهازِ وكانَ اسمُه الحركيُّ عاطف الحسيني، وكانَ مِنَ المعروفِ عَنْ عاطف الحسيني أنّهَ يَعرِفُ كلَّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في الإخوانِ ويَحفَظُ وُجوهَ أفرادِهم فرَدًا فرَدًا، قامَ عاطف الحسيني بتَشغِيلِ شَريطِ الفيديو وبَدأَت الصُّورةُ تَظهرُ على شَاشةِ التلفزيون، كانَت الصُّورُ التي تَتابعَتْ هي صُورَ بعضِ الإخوانِ وهُمْ يَدخُلونَ إلى مقرّ الاجتماعِ، وطلبَت المحكمةُ مِنَ الشاهدِ عاطف الحسيني أنْ يُوقِفَ الشَّريطَ عندَ كلِّ فردٍ دَخَلَ للمكانِ ثم يقومُ بالتعريفِ بهَذَا الشَّخصِ، وكانَت المحكمةُ تَستَدْعِي كلَّ متهمٍ تعرَّفَ عليه الشاهدُ في الشّريطِ لتَقُومَ بمُناظَرتِهِ، وظَهرَ أنَّ الشّاهدَ يَعرِفُ الجميعَ.

هل تَعرِفُونَ قِصَّةَ المُرشِدِ السِّرّيّ؟ ليسَ قَصْدِي هُنا مُرشِدَ جَماعةِ الإخوانِ السّري، فقد تَحدثْتُ عنهُ بما فيهِ الكفايةُ في الجزءِ الأولِ من كتابي، وأظنُّ أنَّ الحديثَ عنهُ أثَارَ حَالةً مِنَ الجَدَلِ التاريخيَّةِ، إثباتًا أو نَفْيًا، ولكنَّ المرشدَ السريَّ هنا هو ذلكَ الأخُ الإخوانيُّ الذي قامَ بإبلاغِ مباحثِ أمنِ الدولةِ عَنْ هَذا اللّقاءِ، نَعم فَجهازُ أمنِ الدولةِ وُفقًا لما قَالَه الدكتورُ محمد حبيب في أكثرَ من لقاءٍ استطاعَ اخْتِراقَ الجماعةِ مِنْ أعَلاها إلى أدناها، وكانَت الشُّكوكُ قد حَامَتْ حولَ بَعضِ الإخوةِ الذين تَخلَّفُوا فَجأةً عَنْ حُضورِ هَذا الاجْتماعِ

الهـامّ، فَلَرُبّما قامَ أَحدُهم بالإبلاغِ عن هذا اللّقـاءِ، أَخذَتِ الاتّهاماتُ تُصيبُ الكثيرَ مِنْ أفرادِ الجماعةِ منَ الذينَ كانُوا يَعرفُونَ خَبرَ هذا اللّقاءِ، وكانَتْ هذِه الاتهاماتُ والشُّـبُهاتُ تُزعزِعُ الثِّقـةَ في كثيرٍ من الإخوة كَما أنهَّا كانتْ تُصِيبُ هـؤلاءِ الإخـوةَ بحالةٍ مـن الغضـبِ والإحباطِ، فما أقسَـى الاتّهامـاتِ التي لا تكونُ بلا سَندٍ أو دَليلٍ!

إلّا أنَّ الشّـاهدَ عاطف الحسيني في شَهادتِه أمامَ المحكمةِ قالَ إنَّه اتَّفقَ معَ مُرشِـدِه السّرّيِّ الإخوانيِّ على حُضورِ الاجتماع وجَهَّزَه بالتّسجيلات اللّازمةِ لِتسَـجيلِ كلِّ شَـاردةٍ وواردةٍ في اللِّقـاءِ، وكنّـا في جَلسـةٍ سـابقةٍ قـد سَـمِعْنا التَّسجِيلاتِ، وبقي أَنْ نعرِفَ مَنْ هُوَ المرشدُ السِّرّي.

■■■

الدكتـورُ عَمْـرو عبدالإله البلبيـسي، هو أحدُ الإخوانِ الفاعلينَ في قسـمِ النِّقابيـّينَ بالإخوانِ، وعندَما بَدأَ المهندسُ أبو العلا ماضِي في تشـكيلِ حزبِ الوسـطِ أواخـرَ عـامِ 1995 انضـمَّ عَمْـرو إلى الحِـزْبِ، وبعـدَ أنِ احْتَدَمَتِ الخلافاتُ بينَ أبو العلا والإخوانِ طلبَ المستشـارُ الهُضَيْبي مِنْ كلِّ الإخوانِ الذينَ كانوُا قد حَرَّرُوا تَوكيلاتٍ لوكيلِ المؤسّسينَ أبو العلا ماضي أنْ يَقومُوا بإلغائِها، فقَامَ عَمْرو البلبيسي بإلغاءِ التوكيلِ فورًا، لم يَكُنِ البلبيسيُّ وحدَه هو مـن فَعلَ ذلكَ ولكـنْ كانَ معَه في ذلكَ صلاحُ عبدالمقصود وجمال حشـمت وغيرُهـم، الكلُّ انْسـاقَ خلـفَ مأمـونِ الهُضَيبي الـذي كانَ يَسـوقُ الْجماعةَ فتَنسـاقُ لـه، وفي لقاءٍ جَمـعَ أبو العلا ماضي بعمْـرو البلبيسي، بَكَـى البلبيسي

أَسفًا على إلغاءِ التَّوكيلِ وقالَ: لم يكُنْ لي حيلةٌ في ذلك. فردَّ عليه أبو العلا رَدًّا قَاسِيًا: يَبْدُو يـا دكتورُ عَمْرو أنَّ قادةَ الجماعةِ قامَـتْ بعمليةِ «إخصاءٍ» لأفرادِ الجماعةِ بالأمرِ الذي تَرتَّبَ عليهِ فقْدُكم لِرُجولتِكُم!!.

كانَ الدكتـورُ عَمْرو البلبيـسي قد حضَرَ لقاءَ النِّقابيِّـين وانْصرَفَ منه قبلَ القَبضِ عـلى الإخوةِ بعَشْرِ دقائقَ، وكنَّا نعرِفُ هذا الأمرَ، كانَ العَجبُ يلُفُّنا، لماذا لم يتمَّ القَبْضُ على البلبيسي رَغْمَ أنَّهُ كانَ مِنَ الحَاضِرِيْنَ؟! بلْ إنَّ أحَدَ مَنْ حَضَرُوا اللِّقـاءَ كانَ قَدِ انْصرَفَ هو كذلكَ إلَّا أنَّ ضبـَّاطَ أمنِ الدولةِ قَبضُوا عليـهِ قبلَ أنْ يركبَ مترو الأنفـاقِ، وتم تقديمُه في القضيةِ معَ باقِي المتَّهمِيْنَ، بَـلْ إنَّ الدكتـورَ محمد بشر عضوَ مكتبِ الإرشـادِ لم يحْضُرِ اللِّقاءَ مِنَ الأصلِ ومعَ ذلكَ تمَّ القبضُ عليهِ!! فلِماذا تمَّ اسْتِثناءُ عَمْـرو البلبيسي؟! كانَتْ هذهِ الأفكارُ تُباغِتُني وأنَا أُشاهدُ شَريطَ الفيديو معَ باقي المُحامِيْنَ بجلسةِ المحكمةِ العسكريةِ، وكانَ عاطف الحُسيني لا يَزالُ يَتوقَّفُ عندَ صُورةِ كلِّ متَّهمٍ ليقومَ بتعريفِهِ، وفَجأةً ظهرَ على الشاشـةِ صُورةُ عَمْرو البلبيسيّ وهو يَدخُلُ المكانَ، ثـم ظَهرَتْ بعـدَ ذلكَ صُورتُه وهـو يُغادِرُ المـكانَ قبلَ القَبضِ عـلى المتَّهمِيْنَ بدقائـقَ، طَلبَ اللواءُ أحمـد الأنور رئيسُ المحكمةِ إيقافَ الشريطِ عندَ صورةِ عَمْـرو البلبيسيّ وقالَ للشـاهدِ عاطف الحسـيني: مَنْ هذا؟ هَـلْ تَعرِفُهُ؟ هل هُـوَ مِنَ المتَّهمِيْنَ؟ وهُنا نَظرْتُ إلى وَجْهِ الشَّـاهدِ الحسـيني لأَقـرأَه ثم نَظَرْتُ إلى وُجـوهِ بعـضِ المحاميْنَ مِنَ الإخـوانِ لأترقَّبَ ردَّ فِعْلِهـم، وجَاءَتْ إجابةُ عاطفِ الحسيني مِنْ أغربِ مَا يُمكِنُ.

الفصلُ الثالثُ

المُرشِدُ السِّرِّيُّ وزمنُ الْجَواسِيسِ

تُلحُّ عليَّ أحيانًا الرغبةُ في الصَّمتِ، اُصمُتْ، اِكسِرْ قَلمَك، إنَّك لَنْ تُصلحَ الكونَ أبدًا، سيَجهَلُ قومُكَ مَقصِدَكَ، سيُمزِّقُونَ صُورتَكَ، سيَتَّهِمُونك في وطنيَّتِكَ أَحيانًا وفي عقيدتِكَ أَحيانًا أُخرى، كُنْ كَباقِي أَصحابِك، أَمسِكِ الْعَصا مِنَ المُنتصفِ، حَاولْ أَنْ تُرضِيَ الجميعَ، مَا الذي سَتربَحُه مَنْ كَشْفَ الحقيقةَ؟! هَلْ تَظنُّ أنَّ الْحياةَ مثلُ الحَدّوتةِ التي نَقُصُّها على الصِّغارِ؟! في الحدّوتةِ يدورُ الصِّراعُ بينَ الخيرِ والشرِ، بينَ الحقِ والباطلِ، وفي النهايةِ يَنتصِرُ الخيرُ وتَعلُو رايةُ الحقِّ، ولكنَّ الدنيا غيرُ ذلك، الخيرُ لا يَنتصِرُ دائمًا ورايةُ الباطلِ تَعلُو كَثيرًا، ولكنْ يَهُزُّني «فِعلُ أَمرٍ» يَصدُرُ مِنْ أعمَاقِي، هُو «اُكتُبْ، اكتبْ» الكتابةُ تَسبِقُ القِراءةَ، ولَولاها مَا قَالَ اللهُ لنَا «اِقرَأْ» يبدأُ الإنسانُ طَريقَ المعرفةِ بقراءةِ الكتبِ ثم يَرتقِي فَيقرأُ النَاسَ ثم يَرتقِي فيَقرأُ الحياةَ ثم يرتقِي فيَقرأُ المُوتَ، ولكي نَقرأَ يجبُ أنْ نكتبَ.

■■■

القاعــةُ الكُـبرى في المحكمةِ العســكريةِ بالهايكســتب هــي في الأصلِ قاعةُ مَـسرحٍ، كنَّـا نَعيـشُ في أَجوائِهـا وكأننَّـا بالفِعـلِ على مَـسرحٍ تجريبيٍّ، نُشـاهدُ مسرحيـةً عَبثيةً، يشـتركُ فِيها الممثّلونَ والجمهورُ، يُـؤدِّي بَعضُهم دوْرَه ارْتجاليًّا ويُؤدِّي البعضُ الآخرُ دورَهُ المرسومَ له من المؤلِّفِ العبقريِّ الذي كادَ أنْ يُنافسَ شكسـبير في حَبْكاتهِ الدراميةِ، تقعُ مِنصَّة القُضاةِ على خشـبةِ المسرحِ، وأمامَهم ميكروفونات لِيَصِلَ صَوتُهم بوضوحٍ إلى كلِّ الجمهورِ، يَقفُ المحامونَ والشُّهودُ خَلْفَ مِنصَّةٍ خاصةٍ بهم أسـفلَ خَشَبَةِ المسرحِ، أمامَهم هُمْ أيضًا ميكروفونات، قَفَصُ المحكمةِ كَئيبٌ متشابكُ الأسلاكِ بحيثُ يُصعبُ عليكَ أنْ تَتبيَّنَ بوضُوحٍ وُجـوهَ الأشـخاصِ الذيـن يَقبعَونَ خَلْفَـه، أمـَّا القاعةُ فَتتَّسـعُ لحـوالي ثلاثمائةِ شـخصٍ، وبجوارِ منصَّةِ المحامينَ مِنضدةٌ مُرتفعةٌ وَضَعُوا عليها جهازَ تلفزيون كبيرًا وجهازَ فيديو، وبجوارِهما يقفُ ضابطُ أمنِ الدولةِ عاطف الحسيني، كانَ العَرْضُ المسرحيُّ الذي نُشـاهِدُه ونَشتركُ فيهِ هو تسـجيلَ فيديو لمَدخلِ عِمارةٍ، الصورةُ أمامَنا جامدةٌ ولكنَّها كانَتْ تَتحرَّكُ كلَّ فترةٍ بدُخولِ أحدِهم للعِمارةِ.

حـينَ دخـلَ الدكتورُ عَمْـرو البلبيسي لم يَنبـس الضَّابطُ عاطف الحسـيني ببنتِ شَـفةٍ، تفَحَّصْتُ وَجْهَه لحظَتَئذٍ فوَجدّتُه جَامدًا لا يَشِي عمَّا بداخِله، وفي نهايـاتِ عَرضِ الشَّريطِ خَرجَ عَمْـرو البلبيسي مِنَ العِـمارةِ فلم يُحرِّكْ عاطف الحسـيني سَـاكنًا أو يُوقِـفْ شَريطًا، قَطعَ صَـوتُ اللواءِ أحمـد الأنور صَمْتَ القاعةِ قائلًا: لم تُجبْ على سُؤالي يا عاطف بك، مَنْ هذا؟

ردَّ عاطف الحسـيني قَائلًا: لا أَعرِفهُ!! في الغالبِ هو أَحدُ سُـكَّانِ العِمارةِ ولا عَلاقةَ له بتَنظِيمِ الإخوانِ.

كنْتُ أَقِفُ بجوارِ عاطف الحسيني حينما قَامَ بإغلاقِ شريطِ الفيديو وصوتُ الحاجبِ يخترقُ آذانَنا قائلًا: محكمة! مُعلِنًا رَفْعَ الْجَلسةِ، ربَّتَ أحدُ المحامِيْنَ على كَتِفِي قَائلًا: الدكتورُ بديع يُرِيدُ أنْ يتكلَّمَ معَكَ.

ذهبْتُ إلى القَفصِ، فَأخذْتُ أَنظرُ للوجوه اِلتي بداخلِه، لم أستطعْ تَبيُّنَ ملامح القَابعيْنَ بالداخلِ بشكلٍ دقيقٍ، فالأسلاكُ الكثيفةُ المتشابكةُ تَعوقُ جُزءًا كبيرًا مِنَ الرؤيةِ، وكَذلكَ نَفسُ الأسلاكِ تَعوقُ رؤيةَ الذينَ بداخلِ القفصِ، فلا يَستطيعون رَؤيةَ الذين يَقِفُونَ خارجَ القفصِ، رَبَّتُّ على كَتِفِ عاطف عواد الذي كانَ يَتحدَّثُ وَقتئذٍ معَ إخوةٍ لم أتبيَّنْهم، وإذْ أَمعنْتُ النَّظرَ وجدْتهم الدكتورَ محمد بديع ومختار نوح، وقفتُ بجوارِ عاطف صَامِتًا إلى أنْ أَنهى كَلامَهُ، وبعدَ أنْ أَلقيْتُ السّلامَ سَألَني الدكتورُ بديع: مَنْ هَذا الذي سألَ عنهُ رئيسُ المحكمةِ؟ هَلْ هُو وَاحِدٌ مِنَ الإخوان؟

قُلتُ هامسًا: نَعم، هو عَمْرو البلبيسي.

بديع: (الحمدُ للهِ أنَّ الضّابطَ لم يتعرَّفْ عليهِ وإلّا لَكَانُوا قَد قَبضُوا عليهِ هو الآخر، ربّنا نَجّاه وأَعمَى بَصَرهم وبَصِيْرَتهم)

أنا: (الحمدُ للهِ يا دكتورُ ربَّنا يُنجِّيكُم)

بديع: (على فِكرة، إخوانُك في السّجنِ يُحبُّونَك كلّهم وَيدعُونَ لكَ بظَهْرِ الغَيبِ، ويَطلبُونَ منكَ الأخذَ بالأسبابِ، ولا تَيئسْ إنْ لم تَتحقّقِ النّتائجُ، فما عَلينا إلّا العملُ).

أنا: (طَبعًا طبعًا يا دكتور، إحْنا تَلاميذَك.)

بديع: عرفتَ بأمر اللّجنةِ التي تَشكَّلَتْ برئاستِك، ونحنُ نَثقُ في إدارتِكَ للمعركةِ، هَلْ قرأْتَ الخُطَّةَ التي أَرسلْتُها إليك؟

أنا: نعَم قرَأْتُها.

بديع: كنتُ حريصًا فِيها على أنْ أقولَ لإخوانِك في مكتبِ الإرشادِ إنَّهَ من الجيدِ أنهم تَنبهّوا لمُكَاتِك وقُدراتِك، وإنَّك تَستطيعُ بقدراتِك على التفاوضِ أن تقفزَ بقضيتِنا إلى مناطقَ آمنةٍ إنْ شاءَ الله.

أنا: ربُّنا يُوَفِّقْنا يا دكتور.

بديع: أنَا مِنْ سِجني أُساعدُكَ قَدْرَ المُستَطاعِ، وقد أَرسلْتُ إلى إخوانِكَ في المكتبِ «مكتبِ الإرشادِ» كي يَكتبُوا مقالةَ باسْمِ الحاجِ مصطفى مشهور ويَنشرُونهَا في جريدةِ الشعبِ عن زيارةِ الرئيسِ مبارك لبيروتَ ودَعْمِه لهَا ولإميل لحود بعدَ الاعتداءاتِ الإسرائيليةِ عليها.

تَدَخّلَ عاطفُ عواد قائلًا: (ياريت تُطلُبْ منهُم يا دكتور يكتبُوها كويس ربِّنا يكرمك، أنا خايف يشتِمُوا في لبنانِ أو إميل لحود ويقولوا عليه شيعي أو درزي!!)

ابتسمَ الدكتورُ بديع وهو يَقولُ: لا أَنَا طلبْتُ منهم يمدَحُوا مبارك جدًّا، هذهِ فرصةٌ لنَا كي نُثبِتَ أننَّا لا نُعارِضُ من أجلِ المُعارَضةِ.

عاطف عواد: هُوَّ ده الكلام يا دكتور، ربّنا يكرمك، يَنبغِي أنْ لا نكونَ عَدميِّينَ، نحنُ نُعارِضُ الخطأَ ونُوافِقُ علَى الصَّوابِ.

التفتَ بديع ناحِيتي وهو يقولُ: أنا طلبْتُ منهم في قسم المهنيِّين أنْ يجعلُوا الأخ عَمْرو البلبيسي مُفوَّضًا مِنْ قسم المهنيِّين للحضُور معكُم وتوصيل طلباتِكُم فورًا لمكتبِ الإرشادِ وللمُرشد.

كَتمْتُ دَهْشَتي، إلَّا أنَّني اعْتَرضْتُ قائلًا: عَمْرو عبدالإلهِ البلبيسي يا دكتور!! ألا يُوجَدُ أحدٌ غيرُه؟

ردَّ بديع بحزم: ماله عَمْرو يا ثروت؟! هو أخٌ فَاضِلٌ وخبرتُه كَبيرةٌ في كلِّ أنشطةِ المهنيِّين، ثم إنَّه بَلدِيَّاتُك، ابدأْ معهُ التَّنسيقَ مِنَ اليوم.

وَافقْتُ مُرغمًا: كما ترى يا دكتور.

جَرى في خَاطِري أنَّني سَأتعاملُ مع عَمْرو البلبيسي وسَأُنسِّقُ مَعَهُ ولكنَّني لنْ أكشِفَ له كلَّ أوراقي (وفيما بعدُ أَصبحَ عَمْرو عبدالإله البلبيسي أحدَ الكبارِ في قِسم المهنيِّينَ بجماعةِ الإخوانِ، إلَّا أنَّه بعدَ الثَّورةِ أَصبحَ مُنزَوِيًا بَعيدًا عن موقعِ القَرارِ وحَدَثَ أنْ قَابلْتُه قَدرًا في مَعْرِضِ الكتابِ فَاشْتكى لي مِنَ الإخوانِ وظُلْمِهم له) يكفِي أنَّ حياتَنا امْتلأتْ بالجوَاسِيسِ، جواسيسُ يكتبونَ التقاريرَ لقياداتِ الإخوانِ، وجواسيسُ يكتبونَ التقاريرَ لأجهزةِ الأمنِ، وأحيانًا يَقُومُ الجاسوسُ بالدَّورِ المزدَوَجِ، لا كما هُو مُتعارَفٌ عليهِ في أجهزةِ المخابراتِ، ولكنْ بشكلٍ جديدٍ، فالجاسوسُ الإخوانيُّ الجديدُ يَنقلُ لقياداتِ الإخوانِ، وفي ذاتِ الوقتِ يَنقلُ لجهازِ أمنِ الدولةِ، وكم تكونُ صَدمةُ الواحدِ مؤلمةً عندمَا يَكتَشفُ أنَّ أحدَ المقرَّبِينَ منه يَتجسَّسُ عليه!! وآهٍ من زَمَنِ الجوَاسِيسِ، في كلِّ زمنٍ تَتكرَّرُ قِصَّةُ يهوذا الأسخَريوطِيّ، في كلِّ زمنٍ صَديقٌ يَغدِرُ بصَديقِه وهو يَنظرُ

إلى صندوق الذهب الذي سيحصل عليه، وقد يحصل على الذهب فعلًا، ولكنه حتمًا يفقد نفسه، يحتقر فعله، ولكنه ككل إنسان مريض سيستخدم جرعات مخدرة حتى يغيب ضميره، وكلما زاد حجم الخيانة زادت جرعات المخدر، في الحقيقة أنا غير غاضب منهم، أنا أشفق عليهم، أعرف أنهم لا يستطيعون النظر لأنفسهم في المرآة، لا يستطيع الواحد منهم أن يرفع رأسه أمام ابنه وهو يحاول أن يرشده وينقل له تجارب الحكمة التي ستحميه في مستقبل أيامه، كيف يتحدث مع ابنه الذي على مشارف الشباب ويبث في نفسه الأخلاق وهو الذي فقد كل أخلاقه في مقابل حفنة من الجنيهات ستفنى كما تفنى كل الأشياء في الدنيا، أتعرف؟ قد يلجأ إليك هذا الصديق الجاسوس ويطلب منك أن تتحدث مع ابنه وأن تستعيده من انفلات أوشك أن يقع فيه!! فتذهب بكل أريحية وتعقد جلسات وجلسات مع هذا الابن الشارد، فإذا ما انتهت هذه الجلسات وانفرد بك الأب الصديق الذي عينوه ليتجسس عليك إذا به يحاول استدراجك ليعرف منك ويحصل على المعلومات التي سترفع من قدره لدى الجهة الأمنية التي وضعته عليك جاسوسًا، يظن أنك لا تعلم، ولا يعرف أنه منذ أول لحظاته وهو مكشوف، كان كتابًا مفتوحًا من فرط سذاجته، ويظل الجاسوس الغبي دائمًا مكشوفًا وهو يظن أنه أذكى من الجميع، ومع ذلك فإنني كنت أنقل له ما أريده أن يصل، فأنا في معركة، وإخواني في السجن، كنت أحدث نفسي: لا كنت إن لم أنصرهم، فلأستغل هؤلاء الجواسيس. بعضهم كان من الإخوان وبعضهم من خارج الجماعة ولكنهم كلهم كانوا مكشوفين أكاد أقرأ على وجه كل واحد منهم كلمة «جاسوس».

ليسَتْ هذه مجرد معانٍ مجردةٍ أو كلماتٍ عامةٍ، ولكنَّها حياةٌ عِشْتُ فيها وعاشَرتُ أشخاصَها، كنتُ أَرثي لهم وأُشفِقُ على عائلاتِهم وأولادِهم، كانَ منهُم سليمان، وسليمانُ هذا ليسَ اسمَه الحقيقيَّ طبعًا إذْ ليسَ هَدفي أَنْ أَفضَحَ هؤلاءِ أو أُشَهِّرَ بهم، ولكنَّ هَدفي أنْ أكشفَ عَنْ هَذا المرضِ الذي اسْتَشرى في قلبِ الحركةِ الإسلاميةِ أو قُلْ في وَسَطِ المجتمعِ المصريِّ الذي اشْتدَّتْ فيهِ قبضةُ الأمنِ، كانَ سليمانُ قريبًا منّي، بل كانَ صديقي، وكانَ في ذاتِ الوقتِ قريبًا مِنَ الإخوانِ، وفي حَملةٍ أمنيةٍ تمَّ القبضُ عليه، وكانَ عجَبي كبيرًا، سُليمانُ ليسَ من ضِمْنِ أفرادِ الإخوانِ، وهو ليسَ نكرةً يجهلُه الأمنُ! وضَعتُ علاماتِ تعجُّبٍ أمامَ قرارِ القبضِ عليهِ، ولكنَّني وقفْتُ معَه وذهبْتُ لتحقيقاتِ النيابةِ وحَضرْتُ مُدافِعًا عنهُ، وفي التحقيقِ وَجدْتُ أنَّ أسئلةَ وكيلِ النيابةِ روتينيةٌ سطحيةٌ مجردُ تأديةِ واجبٍ، وفي نهايةِ التحقيقِ تمَّ حبسُ سليمانَ خمسةَ عشرَ يومًا على ذِمَّةِ التحقيقِ، وكانَ أهلُ بيتِهِ قد أَحضَرُوا له الملابسَ البيضاءَ التي يَرتديها المحبوسُونَ احْتياطيًّا فعرفْتُ منهم أنَّ بعضَ ضُبَّاطِ أمنِ الدولةِ قامُوا بتفتيشِ البيتِ وأَخذُوا جهازَ كمبيوتر، ولكنَّهم كانُوا في مُنتهَى الأدبِ والاحترامِ وهم يُفتِّشُونَ البيتَ حتى إنَّهم اكْتفَوا بالتفتيشِ الظاهريِّ معَ تقديمِ عباراتِ الاعتذارِ، وبعدَ ذلكَ كنْتُ أذهبُ إليه يوميًّا في سِجنِ مَزرعةِ طُرّةَ لأَطمئِنَّ عليهِ وأَنقلَ له «الزيارةَ» التي يجهِّزُها له أهلُه، وبعدَ انْتهاءِ فترةِ الحبسِ الأُولى تمَّ عرْضُه على نيابةِ أمنِ الدولةِ لتُقرِّرَ إمَّا مدَّ حَبْسِه وإمَّا إخلاءَ سَبيلِه، وأثناءَ دِفاعِي عنهُ لاحظْتُ أنَّ وكيلَ النيابةِ لم يَكُنْ معِي، وكأنَّهُ لا يَسمَعُني إطلاقًا بَلْ كأنَّهُ لا يَدْرِي أنَّ هناكَ محاميًا جالسًا أمامَهُ

يُبـدِي دِفاعَهُ عن مُتَّهمٍ محبُوس، فَقَدْ كانَ يقرأ بتركيز وَرقةً عليها مِنْ أعلى مِنَ الناحيةِ اليُمنى شِعارُ مباحثِ أمنِ الدولةِ، كنْتُ أُريدُ معرفةَ ما هُوَ المكتوبُ في هذهِ الورقةِ، شَدَّني حبُّ الاستطلاع إلى حدٍّ لم أستَطعْ مقاومتَهُ، فَسألْتُ سليمانَ الذي كانَ جَالِسًا في المقعدِ المواجهِ لي أمامَ وكيلِ النيابةِ: هَلْ معَكَ قلمٌ أُريدُ أنْ أكتبَ طَلبًا لِسَعادةِ وكيلِ النيابةِ، فقالَ لي سليمان: لا ليسَ مَعِي، فَانْكفأْتُ بجسَدِي عَلى مكتبِ وكيلِ النيابـةِ بفظاظةٍ ريفيّةٍ متحجّجًا برغبتي في أَخْـذِ قلـمٍ من أمامِهِ، فَانْتبَهَ وكيلُ النيابةِ وقـالَ مُتعجّبًا: (فيه إيه يا أستاذ! بتعمل إيه؟)

قلتُ له وأنَا أنظرُ بإمعانٍ في الورقةِ التي كانَ يقرأُ فيها: (قلم يا قنديل بك، أُريدُ قَلمًا ولا مؤاخذة)

ردَّ وكيلُ النيابةِ بحَسْمٍ وقد زَادَ عَجبُه: (استخدمْ قلمَكَ يا أستاذ)

اعتدلْتُ في جِلْستي بعدَ أن قرأْتُ العبارةَ الآتيةَ «المذكورُ مِنَ العناصرِ المتعاونةِ معَ الجهازِ.................».

قالَ وكيلُ النيابةِ: ما هِيَ طلباتُك يا أستاذ؟

- الإفراجُ عَنِ المتّهمِ بالضّمانِ الّذي تَراهُ النّيابةُ.

هبَّ وكيلُ النيابةِ وَاقفًا وهو يَقولُ: (لحظاتٍ وسَآتي لكُم، انتظِرْني يا أستاذ)

حمَلَ وكيلُ النيابةِ الورقةَ وخَرجَ بها مِنْ حُجرةِ التحقيقِ فَخرجْتُ وراءهُ لأرْقُبَ ما الذي سيفعَلُه فوجدْتُه قد توجّه لمكتبِ المحامِي العامّ لنياباتِ أمنِ

الدولةِ، عُدتُ إلى الحُجرةِ وابْتَسمْتُ في وجهِ سليمانَ وأنا أقولُ له: (إفراجٌ إن شاءَ اللهُ يا سليمان).

سليمان: (تفتكر؟)

أكّدتُ له: (دلوقت هاتشوف)

وصَدرَ القرارُ، كانَ سليمانُ هو الوحيدَ الذي تمَّ الإفراجُ عنه.

تَوقَّعَ عاطف عواد بعدَ أنْ تمَّ الإفراجُ عن سليمانَ أنْ ينقطعَ عنّا ويقُاطعَ أيَّ إخوانيّ، فَكَفاهُ خَمسةَ عشرَ يومًا في طُرة، إلّا أنَّني قلْتُ لعاطف: ستَجِدُ الْعكسَ سَيَقترِبُ صديقُكَ هذا مِنَ الإخوانِ بشكلٍ أكبرَ مما كانَ وسيكونُ مدافِعًا عنهم مُتحمّسًا لهم بشكلٍ مُبالَغٍ فيه، وبعدَ أسبوعَيْنِ عقَدَ إخوانُ منطقةِ شرقِ القاهرةِ إفْطارًا في أحَدِ فنادقِ مصرَ الجديدةِ وكانَ سليمانُ أحدَ المدعوِّين، والغريبُ أنَّ «الرائدَ إسلام» مَسئولَ أمنِ الدولةِ في منطقةِ شرقِ القاهرةِ كانَ مدعوًّا هُوَ كذلكَ في هَذا الإفطارِ، ومِنْ بعدِها ظلّ سليمانُ يتَجسَّسُ عليَّ وأنا أتصنعُّ التَّغفيلَ:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ في قومِهِ لكنَّ سيدَ قومِهِ المُتغَابِي

تَداعَتْ قِصَّةُ سليمانَ على ذَاكِرتي وأنا أنتظِرُ دوري في الخروجِ من المحكمةِ، فقدْ كنّا نَخرجُ في «ميكروباصاتٍ» على دُفُعاتٍ.

بعدَ أنْ خرَجْنا من مَبنَى المحكمةِ جلَستُ معَ أحمد ربيع في السيارةِ لمدةِ ساعةٍ نتَداولُ فيها حدَثَ بالجلسةِ، قلتُ له وأنا أختبرُ فراسَتَهُ: أظنُّ المسألةَ واضحةً.

ضَحِكَ بخيبةِ أملٍ: (للأسفِ آه)

استرسلتُ قائلًا: هَلْ يُعقَلُ أنْ يكونَ عاطف الحسَيني بجلالةِ قَدْرِ أَهلِهِ لا يَعرِفُ مَنْ هُو عَمْرُو عبدِالإلهِ البلبيسي، عَمْرو العضوُ البارزُ بقِسمِ المهنيّينَ، عَمْرو الذي كَتَبَ توكيلًا لحزبِ الوسطِ ثم سَحَبَه!!

قالَ أحمدُ وهو يَبتسِمُ ابتسامةً ساخرةً: أَزيدُكَ من الشعرِ بيتًا، عَمْرو الذي اسْتَدعاه عاطف الحسينيّ أكثرَ مِنْ مرةٍ للتحقيقِ معَه في أنشطةِ قسمِ النّقابيّينَ!!

قلتُ: إذنْ هُوَ مَنْ قامَ بالإبلاغ.

أحمد ربيع: قَدْ لا يكونُ وحدَهُ، العصافيرُ تُغرّدُ في سَماءِ الإخوانِ.

ردّدتُ قائلًا: هَلْ تشكُّ في آخَرِيْنَ؟

أحمد ربيع: هَلْ تعرِفُ أنَّ الأخَ إسماعيل بكير كانَ يعَرِفُ خَبرَ اللقاءِ وكانَ مِنَ المفُترضِ أَنْ يذهبَ معَ مختار نوح وخالد بدوي بسيارتِهِ إلَّا أنَّه اعْتَذَرَ في اللّحظةِ الأخيرةِ ممَّا جَعلَهُما يَستَعينانِ بعمّ محمود سائقِ التاكسي المسكينِ الذي قَبَضَتْ عليه مَباحِثُ أمنِ الدولةِ لأيامٍ؟!

أنا: ولكنْ هَذا ليسَ دليلًا علَى شَيءٍ.

أحمد ربيع: إسماعيل بكير جاسوسٌ، هذا أمرٌ لاشكَّ فيهِ، كلُّنا يعَرِفُ ذلكَ، وعندَكَ الأخُ عبدُالموجود، هَلْ تعَرِفُ أنَّه تمَّ تجَنِيدُه منذُ عامينْ ولتغطيةِ عَمالتِهِ للأمنِ قَبَضُوا عليهِ وحَبسُوهُ خمسةَ عشرَ يومًا؟

أنا: أعرِف، وقدِ اسْتَخدَمُوا هذهِ الطريقةَ كثيرًا (سألتُ الدكتورَ محمد

حبيب مؤخّرًا هَلْ كنتم تعرفونَ أنَّ عبدالموجود عميلٌ لأمنِ الدولة؟ قالَ نعم كنّا نعرفُ ذلكَ ولكنَّ بعضَ إخوانِك كانُوا يَستفيدُونَ من عمالتِه هذهِ لأنه كانَ يقضِي لهم مَصالحهَم ويفاوِضُ الأمنَ ويُقلِّلُ من حَجْمِ الخسائرِ بخصوصِ الْحَملاتِ الأمنيةِ، أي أنّه كانَ يُفيدُهم فكانَ من الطبيعيِّ أنْ يركُنوا إليهِ حتى أصبحَ مركزَ قوةٍ كبيرًا في الجماعةِ، بل في الدولةِ كلِّها بعدَ الثورةِ، لدرجةِ أنّهُ جعَلَ الإخوانَ يُسنِدونَ لأحدِ أقاربِهِ مركزًا مَرموقًا في الدولة).

أَكملْتُ وأَنا أُبدِي لأحمدَ موافقتي عَلى مَا قَالَ: يا عمُّ أحمد، أَنا أكَادُ أعرفُ كلَّ الجواسيسِ، سِيْماهُم عَلى وُجوهِهم من أثرِ التَّجسُّسِ، وُجوهُهم كريهةٌ سَمِجةٌ.

أحمد ربيع: نعَم أنا معَك، لكنَّ الاحتياطَ واجبٌ، وخُذْ بالَك، أنتَ تعَرفُ أنّ بعضَ أعضاءِ الإخوانِ كانُوا ضُبَّاطَ مباحثَ سابقيْنَ وهُمْ عَلى صلةٍ قويةٍ بالأمنِ ويُقدِّمونَ لِقياداتِ الجماعةِ خِدْماتٍ كثيرةً من خلالِ علاقتِهم بالقياداتِ الأمنيةِ في مصر.

أنا: اِعقلْها وتوَكَّلْ.

ضَحكَ أحمد ربيع قائلًا: هَلْ ستفَعلُ كحُسنِي مبارك؟ مبارك قالَ مرةً في خُطبةٍ له «اعقلْها وتوكَّلْ» وهو يُشيرُ إلى رَأْسِه، وكأنَّه يظنُّ أنَّ «اِعقِلْها» مِنْ إعمالِ العَقْل.

بَادلْتُهُ الضَّحِكَ وأَنا أَقولُ: إذنْ اربطْها وتَوكَّلْ.

■■■

بعدَ أنِ انْتهَتْ جلَساتُ المحكمةِ العسكريةِ وقبل أنْ تصدُرَ الأحكامُ وأثناءَ زيارتي للأخِ مختار نوح في محبَسِهِ تقابلْتُ معَ الدكتورِ محمد بديع إذْ كانَ يجلسُ في مكانِ الزيارةِ ومعَهُ بعضُ أهلِهِ، فسَلَّمْتُ عليهِ وأبلغْتُه سلامَ الجميعِ فهَمَسَ في أُذني قائلًا: اذهبْ للمحكمةِ العسكريةِ واطمئِنَّ على الأحكامِ.

تَعجبْتُ من طلبهِ: وكيفَ ذلكَ وموعِدُ الأحكامِ لم يحِنْ بعدُ!!.

اذهبْ وَاسْأل «واللي يسأْلْ ما يتوهش» يا أخّ ثروت... ثم تركَني وانْصرفَ لأهلِه.

لم آخذْ طلبَ الدكتورِ بديع مأخذَ الجدِّ إلاَّ أنَّني بعدَ أيامٍ ذَهبْتُ للمَحكمةِ العسكريةِ بالحيِّ العاشرِ بمدينةِ نَصر أتلمَّسُ الأخبارَ وأتذرَّعُ بطلبِ «فتح بابِ مرافعة» زعمْتُ أنَّني أرغبُ في تَقديمه، قابلْتُ سكرتيرَ الجلسةِ فوَجدْتُ مَلفَّ الدَّعوى بكاملِه أمامَه، وحينَ تَعجَّبتُ وقلتُ لَه: الدَّعوى محجوزةٌ للحُكمِ والمفروضُ الملفُّ عندَ القضاةِ فماذا يفعلُ عندَك؟

قالَ وكأنَّ الأمرَ لا يَعنِيه: وهَلْ تظنُّ أنَّ المحكمةَ ستُصدِرُ الحُكمَ وُفْقًا لِلملفِّ؟! أنتَ رجلٌ طيبٌ.

طيبٌ طيب، مَعِي طَلَبُ فَتْح بابِ مرافعةٍ أرغبُ في تَقدِيمِه.

قَدّمْه كما تحُبُّ، ولكنْ... انتظرْ.. العميدُ حسنين الذي في مَكتبِ المدَّعي العسكريِّ قالَ لي من قبلُ إنَّه يُريدك، فمِنَ الأحسنِ أنْ تُقدِّمَ له طلَبَكَ هذا.

أَشَرْتُ إلى صَدْرِي وأنَا أقولُ: يُرِيدُني أنَا، أنَا!! هل قالَ لكَ ذلكَ؟! من هُوَ العميدُ حسنين هَذا؟

أَلَا تعرِفهُ؟

لا.. إطلاقًا.

ما عَلى الرسـولِ إلَّا البلاغُ، عُمومًا هو في مكتبهِ بالدورِ الخامسِ، تَستطيعُ أَنْ تزورَهُ الآنَ وتقدّمَ لهُ طَلَبَكَ، تعَالَ مَعِي وأنَا أُوصِلُكَ لمكتبهِ.

كانَ العميـدُ حسـنين يجلِسُ وَحـدَهُ بمكتبهِ وحينَ دخلْتُ عليـهِ كانَ يقرأُ إحدى الصُّحُفِ اليوميةِ ويُمسِـكُ سُبحةً فِي يَدِهِ ليسَـتْ كباقي المسابحِ التي نُمسِـكُها ولكنَّها سُبحةٌ كبيرةٌ بعدَّادٍ، فُوجِئْتُ بهِ وهو يُرحِّبُ بِي باسْـمِي ولم أكنْ قد رأيتُه من قبلُ.

(أهلًا بكَ يا أستاذُ ثروت، شَرّفْتنا، اتفضَّلْ اقْعُدْ.

جلسْـتُ على الكُرسيِّ المواجهِ لمكتبهِ وأنَا أقولُ: أهلًا وسَـهلًا يا فندم، هل تَسمَحُ لِي بأنْ أُقدّمَ طَلَبَ فتحِ بابِ مرافعةٍ فِي قضيةِ النّقابييّنَ وآملُ أَنْ يُعرَضَ على الهيئةِ الموقَّرةِ قبلَ جلسةِ الحكمِ؟

آه، طبعًا، هاتِ الطَّلَبَ.

تنَـاولَ العميـدُ حسـنين الطَّلَبَ ثم قَـامَ بالتّأشـيرِ عليهِ وأَعطاهُ لسـكرتيرِ الجلسـةِ وكلَّفَه بتقديمِهِ لرئيسِ المحكمةِ ثم أمرَهُ بالانصرافِ، وعندَما هَمَمْتُ بالانـصرافِ أنَا كَذلكَ شَـاكرًا إذا بالعميدِ يُلحُّ عليَّ إلحاحًا شَـديدًا للجلوسِ معَـهُ بعـضَ الوقـتِ ريثَما يَطلـبُ لي فِنجْانَ القهـوةِ المضبوطِ، فَجلسْـتُ وأنَا أَسـتحِي من كَرَمِ الرَّجُلِ، وخَطَرَ على بَالِي أنَّهم يجلِسُـون في النيابةِ العسـكريةِ لا يَفعلُونَ شَـيئًا، وأنَّ الرَّجلَ أرادَ أَنْ يقطعَ وقتَ فراغِهِ بالحديثِ مَعِي، أخذَ

الرجلُ يهزُّ رأسَهُ هزًّا خَفيفًا وهو يُجرِي بأصابعِهِ على حَبَّاتِ المسبحةِ ويُتمتِمُ بذِكْرِ اللهِ ثـمَّ قالَ لي وهو يَضَعُ على وَجْهِهِ ابتسامةَ التَّقوى: أظنُّ حَسَنَ البنا كانَ صُوفِيًّا؟

- جارَيْتُه في الكلامِ: نَعم كانَ في طَريقةٍ تُسمَّى بالطريقةِ الحَصَافيَّةِ.

- لماذا انْحرَفَ حسنُ البنا عَنْ طريقِهِ الصَّحيحِ؟

- أَيِّ طريق؟!.

طريـق الإيمانِ الصَّحيـحِ، أَليسَ اللهُ ربَّ قلـوبٍ، هـو الـذي يَطَّلِعُ على أَفئدتِنـا؟ أَلاَ يقـولُ اللهُ في كتابـِهِ الكريـم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾؟

- نعَـم، ولكـنْ ليسَ مَعنَـى هَذا أنْ نَتوقَّـفَ عَنْ دَعوةِ الناسِ، فَالرَّسـولُ ﷺ يقولُ: «**بَلِّغُوا عَنِّي ولو آيةً**».

- نعَـم هَـذا هُو بـلاغُ العِلمِ، ويَجبُ أنْ يقـومَ بهِ مَنْ نالَ قِسْطًا مِنَ العِلْمِ ولو بمقدارِ آيةٍ، ولكنَّ القلوبَ يا أستاذُ لهَا ربُّها ولا يَستَطِيعُ أحدٌ أنْ يتسلَّطَ عَليها، اُدخلُوا علَى النّاسِ بالحبِّ، قَاتِلُوهم بالمحبةِ، اُذكُروا اللهَ قِيامًا وقُعودًا وعَلى جُنوبكم، ولكنَّ سعيَكُم للحُكْمِ لا يَترُكُ مكانًا في قلوبِكُم للحُبِّ.

- هُوَّ حضرتك في طريقةٍ صوفية؟

- نَعم، ربنَّا يهديكُم، أعرِفُ أنَّكم تُحرِّمونَ الصَّلاةَ في مساجدِ أولياءِ اللهِ وآلِ البيتِ.

- لا أبـدًا، أنَا لا أُحَرِّمُ هذا، بَلْ أذهبُ كثيرًا لهذِهِ المساجدِ مُصلِّيًا وزائرًا، ولكنْ يُوجدُ أخوةٌ يُحرِّمونَ، فلسْنا شَيئًا وَاحدًا في هَذا الْأَمرِ.

ثـمَّ انْتابتْني جُرأةٌ فسـألْتُه: هَلْ لا تُوجدُ - سـيادتك - أخبـارٌ عن حُكْمِ قضيةِ النِقّابيّين؟ ألاَ تُوجَدُ إشاراتٌ أَستطيعُ أنْ أَبُلَّ بها رِيقي؟

هَـزَّ الرجلُ رأسـه علامةَ النَّفْـي وهو يَقولُ: لا واللهِ لا تُوجَـدُ أَخبار، رُبّما سيُجرِي الخيرَ إنْ شاءَ اللهُ.

- هَلْ أَستطيعُ أنْ أقولَ لكَ شَيئًا؟

- تفضل.

- حَضْرتُـك رجلٌ طيبٌ جِدًّا وشَـخصيّةٌ جديرةٌ بالاحترامِ، ويَشـهدُ اللهُ أنّني أحببتُك حينَ رأيتُك.

- الأرواحُ جُنودٌ مجنّدةٌ يا أسـتاذ ثـروت، خُذْ هذا الشّريطَ هديةً مني، فيهِ بعضُ تواشيحِ الشيخِ ياسين التهامي، هَلْ سَمعْتَه من قبلُ؟

- نَعم سَمعْتُه مرّةً.

- ستَستمتعُ بهذِه التّواشيحِ، فالشيخُ يُنشِدُ فيها لِسيدي عُمَر بنِ الفارضِ، وفي الشريـطِ قصيـدةٌ رائعـةٌ هي «حقُّ هواك» اِسـمَعْها وأنتَ وَحدَك، فهذِه قصيدةٌ تحبُّ الخَلْوةَ.

تَبادلْنا أرَقامَ الهواتفِ، وظَلَّتِ الصِّلةُ بيني والعميدِ حسنين قائمةً لفتَراتٍ طويلةٍ حتى بعدَ خُروجِه من الخِدْمةِ، فقدْ ساعدْتُه في القَيْدِ في نِقابةِ المحامينَ، وذهبْتُ معَه مرةً لجلسةِ ذِكْرٍ مع بعضِ أصحابِه في الطريقةِ، وكنْتُ بينَ الحينِ والآخَـرِ ألجـأُ إليه بحَسْـبِه أصبـحَ محاميًا، فيُسـاعِدُني في إنهاءِ بعـضِ القَضايا

المتعلِّقةِ بموكِّلِيْنَ متَّهمينَ في قضايا «التهرُّب من التجنيدِ»، وكنتُ أُسندُ إليهِ في أحيانٍ أُخرى الحضورَ والمرافعةَ في قضايا عسكريةٍ، والحقُّ أنَّه كانَ يُبلي فيها بَلاءً حسَنًا، وفي كلِّ مرةٍ ألتقيْهِ فيها كنْتُ أفتحُ حِوارًا حولَ الطرقِ الصوفيةِ فأَزدادُ معرفةً بدُروبِها ورِجالِها، وذاتَ يومٍ أصبحَ العميدُ حسنين هو إحدَى أكبرِ المفاجآتِ في حَياتي.

■■■

يَسألُني صَديقي دائمًا: ما الذي كسبْتَهُ من محاولاتِك التي بَذلْتَها كَي تَصِلَ إلى الحقيقةِ؟ أظنُّكَ خَسرتَ كثيرًا. نَعَم يا صَدِيقي، خَسرْتُ كثيرًا، كي أَكسَبَ نَفْسي.

أَعودُ إلى أَوراقي التي دَوَّنْتُ فيها مُذكِّراتي كي آخذَكُم خُطوةً خطوةً نحوَ كَشفِ المستورِ، فالقصةُ لم تبدأْ بعدُ، والحكايةُ ما زالَتْ في قلبِ الحاكِي، تَضَعُ نفسَها على الأوراقِ على مَهلٍ وتُؤدةٍ، وهَأنـذا أقرأُ قِصَّةَ إيكاروس الذي رَامَ الوصولَ إلى الحقيقةِ فأخذَ يُنشِدُ أهازيجَه مُترنِّمًا:

مَنْ رَامَ نبعَ النورِ حَاكَ نَسيجَهُ
حَبْلًا إلـى آفاقِـهِ ثـمَّ ارْتَقَـى
فَتَسلَّقُوا صَوبَ السماءِ وشَمْسِها
فَلَرُبَّ طِينٍ قَدْ سَما فتَسلَّقا

ظَنِّي أنَّ كلَّ مَنْ يُحاولُ الوصولَ إلى الحقيقةِ هو إيكاروس الجديدُ، فَخَلْفَ كلِّ تجربةٍ إنسانيةٍ ثرِيّةٍ إيكاروسُ الذي لَنْ يَموتَ ما بَقيَتِ الحياةُ.

■■■

الجماعةُ محضَنٌ كالأمِّ، ولكنَّها يجبُ أنْ تتصرَّفَ كأمٍ راشدةٍ، الأمُّ الطيبةُ صَاحِبةُ الأمومةِ الخالصةِ لا تَحْرِمُ الوطنَ من أبنائِها، ولا تُسيطِرُ على قراراتِهم، الإخوانُ أحوجُ ما يكونونَ إلى الوطنِ، يحتاجونَ إلى الوقوفِ على أرضيَّةِ الوطنِ لا على أرضيةِ الجماعةِ، هُمْ في أشدِّ الحاجةِ لحُضْنِ الوطنِ لا حُضْنِ الجماعةِ، فإذا تنكَّبُوا سَبيلَ الوطنيةِ فيَجبُ أنْ نأخذَ على أيديهم ليعُودُوا للصَّفِّ الوطنيِّ. هَكذا حَدَّثتْني رُوحي، وهَكذا تحدثْتُ أنا معَ محمد منيب، مَنْ محمد منيب؟ إذنْ اسمَعُوا قِصَّتَه وقصَّتِي، تلكَ القصةُ التي أماطَتِ اللِّثامَ عن جُزءٍ من أسرارِ جماعةِ الإخوانِ المخفيَّةِ، أو قُلْ أَماطَتِ اللثامَ في المقامِ الأولِ عن نفسيّةِ مَنْ يَعيشُ عُمرَه أسيرًا «تحتَ التَّوقيفِ» في جماعةِ الإخوانِ، أو بالأحرى في جماعةٍ سرّيةٍ لا تَعرفُ كيفَ تُمارِسُ الاختلافَ في الرأيِ بل وتَعتبِرُه ذَنْبًا كبيرًا؛ الجماعةُ السّريةُ هي جماعةُ «إلغاءِ العُقولِ».

محمد منيب المحامي، نِقابيٌّ شَهيرٌ، شَغَلَ - بعدَ هذهِ القصةِ - عُضويَّةَ مجلسِ نقابةِ المحامينَ مُتحالِفًا معَ جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ، ثم شَغَلَ عُضويَّةَ مجلسِ الشعبِ مُتحالِفًا أيضًا معَ جماعةِ الإخوانِ، انْخرطَ منيب في الأنشطةِ السياسيةِ الناصريَّةِ وكانَ متَّهمًا في إحدَى القضايا التي حَاكَمَتِ النّاصِريّينَ في أوائلِ الثمانينيَّاتِ، وبعدَ خُروجهِ منَ المُعْتقلِ سَاهَمَ في تأسِيسِ حزبِ الكرامةِ وأصبحَ أحدَ رُموزِه، وقَد رَبطتْني بهِ صلةُ صَداقةٍ واحترامٍ مُتبادَلٍ، فهو رَجلٌ مُثقَّفٌ دَمِثُ الخُلقِ، يُجيدُ عَرضَ فِكرتِه ويُقاتِلُ مِنْ أجلِها، ولعلَّكُم ستَعجَبُونَ حينَ أقولُ لكُم إنَّ محمد منيب كانَ هو مفتاحَ البِدايةِ.

بعدَ فترةِ المَخاضِ التي انْتهَتْ بخُروجي منَ الجماعةِ عامَ 2002م والتي

اعتبرتها شهادة ميلاد جديدة لي، حرصت على مقابلة معظم رموز الحركة الوطنية في مصر، والحديث معهم وإنصات السمع لهم، فالذي أصيب بالصمم الجزئي بحيث أصبح لا يسمع إلا من اتجاه واحد، يتوق شوقًا لكل الأصوات من كل الاتجاهات إذا ما انفتحت أذناه على الدنيا، وحين جمعتني الأقدار بالأستاذ محمد منيب دار بيننا حوار طويل عن التجربة الناصرية والتجربة الإخوانية.

قلت لمنيب: منذ فترة ليست بالقصيرة وأنا أعيش حالة مراجعة فكرية عن الإخوان والحركة الإسلامية وأولوياتها وفهمها، وأظن أنني وصلت من خلال هذه المراجعات والقراءات المتنوعة إلى مرحلة متقدمة، أجدني الآن أقف على أرض غير أرض الإخوان.

رد منيب مندهشًا: مرحى يا صديقي، نحن كذلك في الكرامة، فعلنا مثلما تفعل ولعلك تابعت تصريحات حمدين صباحي عن رؤيته للتجربة الناصرية ونقده لما يتعلق بسلبيات الفترة الناصرية فيما يتعلق بالحريات.

قلت: أنا جلست مع ياسر فتحي المحامي كثيرًا في الفترات الماضية، أنت تعرفه طبعًا، وهو صديق عزيز ووالده من الأصدقاء المحببين لنفسي، وقد دارت بيننا حوارات مفتوحة، كانت عبارة عن عصف ذهني، ياسر من القيادات الناصرية كما تعرف إلا أن تفكيره أقرب إلى الليبرالية، وقد طرحنا معًا بعض الأسئلة الهامة، منها مثلًا أنني أنتمي إلى التيار الإسلامي وعلى وجه التحديد الإخوان المسلمين، المفروض أنني داعية أدعو الناس لمنهجي،

ثم قرَّرتُ أنْ أخوضَ الانتخاباتِ، فقلْتُ للناسِ: انتخبُوني لأنَّ الإسلامَ هو الحلُّ، هه، هَلْ أنتَ مَعِي يا محمد؟

محمد منيب: معَكَ طبعًا.

قلتُ مُستطرِدًا: وهُناكَ آخرُ رشَّحَ نفسَهُ وقالَ للناس: انتخبُوني لأنَّني أملِكُ الخِبْراتِ والإمكاناتِ. مُعظَمُ الناسِ هُنا بطبيعتِهم المتدّينةِ سَيَنتخِبُونَ صاحبَ شِعار: «الإسلامُ هو الحلُّ» لأنَّهُ سيَكونُ في ذِهنِهم كأنَّهُ هُوَ الإسلامُ، ليسَتْ هذهِ هي المشكلةَ، هذا أمرٌ بسيطٌ، ولكنْ ما هُو شُعورُ مَنْ سيَنتخِبُ صَاحِبَ شعِار «الإسلامُ هو الحلُّ» ناحيةَ مَنْ رشَّحَ نفُسَهُ ضِدَّ صاحبِ هذا الشِّعارِ.

محمد منيب: المعَنى وَاضِحٌ طبعًا.

أكملْتُ: الطَّبيعيُّ أنْ يتسلَّلَ لضميرِ الناخبِ مشاعرُ سلبيةٌ ضدَّ مَنْ رشَّحَ نفسَهُ ضدَّ: «الإسلامُ هُوَ الحلّ»، سيعَتبِرُه قَطْعًا ضدَّ الإسلامِ، أليسَ كذلك؟! خُذْ عندَكَ أمرًا آخرَ، أنَا أدعُو الناسَ لمنهجِي، وأقَولُ لهم: كُونُوا مَعِي فَأَنا وَسَطِيٌّ معتدِلٌ، ثم بعدَ ذلكَ إذا جَاءَتِ الانتخاباتُ أَستدِيرُ بوَجْهِي الناحيةَ الأُخرى وأقولُ لهم: أنَا صَاحِبُ الحقِّ وأنتُم لسْتُم على شيءٍ. الانتخاباتُ تُورثُ الْعَداوةَ والبَغضَاءَ، وتَشحَنُ النفوسَ بالكراهيةِ والتَّحدِّي، فكَيفَ أَدعُو الناسَ ثم أقَفُ مُعادِيًا لهم أو لبعضِهم؟! الانتخاباتُ بموروثاتِها وتفريعاتِها ضدَّ طبيعةِ الدعوةِ والعملِ الدعويِّ، فإمَّا أنْ أكونَ داعيةً وإمَّا أنْ أكونَ مُنافسًا للناسِ، فالداعيةُ لا ينافسُ أحدًا ولكنّه يَضمُّهم إلى قلبِهِ، وقد فتَحْتَ لَنا هذهِ الحواراتِ يا أستاذُ محمد آفاقًا جديدةً في المعرفةِ وبسطَتْ لي طريقةً في

الاستقراءِ، وقد انكببْتُ على القراءةِ بعدَ ذلكَ في كافةِ مجالاتِ المعرفةِ وأضفْتُ لمشروعيَ الفِكريِّ أشياءَ كثيرةً، وأنَا الآنَ أكتبُ بعضَ أفكارٍ عن الأفكارِ التي اختلفْتُ معهَا وبسببِها معَ الإخوانِ، والحقيقةُ أنني أدوِّنُها لنفسِي.

منيب: ولماذا لا تَنشرُها؟ أنَا أيضًا شرعْتُ في كتابةِ أفكارٍ عن التجربةِ الناصريةِ ما لهَا وما عليها، فهناكَ العديدُ مِنَ الأخطاءِ التي شابَتِ التّجربةَ الناصريةَ، وأظنُّ أنّهُ مِنَ المفيدِ للوطنِ أنْ يكتبَ كلٌّ منّا تجربتَه ورؤيتَه لِفصيلِه ما لهُ ومَا عليهِ، أظنُّها ستكونُ كتاباتٍ ذاتَ فائدةٍ كُبرى.

قلتُ موافقًا: واللهِ شيءٌ طيبٌ، أنَا مستعدٌّ للنّشرِ، فمثلُ هذهِ الدراساتِ النقديةِ يجبُ أنْ تخرجَ للناسِ، ويكونُ مِنَ الأفضلِ أنْ ننشرَ معًا، لَيتكَ تكتبُ مقالاتٍ عَنْ نقدِ التجربةِ الناصريةِ، وأظنُّ أنّ هناكَ الكثيرَ مِنَ الصُّحُفِ التي سترحِّبُ بالنّشْرِ لنَا.

منيب: سأكتبُ، تَقترِحُ في أيِّ مكانٍ ننشُر؟

قلتُ: أنَا متواصِلٌ معَ كثيرٍ منَ الصُّحفِ، وأستطِيعُ الاتّفاقَ معَ جريدةِ «صوتِ الأمةِ» عَلى هذا.

منيب: فَلْيكنْ، اكتبْ ثم سأكتبُ أنَا بعدكَ.

عكفْتُ عدّةَ أيامٍ على الكتابةِ حتى أخرجْتُ ثلاثَ مقالاتٍ، وَضعْتُ فِيها خُلاصةَ أفكارِي وَقْتَها، ووقتَها كنْتُ ما زلْتُ قريبًا مِنْ أرضِ الإخوانِ، لم أبتعِدْ عنهُم كثيرًا؛ لِذلكَ كانَتِ المقالاتُ عبارةً عن «خواطرِ واحدٍ من الإخوانِ الذينَ ينصحُونَ الجماعةَ» وقد دارَتْ أفكارُ المقالاتِ حولَ أنّ الدّعوةَ ينبغي

أنْ تكونَ هي أُولى أولوياتِ الجماعةِ، ثم رَصدْتُ بعضَ الأخطاءِ النفسيّةِ التي تَسلّلتْ لأفرادِ الجماعةِ لابتعادِنا عن «منهجِ الدّعوة» وكانَ مِنْ هذهِ الأخطاءِ التي اعتبرْتها أمراضًا، مَرضُ الاستعلاءِ علَى الآخَريْنَ والتّباهي بالكثرةِ وذمّ كلّ مَنْ هو خارجَ الجماعةِ وكأنّهم ليَسُوا مسلميْنَ، والنّظرُ للمسيحيّينَ كأنّهم أنصافُ مواطِنِيْنَ، وفوقَ هذا فإنّني شددْتُ النّكيرَ على النّظامِ الخاصّ وفكرِه الذي اسْتَشْرَى في الْجماعةِ، وبعدَ أنْ كتبْتُ وأفرغْتُ خواطِري ذهبْتُ بالمقالاتِ لصديقَيْن إخوانيَّيْنِ من أحبّابي المقرّبيْنَ من منطقةِ الزيتونِ، الأولُ هو أحدُ الإخوانِ الكبارِ واسمُه «محمد البدراوي» وهو أخٌ له تاريخٌ كبيرٌ في الجماعةِ إلّا أنّه كانَ يحملُ في نفسِهِ العديدَ من الانتقاداتِ لتنظيمِ الإخوانِ في عهْدِه الجديدِ بعدَ أنْ وقعَ في قبضةِ القُطبيّينَ، والأخُ الثاني هو أحدُ شيوخِ الإخوانِ من أصحابِ التأثيرِ الكبيرِ على عامةِ الناسِ واسمُه الشيخُ «جابر حمدي» وكانَ أيضًا كثيرَ النقدِ للجماعةِ ولكنّه لم يصدَعْ بنقدِه أمامَ الناسِ إذْ كانَ يكتفِي بالحديثِ معنا عَنِ الهُوّةِ السحيقةِ التي وقعتْ فيها الْجماعةُ، وأزعمُ أنّني تعلّمتُ الكثيرَ مِنْ هذينِ الأخّينِ ومَا زلْتُ مَدينًا بالفضلِ لهما وإنْ كانتِ الأيامُ والأحداثُ قد باعدَتْ بيني وبينَ الشيخِ جابر حمدي، كانَ الأخانِ ولا يزالانِ مِنْ أصحابِ الحُظوةِ في نفسِي، ولعلّني أفسحُ لبعضِ الأسرارِ الشخصيةِ أنْ تتحدّثَ عن أحدِ هذيْنِ الأخينِ وهو الشيخُ جابر حيثُ كتبَ اللهُ لي الحجّ عامَ 2000 م وكنتُ في رحلةِ الحجّ هذهِ معَ فوجٍ لا أعرفُ فيه أيّ حاجّ، وفي مِنىً دعوْتُ اللهَ من قلبي صادِقًا أنْ يجمعَني لحظةَ الدّعاءِ بشخصٍ أُحبُّه، ثِقْ أنّكَ في الحجّ مُستجابُ الدّعوةِ، فقد كنْتُ أظنُّ أنّني أطيرُ ولا أمشي

على قدميْنِ من فَرْطِ الحالةِ الوجدانيةِ النُّورانيةِ التي احْتَوَتْني، وسُبحانَ اللهِ، لم أُكمِلِ الدُّعاءَ حتى رأيتُ أمامي الشيخَ جابر، وكانتْ مفاجأةً لي إذْ لم أكُنْ أعرِفُ أنه يَحجُّ هذا العامَ!!

شَغلْتُكُم كثيرًا بالكلامِ عن بعْضِ جَواهِرِ أسراري، ولكنَّ حديثي هُنا لَهُ مَغزًى، وحكايتي لهَا دلالَةٌ، فحينَما عرَضْتُ على الصَّديقيْنِ صاحبَيِ الْفَضلِ عَليَّ المقالاتِ التي كتبْتُها عن خَواطِري النقديةِ للإخوانِ، رَحَّبا بِها كثيرًا ونَاقشَاني في بعضِ مَعانيها، وأضافَ لي الشيخُ جابر بعضَ أفكارِها، وفي نفسِ الجَلسةِ عرَضَ الأخُ محمد البدراوي أنْ يَفتحَ لي مجالًا في قناةِ الجزيرةِ - وقتهَا كانتِ الوَحيدةَ - للمشاركةِ في بَرنامجٍ عَنِ الإخوانِ ورَأيِ بعضِ المُنفصِليْنَ، والمفصوليْنَ فيها وفي مَنهجِها الفِكريِّ الأخيرِ.

والآنَ بعدَ أنْ مرَّ على هذا اللِّقاءِ عشرُ سَنَواتٍ كَواملَ، تَسكُن قلبي الطمأنينةَ وأنا أتذكَّرُ تأثيرَ كلامِهما الطيبِ على نَفْسِي وعقلي: نحنُ لا نَبتغِي النقدَ للنّقدِ، إنْ أُريدُ إلاَّ الإصلاحَ ما اسْتَطعتُ. كانَ في قلبي قَبلَ هذا اللِّقاءِ بعضُ الشَّذَراتِ التي تجرَحُ ضَميري، كَيفَ أنتقِدُهم؟! أليسَتْ هذِه خِيانةً للعيشِ والملحِ؟! مِنْ أجلِ «عَضْمِ التربةِ» الذي جَمعنا لا تجعلْ كلماتِكَ تُفرِّقنا. بلا جدالٍ كنتُ أشعرُ بالحرَجِ من أنَّني سَأتعرَّضُ للجماعةِ بالنقدِ العَلنيِّ، ولكنَّ الحِوارَ بيننا فَتحَ لي مجالاتٍ لم أكنْ قد تَنبَّهتُ لهَا مِنْ قبل، قلْنا ونحنُ نُحدِّثُ بعضًا كأنَّ كلَّ واحدٍ منَّا يُحدِّثُ نفسَه التي بينَ جَنبيْه: جماعةُ الإخوانِ تُقدِّمُ نفسَها للجماهيرِ بحسبِ أنهَا تحملُ فوقَ أكتافِها الحلَّ الإسلاميَّ كما أنهَا تطرَحُ نفسَها للكافَّةِ باعتبارِ أنَّ أفكارَها بل كِيانَها كلَّه هو طريقُ الْخَلاصِ

للأمةِ، وفوقَ ذلكَ فإنّهَا تُقدِّمُ نفسَـها في النِّقابـاتِ والأنديةِ واتّحاداتِ الطَّلَبَةِ والبرلمـانِ باعتبارِ أنّهَا «رَاعِيةُ الْحلِّ الإسـلامي»، لذلكَ إذَا مَـا قَالَ الإخوانُ: إنّنَـا نَحرِصُ ونُصمِّمُ ونرَغبُ بكافةِ كلماتِ وحـروفِ التوكيدِ والجزمِ عندَما نَصلُ إلى الحكمِ أنْ نقيمَ العَدالةَ في مجتمعاتِنا.. أليسَ من حقِّنا حينئذٍ أنْ ننظرَ إليهـم وإلى حالهـم لِنرَى هَلْ هُـمْ يؤمنونَ بالعدالـةِ فعْلًا وهـلْ يُقيمُونها بينَ ظَهرانِيهـم؟! فَفاقِـدُ الشيءِ لا يُعطِيه.. ومَنْ لا يَملِـكُ لا يُنفقُ كما يَقولُونَ... فـإذا مَا وَجَدْنا منهـم اعوجاجًا في إقامةِ العدلِ وهم طُلَّابُه أليَسَ مِنْ حَقِّنا أنْ نُنبِّهَهـم عَلنًا وعَلى رُءوسِ الأَشـهادِ إلى هَذا الاعوجـاجِ ونُطالبهَم بتطبيقِ مَا يُجاهِدونَ من أجلِه؟!

وإذا قالُـوا: عندَمـا سـَنحكُم سـَنحترِمُ الـرأيَ الآخـرَ وسَيتَّسـعُ صدرُنا للمخالِفيْنَ... أليسَ مِنْ حقِّنا أنْ نشيرَ إليهم بالعُوارِ الذي أَصابَ نسَـيجَهم الحركـيَّ بصَددِ عَدمِ احْترامِ الرأيِ الآخرِ وضيقِ صدرِهم بالمخالِفيْنَ، ونرَفعَ أصواتَنا حتى تَصِلَ الآذانَ لكي نُنبِّههم إلى خُطورةِ أنْ يكونَ «صَدرُ التنظيم» ضَيِّقًا حَرَجًا تُجاه الرأيِ المُخالف؟!

من حقِّنا أنْ نَعرفَ... ومن حقِّنا أنْ نراقبَ الإخوانَ سَـواءٌ كنَّا منهُم أَو لَمْ نكنْ فإذا ما وَجَدْنا نقَيصَةً أو اعْوِجاجًا أو ازْدواجيَّةً قامَ حقُّنا في التنبيهِ.

مَـضَى زمنُ التعتيـمِ وما دامَ للإخـوانِ فرُصةٌ في يوم مـن الأيام في الحكم فـإنَّ علَينا واجبَ المراقبـةِ والنقدِ من الآنَ، بلْ إذا مَا وَجَدْنا حالَ الإخوان في باطنِهم يختلِفُ عن ظَاهِرهم، ووَجَدْنا خطابهَم المعلنَ يختلِفُ عَنْ ممارسـتِهم

الحقيقيـةِ فلْنـا الحقَّ آنـذاكَ في رفضِهم، وفي تنبيـهِ الناسِ لخطورةِ مَسلكِهم، ولْتَعلَمْ يا صديقي - هَكَذا قالَ لي محمد البدراوي - أنَّ رَفْضَ الإخوانِ ليس معَناه بأيِّ حالٍ من الأَحوالِ رَفضَ الإسلامِ، فإنَّنا نَقبلُ الإسلامَ طَبْعًا وقَطْعًا ويَقينًا ولكنَّ قبولَ الإخوانِ مسألةٌ فِيها نَظرٌ إذا كَانَ ظَاهِرُهم غيرَ باطنِهم.

أكملَ الشيـخُ جابر حمدي: لِذلكَ مَنْ هُوَ يا صديقي الذي يَستطيعُ مُراقبةَ سـلوكِ الإخوانِ الحركـيِّ ومعرفةِ مدَى تمَازُجِهم معَ مَـا يدَعُونَنا إليه؟ إنَّه أنَا وأنـتَ وغيرُنا ممَّـن انْضَمَّ إلى الجماعةِ أو مَنْ كانَ فِيها أو مَـا زالَ مِنْها أو مَنْ لَمْ يَدخُلْها في تاريخِه... ولا تَظنَّ أنَّ هذَا الواجبَ مُشترَطٌ فِقهيًّا لمصلحةِ الجماعةِ أيِّ جماعـةِ الإخـوانِ ولكنَّه يـا صديقي مُشـترَطٌ فِقهيًّا لمصلحةِ الأمـةِ... فَأَنا أُراقبُ سلوكَ الإخوانِ وأَنتقدُهم حتى أُلزِمَهم من ناحيةٍ إلى العودةِ إلى جادةِ الصوابِ... وحتى أُخبرَ الأمةَ لِتكونَ بعُمومِ أفرادِها أكبرَ رقيبٍ على الجماعةِ أو عَلى غَيرِها من الجماعاتِ.

ومـن هَذا البابِ قامَ حقُّنا في انْتِقادِ الحـزبِ الحاكمِ وفِي مُواجَهتِه بأخطائِهِ ومن هذَا البابِ أَيضًا قامَ حقُّنا في انتقادِ حزبِ الوفدِ وكَذلكَ الحزبِ الناصريِّ وحـزبِ التجمعِ وغيرِها من الأحـزابِ والكِياناتِ السياسـيةِ الأُخرى التي تُقدِّمُ نفسَها بهدفِ الوُصولِ إلى الحكمِ، لا أَفضليَّةَ لَنَا عَلى غَيرِنا مِنَ الْأَحزابِ والجماعاتِ في هذَا الشَّأنِ.

يَمَّمتُ بوَجهي ناحيةَ الأخ محمد حسـنين البدراوي وأَنا أَسـتزيدُه، كنْتُ أُرِيـدُ أنْ أَسـمعَ تأصِيلَه لحقِّ النقدِ: كلامُ أخِي الشـيخِ جابر جيدٌ، جيدٌ جدًّا،

وأنا أُحيّيه على هذا الفِكر الرائع، ولكنَّ البعضَ يقولُ إنَّ النَّصيحةَ في العَلَن فضيحةٌ فما رأيكَ؟ ألا أكونُ فضحْتُ الجماعةَ عندما أنتقدُهم علنًا؟

قالَ الأخُ البدراوي وهو يَنطلِقُ في الكَلِماتِ وكأنَّني فَتحْتُ فُوَّهةَ مِدفعٍ سريعِ الطَّلقاتِ: معُظَمُ أجيالِنا نحنُ أبناءَ الحركةِ الإسلاميةِ في عصرِها الحديثِ - وأقولُ معظمُنا حتَّى لا أقعَ في تعميمٍ يَسلُبُ الموضوعيَّةَ مِنْ قَولي- نَعيبُ عَلى الأنظمةِ الحاكمةِ استبدادَها ورفضَها للرأي الآخرِ، ثم نَقَعُ في نفسِ ما نَعِيبُ به أنظمتَنا المستبدَّةَ... وكَونُ الحركةِ الإسلاميةِ بعُمومِها تَنشُدُ الإسلامَ دِينًا ودَولةً، عقيدةً وشَريعةً... وتبغِي رَفْعَ رايتِه، فإنَّ هذا لا يُعطِيها قداسةً ولا يَعْصِمُها مِنَ الخطأ... فإذا سَكَتْنا عَنْ أخطائِها خوفًا مِنْ نقدٍ يَصُدُّ «المقبلينَ على الحلِّ الإسلاميِّ» فإنَّنا نكونُ قد شارَكْنا في استمرارِ الخَطأ، من أجلِ ذلكَ ولتنبيهِ الغافلينَ وتوسيعِ مداركِ الجاهلينَ قالَ سيدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه: «رَحِمَ اللهُ امرءًا أهدَى إليَّ عيُوبي» لم يَصِلْ سَيِّدُنا عُمرُ إلى لآلِئِ الحكمةِ تِلكَ إلَّا بعدَ أنْ وعَى حديثَ الرسولِ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحةُ**». قُلْنا لمنْ يا رسولَ اللهِ.. قالَ: «**للهِ ولرسولِه ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهم**». ولا يَخدعَنَّكَ أحدٌ يا أخ ثروت فيقولَ لكَ إنَّ النَّصيحةَ ينبغِي أنْ تكونَ في السِّرِّ لأنَّ مَنْ تَصدَّى لأمرِ المسلمينَ وانْشَغلَ بحالِهم وهمِّهم ينبغِي وُفْقًا للقواعِدِ الأصوليةِ الصحيحةِ أنْ ننصحَه في العَلَنِ.

استرسَلَ الأخُ البدراويُّ بحماسةٍ لم تنقطِعْ: يتملَّكُني العَجَبُ يا أخُ ثروت ويا أخ جابر ممَّنْ يجهلُونَ هذا الأمرَ أو يرفُضُونَه، ففِي غيابِ النقدِ العلنيِّ غيابٌ للشفافيّةِ وقد يَدفعُ هَذا التَّعتِيمُ إلى استِمراءِ البعضِ خَطأَهُم، النَّقدُ في السِّرِّ

يكونُ في الخُصوصيَّاتِ كَأنْ أَنتقِدَ أخي أو أَنصحَهُ في أمورِ حياتِهِ الشخصيةِ، أمَّا إذا نَصَحْنا جَماعةً أو حكومةً أو حِزبًا أو حَركةً تتَصدَّى لمصالح الأمةِ فإنَّنا يَنبَغِي أنْ ننصحَهم عَلنًا وعلى رُءوسِ الأشهادِ، وما تقدَّمَ الغربُ إلاَّ بذلكَ، ومَا تأخَّرْنا إلاَّ عندمَا جَهلْنا هذَا الحقَّ، لِذلكَ أصبحَ الحُكَّامُ لدَينا مقدَّسِيْنَ مُبرَّئِيْنَ مِنَ الخطأِ وأَصبحَتْ كلمةُ الحاكمِ أو الرئيسِ، أو الزعيمِ، أو أميرِ الجماعةِ حِكمةً، وإشارتُه عَبقريةً، وبما أنَّ الحركةَ الإسلاميةَ بعُمومِها تَقِفُ على رأسِ هذهِ الأمةِ ناصحةً لَهَا تَدعُوها دعوةَ الحقِّ فإنَّهَا ينبَغِي أنْ تَضرِبَ لَنا المَثَلَ بحَثِّ أفرادِها على النَّقدِ والتَّرحيبِ بنقدِ الآخَرِيْنَ حتَّى ولو كَانَ شَديدَ القَسوةِ دُونَ أنْ تَعتبرَ هَذا النَّقدَ سَبًّا أو شَتْمًا.

أدخلَتْ كلماتُ الأخَوينِ جابر والبدراوي عَلى فؤادِي سَكينةً فهَدهَدْتُ شُكوكي، تأصِيْلُهما الفِقهيُّ للنقدِ العَلنيِّ للجماعةِ سَكَنَ في ضَمِيري وأَراحَ فُؤادِي، قُلتُ لَهما قبلَ أنْ أنصرِفَ: أنا لا أَملِكُ إلاَّ كلمتِي سَأَقولُها، والأجرُ والثَّوابُ عَلى اللهِ.

■■■

كانَ صديقي الصحفيُّ الكبيرُ أسامةُ سلامة رئيسُ تحريرِ مجلةِ روزاليوسف حاليًّا قد قدَّمنِي للأستاذِ عادل حمودة أثناءَ قَضيَّةِ النِّقابيِّينَ، والحقُّ أنَّ الأستاذَ عادل حمودة رغمَ خُصومتِه الفكريةِ للإخوانِ فإنَّه فتحَ صَحيفةَ «صوتِ الأمةِ» للدفاعِ عن الدكتورِ محمد بديع ومختار نوح وإخوانِهما المحبوسِيْنَ، كنتُ أنَا بطبيعةِ الحالِ مصدرَ كلِّ الأخبارِ التي تمَّ نشْرُها في الصحيفةِ دفاعًا

عن الإخوانِ، بل إنَّهَ في أَحدِ الأعدادِ نَشرَ الأستاذُ حمودة رسالةً مِنَ الإخوانِ المحبوسِيْنَ موجَّهةً للأستاذِ رجائي عطية وجَعلَها العنوانَ الرئيسيَّ للصفحةِ الأُولى للجريدةِ، وكانتِ الرسالةُ مقصودةً في ذاتِها لكي يَصِلَ صَوتُ المحبوسِيْنَ للرأيِ العامِّ، قالَ لي الأستاذُ عادل: أنا أَختلِفُ معَ الإخوانِ جدًّا ولكنَّني معَ حَقِّهم في الحريةِ.

عندَما أخبرْتُ الأستاذَ حمودة بأنَّ لديَّ سلسلةَ مقالاتٍ عن الإخوانِ وهي بمثابةِ دراسةٍ نقديةٍ لهم رَحَّبَ بنَشْرِها جميعًا، كانَتِ افتِتاحيةُ المقالةِ الأولى مشكلةً، إذِ انْتقدْتُ فيها المستشارَ مأمونَ الهُضَيبي وقلتُ إنَّهَ قالَ في مُناظَرتهِ بمَعرضِ الكتابِ في أوائلِ التِّسعينياتِ في مواجهةِ فرج فودة: «إنَّ الإخوانَ يَتعبَّدونَ للهِ بأعمالِ النظامِ الخاصِّ قبلَ الثورة» وإنَّ كلماتِه هذِهِ كانتْ جارحةً لمدنيَّتِي وسِلميَّتي، أنتعبَّدُ للهِ بالاغتيالاتِ والتَّفجيراتِ؟!! أيُّ إسلامٍ هذا؟! وما الذي دَعَا المستشارَ الذي يَحترمُ القانونَ إلى أنْ يقولَ قولًا لا يَحترِمُ القانونَ؟!

نُشِرتِ المقالةُ في جريدةِ «صوتِ الأمةِ»، وكانَتْ بمثابةِ مفاجأةٍ لكثيرِيْنَ، أَذكرُ أنَّ المقالةَ الأُولى أَثارَتْ حالةً مِنَ الجدلِ، ولو عُدْنا إلى هذِهِ المقالاتِ لوجَدتَني أَستشرِفُ فِيها مُستقبلَ الجماعةِ وأكتبُ أدواءَها.

رَنَّ هاتِفي المحمولُ مساءَ اليومِ التالي لِنَشْرِ المقالِ وكانَ الذي يُهاتِفني هو الصَّديقُ الصحفيُّ عبدُالحفيظِ سعد الذي كانَ يعملُ وقتَها في «صوتِ الأمةِ».

قالَ لي عبدُالحفيظ: المقالُ عامَلَ ردودَ فعلٍ كبيرةٍ يا أبو يحيى، وهُناكَ مَنْ أَرسلَ لَنا رَدًّا علَى مَقالِك.

استفسَرْتُ قائلًا: مَن الَّذِي أرسَلَ؟

عبدالحفيظ: الأستاذُ محمد البدراوي والشيخُ جابر حمدي.

قلتُ: تقصِدُ أنهّما أرسَلا يؤيّدانِ نقدِي أو يختلِفانِ معَ بعضِه؟

عبدالحفيظ: لا، يرُدّانِ عليكَ، يقولانِ كلامًا سيّئًا في حقّك، سأُحضِرُ لكَ ردّهما؛ لأنّ الأستاذ عادل يُريدُ أنْ تردَّ أنتَ عليهما، ستصابُ «بالإستبحس» والذهولِ يا صديقي عندما تقرأُ ردَّهُما.

لم يَتلقّ عبدالحفيظِ ردًّا مني، فقدْ كانَ الصّمتُ حِينئذٍ أبلغَ مِنَ الْكَلامِ.

الفصلُ الرَّابعُ

مَـدِيـنـةُ النِّـسـيانِ

آهٍ مـن هـؤلاءِ الذين لا يَرَوْنَ إلاَّ أنفسَهم فلا يَشعُرونَ بآلامِ الآخرين، يُبصِرونَ ذواتِهم فيَجزعُونَ من همسةٍ تَمسُّهم فيَبطِشُونَ بأحبابِهم، آهٍ منهم وهم يَشعُرونَ أنَّهم الشمسُ، وأن أحبابَهم هُم الكواكبُ التي يَنبغِي أن تدورَ في فَلكِهم، تحكِي الأسطورةُ القديمةُ أنَّه كانَ هُناكَ شابٌّ اسمُه نرسيس كانَ مَفتونًا بنفسِه، رَأى هَذا الشابُّ بُحيرةً صافيةً فلم يَنتبِهْ لجمالِها، ولكنْ أَسعدَهُ فقط أنه كانَ يَرى وجهَه من خلالِ صفحةِ ماءِ البُحيرةِ الصافي التي كانَتْ في جلاءِ المرآة، فكانَ يذهَبُ للبحيرةِ كلَّ يومٍ ليتأمَّلَ جمالَ وَجْهِه، كانَ مَفتُونًا بصورتِه ذَاهِلاً عمّا حَولَه لدرجةِ أنه لم يَنتبِهْ لموضِعِ قدمَيْهِ فسَقطَ في البُحيرةِ وغرقَ، وفي المكانِ الذي سَقطَ فيهِ نَبتَتْ زهرةٌ سُمِّيَتْ نرسيس (نرجس) وعندَما مرّتِ الملائكةُ على البُحيرةِ وَجدَتْها تحوّلَتْ إلى دموعٍ، لم يُدهِشْهم هَذا فلابدَّ أنَّ البحيرةَ حَزنَتْ كثيرًا على نرسيسَ الجميلِ الذي كانَ يأتي إليها كلَّ يومٍ، ولكنَّ البُحيرةَ قالَتْ للملائكةِ إنَّها لم تُلاحِظْ أبدًا أنَّ نرسيسَ جميلٌ لأنَّها كانتْ دائمًا مشغولةً عندَما ينحنِي على ضِفافِها بتأمُّلِ جمالَ صَفْحتِها في عَيْنَيْه.

لعلّها آفةٌ أصابَتْ تنظيمَ الإخوان، ثمَّ انتقلَتْ لأفرادِ التنظيم، أظنُّكم تعرفُونها، نعَم هي بعينِها ورَسْمُها آفةُ «الشّيفُونيةِ» والشُّوفينيُّ هو الذي يَرى أنَّ قوميّتَه أو جماعتَه وتَنظيمَه وحِزْبَه هي «النّقاءُ» المُطلَقُ والحقُّ الذي لاشكَّ فيهِ والجمالُ السّرمدِيُّ، ولأنّهم يروْنَ هذا فإنّهم يَتعصّبونَ لجماعتِهم أو قوميّتِهم تعصُّبًا مَقيتًا غبيًّا لا عقلَ فيهِ، ولأنَّ التعصُّبَ هو الآخرُ آفةٌ؛ فقدْ أصبحَ مِنْ بابِ اللُّزومِ أنْ تتحوّلَ الشّيفونيّةُ مِنْ مشاعرِ حبٍّ إلى مشاعرِ كراهيةٍ، قَطعًا مشاعر كراهيةٍ، فَلِأنَّكَ ترَى أنَّ الحقَّ معَكَ وحدَكَ، فغيرُكَ هو الباطلُ، ولأنَّكَ ترَى أنكَ وَحدَكَ الصّوابُ فغيرُكَ هُو الخَطأُ، ولأنَّكَ ترَى نفسَكَ وحدَكَ الجمالَ فغيرُكَ هُو القُبْحُ، الشُّوفينيُّ باختصارٍ هو مَنْ يَنظُرُ للعالمِ من خلالِ مرآةٍ فلا يرَى إلاَّ نفسَه وما عَداه باطلٌ، تمامًا كما فعلَ نرسيسُ وفعلَتِ البحُيرةُ، فلا هُوَ رآهَا ولكنْ رَأَى نفسَه جميلًا بهيًّا على صَفْحتِها، ولا هِيَ رَأتْه فقَدْ رأتْ نفسَها صافيةً نقيّةً في جلاءِ عينيهِ، ولعلّكَ من خلالِ أسطورةِ نرسيسَ تَعرفُ كيفَ يُفكِّرُ الإخوانُ، هُمْ لا يُفكِّرونَ إلاَّ في أنفسِهم وأَولويّاتِهم ومَصالِحِهم فقطْ، كلُّ العالمِ باطلٌ إلاَّ أنتَ يا «إخوانُ» ولأنَّ هذهِ الطريقةَ تحكّمَتْ في طريقةِ التفكيرِ الإخوانيةِ لذلكَ انْتقلَتْ «نفسيًّا» إلى كثيرٍ من أفرادِ الإخوان، أنَا لا أَستطيعُ أنْ أقولَ هُنا إنّها انْتقلَتْ إلى كلِّ الإخوانِ فالتّعميمُ يُفقِدُ التّحليلَ منطقيّتَهُ، ولكنّها أَصبحَتْ طريقةَ تفكيرِ معظمِ الإخوانِ، فالشيفونيةُ كَما قُلتُ آفةٌ تتحكّمُ في النّفسيّاتِ والمشاعرِ، لذلك لابدَّ أنْ يكونَ لهَا إسقاطاتُها، ولابدَّ «إنسانيًّا» أنْ تتسلّلَ إلى النفوسِ برفْقٍ، خُطوةً خطوةً، وَيحكَ أيهُّا الأخُ الذي فقَدْتَ طريقَ الحبِّ فأصبحْتَ لا ترَى

الناسَ، لا ترَى مَنْ يحبُّونك، ترَى نفسَكَ فقط، ترَى أحبابَكَ لا شيء، هُمْ مجرّدُ أدواتٍ تُرضِي بهم ذاتكَ.

وَقعتْ عليَّ كلماتُ الصُّحفيِّ عبدالحفيظ سعد وَقْعَ الصَّاعقةِ ثُمَّ سرعانَ مَا تَمالكْتُ نفسِي، هل يستطيعُ قلبي أنْ يتصوَّرَ هذا؟! هَلْ مِنَ الإنسانيةِ أنْ يقومَ مَنْ جَلسُوا معِي ونحنُ نُفكِّرُ في شرعيّةِ النقدِ العَلنيِّ بالردِّ على الأفكارِ التي يَتّفِقُونَ معِي فيها؟! جنونٌ هذا، عَقلِي يَستدِيرُ رَغمًا عن أنفِي، أأضحكُ ساخرًا؟ أم أبكِي نَاقِمًا؟ حَدَّثتْنِي نَفسِي أنْ أُمسِكَ ورقةً وقلمًا لأكتُبَ، انتويْتُ أنْ أكتُبَ لمحمد البدراوي، أو لجابر حمدي خِطابًا شَخصِيًّا أُعاتِبُهما فيه، ولكنّنِي وَجدْتنِي لا أكتُبُ بلْ أرسُم!! رَسمْتُ شَخصًا بلحيةٍ طويلةٍ ثم أخذْتُ أُطيلُ لحيتَه إلى أنْ أوصلْتُها لصَدْرِه ثم رَسمْتُ قلبَه خَارجَ صَدْرِه وكأنّنِي انْتزَعْتُه مِنْ مكانِه، ثم قُمتُ بتكثيفِ اللحيةِ حتى جعلْتُها تُغطِّي على القلبِ وأخذْتُ أملأُ اللِّحيةَ سَوادًا بالقلمِ الرصاص فَاخْتفَى القلبُ خَلْفَ اللحيةِ، وبعدَ أنِ اسْتكملْتُ الرّسمَ شَعرْتُ براحةٍ وسَكِينةٍ تغشَى قلبِي فَطويْتُ الورقةَ ووضَعتُها في قلبِ أحدِ كُتبِي الأثيرةِ إلى نفسِي، ومَازلتُ مُحتفِظًا بهذِهِ الرّسمةِ حتَّى الآن.

ومع ذلكَ وقدْ لا يُصدِّقنِي بعضُهم لم أنقِمْ عليهما ولكنّنِي الْتمسْتُ لهما العُذرَ، ليسَ مِنَ السَّهلِ على القلوبِ التي تُحبُّ أنْ تكرَهَ وتَنقِمَ وتُبغِضَ، وقد أحببْتُ أصدِقائي فلا مَكانَ في قلبِي إلّا للحُبِّ، أحبَبْتُهم حتّى وهم يُؤذُونَ مَشاعِري ويَقْسُونَ عَلى قلبِي، ولكنَّ الحبَّ وإنْ كانَ يَروِي القُلوبَ فإنّه لا يَنفِي الألمَ.

لم أتحـدَّثْ من قبلُ عَن الشـيخ جابر حمدي ومنزلتـه في قَلبي، وأظنُّه يجهلُ هـذه المنزلـة لأنَّه لم ينظُرْ إلى قلبِي قط، ينتمِي جابـرٌ إلى نوعيةٍ من الدُّعاة تُبشِّرُ النـاسَ ولا تُنفِّرُهـم، شَخصيَّته وَدودٌ تألفُ النـاسَ سَريعًا ويألفُهـا الناسُ، وحـينَ تعرَّفْتُ عليـه أصبحَتْ له مكانـةٌ كبيرةٌ في قلبي واعْتَبرْتُـه أخِي الذي لم تَلِـدْه أمِّي، وقد يكونُ الصديقُ أحبَّ إلى قلبكَ مِنَ الأخِ الذي يرتبطُ معكَ بصِلـةِ الدَّم، كـما أنَّني لم أتحـدَّثْ من قبلُ عـن الأخ محمد البـدراوي ومنزلتِه العاليـةِ في فـؤادِي، وإنْ أردتُ أنْ أتحدَّثَ عَن البدراوي فسـأقولُ إنَّه الرَّجلُ الذي يَستطيعُ من فَرْطِ قوةِ شـكيمتِه واسـتقامةِ أفـكارِه أن يعقدَ صَداقةً مع الشـيطانِ فلا يَتبعُ الشَّـيطانَ ولا يتأثرُ به، ولكنَّ الشَّـيطانَ سَيَتبعُه، لَنْ يتبعَهُ الشـيطانُ مُرغمًا ولكنَّه سَـيَتبعُه محبَّةً وتأثرًا مِنْ قُدرتِه على شَرْحِ أفكارِه، المهمُّ أنَّني أحببتُ هذين الصديقين وجعلْتُهما صاحبَيِ الأولويةِ في مشاعِري، وعلى قَدْرِ حبِّكَ لِصديقِكَ يكونُ مِقدارُ ألمكَ، فما بالُكَ عندَما تكونُ الضَّربةُ الموجعةُ مِـنْ صَدِيقَيْنِ هُما الأقربُ إلى قلبي! قالَ لي عَاطفُ عواد عندَما أخبرْتُه هاتفيًّا بما نَقلَه لي عبدُالحفيظ سـعد تَعجُّبًا مِنَ الألغازِ التي نَعجزُ عن فَهْمِها: النفسُ البشريـةُ مُلغَّزةٌ وسـنَظلُّ نحارُ في فَهْمِ الناسِ ونَوازعِ تفكيرِهم. ثمَّ اسْـتَطرَدَ: لقد قَدَّمْتَ لهما الكثيرَ. فقلتُ له: إنَّما قدَّما هُما لي، يَكفِي أنَّني أحبْبتُهما، والحبُّ مِنحةٌ.

فقالَ عاطف: ولكنَّ اللهَ هو الذي مَنحكَ هذهِ المِنحةَ لا هُما، فالقُلوبُ بينَ يَدي الرحمن، لِذلك فالفَضْلُ للهِ.

قلتُ له: ولأنَّ الفَضلَ للهِ فإنَّما كنْتُ أُقدِّمُ لنفسِي عندَ اللهِ.

وفي ذاتِ اليوم زارني صديقي الصَّحفِيُّ عبدُالحفيظِ سعد وأعطاني صُورة من ردِّ جابر حمدي ومحمد البدراوي على مَقالِي الأولِ، طَويْتُه ولم أرغَبْ في قِراءته أمامَه.

سَألني: أفَلا تقرَؤُه؟

قلتُ باقْتِضابٍ: ليسَ الآنَ.

عبدالحفيظ: الأستاذ عادل مُنتَظِرٌ تَعقيبَكَ علَى رَدِّهما.

مُستَمِرًّا في اقتضابي: لَنْ أَردَّ.

عبدالحفيظ مُندَهِشًا: لماذا يا أبَا يحيي؟! ردُّهما فيه إساءةٌ لك!!

قلتُ بلا مبالاةٍ مُصطنَعةٍ: فَلْيَكُنْ، أُحِبُّ أنْ أَحصُلَ علَى حَقِّي في يوم أعظمَ من أيامِ الدنيا، لِيَتكُم تَنشُرونَ ردَّهُما كاملًا، وسَيَظَلُّ العمودُ المُوَاجِه لِردِّهما شَاغِرًا لا يُحِيرُ جوَابًا.

ظلَّ الردُّ مَطوِيًّا عندِي لليومِ لم أفُضَّه أو أَلمسْه، وكأنَّ الزَّمنَ توَقَّفَ عندِي ولم يتَحرَّكْ، أو كأنَّ الدنيا تجَمَّدَتْ عندَ هذِهِ الورقةِ، ألَا يتَحرَّكُ الزَّمنُ؟! إلى مَتَى سيظَلُّ الحزنُ يَعتَصِرُ قلبِي؟! ألَا لعنةُ اللهِ على الذاكرةِ، قد تنسَى الإساءةَ وتَغفِرُ لأحبابكَ ولكنَّكَ لَنْ تَنسَى الألمَ أبدًا.

قَرأْتُ الردَّ، انغرستْ كلماتُه في ذَاكرتي، كانَتِ الكلماتُ حَادةً قاسيةً غاضِبةً لا مشاعرَ فيها ولا حُبَّ وكأنَّها حِجارةٌ تَدحرجَتْ على رأسِي من فوقِ جبلٍ صَخرِيٍّ، ابتسمْتُ في نفسِي ووَقعَ في خَاطِري أنهَّما يَرُدَّانِ لِيَدْرءا عَنْ أنفسِهما

تُهمةَ أنَّهما يُوافِقانِ على نَقدِي، أَصبحْتَ تهمةَ عندَ أحبابكَ يا ثروت، وأصبحَ نَقدُكَ جريمةً يتبرَّأُ منها المقرَّبونَ منكَ، وقد يأتي اليومُ الذي يُصادِفانِكَ في الطريقِ فينظُرانِ للجهةِ الأُخرى، ثروت جَريمة، ثروت جَريمة، هل تَذكُرُ يومَ أنْ حاكَمُوكَ لأنَّكَ على صلةٍ بالدكتور سليم العوا؟! كانَ الدكتورُ العوا هو جريمتَكَ التي ارْتَكبْتَها!! ولأنَّكَ تجلِسُ معَ أبو العُلا ماضي في جمعيَّتِه وتشتركُ معَه في أنشطتِه، كانَ أبو العُلا هُو الجريمةَ التي لَصِقَتْ بكَ ولم تُرِدْ أنْ تدفعَها عنكَ، كَذلكَ سيَفعلُونَ معَ كلِّ مَنْ لهُ صِلةٌ بكَ، فأنتَ مَطرودٌ من رَحْمةِ الإخوانِ، أنتَ الشَّجرةُ المحَرَّمةُ التي لا يجوزُ لأحدٍ منَ الإخوانِ أنْ يَقترِبَ منها.

أمعنْتُ النظرَ في أسلوبِ عباراتِ الردِّ المؤلِم، أسلوبُ الكِتابةِ كانَ للشيخ جابر حمدي، هَكَذا هي لغتُه عندَما يكونُ غاضِبًا، أمَّا محمد البدراوي فَلَا يُغلِقُ الأبوابَ أبدًا في وَجْهِ أحدٍ، قد يَفتحُها على مِصراعيْها، وقد يُوارِبُها.

«......... ما هِيَ الْجهةُ التي دَفعتْكَ لكتابةِ هذا الْمقَالِ؟ ما سَردْتُه في مقالِكَ يَصُبُّ في مَصلْحةِ أعَداءِ الإسلام.. أفكارُكَ هي أفكارُ مَنْ ظَلُّوا يُحارِبُونَ الإخوانَ لحاجةٍ في أنفسِهم.. نَقدُكَ غيرُ صَحيحٍ وقد حرَّكَهُ الْهوَى والغِلُّ، وأنتَ تَتجنَّى على إخوانِكَ أصحابِ الفضَلِ عليكَ، ما نَسبْتَه لأخِينا الكبيرِ المستشارِ محمد المأمون الهُضَيبي محَضُ كَذِبٍ......... توقيع محمد خسنين البدراوي، جابر محمد حمدي».

غالبتُ دمُوعي وأنا أقرأُ الردَّ، أقنعتُ نفسِي أنَّه لا يَهُمُّ أنْ يكونَ هَذا هو

سلوكُ الأصدقاءِ، المهمُّ هو أنْ يكونَ سلوكُكَ مُعبّرًا عن قيمتِك، أنتَ تُمارِسُ قناعاتِكَ أنتَ، فَدَعْهم يُمارِسُونَ طُموحاتِهم.

ولكنْ يَبدُو أنّ هناكَ أشياءَ لا أعرِفُها حَدثَتْ فَألزمَتْهم بهذا الردِّ المؤلمِ!! مأساةٌ أنْ تكونَ مُكبّلًا لا تَستطيعُ أنْ تُعبّرَ عن رأيكَ، مأساةٌ أنْ يكونَ قرارُكَ وفكرُكَ مَرهُونًا عندَ آخَرِيْنَ يَملِكونَ إرغامَكَ على الصّمتِ وإرغامَكَ على الكلامِ... بئسَ العبوديةُ التي جَعلَتْ بَعضَنا مَسوخًا مُشوَّهةً.

كانَتْ إرهاصَاتُ هَذا الردِّ مُفصِحةً عن نفسِها قبلَ سَاعاتٍ من نَشْرِ مقالي في «صوتِ الأمةِ»، فقدْ كنْتُ أَحضرُ عَزاءَ والدِ زوجةِ الشيخِ جابر حمدي، وعندَما سلَّمْتُ عليهِ مُعزِّيًا همَسَ في أُذني: لا تَنشُرِ المقالاتِ، اسحَبْها فورًا.

قُلتُ له: قُضِي الأمرُ الذي فيهِ تَستفيانِ، الجريدةُ خرَجَتْ مِنَ المطبعةِ وبعدَ ساعتَينِ ستَكونُ عندَ الباعةِ، ولكنْ لماذا أَسحَبُ المقالَ؟!

زمَّ جابر شفتيْهِ ثمّ قالَ: غيَّرتُ رأيي، لا أُوافقُكَ على النَّقدِ العَلنيِّ.

قلتُ مُندهِشًا: ولكنّني لم أُغيّرْ رَأيِي، هَذا مقَالِي وليسَ مَقالَكَ، هذِهِ أفكَارِي استقيتُها من تجْرِبتي ومن تجارِبِ الآخرِيْنَ وأنتَ واحدٌ مِنْ هؤلاءِ الذينَ كوَّنْتُ جُزءًا مِنْ رَأيِي من خلالِهم.

أَومأَ جابرٌ برأسِهِ مُبدِيًا امْتِعاضَهُ، فَأوجسْتُ خِيفةً، يبدُو أنّ التاريخَ ما فَتِئ يُعِيدُ عِبارةَ قيصر: حَتّى أنتَ يا برُوتُس!

بعدَ أنْ قرأْتُ الردَّ غَمرتْني حالةٌ مِنَ السَّكِينةِ وكأنّني أَسبحُ في بَحرِ اليقينِ، كلُّ الدنيا تتَهاوى أمامَ اليقينِ، وما رِحلتِي في جماعةِ الإخوانِ إلاّ خُطُواتٌ

مشيتُها للبحثِ عَن الحقيقةِ، ما الإخوانُ؟ ما الدُّنيا؟ ما الزَّمنُ؟ ما الحقُّ؟ دارَ في ضَمِيري أنَّنَا في حياتِنا الدنيا نَسِيرُ في رحلةِ اليقينِ، نَصعدُ في مَدارجِهِ، من علمِ اليقينِ، إلى عينِ اليقينِ، إلى حقّ اليقينِ، وإذا بنا في نورِ اليقينِ، وأينَ نحنُ من نورِ اليقينِ؟! ومعَ حالةِ الراحةِ الروحيةِ التي غَشِيَتْني لم يَغمِضْ لي جَفنٌ طوالَ الليلِ، ما الراحةُ؟ ما السَّعادةُ؟ ما الحزنُ؟ ما الفرحُ؟ ما الألمُ؟ ما هِيَ إلاّ مُنازَعاتٌ بينَ الروحِ والنَّفْسِ.

■■■

سَمعْتُ مُفكِّرًا كبيرًا يقولُ: إنَّ الحاضِرَ لا زمنَ له. تَأمَّلْتُ هذهِ الكلمةَ وأنا أَسترجِعُ الأحداثَ الرّهيبةَ التي مَرَّتْ بي وأنَا في جماعةِ الإخوانِ أو تلكَ التي مَرَتْ بي بعدَ أنْ تركْتُها، الحاضرُ لا زمنَ له، كلمةٌ تستحقُّ التأمُّلَ، هَلْ يَستطِيعُ أحدُنا أنْ يَضبطَ الوقتَ الحاضرَ ويحبِسَهُ حتّى لا يَمُرّ؟! نعَم نحنُ نُشاهِدُه ونَشعرُ بهِ ولكنَّه في عُمرِ اللّحظةِ لا شيَء، ولكنْ وَحْدَه القَلَمُ هو الذي يَستطيعُ أَنْ يَستدْعِيَ الماضِي ويجعلَه حاضِرًا، تَظلُّ الكَلمةُ مكتوبةً فيَظلُّ الحَاضِرُ قائمًا.

ولكنْ مَا جَدْوَى أنْ يظَلَّ الحاضرُ قائمًا؟! أليسَ هذا مَدعاةً لأنْ يتكرَّرَ الألمُ، لَئِنْ يتكرَّرَ الألمُ أفضلُ مِنْ أنْ تَضِيعَ التَّجرِبةُ، فالتجربةُ هي إضافةٌ ثريَّةٌ تَستفيدُ منها البشريةُ، والألمُ هو نَغزةٌ في قلبِ واحدٍ من البشرِ، والبشريةُ أَبقَى مِنَ البَشرِيّ، وفي لحَظاتِ الألمِ يَستَدعِي الإنسانُ مَنْ يُخفِّفُ عنهُ ألمَهُ، يبثُّ لهم شُجونَه، خِفْتُ أنْ أَحكِيَ ما حدَثَ مِن «الصّدِيقيْنِ» لِصدِيقي أحمد ربيع

الـذي كانَ رفيقًـا لي في رحلـةِ «التَّصحيـح الإخوانيّةِ» فاللهُ أعلـمُ بما يدورُ في كواليس الإخوانِ الخفيّةِ، وسُـبحانَ اللهِ مُقلِّبِ القلوبِ، ولكنَّني جلسْتُ معَ صديقيْنِ آخرَيْنَ لا عَلاقةَ لهما بالإخوانِ أحكِي لهما وأنزِفُ لهما ألمي.

الصديقُ الأولُ هو «السيدُ علي حامد» وهو مِنَ الشَّخصيَّاتِ النَّادرةِ التي قلَّما تُقابلُها في حياتِك، فهُوَ شَـخصيَّةٌ مُسـالِمَةٌ راضيةٌ قنوعٌ هادئـةٌ متصالحةٌ معَ ذاتِها، لا يُحبُّ المعـاركَ ولا الخُصومـةَ، وقـد كانَ رفيقَ رحلـةِ عُمرٍ، قضَيْنـا في مكتبِ المرحـوم محمد علوان سـنواتٍ، ووَقَّعْنا معًا على اسْتِمارةِ عُضويـةٍ بحزبِ الوفدِ عندَمـا طَلَـبَ منَّا فـؤاد باشـا سراج الدين ذلـكَ، جمَعَتْنا الأيـامُ والأحداثُ فلَمْ نَفترِقْ منذُ أنْ تعارَفْنا، وهُوَ معَ قناعتِه وَصَلَ إلى أعلى المناصِبِ في قِطاعِ البنوكِ.

طيَّبَ «سـيد حامد» خاطِـري وهَدهَدَ ألمـي وأخذَ يضاحِكُنـي ويُذكِّرُني بمُرافعةٍ مُضحِكةٍ ترافعَها أحدُ الزُّملاءِ المحامينَ في قَضيّةِ إعلامِ وراثةٍ وكأنَّها جِنايةُ قتلٍ، قالَ لي سـيد: هَـلْ تذكرُ هذِهِ المرافعةَ؟ صَديقُـكَ محمدُ البدراوي يَعرِفُها، وأظنُّ جابر حمدي يعرِفُها هوَ الآخر.

قلـتُ لـه وأنا أغتصبُ ابتسـامةً: أحكِي لكَ عنَّا فعَـلاهُ معي، تحدِّثُني عن مرافعـةٍ يَعْرِفانِهـا!! اِسـتكمَلَ كلامَهُ وكأنَّهُ لم يسـمَعْنِي: وَقـفَ المحامي أمامَ القاضِي وهو يقولُ: «لقد مَااتَ الرجلُ، نعَم مااااات، وكلُّنا سَـنَموتُ، وهَل المـوتَ إلاَّ حالـةٌ تحـدُثُ لنَا فتأخُـذُ منَّا الحياةَ، وقـد أحضَرْتُ معِي يا سـيادةَ القاضِي».. وهُنا يا ثروت قاطَعَه القاضِي قائلًا: إيه؟ أحضرْتَ معَك الميْت.

أخَذْتُ أضحكُ وسـيدُ يَسـتكمِلُ مرافعةَ إعلامِ الوِراثـةِ الذي لا يترافَعُ فيهِ

أَحدٌ أصلًا، ثم قالَ بعدَ أنْ أنهى المرافعةَ المسرحيَّةَ: يا عم ثروت كلُّنا نموتُ والوقتُ يموتُ، والعُمرُ ينتهي، اعتبرْ ما فاتَ ماتَ، اعتبرْ ردَّهما شيئًا مُنقضيًا مَيْتًا وَالْتمِس العُذْرَ لأصدقائك فلعلَّهم أُرغِمُوا على ذلك، ولا شَكَّ أنَّ كلامَ سيد حامد أعادَ لي ثِقتي في نفسِي وجَعلنِي أرْثي لهؤلاءِ الأصدقاءِ الذين لا يملِكُونَ التعبيرَ عَنْ آرائِهم لدرجةِ أنَّهم يخشَونَ أنْ يَلصَقَ بهم رأيُ أحدِ إخوانهم.

الصَّديقُ الثاني الذي رَويتُ له ما حَدثَ هو عاطف عواد الذي تَعرِفُونَهُ والذي ترَكَ الإخوانَ قبلي، وقد أبدَى عاطف أَسفَه ممَّا حَدَثَ وقالَ لي: لا تألَمْ من هذا التصرفِ فقد واجَهْتَ في الشهورِ الأخيرةِ دسائسَ ومكائدَ، رأيْنا نَاسًا صِيْغتْ قلوبُهم من الحقدِ، ولكنَّنا كُنَّا دائمًا أعلى مِنَ الآخرِيْنَ، يكفي أنَّنا أَعلى بفكرِنا وأَخلاقِنا ودِفْءِ قُلوبنا، لقد رَفَعْنا بعْضَهم يا صديقي فوقَ أكتافِنا فلم نَشُمَّ منهم إلاَّ رائحةَ أحذيتِهم الكريهةِ، لا عليكَ مِنْ هذِهِ التَّصرُّفاتِ وَاحْتَسِبْها عندَ اللهِ (إحنا محتاجين أن تَثقُلَ كِفَّةُ حَسناتِنا يومَ القيامة) ثم دعاني عاطف إلى حضورِ اجتماعٍ سياسيٍّ مهمٍ في مكتبِ المحامي عصام سلطان بشارعِ قصرِ العَينيّ يحضُرُهُ بعضُ الشخصياتِ السياسيةِ والإعلاميةِ.

حينَ حضرْتُ الاجتماعَ كنتُ مشتَّتَ الذِّهنِ، لم أنتبهْ لتفصيلاتِ الحوارِ وإن كنْتُ قد عَرفْتُ مَضمُونَه، كانَ الموضوعُ هو البحثَ عن صيغةٍ تجتمعُ حَولَها قُوى المعارضةِ لمواجهةِ مبارك ومسلسلِ التوريثِ، وقتَ هذا الاجتماعِ لم تكنْ «حرَكَةُ كفايةُ» قد نشَأَتْ بعدُ، ويَبدُو أنَّ هذا الاجتماعَ كانَ مِنْ إرهاصَاتِ «كفاية». كانَ الحاضِرُونَ هم الكاتبَ الصحفيَّ إبراهيم عيسى، والكاتبَ الصُّحفِيَّ جمال فهمي عضوَ مجلسِ نقابةِ الصُّحفِيّينِ وعاطف عواد

وعصام سلطان والمحامي الناصريّ ياسر فتحي، وكانَ الحِوارُ كلُّه يدورُ حولَ الآلياتِ التي نستطيعُ من خلالِها أنْ نجمَعَ قُوى المعارضةِ في كِيانٍ واحدٍ على اختلافِ توجُّهاتِهم، فأخذْنا نكتبُ أسماءَ المعارضيْن الذين كنا نُحسنُ الظَّنَّ فِيهم ونَرى أنَّهم مِنْ أصحابِ التَّوجُّهاتِ الوطنيّةِ المُخلصةِ، وكانَ رأيُ إبراهيم عيسى وجمال فهمي أنْ نقترحَ أسماءَ بعضِ أفرادٍ من جماعةِ الإخوان، وقالَ عيسى: إنَّنا يجبُ أنْ نضعَ في اعتبارِنا أنّ جماعةَ الإخوانِ جماعةٌ وطنيةٌ ينبغِي أنْ تكونَ شريكةً في العملِ الوطنيِّ.

في نهايةِ الاجتماعِ قالَ لي إبراهيم عيسى قبلَ أنْ ينصرِفَ مِنَ اللّقاءِ: أنَا عرَفْتُ مِنْ عاطف وعصام أنّ بعضَ أصحابِكَ أرسَلُوا ردًّا علَى مَقالِكَ «لصوتِ الأمةِ»، ماذا ستَفعلُ؟ هلْ سترُدُّ عليهما؟

قلتَ وأنَا أصطنعُ ابتسامةً: لا لَنْ أردّ.

إبراهيم عيسى ضَاحِكًا: طُولَ عُمرِي وأنَا أقولُ إنَّ هذهِ الجماعةَ هي عبارةٌ عن جَسدِ ديناصورٍ وعقلِ عُصفورٍ، إذا حدَثَ جديدٌ أخبرْنِي فهذهِ الجماعةُ تُمارِسُ الأكشنَ والإثارةَ.

وفي نفسِ اليومِ هَاتفَني عبدالحفيظ سعد: (أنَا مُشْ قادرْ أفهم الناس دي).

أنا: (خير، حصلْ إيه تاني؟)

عبدالحفيظ: ألغازُهم باتَتْ غيرُ مفهومةٍ.

قُلتُ لهُ مُستَفهِمًا: هَلْ مِنْ جديدٍ؟

عبدالحفيظ: أرسلَ صاحبكَ محمد البدراوي محاميًا إخوانيًا مفوَّضًا منهُ ومن الجماعةِ يطلب سَحْبَ ردِّه هو وجابر حمدي وعدمَ نَشْرِه، وأعطانا بدَلًا منهُ ردًّا مِنَ المستشارِ مأمونِ الهُضَيبي، وسآتي إليكَ بردِّ الهضيبي لعلَّكَ تَردُّ عليه.

■■■

أمامي سَاعاتٌ ويجبُ أنْ أُعقِّبَ فِيها عَلى رَدِّ المستشارِ مأمون الهضيبي، ولكنَّ ردَّ الهضيبي أثارَ علامةَ استِفهامٍ كُبرى في خَاطِري، الرجلُ يكذِبُ، نعَم مأمون الهُضَيبي كذّابٌ كذّاب، يبدُو أنَّ مقدِّمةَ مقالي هي التي أوجعَتْه فاضطُرَّ إلى الكَذِبِ وكأنَّهَ يُدارِي سَوْأته فطفِقَ يَخصِفُ عَليها مِنْ ورقِ بعضِ الكُتُبِ.

كنْتُ قد كتبْتُ في مقدمةِ مقالي: صَدمَتْني عِبارةٌ قالهَا المستشارُ مأمونُ الهُضَيْبي في مُناظَرتهِ بمَعرِضِ الكِتابِ عامَ 1992م في مواجهةِ فَرج فودة: «نَحنُ نَتعبَّدُ للهِ بأعمالِ النظامِ الخاصِّ للإخوانِ المسلمينَ قبلَ الثورة».

كانَتْ هذهِ العبارةُ في مقالي هِيَ مَوضعَ ردِّ المستشارِ الهُضَيْبي حيَثُ قَالَ: إنَّ الكاتبَ لم يَكُنْ صَادِقًا حينَ نَسبَ هذهِ العبارةَ لي.

استَشهَدَ الهُضَيبي في رَدِّهِ بتفريغِ المناظرةِ الذي قَامَتْ بهِ هيئةُ الكتابِ حيثُ وَضعَتِ المُناظرَةَ كلَّهَا في كتابٍ نَشرَتْه وطرَحَتْه في الأسواقِ، وقالَ إنَّ تفريغَ هيئةِ الكتابِ لم يَرِدْ بهِ هذهِ العبارةُ مما يدلُّ على أنَّ الكاتبَ غيرُ صادقٍ، دَارَ رأسِي مِنْ هذا الردِّ، فَأنَا أثقُ في ذاكرتي خاصةً أنَّ هذهِ العبارةَ تركَتْ أثرًا عَميقًا في نفسِي بل كانتْ بدايةً لبَحثِي عن «الحقيقة». هذهِ العبارةُ بالذَّاتِ هي التي فتحَتْ لِي حِوارًا معَ أسامة الغزاوي وهو أحدُ الإخوانِ من منطقةِ

الزيتونِ الذي قَصَّ عليَّ لماذا تزَلَّفَ الهُضيبي للنظام الخاصِّ ورجالِه. كانتْ قِصَّتُهُ معَهم مثلَ قصةِ «تاييس» التي كتبَها الروائيُّ الفرنسيُّ «أناتول فرانس» عَنْ تاييس والراهبِ بافنوس.. ذهبَ بافنوس إلى تاييس كي يَسحبَها إلى دائرةِ الإيمانِ فَخَرجَ هو مِنْ دائرةِ الإيمانِ، فهَلْ يُعقَلُ أنْ تكونَ هذهِ العبارةُ قَدِ اخْتَفَتْ عندَ تَفريغِ المُناظرةِ في كتابٍ؟ هل كانَتْ سَقطةَ لسانٍ من الهُضَيبي فخَافَ أنْ يُمسِكَها الناسُ عليه؟ ولكنْ مَنِ الذي حَذَفَها؟! هل الإخوانُ يُسيطِرونَ على الهيئةِ المصريةِ للكتابِ دُونْ أنْ يَدرِي أحدٌ؟! كانَ لابدَّ أنْ يكونَ رَدّي موثّقًا فقَضَيْتُ يَومي أبَحثُ عن أحدٍ يكونُ قد سَجَّلَ المُناظرَةَ، سألتُ صَدِيقيَ الصُّحفِيَّ أسامة سلامة الذي سَألَ بدَورِه الكاتبَ الصُّحفيَّ حلمي النمنم الذي يَهتَمُّ بالتّأريخ إلاّ أنّ الردَّ جاءَ مَحمُولًا على خَيبةِ الأملِ، تَذكّرَ حلمي النمنم أنّ الهُضَيبي قالَ هذهِ العبارةَ إلاّ أنه لم يجدْ تسَجيلًا للمُناظرة!!

هَداني تَفكيري أنْ أذهبَ للعميدِ حسنين فَقدْ يكونُ خَبرُ هذهِ المناظرةِ قد وَقَعَ تحتَ يَديْهِ، وكنْتُ قَبلهَا قد قُمتُ بقَيدِه في نقابةِ المحامينَ بعدَ خرُوجهِ على المعاشِ، وفي بيتِهِ حَكيْتُ له القِصَّةَ فقالَ لي إنّهَ يذكُرُ شَيئًا مثلَ هذا ولكنَّه لا يتذكَّرُ عَلى وَجْهِ الدّقّةِ تفَصِيلاتِ هذهِ المناظرة، ثم قالَ إنّهُ سيسَعَى مِنْ خلالِ صَديقٍ له في فَرعِ القَضَاءِ العسكريِّ للحُصولِ على شَريطِ المُناظَرة، لم يَتوانَ العميدُ حسنين عَنِ المساعدةِ بَلْ قام عَلى الفورِ بالحديثِ معَ صَديقِهِ هاتفيًا فاسْتَمهلَهُ الرجلُ، وفي غُضونِ دقيقةٍ ردَّ عليهِ بأنّه عثرَ على الشريطِ وسيُرسِلُه لهُ معَ «مخصُوصٍ» فورًا.

انتظرْنـا إلى أنْ حـضرَ الشّريـطُ، وكأنّنـي أُسـابِقُ الزّمـنَ قُمـتُ بتشـغيلِهِ وضَبطْناهُ على المقطعِ الذي تحدَّثَ فيهِ المستشارُ مأمونُ الهُضَيبي إلاّ أنّ العِبارةَ المنشـودةَ لم تكُنْ موجُـودةً!! كانَتْ مَفقُودةً، هل كنْـتُ أَعيشُ في دُنيا أُخرى، أأَصابني مَسٌّ مِنَ الجنِّ أو مَرضٌ نفسيٌّ خَلطَ عندي بينَ الحقيقةِ والخيال ؟!!

تركْـتُ بيتَ العميدِ وأنا في قِمّـةِ الحيْرةِ، ثم عادَ لي الأملُ مِنْ جديدٍ عندَما عثَـرْتُ عندَ عاطف عوّاد على تسـجيلِ كاسـيت، وشَريطِ فيديـو للمُناظَرةِ، ولكنّنـي عُـدْتُ كما يقولُـونَ «بخُفَّيْ حُنَيْن» ويـا لَبُؤسَ حُنينٍ الـذي ما فتِئَت البشريـةُ تحمِلُ عندَ فشَـلِها خُفَّيْهِ، فقدِ اخْتَفَتِ العِبارةُ السّـحريَّةُ المنكودةُ مِن الشّريطَـيْن، لا هِـيَ في الكاسـيتِ ولا هي في الفيديو، هَـلْ تبخَّرَتْ؟! هَلْ أنَا أحدُ أفرادِ فيلـمِ «المنسيّ» لجوليان مور FORGOTTEN حيثُ قامَتْ كائنات فضَائيـةٌ بمَحْوِ ذاكـرةِ البشرِ ولكنّها فشِـلَتْ في أنْ تمحُوَ طِفْـلا صَغيرًا قامَتْ باختِطافِـه مِنْ ذاكرةِ أمّه، قامَـتِ الكائناتُ الفَضَائيّةُ بمَحْوِ كلِّ شَيءٍ يَدلُّ على وجـودِ هـذا الطفـلِ إلاّ أنّ قلبَ الأمّ ظَـلَّ حافِظًا له حتّـى إنّ الناسَ اتّهمُوها بالجنـونِ، فيلم «المنسي» الإخوانيُّ لا يَبتعِدُ كثيرًا عَـنْ فيلمِ جوليان مور، فقدْ قامَـتْ كائناتٌ إخوانيّةٌ بمَحْوِ كلِّ شَيءٍ يَـدُلُّ على أنّ الهُضَيبي قالَ في مَعرِض الكتـابِ عـامَ 1992م: إنّ الإخـوانَ يتَعبَّدُونَ للهِ بأعمالِ النظـامِ الخاصِ قبلَ الثـورةِ!! ولكـنّ قلبـي ظَلّ متَذكّـرًا هـذِهِ العبارةَ التـي كانَتْ صادِمـةً لي كما وَصفْتُها في مَقالي.

لا يُمكِـنُ أنْ يَستَسِيغَ عَقلِي أنّنَي توهَّمتُ أو خُيِّلَ لي، ما زِلْـتُ أذكرُ اليومَ الذي قالَ فيهِ الهُضَيبي هذهِ العبارةَ، وما زلتُ أذكرُ أثرَها في نفسِي، فإذا ارْتبطتْ

كلماتُ الهُضَيبي بوقائعَ وأحداثٍ تعقيبًا عليها ونقدًا لها وثورةٍ عليها فلا يُمكِنُ أنْ تكونَ خَلْطًا وتخليطًا، كنتُ أقفُ في مَعْرضِ الكتابِ في شتاءِ 1992م مُشاهِدًا للمُناظرةِ بينَ الدولةِ الدينيةِ والدولةِ المدنيّةِ، وحينَ قالَ مأمونُ الهضيبي عبارتَه تلكَ ضجّتِ القاعةُ بالتّهليلِ والتكبيرِ والتّصفيقِ، نظرْتُ لحظتئذٍ إلى الوجوهِ التي تجاورُني والْتفتُّ بوَجْهي للخَلْفِ فوجدْتُ الفرحةَ قد استَولَتْ على مجامعِ القلوبِ وسيطرَتْ على مشاعرِ الحاضرِينَ، ورغمَ أنّني هتفْتُ مُكبرًا بلا وَعْيٍ منّي معَ آلافِ الإخوانِ الذين اكتظّتْ بهم القاعةُ، وكأنّ الحالةَ الشّعوريّةَ الجمعيّةَ التي خيّمَتْ على الجميعِ احْتَوتْني وامتدّتْ إلى نفسيّتي وسَحبَتْني بداخلِها، فإنّني اسْتَغربْتُ نفسِي بعدَ ذاكَ وتعجّبْتُ مِنْ هُتافي وكأنّ الذي هَتَفَ وكبَّرَ ليسَ أنا بل شخصٌ غيري، وبعدَ المناظرةِ رأيْتُ المهندسَ أسامة الغزاوي الذي كانَ يشغَلُ في منتصفِ الثمانينياتِ من القرنِ الماضِي موقعًا قياديًّا للإخوانِ المسلمينَ بمنطقةِ شرقِ القاهرةِ، وكانَ يُزاملُني في أُسرتي الإخوانيةِ بمنطقةِ الزيتونِ، إلّا أنه لسببٍ أو لآخرَ انقطعَ عَنِ الإخوانِ، وبسببِ عبارةِ الهُضَيبي هذهِ دَخلْتُ معَ أسامةَ في مناقشاتٍ طويلةٍ مُستفيضةٍ فتحتْ لي آفاقًا معرفيّةً عَن تاريخِ جماعةِ الإخوانِ لم أكنْ عَلى عِلمٍ بها من قبلُ، فكيفَ يُرسِلُ الهضيبي ردًّا لجريدةِ «صوتِ الأمةِ» على هذهِ العبارةِ مُنكِرًا إيّاها ويَقولُ إنّها مِنْ خيالي!! ولكنْ قدْ يكونُ إنكارُ الهُضَيبي لتلكَ العِبارةِ مُبرَّرًا ومَفهومًا ولكنْ كيفَ وبأيِّ طريقةٍ تمَّ محوُ هذهِ العبارةِ من كلِّ التّسجيلاتِ والفيديوهاتِ والكتبِ فأصبحَتْ نَسْيًا مَنْسِيًّا؟!

نَسِي الكلُّ هذهِ العبارةَ إلاّ صَديقي المهندسَ أحمد حامد، لم تَكُنْ لأحمد حامد علاقةٌ تنظيميةٌ بالإخوانِ؛ إذْ كانَ أحدَ نُشطاءِ حزبِ الوسطِ، وكانَ

مِـنَ المتفاعليْنَ معَ أنشـطةِ الحزبِ، بل كانَ مَسـئوُلًا في فترةٍ مِـن الفتَرَاتِ عن تنظيـم بعضِ فَاعليـاتِ الحزب، وفي الوقـتِ ذاتِه كانَ من النشـطاءِ في جمعيةِ مـصرَ للثقافةِ والحوارِ وهو أحدُ التلاميذِ المقرّبينَ للدكتور محمد سـليم العوا حيـثُ كانَ يحضُرُ كلَّ محُاضَراتِهِ ونَدَواتِهِ، وبحُكْـمِ صَداقَتِهِ لي ولمجموعةٍ من الأصدقـاءِ المقربِّـينَ منِّي، وفي نفسِ اليومِ الذي كنْتُ أبحثُ فيهِ عَنْ تسَـجيلٍ كاملٍ للمُناظرةِ جَلسْـتُ معَ أصدقائِنا في مَقهىً قريبٍ من جمعيةِ مصرَ للثقافةِ والحـوارِ، اسـتَمعَ أحمـدُ حامـد لكلـماتي السَّـاخِطةِ المُندَهِشَـةِ، ثم غـابَ عَنَّا برُهـةً، وكانَتْ مفَاجأةً بمعنى الكلمةِ حين عـادَ وهو يحمِلُ معَه شَريطَ فيديو للمناظـرةِ، كانَ أحمد قَـدْ غَافلَنا وذهَبَ إلى قريبٍ له يسَـكنُ بالجوارِ وحَصَلَ من أحدِ أقاربِهِ من كبارِ الإخوانِ على نسُخةٍ من الشريطِ الأصليِّ للمُناظَرةِ.

أَمسَـكْتُ بالشَّريـطِ وأنَا لا أكَادُ أُصدِّقُ، هلْ هـذا شَرِيطٌ حَقِيقيٌّ يا أحمد؟ هل يحتَوِي عَلى كلِّ الحقيقةِ؟!

- نعـَم يا أسـتاذ هَذا شَرِيطٌ أصليٌّ سـجَّلَه أحـدُ أقَارِبي مِنَ الإخـوانِ الكبارِ وكنتُ قد شاهَدْتُه مِنْ قبلُ وأعَرِفُ أنَّهُ يحتَوِي عَلى تلِكَ العِبارةِ المَنسِيَّةِ.

- وكيفَ أَفلَتَ هَذا الشَّريطُ مِنْ مدينةِ التَّزييفِ وقَلْبِ الحقائقِ؟!

- الحـقُّ لا يَضِيـعُ يا أسـتاذ، مَـا دمُـتَ صَاحِبَ حـقٍّ سيسُـخِّرُ اللهُ لكَ كلَّ الوسائلِ ليُظهِرَ حَقَّكَ.

بعدَ نصفِ ساعةٍ كنَّا نجَلِسُ؛ عاطف عواد وأحمد حامد وأنا، في بيتي نشُاهِدُ الشَّريطَ، وحينَ وَصَلْنا للجزءِ الذي تحَدَّثَ فيهِ الهُضَيبي كانَتِ المفُاجأةُ.

الفصلُ الخامسُ

صُندُوقُ الْأَسرارِ

لا أُخفِيْكُم سِرًّا أنَّني كنْتُ في قِمَّة الشَّكِّ، خِفْتُ مِنْ أَنْ تكونَ ذاكِرتي قد خَدعَتْني وسَوَّلَتْ لِي أنَّ الرَّجلَ قالَ وهو لم يَقُلْ، فعَلَ وهو لم يفعَلْ، ألاَ يحدُثُ للعقلِ البَشريِّ في أحيانٍ كثيرةٍ نَوعٌ مِنَ الخَلْطِ؟! ورَغمَ أنَّني في ذاتِ الوقتِ كنتُ في قِمّةِ اليقينِ من أنَّ مأمونَ الهُضيبي قالَ هذِه العبارةَ التي يُنكِرُها الآنَ، فإنَّني كنتُ في حالةٍ فريدةٍ، شَكٌّ أقربُ إلى اليقينِ ويَقينٌ أقربُ إلى الشَّكِّ، لذلكَ كنْتُ في قِمَّةِ التَّركيزِ والانتباهِ وأنَا أُشاهِدُ شَريط الفيديو معَ أصدِقائي، هـا هو المقطعُ محَلُّ الخِلافِ، مادَتِ الأرضُ تحَتَ قدميَّ حينَما نَطَقَ المستشارُ مأمونُ الهُضيبي بالكَلِماتِ التي أنكرَها: «نحَنُ نتَعبَّدُ لله بأعمالِ النظامِ الخاصِّ قبلَ الثورة». قُمتُ بإيقافِ الشريطِ وأعدْتُ المَقطعَ مِنْ أوَّلِه وتخيَّلْتُ أنَّني أَستَمعُ إلى «بينوكيو» وكلَّما نطَقَ بهذِه العبارة كَبُرَ أنفُهُ قَليلًا حتَّى كادَ أنفُه يخَرُجُ مِنْ شاشةِ التلفزيون!! اِستطردَ الهُضيبي وهُوَ يضَعُ تَبريرًا لكلماتِه فقَالَ: كُنَّا نُجاهِدُ، والمجاهدُ يُباحُ له ما لا يُباحُ للآخَرِيْنَ. وضَربَ مثَلًا بالاغْتيالاتِ التي ارْتكبهَا الحزبُ الشُّيوعيُّ اليونانيّ في أربعينيَّاتِ القرنِ العِشرين، قالَ:

لماذا لا تعيبون على الحزب الشيوعيِّ اليونانيِّ ارتكاب جرائم اغتيالات لمدنيين من بني وطنهم؟! أيباح لهم هذا ولا يباح لنا؟! أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس؟! تخيلته ساعتها وهو يخرج لسانه لمصر كلها وكأن لسان حاله يقول: موتوا بغيظكم يا أهل مصر، قتلناكم لأننا أهل الحق وأنتم أهل الباطل، نحن أمة الإسلام، وأنتم أمة الكفر والطغيان.

سبحانك ربي، لقد وجد الهضيبي للاغتيالات التي قام بها الإخوان قبل الثورة غطاءً سياسيًّا شيوعيًّا، هل نستطيع أن نطلق على منطق الهضيبي عبارة «الفقه التبريري»؟ إذن ما هو الفقه الذي استند إليه وهو يكذب على مصر كلها حين ادعى أنه لم يقل هذه العبارة؟ الغاية تبرر الوسيلة بطبعتها الإخوانية! التطبيق المتعسف لقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات! الحرب خدعة) على اعتبار أن الإخوان يحاربون أمة الضلال لينشروا الإسلام! استمعت إلى الشريط كاملًا ثم أخذت نفسي دور الواعظ التقليدي، وكأنني كنت أعظ المستبد الذي يتدثر بالدين ليحيط استبداده بقداسة ما: من هو الذي سيربح حينما يكتشف الناس أنك كذاب؟ الكذاب يخسر دائمًا، والصادق حتمًا يربح نفسه وضميره ودينه حتى ولو لم يصدقه الناس، لا يهم أن ترضي الناس فرضاؤهم غاية لا تدرك، ولكن يكفيك أن ترضي ربك، فإذا رضي عنك سيرضى عنك الناس.

غريبة هي أن يكذب الإخوان! مسألة معقدة تحتاج إلى فهم وفحص وبحث، هل يكذب الإخوان علينا لأننا أعداء الإسلام؟! هل غير الهضيبي الحقيقة لأن الضرورات تبيح المحظورات؟ أيًّا كان الأمر وأيًّا كانت الأسباب

فـلا يوجـدُ أيُّ مبرّرٍ يُعطِي الحقَّ للدّاعيةِ أنْ يكـذِبَ، الذي يَقولُ الصّدقَ هو الذي يَربحُ، الإسلامُ يقولُ ذلكَ، ليسَ الإسلامُ فحسبُ بل كلُّ الأديانِ تقولُ ذلـكَ، حتّىَ عقائدُ أهـلِ الهندِ، حتّىَ الأسـاطيرُ التي نَحْكيْهـا لأبنائِنا ونحنُ نُعلّمُهـم فضيلـةَ الصّـدقِ، تَخيلْتُني وأنـا أُربّتُ على كَتِـفِ أيِّ إخوانيّ يكْذِبُ مُتصـوّرًا أنّـَه يقِيـمُ بكَذِبـهِ شَرْعَ اللهِ، ورَأيتُ كأنّني جلسْتُ أحكِـي لِقادَتِهم لا لأطفالِهـم قِصَّةً مِنْ أسـاطيرِ الهندِ، شَاشـةُ الحياةِ العَريضـةُ أمامي، وهَأنذا أَحكِي لهَم: ترَوِي الأسطورةُ الهنديةُ القديمةُ أنّهَ كانَ هنُاكَ مَلِكٌ ثرِيٌّ لا تَنفَدُ أَموالُـه، وفي يوم أَعلَنَ هَذا الملكُ لِشـعبِه: مَنْ يرَوِي لي حكايَةً تُجبِرُني عَلى أنْ أقولَ لَه أنتَ كَذّابٌ، سـوفَ أَهبُه نِصْفَ مُلكِي، وسَأجعلُ مِنْ حَكيمِ المملكةِ حَكَمًا ليقضِيَ بَينَنا.

وفي اليـومِ الأولِ زارَ القـصرَ تاجـرٌ مِنَ الشّـعبِ وقالَ للملـكِ: دامَ عِزُّكَ يا مَـولاي، أنتَ تَعلَمُ أنّني مِـنْ عائلةِ «الصّادِقيّنَ» نَقـولُ الصِدقَ ولا نَكذِبُ أبَـدًا، وقد تَركَ لي وَالدِي عصا غَريبَةً جدًّا، هذِهِ العَصا هي أطولُ عَصا عرَفَها البشرُ لدرجةِ أنَّ والدِي عَليهِ رَحمةُ اللهِ كانَ يرَفعُها في السَّماءِ فَيُحرّكُ بها النُّجومَ، فقالَ الملكُ: لا أيهُّا التاجرُ الصّادِقُ هذِهِ ليستِ العصَا الأَطولَ، فإنَّ أبِي كانتْ لَديه عصَا يرَفعُها إلى السـاءِ فَيُشـعِلُ طرَفهَا الثّاني مِنَ الشّمس!! سَمِعَ حكيمُ المملكـةِ الحوارَ فقَالَ للرجلِ: لقدْ عَجزْتَ عَـنْ أنْ تجَعَلَ الملكَ يقولُ لكَ أنتَ كذّابٌ لذلكَ أنتَ مِنَ الخَاسِرِيْنَ، فَخرَجَ الكذّابُ مُخلّفًا وَراءهُ خَيبةَ أملٍ، وفي اليـومِ التّـالي زارَ القصرَ خياطٌ وقالَ للملكِ: المَعـذِرةَ يامولاي كَما تَعلمُونَ أنَّ البَارِحَـةَ هَطلتِ الأمطارُ غزِيرةً واشْـتَدَّتْ لِدرجةِ أنَّ السَّـماءَ تشَـقّقَتْ فَقُمْتُ

بخياطتِها، فقَالَ له الملكُ: خيرٌ مَا فَعلْتَ، ولكنّكَ لم تُحسِن الخِياطةَ فصَباحَ اليوم هَطلَتْ زَخَّاتٌ خَفيفةٌ مِنَ المطَرِ، سَمِعَ الحكيمُ الحِوارَ فقَالَ للخيَّاطِ نفسَ قولِهِ للكذّابِ الأوَّلِ، فَخرَجَ الخيَّاطُ مُحَلِّقًا وَراءَهُ خَيبةَ الأملِ.

وَحْدَه الذي كَانَ يَملِكُ الحقيقةَ قَروِيٌّ عَجوزٌ صادقٌ، ظَلَّ عُمرَه يبَحثُ عَنْ حقٍّ له سَلبَه منهُ الملكُ، فقدْ كَانَ يَحفِرُ في أرضٍ له منذُ زمنٍ بعيدٍ فعثرَ على جَرَّةِ ذَهبٍ، فَأَخذَها إلى كُوخِه سَعيدًا، وعندَما عَرفَ الملكُ خَبرَ جَرَّةِ الذهبِ، سَلبهَا مِنَ القَرويِّ الفقيرِ!! لم يتوانَ الفقيرُ الصَّادقُ عَنِ البحثِ عن حَقِّهِ المسلوبِ ولكنَّ قُضاةَ المملكةِ كانُوا يرَفضُونَ قضيَّتَه، حتى مَرَّتْ سَنوَاتٌ وحَقُّ الرجلِ مسلوبٌ، فَقرَّرَ أنْ يَذهَبَ إلى الملكِ في قَصْرِهِ كي يُطالِبه بحقِّه، فقَالَ لهُ الملكُ حينَ دَخلَ عليهِ: وأنتَ يا رجلُ ماذَا تُريدُ؟ فقَالَ القَرويُّ الصَّادِقُ أنتَ مَدِينٌ لي بجَرَّةٍ من الذهبِ جئْتُ لآخُذَها؟ استغرَبَ الملكُ وقالَ: أنتَ كاذِبٌ لستُ مَدِينًا لكَ بشيءٍ، فقَالَ حكيمُ المملكةِ للملكِ: بما أنَّكَ قُلتَ إنَّه كاذبٌ فَقدْ صَارَتْ نصفُ المملكةِ من حَقِّه، فتَذكَّرَ الملكُ وَعْدَه فَعَدلَ عن قَولِهِ وقالَ: لا إنَّه صَادِقٌ، فقَالَ الحكيمُ: إذنْ فَأَعْطِه جَرَّةَ الذهبِ، فَخرَجَ القَرويُّ وهو يَحمِلُ جَرَّةَ الذهبِ وقَد أُصيبَ الملكُ بخَيبةِ الأملِ!

انتهتِ الأسطورةُ وتلاشَتِ الصُّورةُ ومَا زَالَ الإخوانُ يكذِبُونَ، دَقَّاتٌ تَطرُقُ بابَ عَقْلِي، في المسألةِ سِرٌّ، ليسَ الأمرُ مُجرَّدَ هرُوبٍ مِنْ موقفٍ مُحرِجٍ، كما أنَّهم لا يَكْذِبُونَ لِضَعْفِ الإيمانِ مَثلًا أو لهشَاشَةِ الأخلاقِ، صَوتٌ ينبعثُ مِنْ داخِلي: خُذْ حِذْرَكَ فيَبدُو أنَّكَ وَلجْتَ أبوابًا مَا كانَ لَكَ أنْ تَدخُلَها.

■■■

حَضرَ لي في نفس اليوم في وقتٍ متأخّرٍ من الليل الصديقُ الصحفيُّ عبدُالحفيظِ سعد، أخبرْتُه بمحتوى الشريطِ وما فيه، فقالَ وهو يَستحثُّني بلُكنتِهِ الصعيديةِ المحبَّبة: «ممتاز يا بو يحيى».. ثم استرسَلَ ضاحكًا: «دي ضربة جامدة في الدماغ، يا فضيحتك يا هُضيبي! أنا عاوز اعرف هما الناس دي بتعمل كده ليه، والله انتَ ربّنا نجّاك من الناس دول، عاوزين بأه رد تكتبه تعقيبًا على الهضيبي مدعمًا بالشريط.»

أمعنْتُ التّفكيرَ، الآنَ وأنا بينَ يدَي دليلٍ قطعيٍّ لا شَكَّ فيه، يجبُ أنْ أترفّعَ عن الردِّ على الهُضَيبي، سأجعلُه يَردُّ على نفسِه، الهُضيبي يُكذّبُ الهضيبي، عزمْتُ أمري على ألاّ أكتبَ ردًّا ولكنّني أعطيْتُ شريطَ الفيديو لعبدِالحفيظ سعد وطلبْتُ منهُ أن تَردَّ الجريدةُ على الهضيبي واقترحْتُ عنوانًا هو «الهضيبي يَردُّ على الهضيبي» وبالفعلِ خرَجَتْ صحيفةُ «صوتُ الأمةِ» وهي تحملُ تكذيبَ الهُضَيبي الذي قالَ فيه: إنَّ الكاتبَ لم يكنْ صادِقًا حينَ نَسَبَ هذِه العبارةَ لي، استَشهَدَ الهضيبي في ردِّهِ بتفريغِ المناظرةِ الذي قامَتْ بهِ هيئةُ الكِتاب، أقسمَ جَهْدَ أيمانِه إنّهُ صادق، أمّا الكاتبُ الذي هُو أنا فكاذبٌ!!

نَشرتِ الجريدةُ ردَّ الهضيبي كاملًا، وفي العمودِ المقابلِ لردِّ الهُضيبي نَشرَتْ تعَقيبًا منها عَلى هذا الردِّ، قالَتْ فيهِ إنَّ الجريدةَ تحتَ يدِها شريطَ الفيديو الذي يَدلُّ على أنَّ الهُضَيبي قالَ هذهِ العبارةَ، وقامَتِ الجريدةُ بتفريغِ الجُزءِ المتعلّقِ بهذا المقطعِ من المناظرةِ وأبدَتْ أسفهَا على أنَّ المُستشارَ مأمونَ الهضيبي كذّاب!! كانَ الأمرُ مُؤسِفًا مؤُلمًا ولكنَّ القِصّةَ كلّها أكّدتْ أنَّ الراهبَ بافنوس حينَما ذَهبَ ليستدعِيَ الغانيةَ تاييس إلى أرضِ الفضيلةِ، ظلَّ مُقيمًا في أرضِ الرّذيلةِ، ولكنْ هل كانَتْ أرضُ الإخوانِ هي أرضَ الفضيلةِ؟ هل هي أرضُ الشريعةِ فعلًا؟

جماعةٌ دعويةٌ ضلَّتْ طريقَها إلى السياسةِ، زعمتْ أنها تريدُ أن تُصلحَ السياسةَ بالدِّين فأفسدَتْ دينَها بالسياسةِ!! ولكنْ هل هيَ جماعةٌ دعويةٌ بالفعل؟ أينَ هي منَ الدعوةِ؟ بعدَ سنواتٍ من هذهِ القصةِ وأثناءَ بحثي عن الحقيقةِ أهداني اللهُ طرفَ الخيطِ، عمرُ التِّلمساني أولُ مَن اكتشفَ تسلُّلَ السرطانِ إلى جسدِ الإخوانِ، سرطانٌ لا يعرفُ أحدٌ خبرَهُ حتَّى هَذهِ اللحظةِ التي أكتبُ فيها هذهِ الكلماتِ، ماتَ التلمسانيُّ عليهِ رحمةُ اللهِ وكانَ من المفترَضِ أنْ يموتَ معَه السرُّ الرَّهيبُ، ظنَّ كهنةُ المعبدِ أنَّ سرَّهم تمَّ دفنُه في مقبرةِ التلمساني، أرادُوا أنْ يمحُوا وجودَ الرجلِ حتى بعدَ موتهِ، فأزالُوا اسْمَه مِنْ على مقبرتهِ ووَضعُوا اسمَ كاهنِهم الأكبرِ «مصطفى مشهور» ورغْمَ ذلكَ وَقعْتُ على طَرفٍ من السرِّ فتعقَّبتُه إلى أنْ وَصلْتُ إلى صُندوقِ الأسرارِ.

■■■

«أنتم تقولونَ حدَّثنا فلانٌ عن رسولِ الله ﷺ ونحنُ نقولُ حدَّثني قلبي عَنْ ربِّي». قالهَا العميدُ حسنين وهو ينظرُ لي وكأنَّنا في مباراةِ تحدٍّ، كنَّا في طريقِنا إلى المحكمةِ العسكريةِ بالحيِّ العاشرِ، وكانَ العميدُ حسنين قد خرَجَ على المعاشِ منذُ أسابيعَ قليلةٍ، وسُبحانَ اللهِ، بعدَ أنْ كانَتِ الدُّنيا تَقِفُ له وهو يَسيرُ في أروقةِ المحكمةِ أصبحَ (عميدْ سابقْ بالقضاءِ العسكري) يحاولُ أنْ يُثبتَ أنَّه لا يَزالُ على عَهْدِ القوَّةِ والسُّلطةِ، ولكنَّ الأيامَ دولٌ، وحينَ سُئِلَ الحسنَ البصريُّ عن معنى الآيةِ الكريمةِ «كلَّ يومٍ هُو في شأن» قالَ: يرفعُ أقوامًا ويخفِضُ أقوامًا!! وسُبحانَ مَنْ له الدوامُ يُغيِّر ولا يتغيَّر.

كانَ الصديقُ المهندسُ أبو العلا ماضِي رئيسُ حزبِ الوسطِ قَدِ اتُّهِم في قضيةٍ عسكريةٍ عامَ 1996م من ضِمْنِ القضايا التي وَاجهها الإخوانُ في هذهِ الحِقبةِ، وكانَتْ أجهزةُ الأمنِ حينَ ألقَتِ القَبضَ عليهِ في بيتِهِ قد صَادَرَتْ جهازَ كمبيوترٍ وبعضَ مئاتٍ قليلةٍ من عُمْلاتٍ أجنبيةٍ، ورغمَ أنَّ أبو العُلا حَصَلَ على حُكْمٍ بالبَراءةِ؛ فإنَّه لم يَستَطِع اسْتِردادَ الأشياءِ المصادَرةِ المَمْلُوكةِ لَهُ، وعَبثًا حَاوَلَ إلاَّ أنَّه كانَ كَمَنْ يَستخرِجُ اللُّؤلؤَ من ماءِ النهرِ، وأصبحَ حالُه كذلكَ «المُنبَتِّ» الذي قالَ عنهُ الرسولُ ﷺ: **«لا أرضًا قطعَ ولا ظَهرًا أبقَى»** مرَّتْ سَبعةُ أعوامٍ وأصبَحْنا في عام 2003م ولم يَحصُلْ أبو العُلا على حَقِّه، وعندَما عَلِمَ أنَّ لي صلةً بأحدِ الكِبارِ السابقين في فرعِ القَضاءِ العَسكريِّ أَعطاني الطَّلبَ الذي كانَ قد قَدَّمَه في هذا الشَّأْنِ وطَلَبَ مِنّي أنْ أُنجزَه له إنْ كانَ لذلكَ سَبيل.

دخلَ العميدُ حسنين إلى مكتبِ المدَّعِي العسكريِّ ومَكَثَ فيهِ بعضَ الوقتِ ثم خرَجَ ليُنبئَني أنَّ الطَّلبَ سيتمُّ البَتُّ فيهِ سَريعًا إلاَّ أنَّ العَقبةَ الوَحيدةَ في هذا الشأنِ أنَّ الأشياءَ المُصادَرةَ مِنَ المُهندِس أبو العُلا لم تأتِ في الأصلِ مِنْ نيابةِ أمنِ الدولةِ، ويبدُو أنَّها لم تَخرُجْ مِنْ «مباحثِ أمنِ الدولةِ» وظَلَّتْ لديهم دُونَ أنْ يَعتنِيَ أحدُ بالسؤالِ عنها رغمَ أنَّ هذهِ الأشياءَ المُصادَرةَ مَن المفتَرضِ أنْ تكونَ من أدلَّةِ الدَّعوى وما دامَ المُتَّهمُ حَصَلَ على البراءةِ فيَجبُ أنْ يَستَرِدَّها ما دامَتِ المَحكمةُ لم تُصادِرْها.

وأثناءَ عودتِنا مِنَ المحكمةِ العسكريةِ حدَّثَني العميدُ حسنين عَنِ «الحاجَّةِ زكيةَ عبدِالمطلب البدويّ» وقالَ إنَّها العَارِفةُ باللهِ سليلةُ العِترةِ النَّبويةِ المطهَّرةِ

حَفيدَةُ سيّدِنا الحُسين، وقالَ لي إنّهُ كانَ يَحضرُ مجلِسَها الذي ينعقِدُ بساحتِها في حيِّ الجماليَّةِ إلى أنْ توفَّاها اللهُ، وكانَ مِمَّا قالَهُ أنها تنبَّأتْ بوَفاتِها قبلَ عدَّةِ أشهرٍ من حُدوثِها وأنَّها ذهبَتْ إلى مَقام جَدِّها الحَسنِ الشَّاذلي بالحُميثِرَةِ قبلَ وَفاتِها حيثُ كانَتْ لهَا اسْتِراحةٌ هناكَ لِتُدفنَ في مَقامٍ بجوارِه، وقَدْ قَرَّبَني ذِكْرُ الحاجّةِ زكيةَ مِنَ العميدِ حسنين إذْ كنْتُ أعرِفُها منذُ سَنَواتٍ بعيدةٍ، فقدْ كانَ الأستاذُ محمدُ علوان المحامِي عليهِ رَحمةُ اللهِ الذي ترَبَّيتُ في مكتبِهِ أحدَ مُريدِيْها هو وزَوجتُه الحاجّةُ «ودادُ الديب».

ضَحِكَ العميدُ حسنين وهو يقولُ: عندَنا في الطَّريقةِ الشَّاذِليَّةِ «مُرشِدٌ» كما عندَكُم في الإخوانِ.

- يا سيادةَ العميدِ أنا ترَكْتُ الإخوانَ كمَا تعلَمُ، ولكنْ مَنْ هُوَ مُرشِدُكم؟

- هذهِ أشياءُ ستَعرفُها عندَما تجمَعُ بينَ التَّوبةِ والنِّيةِ والإخلاصِ والزُّهدِ والمحبةِ.

- أأبو الحسنِ الشاذليّ هُو صَاحِبُ الطريقةِ التي سَلَكْتَها؟

- سَيِّدي عبدُالسلامِ بنُ مشيش رضيَ اللهُ عنهُ هو إمامُ أئِمَّةِ الطريقةِ الشَّاذِليَّةِ ومن بعدِهِ أبوُ الحسنِ الشاذليّ، وقد كانَتْ له أحوالٌ عَجيبَةٌ معَ اللهِ، وكانَ مِنَ المنقطعِيْنَ للعبادةِ وقدِ اعْتَزلَ الناسَ نهائيًّا حتَّى أنَّنا لم نعرِفْ لِسيِّدي عبدِالسلام تلميذًا ولا مُريدًا إلا سيِّدي أبو الحسن الشاذلي من فَرْطِ انْقِطَاعِهِ عن أهلِ الدّنيا، ولَولا سيِّدي أبو الحسنِ الشاذلي ما عَرفْنا شَيئًا عَنْ سيِّدي عبدِالسلام بن مشيش فَهو الذي رَوَى عنهُ.

- ولكنَّ الطريقةَ الشاذليّةَ كما قَرأْتُ لهَا تفَسيراتٌ باطِنيَّةٌ للقُرآنِ.

- اُدخُلْ بقلبِكَ ولا تَدخُلْ بقدَمِك، واخْلَعْ عَقلَكَ وقِفْ عَلى بِساطِ النُّورِ، أتدرِي كيفَ دخلَ سيدي أبو الحسن الشاذلي على سيدِك وسيِّدِي رسولِ الله ﷺ؟

- دخلَ عليهِ أينَ وكيفَ؟

- عندَما ذَهبَ سيِّدِي لسيِّدِي، قَدِمَ المدينةَ زادهَا اللهُ تَشريفًا، ولكنَّ سيِّدِي وقفَ على بابِ المسجدِ من أولِ النهارِ عُريانَ الرأسِ حَافِي القَدمَيْنِ يستأذِنُ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقَالَ لهُ بعضُ مَنْ معَهُ: ألاَ تَدخلُ على قبرِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فاَستَنكرَ ما قَالُوه، وقالَ لهَم: القُبورُ للأمواتِ وسيِّدِي الرسولُ ﷺ لم يمُتْ، ألاَ يرُدُّ اللهُ له رُوحَهُ ليَرُدَّ على السَّلامِ؟! فَسألُوه: ولِمَ لا تَدخُلُ فَتُسلِّمَ عليهِ؟ فقالَ: ألم يَقُلِ اللهُ سُبحانَه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وظَلَّ واقِفًا حتَّى سَمِعَ نِداءً مِنْ دَاخِلِ الرَّوضَةِ الشَّرِيفةِ يا عليُّ أنِ ادْخُلْ.

ثمَّ أردفَ العميدُ قائلًا: تعَرِفُ يا أُستاذ ثروت، لو تَركَ الإخوانُ الدُّنيا ومكاسبَها وغَنائِمَها وعَاشُوا في خَلْوةٍ رُوحيَّةٍ لانْصلَحَ حالُهم، لا أظُنُّهم وَقَعُوا في خلافٍ معَك إلَّا أنَّ قلوبَهم كالصَّحراءِ ومن كانَ قلبُه هكذا شَرَدَ في المتاهاتِ.

-(ربَّنا يصلحْ أحوالَ قُلوبِنا يا مولانا) أُريدُ أنْ أذهبَ معَكَ في جَلَساتِكم وأحضُرَ أذكارَكم لو كانَ ذلكَ مَسمُوحًا.

- اُدخُلْ إلى الْخَلوةِ أوَّلًا، وضَعْ قَلبَكَ في مِصفاةِ الذِّكْرِ.

نَاوَلني العميدُ حسنين كُتيِّبًا وقَالَ: هذِهِ بعَضُ أورادٍ اقرأْها بقلبِكَ، ثم نَتحدَّثُ بعدَ ذلك.

نَـدَّتْ عنِّي ضِحكةٌ خَفيفَـةٌ وأنا أقولُ: لـو رَآنِي الإخـوانُ الآنَ لَقَالُوا إنِّي صَبأْتُ، فكثيرٌ منهُم لا يُحِبُّونَ الصُّوفيَّةَ.

قالَ العميدُ حسنين: لو عَرَفَ الإخوانُ الحقيقةَ لأَدْركُوا أنَّ صَلاحَ حَالِهم لَنْ يكونَ إلَّا بالصُّوفيَّةِ.

■■■

في سجونِ عبدِالناصرِ كانَ هُناكَ شَابٌّ صغيرٌ، أَبيضُ الوجهِ أسودُ الشَّعرِ له نَظرةٌ عميقةٌ مُتفرِّسةٌ، ووَجهٌ غَاضِبٌ جَادٌّ، تَعوَّدَ هذا الشابُّ على أنْ يَفرِقَ شَعرَ رأسِـه مِنَ المنتصفِ اقتداءً منهُ برسـولِ اللهِ ﷺ، كانَ هذا الشَّـابُّ الصَّغيرُ قد سِيقَ بِهِ إلى السجنِ في قضيةِ تنظيمِ سيدِ قطب عامَ 1965م، إذْ كانَ من المحبِّينَ لـه والمتلقِّـينَ منهُ، دَخلَ هذا الشـابُّ إلى جماعةِ الإخوانِ وهو في بلدِهِ أسـيوط، فقـدْ كانَ دائـمَ التردُّدِ على إحـدى المكتباتِ العامـةِ، وأثناءَ تَـردُّدِه عَليها لِيقرأَ الكُتبَ التي تُشبعُ نَهمَه تَعرَّفَ على أمينِ المكتبةِ ويُدعَى محمد منيب، وتَصادفَ أنَّ كانَ محمد منيب هذا مِنْ شَـبابِ الإخوانِ فَأخذَ يَدعُوه برِفْقٍ إلى فِكرِ جماعةِ الإخوانِ إلى أنْ أفلَحَ في تجنيدِه وإدخالِه التنظيمَ الذي كانَ قد تعرَّضَ لِضَرباتٍ أمنيةٍ من النظامِ الناصريِّ، كانَتْ حياةُ هذا الشـابِّ الوافدِ حَديثًا على الإخوانِ شـديدةَ القَسْوةِ عَانَى فِيها مِنْ شَظَفِ العيشِ وقَسوةِ الوالدِ الذي كانَ قَدْ طلَّقَ زوجتَه أمَّ الشـابِّ فعَـاشَ في كَنَفِ زوجةِ الأبِ ولم يَلْـقَ إلَّا كلَّ إهمالٍ وتوبيخٍ وضَرْبٍ ورَكْلٍ إنْ صَـدَرَتْ منـهُ هَفْـوةٌ، فهـربَ هذا الشـابُّ مِنْ ضِيـقِ الحياةِ وعَنَتِها معَ والدِهِ في أسـيوطَ وجاءَ إلى القاهرةِ كَاسِـفَ البالِ مَهدُودَ الوِجْدانِ، يَحمِلُ «بقجةً» ملابسِـه وبعضَ كرَّاسـاتٍ دوَّنَ فِيها أفكارَهُ وأشعارَهُ، وكانَ مِنَ

التَّصاريفِ أنْ كانتِ الفَترةُ التي جَاءَ فِيها للقاهرةِ هي تلكَ الفترةَ التي أَعقبَتِ الإفراجَ عن سيدِ قطب من سِجْنِه قَبلَ مُنتَصفِ الستينياتِ، فَأُتيحَتْ له الفُرصةُ أنْ يَتردَّدَ بضعَ مَرَّاتٍ على الرجلِ الذي اعتبرَهُ قِبلتَهُ بلْ قِبلةَ الإسلامِ كلِّها، كانَ زُوَّارُ سيدِ قطب في فيلتِه بضاحيةِ حُلوان في هذهِ الآونةِ يَجِدُونَ هذا الشابَّ جَالسًا تَحتَ قدَمِ سيدِ قطب مثلَ طَلَبَةِ العِلْمِ في القُرونِ الأولى، يَحمِلُ وَرَقةً وقلَمًا، يُدوِّنُ فيها كلَّ شَارِدةٍ ووَارِدةٍ من أقوالِ قطبٍ ولَفَتاتِه.

وفي شَقَّةٍ صَغِيرةٍ بمنطقةٍ زراعيةٍ في عِزْبةِ النَّخْلِ استقرَّ المُقَامُ بصاحِبنا «طالبِ الدِّين» وكانَ قَدْ تعرَّفَ على الشيخِ الأزهريِّ علي إسماعيل شقيقِ الشيخِ عبدِالفتاح إسماعيل (وقد أُعدِمَ هذا الأخيرُ معَ سيدِ قطب) ومن خلالِ علي إسماعيل وغيرِه من الإخوانِ تَعرَّفَ صاحِبُنا طالبُ الدين على شابَّيْنِ من الشبابِ الذينَ أقبلُوا مؤخَّرًا على «مدرسةِ سيدِ قطب الفكريةِ» ولم يكنْ عُودُهُما قدِ اسْتَقامَ بعدُ، فكانَ صاحبُنا طالبَ الدينِ يَجلسُ معَ رفيقَيْهِ القُطبيَّيْنِ يَشرَحُ لهُما كتابَ «معالمُ في الطريقِ» ويفتحُ لهما المغاليقَ التي وَقفَتْ أمامَهما من فِكْرِ أبو الأعلى المودودي، كانَتْ فِكرةُ المَعصِيةِ هي التي تَستحوِذُ على تفكيرِ هذا الشابِّ، المعصيةُ هي التي أَخرجَتْ آدمَ مِنَ الجنةِ، أيترتَّبُ عَلى المعصيةِ خُروجُ المسلمِ من الدِّينِ؟ لماذا قَالَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في سورةِ النساءِ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ هَذا هُو قَولُ اللهِ، يَترتَّبُ على المعصيةِ الخلودُ في النارِ، ولا يَخلُدُ في النارِ إلاَّ الكافرونَ، إذنْ المعصيةُ تُخرِجُ المسلمَ مِنَ الإسلامِ، ولكنْ هَلْ مَنْ نُطلِقُ عليهم (المسلمون) هُمْ فِعلًا يؤمِنُونَ بالإسلامِ؟ إذَا كَانُوا كذلكَ فَلِماذا

يتحاكمونَ إلى الطاغوتِ ولا يتحاكمُونَ للهِ ربِّ العالمينَ؟ ألَا يَعرِفُونَ قولَه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كانتْ هذهِ هي الأفكارُ التي يعَيشُ بها وفيها صاحبُنا، وكانتْ هذهِ هي الأسئلةَ التي ظلَّ يبحثُ عن إجاباتِها عندَ سيدِ قطب، ثم أخذَ يَبثُّها على مَهلٍ لصاحبَيْهِ ولآخرِيْنَ من شبابِ الإخوانِ، ومعَ ذلكَ فإنَّ فِكْرَ سيدِ قطب وحدَه لم يَشْفِ غليلَ صاحبِنا فأخذَ يترددُ على الكاتبِ محمد قطب شقيقِ سيدِ قطب، ومن خلالهِ استوتِ الْأفكارُ واتَّضحتِ الرُّؤيةُ، مُرتكبُ الكبيرةِ الذي لم يَتُبْ كافرٌ وسيكونُ مُخلَّدًا في النارِ، ولكنْ مَا حالُ القرونِ الأُولى التي جاءَتْ بعدَ فترةِ الخِلافةِ؟ وما مَصيرُ تلكَ الأممِ التي ضَلَّتِ السبيلَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ؟ لا شكَّ أنَّ مِنْ خطَلِ الرَّأيِ أنْ نعتبرَهم مسلمين، فالإسلامُ ليسَ كلمةً تقالُ، ولكنَّه قولٌ باللِّسانِ وتصديقٌ بالجَنانِ وعَمَلٌ بالأركانِ، والعملُ لا يجبُ أنْ تكونَ فيهِ معصيةٌ وإلاَّ لَكانتْ هذهِ المعصيةُ قد هَدَمَتْ «تَصديقَ الْجَنَانِ». ظلَّتْ هذهِ الأسئلةُ تُلِحُّ على صاحبِنا وتَقُضُّ مَضْجَعَهُ، ومن أَجلِها استطاعَ التَّسلُّلَ إلى فيلا سيدِ قطب عدَّةَ مراتٍ يَسألُه ويَأخذُ منه.

وفي هَذا الجوِّ المشحونِ بالرِّيبةِ والتَّرقُّبِ وَثِقَ سيدُ قطب في هذا الشابِّ وفي ذاتِ الوقتِ نشَأتْ صِلةٌ طيبةٌ بينَ «طالبِ العلمِ هذا» والحاجّةِ زينب الغزالي التي كانتْ تُلقَّبُ بـ «سفيرةِ سيدِ قطب» وحينَ تمَّ كشفُ تنظيمِ قطب سنةَ 1965م الذي كانَ يَستهدِفُ اغْتيالَ جمال عبدالناصر باعتبارِه رأسَ الجاهليةِ في القرنِ العشرينَ وُفقًا لفِقْهِ سيد قطب، بدأتْ عملياتُ القَبْضِ على أفرادِ التنظيمِ، فكانَ أنْ فرَّ هذا الشابُّ هَاربًا حيثُ اخْتبأَ في ضاحيةٍ من ضَواحِي القاهرةِ عندَ بعضِ مَعارفِه مِنَ الإخوانِ المسلمين، وفي هذهِ الفترةِ كَتَبَ صاحبُنا بعضَ أشعارٍ عبَّر فيها عن مشاعرِهِ وهو بَعيدٌ عن أهلِهِ تتنازعُه

الأهواءُ، فتارةً يحتويهُ شعورُ الغربةِ والضعفِ والهوانِ، وتارةً أخرى يقبضُ الإيمانُ على قلبهِ فيشعرُ وكأنَّهُ يمتلكُ الدنيا وما فيها.

ظلَّ هذا الشابُّ مختبئًا عندَ رفاقٍ لهُ منَ الإخوانِ حتى إذا ضُيِّقَ عليهِ الخناقُ استقرَّ بهِ المقامُ في مسجدٍ منعزلٍ حيثُ حلقَ لحيتَهُ وقصَّ شعرَهُ وأقامَ في المسجدِ كمقيمٍ للشعائرِ ومؤذنٍ للصلاةِ، إلَّا أنَّ أحدَهم شكَّ فيهِ فأبلغَ عنهُ فتمَّ القبضُ عليهِ وأُودعَ السجنَ الحربيَّ معَ المجموعةِ التي تمَّ القبضُ عليها، ثمَّ انتقلَ بعدَ ذلكَ إلى عدّةِ سجونٍ منها أبو زعبل وطُرّة، ولا أظنُّ أنَّ أحدًا كانَ يعلَمُ أنَّ هذا الشابَّ سيُغيِّرُ تاريخَ الحركةِ الإسلاميةِ وسيظلُّ أثرُه ممتدًّا لأجيالٍ وأجيالٍ.

■■■

هلْ هناكَ مِنْ صلةٍ بينَ عامِ 1965م وأعوامِ الرَّخاءِ الإخوانيِّ في الفترةِ مِنْ ثمانينيّاتِ القرنِ الماضي وحتّى عامِ 1992م؟ ثم هلْ هناكَ مِنْ رابطةٍ أخويّةٍ بينَ عامِ 1965م وعامِ 1986م؟ كانتْ هناكَ شَذَراتٌ صغيرةٌ لا تدلُّ بذاتِها على شيءٍ، فوجئتُ بها ولكنّني لم أُعِرْها اهْتمامًا، قُلتُ إنَّ الأمورَ تؤخذُ بقدرِها، وكنتُ غافلًا عن معانيها ودلالاتِها، لم أكنْ أظنُّ أنَّ هناكَ أيَّ علاقاتِ نسبٍ أو أخوّةٍ بينَ السنَواتِ، هذهِ أيامُ اللهِ، فما صلةُ هذا العامِ بذاكَ العامِ؟! ولكنّني إذْ وضعْتُ يَدي على أوّلِ الخيطِ بدأْتُ أسترجعُ تلكَ الشذَراتِ لأضعَها في سياقِها الطّبيعيِّ، وإذا كانَ معظمُ النارِ من مستصغرِ الشّررِ فإنَّ معظمَ الأسرارِ يكشفُها مستصغرُ الصّدفِ، هكذا حدَّثنا التاريخ.

في الثاني والعشرينَ مِنْ مايو 1986م تُوفّي الأستاذُ عُمرُ التِّلمساني مرشدُ جماعةِ الإخوانِ المسلمينَ، كانَ عُمر التِلمساني صمَّامَ أمانٍ لجماعةٍ وشعبٍ

ووَطنٍ، هَكذا قَالَ عنهُ الصَّحفيُّ الكبيرُ إبراهيمُ سعدة يومَ وَفاتِهِ، ويَقِينًا لم يَكُنْ إبراهيم سـعدة يعَلَمُ الأمـورَ المخفيَّةَ في جماعةِ الإخـوانِ، ولكنَّه معَ ذلكَ قالَ كلمةً حقيقيّةً، فقَبلَ وَفاةِ المرْشدِ عمر التلمساني أَخذَتْ بعَضُ الأشباح تَتسلَّلُ إلى جماعةِ الإخوانِ لتأخُذَ مكانًا ومَكانةً، كانَتْ هذهِ الأشـباحُ تَسِـيرُ في رِكابِ الحـاجّ مصطفى مشـهور الذي كانَ قَدْ عادَ إلى البلادِ عـامَ 1985م بعدَ رِحلةِ هروبٍ استمرَّتْ عدَّةَ سَنواتٍ، وكانَ أخطرُ من حَطَّ رحالَه في مصرَ قبَيلَ وَفاةِ عمر التلمساني هُمْ « محمد مُرسي، خَيْرت الشاطر، محمود عزت، محمد بديع» كانَتْ وُجوهُ هؤلاءِ غَريبةً على مُجتَمع الإخوانِ، إلّا أنّ الحاجَّ مصطفى مشهور أَعطاهُـم مِنديـلَ الأمـانِ فَجَعلَ مِنْ محمود عزت مَسئُولًا عن قِسْـمِ أسـاتذةِ الجامعةِ بَدلًا مِنَ السـيدِ عبدِالستار المليجي، وتَولَّى محمد بديع مسئوليةَ قِطَاعٍ كبـيرٍ مـنَ الصّعيدِ بَدلًا من الحاجِّ حسـن جـودة رغمَ أنَّه مِـنَ المحَلَّةِ الْكُبرى، وأسندَ لخيرت الشاطر مَلفّاتٍ مهمةً إلى أنْ وَلّاهُ مسئوليّةَ القاهرةِ، وجَعلَ مِنْ محمـد مرسي أَحدَ المسـئولينَ الكِبـارِ في الشرقيّةِ إلى أنْ تولّاها بـَدلًا مِنَ الحاجِّ سـعد لاشين، وبهذا قفزَ عامَ 1965م برجالِهِ إلى عام 1986م ليَستبدِلَ أفرادًا ورُؤى وتَوجُّهـاتٍ، والحـقُّ أنّ عامَ 1965م لم يَسـتَولِ كليةً على عام 1986م فقدِ اتَّبعَ سياسةَ «خُطوةٍ خطوةٍ» ولكنّه أصبحَ يَحكُمُ الإخوانَ بعدَ ذلكَ.

أمّا سـنةُ 1992م فقدْ كانَتْ مِنَ السّنواتِ المؤثّرةِ في تاريخ مصرَ، فهي سـنةُ الزّلـزالِ، وهي عامُ نجاحِ الإخـوانِ في انتخاباتِ النّقابةِ العامّـةِ للمُحامينَ، كانَ نجاحُ الإخوانِ بمثابةِ صَدْمةٍ لمؤسّسـاتِ المجتمع المدنيِّ في مصر، فقدْ كانَتْ نِقابةُ المحامينَ عَصيَّةً على الخضوع لهيمنةِ الإخوانِ بحسَـبِ أنّها نِقابةٌ سِياسـيَّةٌ ليبراليةٌ، ولذلـكَ قَالـتْ صَحِيفـةُ «الواشـنطن بوسـت» الأمريكيـةُ في تحليـلٍ لهـا لِنَجاحِ

الإخوان: إنَّ هـذا النَّجاحَ هو الزِّلـزالُ الحقيقيُّ الذي أصـابَ مصر، وما حَدَثَ بعدَ ذلكَ مِن اهْتِزازٍ في القِشرةِ الأرضيّةِ لمصرَ هو بمثابةِ «تَوابعِ الزِّلزالِ الأولِ».

بعدَ هَذا النجاحِ الزِلزاليّ كنّا قد عَقَدْنا العَزْمَ على أنْ نَخوضَ انتخاباتِ النّقاباتِ الفرعيةِ للمُحامينَ كلِّها، بما يُشبهُ الزَّحْفَ المقدّسَ، وطلبْنا من كلِّ مُحافظةٍ إخوانيةٍ أن تُجرِيَ انتخابـاتٍ داخليـةً لاختيـارِ مرشَّـحِيْها، وفي محافظةِ القاهـرةِ كانَ مِنَ المُفتَرضِ أنْ نُشكِّلَ قائمةً مِنْ خمسةِ أفرادٍ، وأُجرِيَتِ الانْتخاباتُ الدّاخليةُ، عَقَدْنا هـذهِ الانتخابـاتِ في مكتبِ جمالِ تـاج الدين بمنطقةِ حِلميَّةِ الزيتونِ، وأَسـفَرَتِ النتيجـةُ عن نَجاحِ خمَسـةِ أفـرادٍ، ولم أكنْ من ضِمْنِ النّاجِحِيْنَ، لم يَكُنِ التَّرشِـيحُ في هـذِهِ الانتخاباتِ مِـنِ اهْتِماماتي، فالعملُ الفِكريُّ هو الذي يُحرِّكُني دائمًا فيما لا يَستهوِيني العملُ الحَرَكِيُّ، ولكنْ حَدَثَ مَا لَمْ يكنْ في الحُسبانِ.

بعدَ انْتِهاءِ عمليةِ الفَرْزِ وإعلانِ مَنْ هُم الذينَ سـيُمثِّلونَ الإخوانَ في هَذِهِ الانتخاباتِ، همَسَ عاطف عواد في أُذني: أُريدُ أنْ أجلُسَ معَك.

لم أعرِفْ سببَ العصبيَّةِ التي كانَتْ تُغلِّفُ عِباراتِ عاطف إلَّا أنَّنا جَلَسْنا في سـيّارتي أسـفلَ مكتبِ جمال تـاج... أخرجَ عاطف ورَقـةً مطويَّةً مِنْ جَيبِهِ وقالَ: حَدَثَ اليومَ شيَءٌ مُؤسِفٌ.

قلتُ له مُستفسِرًا: خَير، مَا الذي حَدَثَ؟

فَتَحَ عاطف الوَرقةَ التي كانَتْ معَهُ وقالَ: شَيَءٌ مُذهِلٌ لم أكنْ أتوقَّعُه.

قلتُ: هاتِ ما عندَك.

عاطـف: وُفقًا للنتيجةِ الرّسـميةِ نَجحَ مأمونُ ميسر وجمـالُ تاج وصلاحُ سالم ومصطفى زهران وسيدُ عبدِالعزيز.

أنا: أعرِفُ! ثمَّ ماذا؟

عاطف: اِسمَعْ هذِهِ القِصَّةَ... كُنَّا في شَرقِ القاهرةِ قَدْ أجمعْنا أمرَنا على انْتِخابِكَ عَنِ الْكِبارِ، وسيدِ عبدِالعزيز عن الشبابِ، وبالفِعلِ مُعظَمُنا صوَّتَ لكَ.

قلت: هَذا الأمرُ لا يَهُمُّني.

عاطف: اِسمَعْني الله يخليك، الأمرُ على درجةٍ كبيرةٍ من الخُطُورةِ.

أنا مستغربًا: أكمِلْ إذنْ ما تُريدُ قولَه.

عاطف: عندَما أعلَنُوا النّتَيجةَ لم نَجِدْ اسمَكَ مِنْ ضِمْنِ النَّاجِحِيْنَ، فأثارَ هذا الأمرُ اسْتِغرابي وفُضُولي، فَدلفْتُ أنَا وممدوح أحمد إلى الغرفةِ التي قَامُوا فِيها بتَجمِيعِ الْأَصواتِ، وكانَ مِنْ حُسْنِ الحظِّ أنْ عثَرْنا على الورقةِ التي تَمَّ تَدوِينُ النّتَيجةِ فيها.

أنا مُستفهِمًا: وماذا وَجَدْتُما؟

عاطف: النّتَيجةُ المُعلَنةُ مزوَّرةٌ يا صديقي!! جماعةُ الإخوانِ ارْتَكبَتْ جريمةَ تزويرٍ لتَمريرِ شَخصٍ تُريدُه بالذَّاتِ!!

أنا متشككًا: مُزَوَّرة! إخوانُنا يُزَوِّرونَ الانتخاباتِ! مَنْ هَذا الشَّخصُ الذي تُريدُ الجماعةُ أنْ تفرِضَه علينا؟

عاطف: واحدٌ مِنَ الذين تَربَّوا في حِضْنِ الحاجّ مصطفى مَشهُور وهو أحدُ التَّابعينَ الأوفياءِ لمحمود عزت، وستَجِدُه ليلَ نهارَ جالسًا عندَ خيرت الشاطر، (حاجة تقرف).

ثم قدَّمَ لي عاطف الورقةَ التي كانَتْ معَه وقالَ: اُنظُرْ في هذِهِ الورقةِ.

أمسكْتُ الورقةَ التي قَدَّمهَا لي عاطف بيدٍ مُرتَعشةٍ وأنَا لا أكادُ أُصدِّق عينَيّ.

الفصل السادس

الأُخطُبوط

شعر نزار قباني

لماذا أكتبُ؟ أكتبُ كما قالَ نزار قباني: كي أفجّرَ الأشياءَ، فالكتابةُ انفجارٌ، كي ينتصِرَ الضوءُ على العتْمةِ فالْكِتابةُ انْتِصارٌ، حتّى أنقذَ العالمَ من أضراسِ هولاكو، ومن حُكْمِ الميليشياتِ، ومن جُنونِ قائدِ العصابةِ، حتّى أنقذَ الكلمةَ من محاكمِ التفتيشِ، من شَمشَمةِ الكلابِ، من مَشانقِ الرّقابةِ، أكتبُ كما قالَ الأديبُ التركيُّ «أورهان باموك» أحدُ أشهرِ مَنْ فازُوا بجائزةِ نوبل في الآدابِ: أكتبُ لأنّني لا أستطيعُ أنْ أتحمّلَ الحقيقةَ وَحْدِي، ولأنّني عزمْتُ على مُقاومةِ هذهِ الحقيقةِ.

■■■

غامَتِ الدُّنيا أمامَ نَظَرِي وأنا أرَى النّتيجةَ الحَقيقيّةَ، كنْتُ حاصِلًا على أعلى الأصواتِ، ولم يكنْ أحدُ الذين أعلنَ الإخوانُ نجاحَهم نَاجحًا، ورَغمَ ذلكَ تبدّلَتِ النّتيجةُ، ما أقسَى أنْ يكونَ الوَاعِظ لِصًّا، وأنْ يكونَ الكَذّابُ داعيةً، كانَ التّزويرُ الذي اكْتَشفَه عَاطف عواد مُذهِلًا لي، كُنّا نَجلِسُ في السيارةِ أسفلَ مكتبِ جمال تاج الدين إلاّ أنّني شَعرْتُ وكأنّني انْفَصلْتُ

عن الدنيا وما فيها وجلستُ فوقَ سحابةٍ من الأفكارِ، لا أشعرُ بمَنْ يجلسُ بجواري، ولا أسمعُ ما يقولُ، تزاحمَتِ الأفكارُ في رأسي وعادَتْ ذاكرتي إلى الوراءِ خطوةً، تذكّرتُ واقعةً فجّةً حدثَتْ قبلَ أن تُجرَى عمليةُ الانتخاباتِ الداخليةِ التي اكتشفَ عاطف عواد تزويرَها، كنْتُ قدِ اصْطحبْتُ صديقًا لي يُدعى «عبدَالهادي الأنصاري» إلى النقابةِ العامةِ للمحامين قبلَ شهرَيْن، وحينَ صَعِدْنا إلى الدّورِ العُلويّ للنقابةِ وجدْتُ اشْتِباكًا لَفظِيًّا قائمًا بينَ مختار نوح وأحدِ المحامينَ من الإخوانِ المسلمينَ، كانَ هذا المحامِي مَسئولًا عن منطقةٍ من مناطقِ القاهرةِ، وكانَ من المقرَّبِيْنَ مِنَ الحاجّ مصطفى مشهور، كانتِ العصبيةُ والخُشونةُ تُحِيطُ بكلماتِ هذا الأخ.

- الأخُ المنفعل: (شُفْ يا مختار) اعتبرْ أنّني خارجَ أيِّ تصويتٍ داخلَ الجماعةِ، سأكونُ في قائمةِ المرشّحِيْنَ لِفرعيةِ القاهرةِ سواءٌ انتخبَني قسمُ المحامِيْنَ أم لم يَنتخِبْني.

- مختار: يا أخِي، الذي سيَحكُمنا هو اللائحةُ، أهلًا بكَ في القائمةِ إذا انتخبكَ القِسمُ، أمَّا إذا لم يَنتخِبْكَ فلا وُجودَ لكَ (المسألةُ مُشْ عافية).

- الأخ المنفعل: (المسألةُ عافية)، وأنا قادرٌ على إيقافِ أيِّ تصويتٍ يَستبْعِدُني، (بالبلدي أنا لفيها أو أخفيْها)

ربّتُّ على كتفِ عبدالهادِي الأنصاريّ وأخذْتُه بعَيدًا عَنِ المعركةِ الكلاميةِ، فَسألني:

إيه الحكاية؟! ما سببُ هذهِ المُشادَّة؟

قلتَ بامْتِعاض: المسألةُ كما ترَى، أنتَ تعرِفُ هذا الأخَ حقَّ المعرفةِ، هو يُريدُ أنْ يكونَ مرشّحًا للإخوانِ في انتخاباتِ نقابةِ القاهرةِ الفرعيةِ.

الأنصاري: وما المشكلةُ في ذلك؟

أنَـا: المشـكلةُ أنَّ هُناكَ لائحـةً داخليةً تَحكُمُنَـا، واللائحةُ توُجِـبُ أنْ تتمَّ انتخابـاتٌ داخليةٌ أولاً نختارُ فيها مَنْ سـيَكونُ مرشَّـحًا عن الإخوانِ، وهذا الأخُ يريـدُ أنْ نتَجـاوزَ بخصوصِـهِ اللائحـةَ، يُريـدُ أنْ يكـونَ أعـلى مِـنْ أيٍّ اختياراتٍ داخليةٍ، يُريدُ أنْ يكونَ مرشَّحًا سَواءٌ صَوَّتْنا له أمْ لم نُصوِّتْ.

تلاشَـتْ صـورةُ عبدِالهادي الأنصـاريّ من خَيالي حينَ هَـزَّ عاطف عواد كَتفِي قائلًا: (إنت فين؟ بكلّمك وانت ولا كأنك هنا!.)

قلتُ له وأنا أضَعُ على وَجْهِي ابتسـامةً سـاخرةً: كنْتُ في دنيا أُخرى، مَاذا كنْتَ تقول؟

عاطف: كنْتُ أقَولُ إنَّ هذهِ ليستْ أولَ مرةٍ في التزويرِ، وما خَفِيَ كانَ أعظمَ.

أنا: تَقصِدُ أحمدَ سيفِ الإسلامِ حسن البنا؟

عاطف: هو بعينِهِ.

أنا: ولكنَّ واقعةَ سيفِ الإسلامِ لا تُعتَبرُ تزوِيرًا أنَا أضَعُها في خانةِ خَوْضِ الانتخاباتِ بالإكراهِ رغمَ أنفِ الجميعِ.

عاطـف: التزويـرُ لـه صورٌ متعـدّدةٌ يا صديقي، سـيفُ الإسـلامِ خاضَ انتخابـاتِ نقابةِ المحامـينَ دونَ إرادةِ محُامِي الإخـوانِ، في التصويتِ الداخليِّ لم يحَصُلْ إلاَّ على صوتِهِ هو فقط، صوتٌ واحدٌ! رَسَبَ رُسوبًا كبيرا! ولعلَّكَ تَذكُرُ أنَّ أحدًا لم يَكُنْ يُريدُه، بل كُنَّا نَجهَلُ أنَّهُ يعَملُ بالمحاماةِ أصلًا.

أنـا: بل لم يُمارِسِ المُحاماةَ حقيقةً، نعَم هو مُقيَّدٌ في جَدولِ المحامينَ ولكنَّهُ لم يعَملْ بالمُحاماةِ.

عاطف عواد: ومعَ ذلكَ فَرَضَهُ الحاجُّ مصطفى مشهور عَلينا بالإكراهِ معَ سَبْقِ الإصرارِ والتَّرَصُّدِ.

قلتُ ساخرًا: نَعم قالَ لَنا رأيُكم لا قيمةَ له، ولوائِحُكُم تُلزِمُكُم ولا تُلزِمُ الجماعةَ، وسيفُ الإسلامِ هو ابنُ حسنِ البنا وسيكونُ مرشَّحًا في النِّقابةِ العامّةِ وافَقْتُم أو رَفَضْتُم.

عاطف عواد: هل تذكرُ كيفَ اعْتَرَضْنا عليه؟ وكيفَ غَضِبْنا على إلغاءِ إرادتِنا، حتَّى أنَّني ومَعِي خالد بدوي كناّ في قِمَّةِ الثورةِ مِنْ فَرْضِهِ بالقوّةِ.

أنا: يا عمُّ عاطف، ثُورُوا، انفعلوُا، لكنَّ الرأيَ لم يكنْ رأيَنا، والقَرارُ لم يكنْ قرارَنا.

عاطف: نعَم صَدقْت، فهَا هوَ يجلسُ في نقابةِ المحامينَ، يَرتكِبُ فيها جرائمَ سياسيةً، ويُبرِمُ اتّفاقاتٍ سريةً معَ خصومِ الإخوانِ، ويَستخدِمُ موقعَهُ كأمينٍ عامٍ للنقابةِ في تعويقِ كلِّ المشاريعِ التي نُقدِّمُها لخِدْمةِ المحامين!!

أنا: لعنةُ اللهِ علَى الانتخاباتِ وتَبِعاتِها، إنَّهم يَقُودونَ الجماعةَ بعيدًا عن دورِها الحقيقيِّ في الدعوةِ، واللهِ يا عاطفُ إنَّ النفسَ تمجُّ هذهِ الألاعيبَ التي لا تَتناسَبُ معَ وَقارِ الجماعةِ.

عاطف عواد: أنَا لَنْ أَسكُتَ، سَأَقلِبُها على رءوسِهم، هؤلاءِ ليسُوا الإخوانَ المسلمينَ، ولكنَّهم «الإخوانُ المزوِّرُونَ».

أنا: إبعِدْني يا عاطف عمَّا ستَفعلُ، أنَا أصلًا لم يَرِدْ في بالي أنْ أكونَ مُرشَّحًا، تعرِفُ أنَّني أُحِبُّ إدارةَ الانتخاباتِ لا خَوْضَها.

بعـدَ أيـام ٍمـن هـذِهِ الواقعةِ كانـَتِ الدُّنيا قـد تغـيَّرتْ قَليلًا، فَأثناءَ سـفرِ مختـارِ نـوح ومعَه مجَموعةٌ مِنْ قِسْـمِ المحامين إلى الإسـكندريةِ في القطارِ، ثارَ عاطـف عـواد عَلى مختار، وتحـدَّثَ عن التزويـرِ الذي حَـدَثَ، وحينَما عَادُوا من الإسـكندريةِ اجْتَمعُوا ولم أكنْ معَهم، وحَلًّا مِنهُم للمُشكلةِ التي حَدَثتْ والتزويـرِ الـذي افْتَضِحَ أمرُه؛ قـرَّرُوا تعديلَ النتيجةِ وإعلانَ سـقوطِ «الأخِ التابعِ لِلحاجِّ مصطفى مشهور» ونَجاحِي بدلًا منهُ.

وفي اليـومِ التالي لهذا القرارِ مباشرةً صَدرَ قرارٌ من مكتبِ الإرشـادِ بزيادةِ عددِ المرشَّـحيْنَ للنِقابةِ الفرعيةِ بالقاهرةِ إلى ستةِ أفرادٍ بدلًا من خمسة، على أنْ يكونَ الأخُ السَّـاقطُ «التابعُ للحاجِّ مصطفى مشـهور» من ضِمّن أفرادِ قائمةِ المرشَّحيْن!! لم أفهمْ إصرارَ مكتبِ الإرشادِ على هَذا الأخِ رَغمَ قلةِ إمكانيّاته، ووَقعَ في ذِهني أنَّ الولاءَ عندَهم مُقدَّمٌ على الكَفاءةِ، وفيما بعدُ عرفْتُ أنَّ عامَ 1993 هو العامُ الذي شَهدَ عودَةَ «النظامِ الخاصِّ» لِلْجماعةِ.

تـبًّـا لهـذا النظامِ الخاصِّ وأيامِه، ليتَكَ لم تُنشِـئْه يا بَنّا، أسَّسْـتَه عامَ 1939 بعَيـدًا عـن أعـيُنِ الجماعةِ المدنيَّـةِ وجعلْتَـه سِرّيًا ووَضَعْـتَ على قيادتـِه رِجَالًا لا يفقهـُونَ فوَضعُوا السَّـيفَ في موضعِ النَّـدى، قتلُوا وفجَّـرُوا واغْتالُوا، كلُّه باسمِ الإسلامِ، حتّى إنَّهم قَتلُوا أحدَ أفرادِ الجماعةِ دونَ أنْ يكونَ لَديهم ذرَّةٌ من دينٍ أو خُلقٍ، قتلُوا سـيدَ فايز وابنتَه، إذا فُرِضَ وكانَ سـيدُ فايز أجرَمَ في حقِّهم جَـدَلًا، وإذا فـُرِضَ وكانَ جُرمُه يوجِبُ قَتلَـهُ، فما ذَنْبُ تلـكَ الطفلةِ الصغيرةِ التـي غَلَّفوُا لها الموتَ ووَضَعُوه في علبـةِ حَلوى وأعطَوها الهديةَ المفخَّخةَ، وما إنْ فتحَ فايز الهديةَ حتى انْفَجرَتْ فيهِ وفي ابنتهِ فماتا وهُما يَشتكِيانِ تلكَ القلوبَ

الفاجرة، ولكنْ هَلْ فعلَ النِّظامُ الخاصُّ شيئًا غريبًا عليه عندما اغتالَ تلكَ الطفلةَ؟ لقد كانَ يُعبِّرُ عن نفسه، الموتُ المغلَّفُ داخلَ علبةِ حلوى، مَظهرُ العُلبةِ من الخارجِ جميلٌ ومُبهرٌ، سيُحِبُّ الشَّعبُ هذهِ الهديةَ، سيقولونَ: إنَّها «فاقعٌ لونُها تَسُرُّ النَّاظرين» سيأخذونَ الهديةَ في أحضانِهم ولكنَّهم لا يدرونَ أنَّهم يحتضِنونَ الموتَ، هديةُ النظامِ الخاصِّ لمصرَ مثلُ العلبةِ القاتلةِ، هديةٌ مغلَّفةٌ بالدِّينِ وآياتِ القرآنِ وأحاديثِ الرسولِ ﷺ، ولكنَّ الموتَ يَسكنُ داخلَها.

كلُّنا يظنُّ أنَّ أيَّامَ النِّظامِ الخاصِّ ولَّتْ ولن تعودَ ثانيةً، سنتذكَّرُ نَدَمَ الإمامِ الشهيدِ حسنِ البنا على إنشاءِ النظامِ الخاصِّ، سنسمعُ ذكرياتِ الأستاذِ فريد عبدِالخالق وهو يحكي لنَا أنَّ حسنَ البنا قالَ لهُ وهُما يتمشَّيانِ ليلًا على كوبري قَصْرِ النيل بعدَ اغْتِيالِ النقراشي: لو اسْتَقبلْتُ مِنْ أمري مَا اسْتَدبرْتُ ما أنشأْتُ النِّظامَ الخاصَّ، ذلكَ النظامَ الذي مَازالَ مُعظَمُ الإخوانِ يجهلُونَ وُجودَهُ وتحكُّمَهُ في مَصيرِ الجماعةِ حتَّى الآنَ، نعَم توقَّفَ بضعَ سنواتٍ ولكنْ بعدَ وفاةِ الأستاذِ عُمر التِّلمساني بَدأَتْ جيُوشُ النِّظامِ الخاصِّ تعودُ إلى سِيرتِها الأُولى، ألَمْ أقلْ: إنَّ إبراهيمَ سعدة كانَ مُحِقًّا عندَما قالَ: إنَّ عُمرَ التِّلمساني كانَ صَمَّامَ أمانٍ جماعةٍ وشعبٍ ووَطنٍ!

ومن أجلِ عيُونِ الحاجِّ مصطفى مشهور ورجالِه مِنْ أفرادِ النِّظامِ الخاصِّ يتمُّ تَزويرُ الانتخاباتِ الداخليةِ في الإخوانِ، فَقدْ كانَ هَذا الأخُ التابعُ للحاجِّ مُصطفى مشهور أحدَ أفرادِ النظامِ الخاصِّ الجديدِ، في ثوبهِ المُخيفِ، ثوبِ الأخطبُوطِ.

■■■

عام ألف وتسعمئة وثلاثة وتسعين

1993 يُعلِنُ عن نفسِه، يقولُ: أنَا عامُ ما بعدَ الزِلزالِ، أنَا عامُ توابعِ الزِلزالِ، أنَا العامُ الذي سيَتسرَّبُ منهُ بَصيصُ ضَوءٍ خافتٍ، ولكنْ مَنْ سَيَصِلُ إليهِ هذا البَصيصُ لن يَنتبِهَ له، سيظنُّ أنَّه لا شَيءَ، ولكنْ بعدَ سَنَواتٍ سَيُدرِكُ أنَّ جُزءًا مِنَ السِّرِّ الغامضِ كانَ تحتَ يدَيْهِ، الآنَ بعدَ هذهِ السَّنَواتِ أراني كيوشعَ بنِ نونٍ فتَى مُوسَى عليه السلام، لم يُدرِكِ الحقيقةَ إلّا بعدَ أنْ تجاوَزَ مكانَ «كشفِ الحقيقةِ»، خرَجَ سيدُنا مُوسى مع الفتى «يوشع» قاصِدَيْنِ مَجمَعَ البَحريْنِ فِي رِحْلةٍ بحثِهما عَنِ العَبدِ الصّالحِ رجلِ الحقيقةِ، يَحملانِ سَمكةً في سَلّةٍ، انطلقَا بَحثًا عَنْ هَذا الرجلِ، واتَّجها إلى المكانِ المحدَّدِ حتّى إذا وَصَلا إليهِ وَجدَا صَخرةً كبيرةً مُستويةً، وكانَا قَد أَحسَّا بالتعبِ، فوَضَعا رأسَيْهما، وغَرِقَا في نومٍ عميقٍ. وهناكَ انْسلَّ الحوتُ (السَّمكةُ) مِنَ السَّلّةِ، واتَّخذَ سبيلَه في البحرِ سَرَبًا.. حَدَثَ هَذا الأمرُ المعجزةُ وهُما نائِمانِ، فكَان أمرًا عَجَبًا إذْ كانت السَّمكةُ مَشويَّةً، ثمَّ انْطَلَقَا بعدَ ذلكَ سائرَيْنِ بقيةَ ليلتِهما ويَومِهما، فلمّا أصبحَ الصَّباحُ، وأَسفرَ وَجهُ النَّهارِ قالَ مُوسى عليه السلام لِفتاهُ: ﴿آتِنا غَداءَنا، لقد لقِيْنا من سَفرِنا هَذا نَصَبًا﴾ نظَرَ فتاهُ في السلّةِ فلَمْ يجِدِ الحوتَ - فقالَ له: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ قالَ له مُوسى عليه السلام: فذلكَ ما كُنّا نبغيهِ إذْ إنَّنا سَنَلتقِي الرَّجلَ الذي وُعِدْنا بهِ في المكانِ الذي نَفقِدُ فيهِ الحوتَ، سَنَلتقِي بالحقيقةِ.... وشَتَّانَ بَينَ العبدِ الصالحِ رجلِ الحقيقةِ، والعبدِ الإخوانيِّ رجلِ الأسرارِ، وما كانَ في ظَنِّي وقتَها أبدًا أنْ يكونَ الدكتورُ محمود عزت عضوُ مكتبِ الإرشادِ هو المؤتمنَ على خَزينةِ أسرارِ الإخوانِ الباطنيةِ، ولكنَّه كانَ هُو.

كانَتْ مِصرُ تَعِيشُ شُهورَ ما بعدَ الزِّلزالِ، ويَبدُو أنَّ الزِّلزالَ ترَكَ بَصْمَتَهُ

على كلّ شيءٍ في مصرَ، عندَما توالَتِ الخِلافاتُ في النقابةِ العامّةِ للمحامينَ بينَ أحمدِ سيفِ الإسلامِ حسنِ البنا ومختار نوح حتى وصَلتِ الأمورُ إلى حدٍّ لا يُطاقُ، قرّرتُ أنْ أفعلَ شيئًا، اتّفقْتُ معَ عاطف عواد على زيارةِ الدكتورِ محمود عزت عضو مكتبِ الإرشادِ كي يُساعِدَنا بما لهُ مِنْ حُظوةٍ في الجماعةِ على وَضْعِ حدٍّ للخِلافاتِ التي كادتْ أنْ توقفَ العمَلَ في نقابةِ المحامينَ، وفي مَعملِ التّحاليلِ الطّبيّةِ الذي يَمتلكُه محمود عزت في «عِمارةِ الميريلاند» بمصرَ الجديدة جلسْنا نتحدّثُ، وبعدَ أنْ سردْنا لـه طرَفًا مِنَ المشاكلِ والمُعوقاتِ التي تَسبَّبَ فيها أحمدُ سيفِ الإسلام حسنِ البنا في أنشطةِ الإخوانِ المسلمينَ بالنّقابةِ، طَلَبَ مِنّا الرّجلُ أنْ نَخرُجَ مَعًا لنَتحدّثَ بحُرّيةٍ خارجَ مَعملِه، في الطريقِ العامّ!! ونزلْنا بالفِعلِ من مقرّ مَعملِه إلى حديقةِ الميريلاند، وأخذْنا نَتجوَّلُ حَولَها ونحنُ نَتحدّثُ.

قالَ محمود عزت بعدَ فترةِ صمْتٍ صاحَبتْه مُذْ خرَجْنا مِنْ مَعملِه: كُلُّنا طبعًا يعلَمُ طَبيعةَ شَخصيّةِ سيفِ الإسلامِ، ونعَرفُ أنّهُ سيُثيرُ المشاكلَ، ولكنّ سيف لن يَبقَى في النّقابةِ كثيرًا، نحنُ أرَدْنا مِنْ نُزولِه في الانتخاباتِ استثمارَ شعَبيّتِهِ ليسَ إلاّ، والدُه حسنُ البنا صَنعَ لنفسِه شعبيّةً غيرَ مسبوقةٍ في التاريخِ الحديثِ، فَاقَتْ شَعبيّةَ جمالِ عبدِالناصر وغاندي، لا يُوجَدُ أحدٌ في العالمِ إلاّ وهو يَعرِفُ مَنْ هُوَ حَسنُ البنا، ولعَلّكَ يا أخّ ثروت قرأْتَ مُذكّراتِ الشهيدِ سيدِ قطب رحمَهُ الله، تلْكَ المذكّراتِ التي قالَ فِيها: إنّـه حينما كانَ في أمريكا وعَرفَ بخَبرِ مَقتلِ حسنِ البنا وَجدَ أنّ كلّ مَنْ كانوا في المستشفى التي دَخلَها للاستشفاءِ من مرضِ صَدْرِه أبدَوْا سَعادتَهم لمقتلِه.

- أنـا: قرأْتُ هذا في كتاب الأستاذ محمود عبدالحليم «الإخوانُ المسلمونَ أحداثٌ صَنعَتِ التّاريخَ».

استرسَلَ محمود عـزت قائلًا: اسمُ حسن البنا كانَ كَفِيلًا بفوز قائمة الإخوانِ، يَكْفِي أنَّه والدُ الشّخصِ الذي وَضَعْناه على رَأسِ القائمةِ.

: نَحنُ نَستثمِرُ اسْمَ حَسَنِ البنا.

:ـ إعـادةُ طَرْحِ اسْمِ حَسَنِ البنـا بقوّةٍ هـي الوسيلةُ التي ستَضمَنُ لنَا «التّمكينَ» دُونَ أنْ نكونَ غُصّةً في حَلْقِ المُجتمعِ.

:ـ لا يَهُمُّنـا النّقابـةُ عندَكُم أو أيُّ نقابةٍ أُخرى فَكلُّها وسَائلُ، والوسائلَ تُقَدَّرُ بِقَدَرِها.

:ـ فَلْتَفشَلْ نقابـةُ المحامـيْنَ أو تَذهَبْ في داهيةٍ، ولكنَّ المهـمَّ أنْ نَنَجَحَ في تنفيذِ فِكْرتِنا.

وقبلَ أنْ يسترسلَ مرةً أُخرى قَاطَعَهُ عاطف عواد بحماستِهِ المَعهُودةِ: نَحنُ أبناءُ حسـنِ البنا نؤمِنُ بأفكارِهِ ولكنَّنا لَسْنا أبناءَ سيفِ الإسلامِ حسنِ البنا، والأخُ سيفُ تَعدَّدَتْ أخطاؤهُ، وسيكونُ عِبْئًا على الجْماعةِ.

محمود عزت: نَحنُ شَعبٌ لا يَنظُرُ إلى الأخطاءِ ولكنَّهُ يَهتمُّ بالأسماءِ، انْسَوْا هـذِهِ الخِلافـاتِ ويَنبغِي أنْ يكـونَ اهْتِمامُكُـم بمنطقتِكُم أعلَى مِـن اهْتِمامِكُم بقسـمِ المهنِيّينَ، فالمناطقُ الإخوانيَّةُ هِـيَ الْأَصلُ، وطريقُنا إلى التَّمكِينِ ما زَالَ طَوِيلًا.

ثـم أضـافَ: (يا أخ عاطـف)، لا تقلْ أبدًا إننا أبناءُ حسـنِ البنـا أو إنَّنا نؤمنُ بأفـكارِهِ، ولكنْ قلْ: إنَّنا أبناءُ جماعةِ الإخـوانِ، نؤمنُ بأفكارِها، (يا أخ عاطف) لكلِّ زمنٍ رجالٌ، والرِّجالُ يتغيَّرونَ ويموتُونَ، ولكنَّ الْجماعةَ لن تموتَ أبدًا.

كانـتْ بدايـةُ الجماعةِ معَ حسـنِ البنا ثـمَّ ماتَ، واسـتمرَّتِ الْجماعةُ حيَّةً، ثم دَخلَها سـيدُ قطب، وماتَ، واسـتمرَّتِ الْجماعةُ حيةً، ثم دَخلَ إلى الجماعةِ رجـالٌ عُظَـماءُ سينسـاهُم التاريـخُ، وسيَعتبرُهم العِلمانيـُّونَ خارجِيِّينَ عنِ الإسلامِ، ولكنَّ خَلايا الجماعةِ لم تتَجدَّدْ إلاَّ بهم.

ثِقُـوا أنَّنـا أهلُ الحقيقـةِ وما نأخذُه مِـنْ قراراتٍ إنَّـما يكونُ أبعـدَ نظَرًا ممَّا تتَخيَّلُونَ.

لم يسـتطعْ عَقلِي ولا عَقلُ عاطفٍ عواد وقتَها أنْ يَستكشِفَ بواطنَ كلماتِ محمود عزت، أُلقِيَتْ أمامنَا كلمةُ سرِّ الْجماعةِ ولكنَّ اسْتِغراقنَا في مُشكلةِ نقابةِ المحامِيْنَ حَجَبَ عنَّا بَصِيصَ الضَّوءِ، وبعدَ سَنواتٍ مِنْ هَذا الحِوارِ، وحينَما خَرَجْتُ مِنَ الْجماعةِ، أَخذْتُ أبحثُ عن كَنْـزِ الإخوانِ المَخبُوءِ، ما هُوَ سِرُّها الـذي تخُفِيـهِ عَـنِ الدُّنيا؟ وحينَ عُـدْتُ إلى كثيرٍ مِـنَ الأحداثِ التـي رَافقتْ رِحلتـي، تذكَّرتُ كلماتِ محمود عزت، فوَضَعْتُها في تَرتيبِها المَنطِقيِّ، فَكادَتْ كلمةُ السِّرِّ أنْ تَقفِزَ أمامَ عَينَيّ.

■■■

الكلمـةُ بجِوارِ الكلمةِ جُملـةٌ، والجملةُ بجوارِ الجملةِ حكايةٌ، والحكايةُ لهَا بِدايـةٌ، والبدايـةُ لا بدَّ وأنْ يكونَ لهَـا نهايةٌ، ولكنَّنا مازِلْنـا في البدايةِ، ولذلكَ

سأضعُ الجُملةَ تحتضنُ الجملةَ بحنوٍّ ودَعةٍ، ومعَ ذلكَ لنْ تكونَ النهايةُ مُتْرعةً بالعُذوبةِ، فحيثُ الوُجوهُ العابسةُ والأفكارُ العابثةُ لايكونُ إلّا الألمُ.

أسعَى للكلمةِ الأُولى من الجملةِ الأُولى فأجرِي وراءَ عام 1996 قبلَ أنْ يغادرَ الدُّنيا ويتركَ محطَّتَه ليحُلَّ محلّه عامُ 1997 وحينَ أنظرُ إليهِ أجِدُه يقولُ هو الآخرُ: ها أنذا، ففِي هَذا العامِ تمَّ فرضُ الحِراسةِ على نقابةِ المحامينَ وتمَّ إحالةُ عددٍ من الإخوانِ للمَحاكِم العسكريَّةِ، ثم أخذَتِ الخُطوبُ تتوالَى على جماعةِ الإخوانِ، وما توالَتِ الخُطوبُ إلّا بسببِ التّيبُّسِ الذي أصابَ شرايينَ التنظيمِ، ولكنْ هَلْ كانَ تيبُّسًا، أم عُبوسًا، أم فِكْرًا غريبًا مجهولًا لا نعرفُ كيفَ تسلَّلَ إلى قَلْبِ الجماعةِ؟! تخفِي الجماعةُ الإجابةَ في كَهْفِها السِّرّيِّ، وأبوابُ الكهفِ مُغلقةٌ في وَجْهِ الدنيا، تنتظِرُ مَنْ يَملِكُ القُدرةَ على «تحليلِ الرُّموزِ».

أخذَتِ الأيامُ تمورُ بالأحداثِ والحاجُّ مصطفى مشهور ينطلِقُ كحصانِ السَّبْقِ يُطلِقُ التَّصريحاتِ التي لا تُعبِّرُ عَنْ حقيقةِ الفِكْرِ الذي استَقرَّ في ضَميرِي والذي أخذْتُ مُعظَمَه مِنْ بعضِ كبارِ دُعاةِ الإخوانِ، قالَ في حوارٍ لَه في إحدَى الصُّحفِ: «مَنْ يُعادُونَ الإخوانَ إنَّما يُعادُونَ اللهَ ورَسُولَه». ثارَ المفكّرونَ والسّياسيونَ واعتبَرُوا هذهِ التّصريحاتِ تكفيرًا لمَنْ يُخالِفُ الإخوانَ في الرأيِ، والإخوانُ وكأنَّهم يَعيشُونَ في وَادِي الصُّمِّ والبُكْمِ، لا أرَى لا أسمَعُ لا أتكلَّمُ، ولكأنَّما كانَتِ القَضايا العسكريةُ التي حُوكِمَ الإخوانُ بشأنِها لم تَطْوِ «قدْرًا مِنَ الغُلوِّ في باطِنِها».

تَنتهِي الجُملةُ الأُولى فأسعَى للكلمةِ الثانيةِ من الجملةِ الثانيةِ، ففِي الثالثِ من إبريلَ عامَ 1997 خرَجتْ إلى الحياةِ إحدى عَجائبِ الحاجِّ مصطفى، فقدْ

ألف وتسعمئة وسبعة وتسعين

صَرَّحَ في جريدةِ «أهرامِ ويكلي» للصُّحفيِّ خالد داوود أنَّه لا يجوزُ دُخولُ الأقباطِ إلى الجيشِ لأنَّهُ سيَكونُ مَشكُوكًا في ولائِهم وأنَّه بدلًا مِنْ ذلكَ يجِبُ أنْ نلزِمهم بسَدادِ الْجِزْيةِ!!

جُملةٌ بجِوارِ جُملةٍ، يَخرُجُ مِنْها معنى.. أصابنا الذُّهولُ في قسمِ المُحامِيْنَ، ولكأنَّما أرادَ الحاجُّ مصطفى إعلانَ الحَرْبِ على الْجميعِ، جِزْية!! جزيةٌ يا حاجُّ مصطفى!! ما هَذا الْكَلامُ الذي قُلْتَه، وبعدَ أيامٍ من انْتِشارِ خَبرِ هَذا التَّصريحِ أقامَ أحدُ المحامِيْنَ مِنْ زُملائِنا الأقباطِ اسمُه نجيب نصيف جُنحَةَ قَذْفٍ في حَقِّ الحاج مصطفى أمامَ محكمةِ جُنَحِ النُّزهةِ، وَانْضَمَّ إليهِ عَددٌ مِنَ المحامِيْنَ الأقباط.

ذهَبْنا إلى المحكمةِ نُدافعُ عَنِ الحاجِّ مصطفى بظُهورٍ مَحنيَّةٍ حَدْباءَ، فتَصريحاته قَالَها بالفِعْلِ ولا سَبيلَ إلى إنكارِها، خاصّةً وأنَّ الصُّحفِيَّ قامَ بتسجيلِ الحِوَارِ، وفي الجلسةِ الأُولى قُمْنا بتأجِيلِ الْجُنحةِ للبحْثِ عَنْ سبيلٍ للصُّلْحِ، وَاسْتَطَعْنا مِن خلالِ صَداقتِنا بالعديدِ من المحامِيْنَ الأقباطِ تخفيفَ حِدَّةِ التَّوتُّرِ التي غَيَّمَتْ عَلى الْأجواءِ، ونَجَحَ مختار نوح في ضَمِّ عَددٍ من المحامِيْنَ الأقباطِ إلى صَفِّ المحامِيْنَ الموَكَّلِيْنَ عَنِ الحاجِّ مصطفى، قُلْنا: لعلَّ هَذا يُحدِثُ قَدْرًا من التوازنِ، ولكنْ ظَلَّ نجيب نصيف عَنيدًا صَعْبَ المِراسِ لا يَقبلُ الصُّلْحَ أبدًا، اِقترحْنا عَلى الحاجِّ مصطفى توكيلَ الأستاذِ رجائي عطيّة المحامي الكبيرِ للمرافعةِ عنهُ، وكنّا نعَرفُ أنَّ الأستاذ رجائي له حضُورُه وتأثيرُه، كما قَدَّرْنا أنَّ نجيب نصيف سيَكونُ ليِّنًا معَ الأستاذِ رجائي في أمرِ الصُّلْحِ لِمَا لِلْأُستاذِ رَجائي مِنْ مَكانةٍ لدَى عُمومِ المحامِيْنَ.

وفي سـبيل إعدادِ الصُّلْـحِ ذهبْتُ معَ مختار نوح وعددٍ من قياداتِ «قسـمِ المحامـين» لمقَابلـةِ الحـاجِّ مصطفى، لم أشـترِكْ في الحِوارَ الـذي دارَ، فقدْ كانَ مختـارُ نـوح هُو الَّذي يُناقشُ ويُعقّبُ ويَقترح، وكنتُ أُحدِّقُ في المشـهدِ الذي يجرِي أمامي وكأنَّني أشَـهدُ لوحةً سُرياليةً غيرَ مفهومةٍ، إلاّ أنّني لم أستطعْ أنْ أغضَّ الطَّرفَ عن عباراتٍ غريبةٍ مُوغلةٍ في التَّطرُّفِ نطقَ بها الحاجُّ مصطفى، كانَـتْ عباراتُه هـي الكلمةَ الثالثةَ في الجُملةِ الثالثـةِ، ومنها اجْتَمعَتِ الْحِكايةُ وتَضافَرتْ:

- أُفوِّضُكَ يا مختارُ أنْ تفعلَ ما تَراهُ مُناسِبًا وأنْ تقولَ على لِسـاني مَا تَشـاءُ، قُولُوا في الصُّلْحِ ما تُريدُونَ، ولكنْ هَذا لا يُغيِّرُ مِنَ الأمرِ شَيئًا فـ «النَّصارى» يَجِـبُ أنْ يدفعُوا الجزيـةَ، ولا يجوزُ إدخالُهم الجيـشَ، فكيفَ يدخُلونَ الجيشَ ويُدافِعونَ عن مَشروعِنا الإسـلاميِّ وهم لا يُؤمِنُونَ بالإسـلامِ، الجزيةُ رَحمةٌ بِهم، وهَذا هُو تَشرِيعُ اللهِ، هَلْ نُغيِّرُ مِنْ تَشرِيعِ اللهِ!!.

لا يجـوزُ أنْ نقـولَ عنهُم إنّهـم «مَسِـيحيُّونَ» فاللهُ لم يَقُلْ عَنهـُم هذا، هُمْ نصَارى، أو أقباطٌ أو صَليبيُّونَ

هـؤلاء الأقباطُ ليسُـوا مِنْ أهلِ الْكِتـابِ بل هُمْ مِنَ المشْرِكـيْنَ، ولا يجوزُ الزّوَاجُ منهُم ولا أكلُ طعَامِهم.

لايجوزُ أنْ نُلقِيَ عَليهم السَّلامَ ونَقولُ لهَم تحيةَ الإسلامِ: «السَّلامُ عليكم».

كأنَّ أحداً لَطمَنِي على وَجْهِي، مَا هَذا الْكَلامُ!! أأنَا في الإخوانِ أم في جماعةٍ مـن جماعاتِ التكفيرِ!! هَـلْ ضَلَّتْ قَدمِي الطريقَ فأوردَتْنِـي مَوارِدَ التّكفِيرِ،

شعَرْتُ في الحاجّ مصطفى في هَذا اليومِ قَسوةً ولا مُبالاةَ وكأنَّه يعيشُ في دُنيا أُخرى، قُلتُ لمختار نوح ونَحنُ في طريقِ عودتِنا من هذا اللِّقاءِ:

- مَا خُطَّتُك؟

- سنتَرك أمرَ إدارةِ الدفاعِ والصُّلحِ للأستاذ رجائي وسَنَقترحُ أنْ يكتبَ الحاجّ مصطفى بَيانًا يقولُ فيهِ: إنَّه لم يَقصِدْ هَذا الكَلامَ.

- وهَلْ سيَقبلُ الزَّميل؟

- في الغالبِ سيَقبلُ إنْ شاءَ الله.

- هل أنتَ معَ الحاجِّ مصطفى في أفكارِهِ التي قَالهَا لنا؟

- لا لستُ معَ هَذا الكلامِ أبَدًا، ولكنَّ هَذا الرَّأيَ له وجودٌ قويٌّ داخلَ الجماعةِ، الجزيةُ تكادُ تكونُ هي الرأيَّ الراجحَ لَدى الإخوانِ، وستَجدُ أشياءَ أُخرى كثيرةً خاصّةً عدمَ جوازِ الزَّواجِ من المسيحيّاتِ باعتبارِهنَّ مُشرِكاتٍ لا كِتابيات.

- مَنْ يَقولُ هَذا مِنَ الإخوانِ؟

- كثيرونُ، حتّى الأستاذُ عبدُالمتعالِ الجابري.

- هَلْ هذا معقُول؟

- هـذهِ الأفكارُ مُنتَشِرةٌ في الحركةِ الإسلاميةِ، الحركةُ الإسلاميةُ تحتاجُ يا ثروت إلى إعادةِ اجْتِهادٍ، مُعظَمُ مَا يقُالُ في هَذا الشَّأنِ ليسَ مِنَ الشريعةِ ولكنَّه مِنَ الفِقْهِ، العالَمُ الإسلاميُّ يحتاجُ إلى ثورةٍ فقهيةٍ تنسِفُ القديمَ نَسْفًا.

- وما رأيك فيما قاله بشأن عدم جواز إلقاء السّلام على المسيحيّين.

- معظم الفقه يقول ذلك ولكنْ هناك آراء أخرى لها قيمتها تقول عكس هذا، اقرأ لفيصل مولوي في هذا ستجد له كلاماً قيّماً.

- ولكنْ كيف نسكت على مثل هذه الآراء؟!

- هي مجرّد آراء، لا تعدو إلاّ أنْ تكون كذلك حتّى ولو كانتْ لها الغلبة بين المتديّنين، وقد تكون أفكار سيد قطب وأبي الأعلى المودودي هي التي تسبّبت في انتشار هذه الأفكار.

- والوهّابيّة؟

- الوهابية ساعدت أيضًا، هذه الأفكار لم تكنْ موجودةً في مجتمعات مصر في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشريْن، ولكنّها ظهرتْ في السّتينيات ثم انتشرتْ بقوةٍ في السبعينيات والثمانينيّات.

- لك الله يا مصر، آفتك في المتديّنين من رجالك، أخذتُ أبحث بعد ذلك عن بحث الشيخ «فيصل مولوي» الذي أخبرني عنه مختار نوح، فوجدته، قرأته بعناية وجمعتُ أدلّته ثم قررتُ أنْ أتحدّث بشأنه في إحدى الكتائب الشّهرية للإخوان، إلاّ أنّ عاطف عواد أوقفني.

- القضيّة التي ستثيرها حسّاسة لدى الإخوان ويجب أنْ تتخيّر الوقت المناسب لطرح فكرتك.

- ولكنّها ليستْ فكرتي، لاحظْ أنّ فيصل مولوي من كبار الإخوان في لبنان.

- أَنا نفسيًّا أَستَرِيحُ لِرأيهِ ولكنْ ما سَنَدُه.

- (يا عمّ عاطف) الأَصلُ في الأشياءِ الإباحةُ.

- ضَحِكَ عاطف: وفي الإخوانِ الأصلُ في الأشـياءِ الإِباحةُ، ولكنّني أُرِيدُ أَنْ أَعرِفَ تفَصِيلاتِ رأيهِ

- الحقيقـةُ يا عاطف أنَّ هناكَ مَنْ يُحرِّمُ السَّلامَ على أهلِ الكتابِ مُستندِيْنَ إلى حديثٍ للرسـولِ عليهِ الصلاةُ والسـلامُ دوُنَ فَهْمٍ أو إدراكٍ لفقهِ الحديثِ وهـو الأمرُ الـذي حَذّرَ منهُ الشيخُ الغـزالي في كتابهِ (السُّـنةُ النبويةُ بينَ أهلِ الفقـهِ وأهـلِ الحديـثِ) فَأَجـازَ مولوي السـلامَ مُسـتنِداً في ذلكَ إلى أسـانيدَ عديدةٍ في القرآنِ والسُّـنَّةِ ومنها قـولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ وقولُـهُ تعـالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ وقولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ ولَفْـظُ بيوتٍ وأهلِها هُنا جَـاءَا على العُمومِ، وقَدْ لا أَسـتطيعُ يا عاطفُ اسْتِعراضَ كلِّ بحثِ الشـيخِ فيصل مولوي الآنَ في جَلسـتِنا هذِه بحُجَجِهِ وأَسـانِيدِه، ولكنَّني سـأُعطيكَ نُسخةً مِنْ هَذا الْبَحثِ.

- كلامُـه مَنطقِيٌّ جِـدًّا، ولكنّني أَنصحُكَ بعدمِ إثارةِ هـذا الموضوعِ الآنَ في الإخوانِ لأنَّ أصحابَ العُقولِ «المقفُولَة» أَصبحُوا جُمهرةً.

- جُمهـرة (ويمكـن جُمهورية) ولكنّني سـأُثيرُ هَذا الْـكَلامَ في أولِ كتيبةٍ، وقَدْ أُثيرُه في لقاءِ الأُسرةِ أولاً.

- (ربنا يُسترْ عليك)، سيَضَعُونَ تحتَ اسْمِك عدّةَ خطوطٍ حمراءَ.

والآنَ وبعد كلِّ هذهِ السَّنواتِ وبعدَ أنْ فتحْتُ أبوابًا مِن المناقشاتِ داخلَ منطقتِي الإخوانيّةِ حولَ هذا الموضوعِ بتفصيلاتِه بما فيها الآراءُ التي سَمعْتُها مِنَ الحاجّ مصطفى مشــهور أستعيدُ القِصَّةَ مرَّةً أخرى، وأضعُ الكلمةَ بجوارِ الكلمةِ والجملةَ في حِضْنِ الجملةِ، وأبحثُ عن الحكايةِ الحقيقيةِ.

■■■

ألف وتسعمئة وستة وستين

داخــلَ عنابرِ ســجنِ طُــرة عــامَ 1966 جلــسَ صاحبُنا الشــابُّ الغريبُ الغامــضُ أبيــضُ الوجــهِ غائرُ العينَيْنِ صاحبُ الشــعرِ الأســودِ المفروقِ من المنتصفِ يَستمعُ إلى الشيخِ الأزهريِّ علي إسماعيل وهو يَشرحُ الآيةَ الكريمةَ مِــنْ سُــورةِ الجــنِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كانَ دَرسُ الشــيخِ عــلي إســماعيل مُؤثّــرًا بليغًا، بعدَها انكبَّ الشّــابُّ على دِراسَــةِ فقهِ المَعْصيةِ، اِســتهوَتْهُ أفــكارُ الخَوارجِ، فقدْ كانــتِ الآياتُ التي قرأ تفســيرَ الخوارجِ لها تدلُّ على أنَّ مُرتكِبَ المعصيةِ الذي لا يَتوبُ ســيَخلُدُ في النــارِ أبدًا، وها هِيَ إحدى الآيــاتِ التي تَتحــدَّثُ عَن الرِّبا، أخَذَ الشــابُّ يقــرأُ الآيةَ عــلى مَهــلٍ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ أخَذَ الشــابُّ يَسترسِــلُ في القــراءةِ إلى أنْ وَصَلَ إلى قولِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ الفِكــرةُ الآنَ في طريقِها للاســتواءِ في ذِهْنِ الشــابِّ الغامضِ، المســلمُ إذا أقرضَ مُسلِمًا بالرِّبا فإنَّه ســيَخْلُدُ في النــارِ، إذنْ المعصيةُ تُؤدِّي إلى الخلودِ في النــارِ!! وليسَ الكُفرُ

فقـط، ذُهلَ الشـابُّ وهو يَقرأُ لأحدِ الخوارجِ تفسِـيرَهُ لآيـاتِ الميراثِ، نهايةُ الآيـةِ واضحةٌ أيضًا، يقرأُ الشـابُّ قـولَ اللهِ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حَسَنٌ حَسَنٌ، مَنْ يلتزمْ بحدودِ اللهِ سيَدخلُ جَنّاتِ اللهِ، إذْنْ مَا هُوَ موقِفُ مَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه؟ الآيةُ تقولُ: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وحتَّى يَستقِيمَ الأمرُ في ذِهْنِ الشابِّ الغامضِ أخذَ يقرأُ التَّفاسِيرَ المشهورةَ فلم يَقتنِعْ بما وَردَ فِيها مِنَّ أنَّ الخلودَ في النارِ هُنا إنَّما يكونُ لمَنْ عَصَى اللهَ معصيةَ كُفْرٍ، أيْ إنَّما يكونُ لمَنْ أنكرَ آياتِ اللهِ كُفرًا بها وكُفرًا باللهِ، فالمسلمُ لا يُخلَّدُ في النارِ من مَعْصيةٍ.

عادَ الشـابُّ الغامضُ إلى «كُرّاسـاتٍ» تَسرَّبَتْ إليهِ في السجنِ تَحتوِي عَلى تفسـيرِ أسـتاذِه سـيدِ قطب لكثيرٍ من سُـوَرٍ وآياتِ القرآنِ الكريـم، اقتطعَها بعضُهـم من كتابِ «في ظلالِ القرآن» ومن كُتبٍ أُخرى مُتفرّقةٍ، نَظرَ صاحبُنا عـلى وَجْـهِ الخُصوصِ إلى تفسـيرِ قطب في شـأنِ آيـاتِ المواريـثِ، فوَجدَ أنَّه يُكفِّرُ المسلمَ الذي يَرتكِبُ إحدى الكَبائرِ، انتقلَ الشابُّ بَعدَها إلى تفسيرِ آيةِ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فقرأَ قولَ سيد قطب: «ويَدخُلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ (الكافرِ) تلكَ المُجتَمعاتُ التي تزعُمُ لنفسِها أنَّها مسلمةٌ لا لأنَّها تعتقِدُ بألوهيةِ أحدٍ غيرِ اللهِ ولا لأنَّها تُقدّمُ الشـعائرَ التعبُّديةَ لغيرِ اللهِ، ولكنَّها تدَخلُ في هَذا الإطارِ لأنَّها لا تَدِينُ بالعُبوديةِ للهِ وحدَه في نظامِ حياتِها» ابتسمَ صاحبُنا وهو يقـولُ لأحدِ أصحابِهِ في الزّنزانةِ: هاهُوَ المعنَى واضحٌ، كَلِماتُ سـيدِ قطب لا

تحتاج إلى تأويل أو تفسير أو إبحار في علوم اللغة العربية، يكفيك أن تعلم أن المسلم لا يكون مسلمًا أبدًا لمجرد أنه يعتقد بألوهية الله ولا لمجرد أنه يقيم الشعائر التعبدية لله، هذا المسلم هو في الحقيقة كافر إذا لم يدين بالعبودية لله في نظام حياته.

يعود صاحبنا إلى قراءة كلمات سيد قطب فوجده يقول: «لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها العذاب إلا بأن تنفصل عقديًا وشعوريًا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها حتى يأذن الله لها بقيام دار إسلام تعتصم بها، وإلا أن تشعر شعورًا كاملًا بأنها هي الأمة المسلمة وأن ما حولها ومن حولها ممن لم يدخلوا فيها دخلت فيه جاهلية وأهل جاهلية» وعلى مهل يكرر صاحبنا لنفسه هذه الكلمات، ننفصل عقديًا وشعوريًا عن أهل الجاهلية... حتى يأذن الله بقيام دار إسلام... نعتصم بها، هذه إذن دار حرب تلك التي نعيش فيها، دار كفر، متى يأذن الله بقيام دار إسلام في ذلك العالم الذي يتلاطمه الكفر؟

يعود صاحبنا لكراسته فوجد أستاذه وشيخه سيد قطب يقول: «إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم» تتكرر الكلمات في ذهن صاحبنا... ليس هو المجتمع المسلم... ليس هو المجتمع المسلم». يعود للقراءة من كراسة سيد قطب: «إن المسلمين الآن لا يجاهدون، ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون، إن قضية وجود الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج». يصرخ ضميره: نعم المسلمون الآن لا يجاهدون، لا لأنهم نكصوا على أعقابهم، ولكن لأنه لا يوجد مسلمون من الأصل،

انتهى عصر المسلمين منذ آماد بعيدة، وهاهو الأستاذ سيد قطب يقول لنا: «إن قضية وجود الإسلام هي التي تحتاج إلى علاج» عنده حق، هل الإسلام موجود!! إذا كان هناك إسلام فأين هو؟ أين الحكم بما أنزل الله؟ بل أين المسلمون؟ كل الذين يعيشون على البسيطة الآن ويقولون: إنهم مسلمون إنما يتحاكمون إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، يعود صاحبنا إلى كراسته فيقرأ فيها عبارة اعتبرها جامعة مانعة يقول قطب فيها: «لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بـ (لا إله إلا الله) فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان، ونكصت عن (لا إله إلا الله)، وإن ظل فريق منه يردد على المآذن: لا إله إلا الله، ونحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكم الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي، ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية - على هذا النحو - قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن وجود الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك».

طوى صاحبنا الكراسة وقد بلغ تأثره بكلمات سيد قطب مبلغًا كبيرًا، الإسلام توقف، لا يوجد إسلام، يجب أن نعيد الإسلام إلى الوجود مرة أخرى، وكأن صاحبنا الغامض قال وقتها: «وجدتها وجدتها» وأظنه قفز فرحًا من مكانه، وبعد أن حفظ ما قاله سيد قطب عن ظهر قلب أغمض عينيه في هدوء فقد أخذ الكرى يداعب أجفانه ولم تقو الفرحة على مقاومة النوم، فنام، ولكن مصر في يوم ما لن تعرف للنوم طريقًا، فقد بدأ صاحبنا الشاب الغامض في طريق لن يكون له منتهى.

الفصلُ السابعُ

الخِطابُ المَجهولُ

وكأنّنَي أَركبُ آلةَ الزمنِ، أُحلِّقُ في سَماءٍ لا نهايةَ لهَا، أَعيشُ في بُعدٍ كَونيٍّ وزماني آخرَ، أو أَعيشُ في «لا زَمنَ» أَنظرُ من مكانٍ مرتفعٍ للأحداثِ التي مَرّتْ بِي وأنَا في الإخوانِ، لا، ليَسَ وأنا في الإخوانِ فقَط، ولكنّني أَنظرُ لحياتي كلِّها منذُ تلكَ اللحظةِ التي خَرجْتُ فِيها مِنْ «عالَمِ الذّرّ» إلى الحياةِ الدُّنيا، لا، بَلْ إنَّ نظَرتي في لحَظاتٍ صوفيةٍ فريدةٍ قلَّما تمرُّ على قَلبي تكونُ أَوسعَ مدًى من ذلك، أرَى الحياةَ منذُ أنْ خلقَها اللهُ سبحانَه، أرَى آدمَ وحَواءَ عليهما السلامُ وهُما يعَيشانِ في جَنةٍ فريدةٍ لا تَتصوَّرُها الأَخيلةُ ولكنْ تَستشرِفُها القلوبُ والأفئدةُ، يمرَحانِ بُحرّيةٍ لا قيدَ عليها، يجَريانِ بينَ الأشجارِ، يصَعَدانِ فوقَ المرتفعاتِ التي اكتَسَتْ بخُضرةٍ لا مثيلَ لها في حياتِنا الدنيا، يُسَبّحانِ للهِ في جنةٍ لا زَمنَ فيها، ولا شَمسَ تُؤذِيْها فيها، وإنّما نُورٌ في نورٍ حولَه نُورٌ، تَسبِيْحُهما نُورٌ ولهوُهما نورٌ وثيابُهما نُورٌ والطَّعامُ الذي يَأكُلانِه نورٌ فيَخرجُ مِنهُما نورٌ، لا يَشعُرانِ فيها بنَصَبٍ ولا جوعٍ ولا عَطشٍ، سُبحانَ اللهِ الذي خلَقَ أبَانا آدمَ بَيدِه فجَعلَه كامِلاً واصْطَفاهُ على الخلائقِ، ليَسَ له أنْ يجَوعَ

ولا يَعـرَى، فَجنَّةُ اللهِ التـي خَلقهَا لآدمَ وزوجِهِ هُيِّئَتْ لمن خَلقَهُ اللهُ بلا نَقْصٍ في الجِـبلَّةِ والطبائعِ البشريةِ، ونَهاهُ أنْ يأكلَ من الشجرةِ المحرَّمةِ، لم تكُنْ هذهِ الشـجرةُ من أصلِ الأشـجارِ التي في جنةِ آدمَ ولكنَّها كانتْ من أشجارِ الحياةِ الدُّنيا، وحينَ أغَراهُ الشَّـيطانُ ووَسَـوسَ له أنْ يأكلَ من هذه الشجرةِ مُطمِّعاً إياهُ بالخُلْدِ وهو خَالدٌ في الجنةِ وبالمُلكِ الذي لا يَبلَى وهُوَ مَلِكٌ على جَنَّتِهِ مَالَ آدمُ إلى تلـكَ الثَّمـرةِ التي علَى الشَّجرةِ المحرَّمـةِ وكانَ أنْ أكلَ منها هُوَ وأُمُّنَا حواءُ، فَردَّهُما اللهُ إلى نقصِ الطبائعِ، فسَـقطَتْ عَنهُـما نُورانيَّةُ الجنةِ، ودَخلَتْ عَليهِـما الدُّنيا فَانْخلَعَ عَنهُـما رِداءُ النُّورِ فَبَدَتْ لهما سَـوءاتُهما، وطَفِقا يَخْصِفانِ عَليهما مِنْ وَرقِ الجنةِ، وَانْسـحَبَ منهما نورُ طعامِ الجنةِ الذي كَانا لا يَشْـبَعانِ منهُ مهما أكَلا، ولا يجوعانِ أبدًا إذا لم يَأكُلا، وبَعدَ أنْ عصَى آدمُ ربَّه، تَلقَّى مِنْ ربِّه كلِماتٍ فَتابَ عليهِ، ولكنَّه فقدَ الهيئةَ النُّورانيَّةَ التي كَانَ عَليها، فكانَ لا بُدَّ أنْ يَهبطَ هُـوَ وزَوجُهُ إلى الدنيا، ومِـنْ بعدِ ظَلَّ لكلِّ ولدٍ من بني آدمَ شَـجرةٌ مُحرَّمَـةٌ، عليـهِ ألاَّ يـأكلَ من ثَمرِهـا، هي شَـجرةُ المحرَّماتِ التي فِيهـا اعْتِداءٌ عـلى النُّورانيّةِ وانْغِماسٌ في الطِّينيَّةِ، كشَـجرةِ السَّرقـةِ والزِّنى والخمرِ والقتلِ، وكذلكَ جَعلَ اللهُ للحكوماتِ والأنظمةِ شَجرةً عَليهم ألاَّ يأكلُوا من ثَمرِها، هي شَـجرةُ الظُّلمِ والطُّغيانِ والاستبدادِ، ومَا كَانَ علَى الحكوماتِ والأنظمةِ كانَ علَى الجماعاتِ والتَّجمُّعاتِ الإنسانيةِ، وكانَ كَذلكَ علَى الأفرادِ.

■■■

بعـدَ أنْ أعلنْتُ خُروجي مِنَ الجماعةِ عامَ 2002 ظَنَّ الناسُ أنَّني تَركْتُهم،

والحقيقةُ أنني لم أتركْهم، فالإنسانُ حينَ يخوضُ تجربةً ويدخلُ في علاقاتٍ إنسانيةٍ متشابكةٍ يرتفعُ فيها شأنُ العاطفةِ والروحانياتِ فإنَّه لا يبرحُ الموضعَ الذي كانَ فيهِ «مشاعريًّا» وتظلُّ روحُه تحلّقُ حولَ هذا الزمانِ الذي كانَ فيهِ في هذا المكانِ، ونفسُ الأمرِ كانَ كذلكَ عندَ بعضِ الإخوةِ لا كلِّهم فمنهُم مَنْ كانَ يُداومُ الاتّصالَ بي والحديثَ معِي حديثَ الأخِ لأخيهِ، هؤلاءِ كانُوا يُدركُونَ أنَّ العلاقةَ التي تربطُ الأخَ بأخيهِ هي الأُخوَّةُ في اللهِ لا في التَّنظيمِ، أمَا الذينَ وَقفُوا عندَ حدِّ التنظيمِ فقدِ انْقطعَتْ صِلتي بهِمْ فورَ أنْ خرجْتُ، فقدْ أصبحْتُ عندهَم مثلَ الشجرةِ المحرَّمةِ التي لا يجوزُ أنْ يأخذُوا مِنْ ثمرِها.

كانَ الأخُ مختار نوع من الإخوةِ الذين استمرَّتْ صِلتي بهِمْ قائمةً، وقدْ يكونُ قدْ تعرَّضَ في مستقبلِ الأيامِ لمَا تعرَّض لهُ مِن إقصاءٍ وإبعادٍ بسببِ صلتهِ بي، وإنْ كانَ البعضُ يقولُ: إنَّ العكسَ هو الصحيحُ وأنّني تعرَّضْتُ لما تعرضْتُ له داخلَ الإخوانِ بسببِ صلتي به، أيُّنا كانَ هو المغضوبُ عليهِ؟ الذي وَصلْتُ إليه مؤخَّرًا أنهُم لم يكرَهُوا مختار إلَّا لأنَّهُ يحملُ فكرًا مُستقِلًّا، يُفكِّرُ أحيانًا بعيدًا عنهم، وكذلكَ أنَا، لم أكنْ أقفُ معهم على قضيبِ القطارِ الذي رَسمُوه في مدينةِ الإخوانِ وطلبُوا من الكلِّ أنْ يسيرَ عليهِ، فأنَا أحبُّ الأرضَ الرَّحْبَةَ، وأرضُ الإسلامِ رحبةٌ متّسعةٌ لا ضِيقَ فيها ولا كهنُوتَ، ولكنَّ الإخوانَ لا يُحبُّونَ ذلكَ، الإخوانُ يرغبُونَ في «رَصِّ» الإخوةِ في أرفُفِ الجماعةِ بحيثُ لا يتحرَّكُونَ ولا يُفكّرونَ إلاّ بالأمرِ وبنفسِ الطريقةِ التي حدَّدُوها لهم في «الكتالوج»، الإخوانُ يكرَهُونَ الأحرارَ ويُحبُّونَ العبيدَ، لذلكَ لم يرتفعْ شأنُ أحدٍ في الإخوانِ بعدَ وفاةِ الأستاذِ عمرِ التِلمساني إلاَّ إذا كانَ عبدًا.

ولكنَّ الغريبَ في قِصَّتي معَ نوح هو أنَّني لم أكنْ صَديقًا له ولم أكنْ من رفاقه المفضَّلين، بل إنَّ حَجْمَ الخِلافاتِ التنظيميةِ التي بيننا كانتْ كبيرةً، حتَّى أنَّني قاطعْتُه أكثرَ من مرةٍ على فتراتٍ طويلةٍ، حتى قبلَ القبضِ عليه في قضيةِ النقابيينَ كانتْ صِلتي به فاترةً، ورغمَ ذلكَ فإنَّني تنبَّهتُ مبكّرًا إلى أنَّ مختار يتعرَّضُ لحربٍ غريبةٍ داخلَ الإخوانِ لم أَدْرِ وقتَها سببَها، ما زِلْتُ أَذكرُ ذلكَ اليومَ الذي مرَّ عليَّ فيهِ جمال تاج وأسامة محمود، الأولُ شخصيةٌ إخوانيّةٌ معروفةٌ حاليًّا وقد كانَ أحدُ الأفرادِ الأوائلِ الذين بدءُوا معَ نوح في إنشاءِ لجنةِ الشريعةِ الإسلاميةِ، والثاني كانَ محاميًا إخوانيًّا يعملُ في مكتبِ الأستاذِ إسماعيل الهُضيبي ثمَّ في طرفةِ عينٍ وانْتباهتِها وبتزكيةٍ من مختار أصبحَ عضوًا بمجلس نقابةِ المحامين، وفي مكتبي أخذَ جمال وأسامة يَحْكيانِ لي قِصصًا عن أنَّ مختار نوح شخصيةٌ راسبوتينيةٌ وأنَّنا يَجِبُ أنْ نَقضِيَ على وجودِهِ داخلَ الإخوانِ، وأَخذا يَكيلانِ لهُ الاتِّهاماتِ يَمينًا ويسارًا، حتى إنَّهما لم يَتركا كبيرةً ولا صغيرةً إلاَّ وأَلصقاها بهِ ووَضعاهَا على أمِّ رأسهِ، سايرْتُ هاتينِ الشخصيتينِ في كَلامِهما حتَّى أعرفَ ما في « بَطنِ الزير » وكانَتْ نهايةُ كلامِهما تَدورُ حولَ أنهَّما يُشكّلانِ فَريقًا برعايةِ أحدِ الإخوةِ الكبارِ لم يَذكُرا لي اسمَه، هَدفُ هذا الفريقِ هو طَردُ مختار نوح من جماعةِ الإخوانِ، على أنْ يُصبحَ بعدَهَا جمال تاج مَسئولًا عن قسمِ المحامينَ وأنهَّما يرَغبانِ في وُقوفي معَهما في هذا الشأنِ، ولكي يُؤكّدَ لي أسامة محمود صِدْقَ اتّهاماتِهما لمختار قالَ لي: (احنا حاكمْنا مختار يا أخ ثروت في بيتي بمدينةِ نصر) وكانَ أسامة في أسرة إخوانيةٍ واحدةٍ معي في مدينةِ نصر وقدِ اعْترفَ مختار بجرائمهِ حتَّى أنَّه

وَصلَ لدرجةٍ كبيرةٍ من الإجهادِ بعدَ أن اعْترَفَ ففُوجِئْنا به يَتقيّأُ وهو يقولُ: «ارحَمُوني أنَا تعبت، أنا فعلاً عملْت كده»!! كانَتْ كلماتُ أسامة ساذَجةً لم آخذْها بجِدّيةٍ خاصةً وأنَّ له سوابقَ معي في القيلِ والقالِ، فَحينما كنَّا نعقِدُ في بيتِهِ لقاءَ الأسرةِ الإخوانيةِ التي تضَمّنَا وكانَ جمال تاج معَنا في ذاتِ الأسرةِ خاضَ أسامة محمود في عَرْضِ أَحدِ الدُّعاةِ وهو داعيةٌ معروفٌ وله شَرائطُهُ وتَسجِيلاتُهُ وخُطبُهُ المِنبرِيَّةُ، وقالَ: إنَّه زارَهما في مكتبِ إسماعيل الهضيبي في أحدِ الأيامِ لِبعضِ شأنِهِ وعندَما لم يجِدْ أحدًا في المكتبِ إلاَّ محاميةً شابّةً انتهزَ الفُرصةَ وأرسلَ الفَرَّاشَ لِيشترِيَ له حاجةً طلبهَا وبعدَ أنْ خرجَ الفرَّاشُ من المكتبِ هجمَ الداعيةُ على الفتاةِ وحاولَ أنْ يُقبّلَهَا إلاَّ أنهَّا ردَعتْه، وعلى حَدِّ قولِ أسامة: «كانَتْ فضيحةً وقد استَطاعَ الأستاذُ إسماعيل الهُضَيبي التكتيمَ عَليها حتّى لا تصِلَ إلى قياداتِ الإخوان».

لم أُصدِّقْ أسامة محمود في قصتِهِ عن الداعيةِ المشهورِ خاصةً وأنَّني أعَرفُ الأطرافَ كلَّهَا؛ لذلكَ لم أتقبَّلِ الاتِّهاماتِ النقابيةَ التي كالهَا هو وصاحبُه جمال لمختار، فمَنْ يكذِبُ في عِرْضِ أخيهِ الدَّاعيةِ ليسَ من الغريبِ عليهِ أنْ يكذبَ في حقِّ أخيه النِّقابيِّ.

أَذكرُ أنّهُ بعدَ أنِ انْتهَى اللِّقاءُ ذهبْتُ إلى مختار نوح في بيتِهِ وقبلَ أنْ أجلِسَ قلتُ له: أنتَ متَّهمٌ عندِي بكَذا وكَذا وكذا.

قالَ نوح: مَن الَّذِي سَردَ لكَ هذِهِ الاتِّهاماتِ؟

قلتُ: جمال تاج وأسامة محمود.

ردَّ مختار: أنا لنْ أردَّ عليها ولكنَّني سأترك شخصًا آخر يردُّ نيابةً عنِّي، هيَّا بنا.

قُدتُ سيَّارتي الـ «فيورا» وركبَ بجواري مختار حيثُ ذهبْنا إلى منطقةِ ميْدان الجامع ومنها إلى فيلَّا قريبةٍ من الميدانِ، وإذا بي في بيتِ المستشار مأمون الهضيبي، فُوجِئ المستشارُ بالزِّيارةِ فقالَ مُندهِشاً: خير!

وجَّه مختار لي الكلامَ قائلًا: قُلْ له ما قلتَه لي.

قلتُ للمستشارِ: جاءَ لي اليومَ جمالُ تاج وأسامة محمود وقالا لي عَنْ مختار أشياءَ كثيرةً، ثم حكيْتُ له التَّفصيلات.

اِستَمعَ مأمون الهُضيبي للكلامِ كلِّه ثم قالَ: (هؤلاءِ ناسٌ فَاضية) اليدُ التي لا تعملُ يشُقُّ عليها أنْ يعملَ الآخرونَ، وقد كتَبوا الذي قالُوه لكَ في شكوى ضدَّ مختار وحَصَلُوا لهَا على عِدّةِ توقيعاتٍ من بعض إخوانِك، وقد قامَ الإخوانُ بإجراءِ تحقيقٍ موسَّعٍ في هذهِ الاتِّهاماتِ وقد أشرفْتُ بنفسِي على التَّحقيقِ، وطبعًا «سي سيف» هو الذي كانَ يحرِّكهم ومعَه بعضُ الأخوةِ في المكتبِ «يقصِدُ مكتبَ الإرشادِ» لكن اتَّضحَ أنَّ كلَّ الاتِّهاماتِ «فَشْنك» يعَني كلامٌ فارغٌ وغيرُ حقِيقيّ، ثم وَجَّه كلامَه لمختار: (شُوف يا مختار دُولْ مجموعةْ عَواطليّة) لا تهتمّ بما يفعلونه.

ولكنَّ هذا لم يمنَعْ أنْ تقومَ خلافاتٌ بيني وبينَ مختار في خصوصِ كيفيَّةِ إدارةِ العملِ في قسمِ المحامينَ، إذْ كنتُ أرَى أنه قامَ بإقصاءِ المحامينَ الذينَ ينتمُونَ للتياراتِ الليبراليةِ وإبعادِهم عن كلِّ لجانِ النقابةِ فكانَ هذَا الأمرُ

هـو السـببَ الحقيقـيَّ في تآمُـرِ هؤلاءِ مـعَ النِّظامِ لفـرضِ الحراسـةِ القضائيةِ عـلى النِّقابةِ، وحينَ تـمَّ القبضُ على نوح وخالد بـدوي ومعَهما بديع وبعضُ الإخـوانِ في قضيةِ النقاباتِ المهنيةِ عـامَ 1999 تبدَّلَت الأمورُ عندي، فَالْآنَ ليسَ موضعَ الخلافِ في الرأي، الآنَ إخوةٌ لي تمَّ حَبسُـهم، الآنَ يحرُمُ عليَّ أنْ أنشـغِلَ بأيِّ عملٍ في الإخوانِ إلاَّ الدفاعَ عن إخواني، وحينَ سَمعْتُ البعضَ يَسـخَرُ من حَمِيَّةِ البعضِ وانشـغالِ مشـاعرِهم بهـذِهِ القضيةِ حَمـدْتُ اللهَ أنْ لم يجعلْ قلبي مثلَ قلوبِ هؤلاء، وقد فزِعْتُ أشدَّ الفزعِ عندمَا قالَ لي أحدُهم: لقد سـجدْتُ لله شُـكرًا أنْ تمَّ حَبسُ مختار نوح، ربَّما خلَّصَنا منهُ، وحينَ قلتُ له وأنَا أعاتبُه: ألا تظنُّ أنَّ السجنَ سيكونُ بعيدًا عنك، لا تفرَحْ لأزمةِ أخيكَ لعلَّها لاحقةٌ بك، ثم هَلْ فرِحْتَ أيضًا بحبسِ أخيكَ خالد بدوي؟

قالَ الأخُ صاحبُ القلبِ المريضِ: هُو الجليسُ يشقَى بصاحبِهِ، ولكنْ قلْ لي: ألم تَكُنْ على خلافٍ معَ مختار ما الَّذي حَرَّكَكَ فجأةً!!

قلـتُ لـه: بعـضُ المعاني التـي لا تعرِفهُـا، أنَا أقفُ مـعَ إخوانِـكَ كلِّهم، كلُّ إخوانِـك الذين أُحيلُوا للمحاكمةِ العسـكريةِ، أقفُ معهَم مُروءةً ونخوةً وحبًّا، قَـدْ أختلفُ معَ إخـواني الذينَ في السِّـجنِ ولكنَّني أُحبُّهُـم فالاختلافُ لا يمنعُ الحبَّ، الاختلافُ لا يَحُضُّ على الكراهيةِ، الاختلافُ لا يضرِبُ على يدِ المروءة.

وكانَـتْ هذهِ آخرَ عبـاراتٍ دارتْ بيني وبينَ هـذا الأخ إذْ رأيْتُ أنْ أبتعِدَ عنهُ إلى أنْ يُصلحَ اللهُ قلبهُ، فصاحبُ مثلِ هذا القلبِ لا ينبغِي أنْ أقتربَ منهُ، فهذهِ القلوبُ تحترقُ مِنَ الغِلِّ فتَحرِقُ مَنْ حولَها.

قَضَى نوحٌ وأصحابُه في السجنِ سنينَ عددًا، وكانَ قد تعرَّفَ وهو في محبسِه على الدكتورِ سعدِ الدين إبراهيم ودارَ بينهما حوارٌ طويل، كانَ بعضُه يتمُّ من خلفِ نافذةِ الزنزانةِ، سألَه نوح: لماذا اهتمَّ العالمُ بقضيتِك يا دكتورُ سعد وأنتَ الذي صدرَ الحكمُ ضدَّكَ من محكمةٍ مدنيةٍ! ولا يهتمُّ بقضايا الإخوانِ الذين يُحاكَمونَ أمامَ المحاكمِ العسكريَّةِ!.

ردَّ عليهِ الدكتورُ سعدُ الدين إبراهيم: هذا شيءٌ طبيعيٌّ، ضَعْ في الاعتبارِ الأحداثَ الساخنةَ التي حدثَتْ في العالمِ وأمريكا في الفترةِ الأخيرةِ وأهمُّها الهجومُ الانتحاريُّ على مركزِ التِّجارةِ العالميِّ في نيويورك مِنْ إسلاميِّينَ مُتطرِّفِينَ.

قالَ له نوحٌ: ولكنَّ الإخوانَ ليسَتْ جماعةً متطرِّفةً!.

سعدُ الدين إبراهيم: العَالمُ لا يَعرِفُ ذلكَ لأنَّه لا يَراكُم.

نوح: كيفَ لا يَرانا؟!.

سعد الدين إبراهيم: لا يَراكُم لأنَّكم تَعملُونَ في الخَفاءِ، الجزءُ الأكبرُ من فكرِكم وثقافتِكم مُختزَنٌ في باطنِكُم، ثمَّ إنَّ العالمَ يدافعُ عنِّي لأنَّه يَعتبِرُني صاحبَ رؤيةٍ ومشارِكًا معَه في قيمٍ إنسانيةٍ عالميةٍ، بالإضافةِ إلى أنَّني أَحترِمُ الآخرَ.

نوح: ولكنَّ الإخوانَ مثلُكَ يُشارِكُونَ في تلكَ القِيمِ الإنسانيةِ، فكيفَ نُوصِلُ وُجهةَ نَظرِنا للغرْبِ؟

سعد الدين إبراهيم: أَضعَفُ الإيمانِ هو الكلمةُ وأَقواهُ هو الفِعلُ.

نــوح: أمَّا الْكلمةُ فنَمتلِكُها الآنَ ولكنَّ الفِعلَ لَنْ يكونَ إلَّا بعدَ أنْ نَخرُجَ من السجنِ.

■■■

في ضُحى أحدِ أيامِ عام 2003 حملَتْنا إلى حيِّ المعادِي سيارةُ الأستاذِ خالد بدوي المحامي والداعيةِ الإخوانيِّ الرقيقِ الذي كانَ محبُوسًا معَ نوح وبديع في قضيةِ النِّقابيين، كنَّا ثلاثةً لا رابعَ لنَا، مختار نوح وخالد بدوي وأنا، وكانَتْ وُجهتُنا هي بيتَ الدكتورِ سعدِالدين إبراهيم الذي كانَ قد خَرجَ من السِّجنِ منذُ بضعةِ أشهرٍ، وفي السيارةِ ظلَّ الكلامُ مُستمِرًّا بيننَا بلا توَقُّفٍ وكأنَّنا جوعَى كلامٍ، فمِنْ ناحيةٍ تحدَّثْنا عن الحِوارات التي دارَتْ بينهَم والدكتورِ سعد في السجنِ بالتَّفصِيلِ، ومن ناحيةٍ أُخرى تحدَّثْنا في شئُونٍ عامةٍ وخاصةٍ، وكانَ من ذلكَ أنْ عاتبَنِي الأخُ مختار نوح عَلى إهمالِ مكتبي لقضيةٍ مدنيةٍ كنْتُ أُباشِرُها لأحدِ الإخوةِ الكبارِ من أصحابِ الفَضْلِ والعِلْمِ والقيمةِ هو الدكتورُ «زكريا عبدالحكم» أستاذُ الطبِّ النَّفسِيِّ والذي كانَ نَقيبًا لي في فترةٍ من فَترَاتِ وُجودِي في الإخوانِ، وكانَتْ قضيةُ هذا الأخِ قد تَعرَّضَتْ لإهمالٍ في مكتبي في الفترةِ التي انْشغلْتُ فِيها بكلِّ قوتي بنصرةِ الدكتور بديع وإخوانه في قضيةِ النِّقابيِّين، وقد وَافقْتُ نوحًا على عِتابهِ، وتَناقَشَ معِي الأستاذُ خالد بدوي مُناقشةً قانونيةً عن قضيةٍ كنْتُ أُباشِرُها لأحدِ قياداتِ الإخوانِ التاريخيةِ هو الأستاذُ «أحمد عادل كمال» الذي كانَ من قادةِ النظامِ الخاصِّ للجماعةِ، وظَلَّتِ الحواراتُ مستمرةً إلى أنْ توقَّفتِ السَّيارةُ أمامَ منزلِ الدكتورِ سعدِ الدين إبراهيم.

بيتُ الدكتور سعدٍ من البيوت ذات العَراقة والأَصالة، صالةُ الاستقبال كبيرةٌ بها مجموعةٌ من الصالونات التي تتميّزُ بالذّوق الرفيع، وعلى الحوائط مجموعةٌ من اللّوحات الفنية التي وُضِعَتْ بعنايةٍ واخْتِيرَتْ بدِقّةٍ، والأرضُ مفروشةٌ بمجموعةٍ من الطنافس والسجاجيد المتنوعة والتي تُعتبَرُ في حدّ ذاتها تحفًا فنيةً، فأحدُ الصالونات سَجاجيدُه شيرازيةٌ، أمّا الصالونُ الذي جَلسْنا فيه فقدْ كانَتْ سجاجيدُه حريريةً هنديةً، وكانَ مما تعَجّبْتُ منه أنْ رأيتُ على حائط الصالون الذي جلسْنا فيه صورةً على الحائط للسيد المسيح وأمِّه السيدة مريمَ ويَبدُو أنها لوحةٌ من اللّوحات الشهيرة عالميًا، وبجوارها لوحةٌ بالخطِّ الكوفيِّ لآيةِ الكرسيّ، على حائطٍ واحدٍ تتجاورُ لوحةُ السيد المسيح وآيةُ الكرسيّ!! مِنْ أيِّ وادٍ هذا الرجلُ؟!.

استقبلَنا الرجلُ خيرَ استقبالٍ وتصادَفَ أنْ كانَ عندَه وقتَها بعضُ الزملاء المحامينَ المنشغلِيْنَ بحقوقِ الإنسانِ أذكرُ منهمُ الأساتذةُ أحمدُ عبدالحفيظ ونجادُ البرعي وفاطمةُ ربيع، وحينَ انفَرَدْنا بالدكتور هَنّأناه بسلامةِ الخروج من السجن، وتَذكَّروا معاً ما كانَ يدورُ بينهَم من حواراتٍ أهمُّها ما يتعلّقُ برَغْبةِ الإخوانِ في التقاربِ من الغربِ، ومن الحوارِ عرفْتُ أنّ الدكتورَ عصامَ العريانِ الإخوانيَّ الشهيرَ حين كانَ في السّجنِ فتحَ هو الآخرُ حواراً معَ الدكتورِ سعدٍ بهدفِ التقاربِ معَ أمريكا على وَجْهِ الخصوصِ وأنّ الدكتورَ سعداً وعدَه بأنْ يَبذلَ جهدَه في هذا الأمر.

ظلَّ حوارُنا معَ الدكتور سعدٍ في بيتِه ضاغِطًا على قلبي لسنواتٍ، فمِنْ ناحيةٍ كنْتُ ألتمسُ لمختار نوح المبررَ وهو يَفتحُ هذا البابَ، فقد كانَتِ الجماعةُ

مَضطَهَدةً محبوسةً دائمًا، وكانَ نوح من ضَحايا الأحكام العسكرية، ومن شأن المُضطهَد المحبوس الذي يُمارِسُ عليه الحاكمُ اسْتبدادًا وطُغيانًا أنْ يبحثَ عن منافذَ يحصُلُ منها على قَدْرٍ من حرّيتـه، ومـن ناحية أُخرى رَأيتُ - خاصةً مـع تطوّرِ الأحـداث في المنطقة - أنَّ الإخـوانَ كتنظيم له أهدافـه، وفكرتُه، سيَسعون إلى استخدام هذه المنافذ لا ليبحثُوا عن حرّيتهم ولكنْ ليَصِلُوا إلى حُكْـم البلاد، فيكونُ التنظيمُ الحديديُّ الذي يَطوي في داخله أسرارًا لا يَعلَمُ عنَها أحدٌ شيئًا قد وَصَلَ إلى الحكم لا بالاسْتقواء بالشّعب ولكنْ بالاستقواء بأمريكا، ولأنّني كنْتُ أبحثُ عن أسرار الإخوان المدفونة في كهفٍ سرّيٍّ فقد رأيتُ أنَّ الحِوار مَن الممكن أنْ يبدأه مَنْ حَسُنَتْ نيّاتُهم ثم يَستكملَهُ أصحابُ الأسرار الخفية.

وكأنّنَي كنْتُ أَلعبُ لعبةَ الكَلمات المتقاطعة، أبحثُ عن جملةٍ مفيدةٍ تَقُودُني إلى سرّ أَعلمُ أنّه في صُندوقٍ مخفِيٍّ عن الجميع، لا يَحتكرُه إلاَّ كَهنَـةُ المعبد، تَعـودُ ذاكـرتي إلى ذلكَ اليوم البعيد الذي ذهبْتُ فيه معَ عددٍ صغيرٍ من شـبابِ الإخوانِ إلى مدينة طنطا، كانَ يُصاحِبُنا أخٌ فاضلٌ اسمُه «محمدُ السيد هجرس» كانَ مُقرَّبًا من نفسِي إذْ رأيتُه من أصحاب القلوب النقيـة التَّقية توفَّاهُ اللهُ بعدَ هـذه الواقعة بسَنوات، وفي اليوم الـذي حَطّتْ فيه أقدامُنـا مدينةَ طنطا ذَهبَ بنا محمد - هجرس عليه رحمةُ الله - إلى الحاجّ لاشـين أبو شـنب عضو مكتب إرشـاد الجماعة والذي كانَ منَ القيادات التاريخيّة للإخوان المسلمينَ، ما زَالَتْ هيئةُ محمد هجرس ماثلةً في ذِهني وهو يحملُ ابنَه الصغيرَ إسـلام الذي لم يكُنْ قـد تجَاوزَ الثالثـة من عُمره، وفي جلسـتنا معَ الحاجّ لاشـين أفَاضَ الرجلُ في

الحديثِ عن تاريخ الجماعةِ وعن حسنِ البنا، ما زلْتُ أذكرُ الكلماتِ الأخيرةَ التي قالها لم أنسَ منها حرفاً: الجماعةُ قامَتْ على فكرةٍ، والفكرةُ تظلُّ نظريةً طالما أنهَّا في الكتُبِ، فإنْ أرادَ لها أصحابُها أنْ تصبحَ واقِعًا فلابدَّ أنْ تساندَها قوةٌ.

عقَّبتُ على قوله ببيتِ شعرٍ للشَّابيِّ هو:

لا رأيَ للحقِّ الضعيفِ ولا صَدَى

الرأيُ رأيُ القــاهرِ الغَــلَّابِ

قالَ الحاج: (عليك نور) هَذا استدلالٌ في مَوضِعِه، لِذلكَ فإنَّ دعوتَنا لَنْ تَنتصِرَ إلاَّ إذا أخذْنا بأسبابِ القوةِ.

قـالَ أحدُ الأخوةِ: بهذهِ المناسبةِ، ما رَأيُ فضَيلتِكَ في استعانةِ العراقِ في حَرْبِها معَ إيرانَ بأمريكا، وهَا هِيَ أمريكا تَنقلبُ عَلى العراقِ وتضرِبُها بقوةٍ بعدَ غزوِها للكويتِ.

ردَّ الشيخُ: يجوزُ الاستعانةُ بكافرٍ في سبيلِ الوصولِ للحقِّ، فالرسولُ ﷺ استعانَ بكافرٍ ليدلَّهُ علَى الأثرِ وهو في هِجْرتِهِ إلى المدينةِ، أمَّا غزوُ العراقِ للكويتِ فهو خطأٌ على العراقِ أنْ تتحمَّلَ تبِعاتِه.

■■■

ظَلِلْتُ أُلملِمُ أوراقِي وأفكَارِي وأنا أغذُّ السَّيرَ إلى كهْفِ الأسرارِ الذي بهِ «صُندوقُ سِرِّ الْجماعةِ» الرهيبُ، فبعدَ جلْستِنا معَ الدكتورِ سعدِ الدين إبراهيم تغيَّرتِ الدُّنيا وحَدَثَتْ أمورٌ، وسُبحانَ اللهِ الحيِّ الذي لا يموتُ،

كلَّ يوم هو في شأنٍ، له أُمورٌ يُبديها ولا يَبتديها، يُغيِّرُ ولا يتغيَّر، فمَنْ كَانَ في قلبِ الجماعة أصبحَ خارجها ومن كانَ بشوشًا أصبحَ عَبوسًا، ومَنْ كانَ يُحبُّكَ أصبحَ يُبغِضُكَ.

فمِنْ ناحيتي ابتعدْتُ عن جماعةِ الإخوانِ مسافةً كبيرةً بَعدَ أنْ بدأتْ معالمُ الأسرارِ تخرجُ لي رُويدًا رُويدًا من عالمِ الأشباح إلى عالمِ المَحسُوساتِ والمرئياتِ، ومن ناحيةٍ أُخرى تركَ مختار نوح جماعةَ الإخوانِ وفَضَّلَ أنْ يشارَ إليهِ باعتبارهِ «تمَّ تجَميدُ عضويّتِهِ» ومن ناحيةٍ ثالثةٍ رأيْتُ الفصلَ الثاني من علاقةِ الإخوانِ بأمريكا وكانَ ذلكَ في شِتاءِ الأيامِ الأخيرةِ من عام 2005.

«هو» أحدُ أعضاءِ مكتبِ الإرشادِ من الإخوةِ الكبارِ أصحابِ التاريخِ، ومَا زالَ عضوًا بالمكتبِ حتى تاريخِ كتابةِ هذهِ الكلماتِ، وكانَتْ صلةٌ قد نشَأتْ بيني وبينَه من خلالِ قضيةٍ أَسندَها لي لأحدِ أقاربهِ حينَ كنْتُ في الجماعةِ، وقد وَفَّقَني اللهُ في القَضيَّةِ فزادَ ذلكَ من أواصرِ المعرفةِ والتوادِّ بيننا، وكنْتُ بحُكْمِ العَشَمِ قد تحدَّثْتُ معَه كثيرًا عَنْ مخاوفي مِنْ أن تَنقلِبَ الجماعةُ إلى وُجهةٍ أُخرى لم تكنْ في حُسبانٍ من أنشَئُوا الإخوانَ، وكانَتْ كلماتُه تُطمئِنُني حينَ يقولُ: «إنَّ أصحابَ الفِكرِ الدَّخيلِ على الجماعةِ لن يُفلِحُوا في مَسعاهُم» ولكنَّني كنْتُ أجِدُه فاترَ الهمةِ لا يُواجِهُ من أطلقْنا عليهم «القُطبيّين» بقوةٍ، وكأنَّهُ سلَّمَ لهم واسْتَسلمَ لأحلامِهم، والحقُّ أنَّه كانَ ينتقِدُ «هؤلاءِ» في الغُرفِ المغلقةِ إلاَّ أنه كانَ حَريصًا لأسبابٍ لديه ألاَّ يصلَ صوتُ انتقادِهِ لآذانِهم، وما زَالَ حتّى الآنَ صَامِتًا أمامَ ما يحدُثُ مِن انفلاتاتٍ داخلَ الجماعةِ، وفي أحدِ الأيامِ الأخيرةِ من عام 2005 ذهبْتُ إليه في بيتِهِ بناءً على

موعدٍ مضروبٍ بيننا، وفي هذا اليوم رأيته مختلفًا عن السابق، كان ثائرًا مهتاجَ المشاعرِ ساخطًا، وبعدَ عبارات الترحيب ابتدرني قائلًا: الجماعةُ بدأتْ تسيرُ في هذه الأيام ناحيةَ طريقٍ خطيرٍ.

تعجّبتُ قائلًا: كيفَ؟

هو: علاقتنا بأمريكا أخذتْ في التّطوّرِ، بيننا الآنَ مراسلاتٌ واتفّاقاتٌ.

أنا: هذا شيءٌ طيبٌ في رأيي، فأنتم في أمسّ الحاجةِ إلى مَنْ يخفّفُ عنكم الضغوطَ الأمنيةَ التي تمارسُ عليكم.

هو: ولكنّ الاتفاقاتِ تتّجهُ ناحيةَ تيسيرِ طريقنا نحو الحُكم، أمريكا ترغبُ في أشياءَ تريدُها منّا ونحنُ نريدُ منها أشياءَ، وما تريدُه منا يخالفُ الثوابتَ التي دافعْنا عنْها لسنواتٍ.

أنا: ومَنْ منكُم يتفاوضُ معَ أمريكا؟

هو: خيرت الشاطر وعصام العريان وأحيانًا يكونُ هناكَ أشخاصٌ بعينِهم يقومُونَ بمهام محدَّدةٍ.

أنا: وكيفَ تسكتُ على هذا الأمرِ؟ وكيفَ يسكتُ أيضًا الدكتورُ عبدالمنعم أبو الفتوح والدكتورُ محمد حبيب؟!

هو: هذه المعلوماتُ متكتّمٌ عليها جدًّا حتى أنّها لا تصلُ إلينا ولا نناقشُها في مكتبِ الإرشادِ وإنّما يقومُ بها الشاطرُ من وراءِ ظهورِنا، وقد وصلَتْ لي مِنْ خلالِ بعضِهم رسالةٌ كانتْ مرسَلةً من أحدِ الإخوانِ المسئولينَ في

أمريكا إلى خيرت الشاطر بها بعضَ المعلوماتِ الخطيرةِ، هُمْ يُطلِقُونَ على خيرت BIG أي الرئيسَ والكبيرَ أو الهامَّ، لذلكَ الخِطابُ موجَّهٌ إلى B.

أنا: (تعرِف يا فندم، أنَا بعتبرْ أمريكا هي الشجرة المحرمة بالنسبةِ للإخوان) ..

هو: بمعنى؟

أنا: بمعنى أنهَّا إمبراطورةُ الشرِّ في العالمِ، شيطانُ البشرِ، تبَحَثُ عن الثَّمراتِ التي في العالمِ لِتَلْتهِمَها، أمَّا ثمرتهُا هي فشديدةُ المرارةِ، تجَعلُ مَنْ يأخذُها يجَوعُ ويَعرى، وتَنكشِفُ سَوءَتُه، أمَريكا إمبراطوريةٌ ظالمةٌ طاغيةٌ مستبدَّةٌ، أمريكا هي شجرةُ الظُّلَم، وشجرةُ الظلم مُحرَّمةٌ عَلينا جميًعا؛ لذلكَ إذا أرَادَ الإخوانُ الاقترابَ منها وقَطْفِ ثَمرتها بالشكلِ الذي يفَعلُونَه فَسيفقدونَ نُورَ دعوتِهم وخَيريَّةَ مَقاصدِهم، سيدُنا آدم يا دكتور عندَما أكلَ من الشجرةِ المحرَّمةِ سَألَهُ الله لماذا فَعلْتَ؟ فقالَ: كنْتُ أبحثُ عن الخلودِ. فقالَ الله له كما جاءَ في الأثر: «طلَبْتَ الخلودَ مِنْ غَيري ولم تَطلُبْه مِنِّي». ونحَنُ الآنَ نَطلبُ الحكمَ لا مِنَ اللهِ سبُحانَه ثم مِنَ الشَّعبِ المِصريّ ولكنْ مِنْ شَجرةِ أمريكا الظالمةِ.

هـو: واللهِ كلامُك صح، عندَكَ حقٌّ، خُذْ هذا الخِطابَ واقْرأه، اقرأه لِتنبَّهَ إلى هذا الخطرِ، لعلَّ تَنبيُّهكَ يُحدِثُ أثرًا ويُنبِّهُ الغافِلينْ.

أنا: كلامي الآنَ يثيرُ نَقْمتَهم وغَضبهَم، هُمُ الْآنَ لا يَقبلُونَ نصيحةً ولا نَقْدًا.

أخَذْتُ مِنهُ الخِطابَ وتحَدَّثْنا في أمورٍ شَتّى ثمَّ انصرفْتُ إلى حالِ سبيلي، وفي بيتي في جوفِ الليلِ أخَذْتُ أقرأُ الخِطابَ الذي كانَ كارِثيًا.

■■■

Dear B

السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ.

تَحيّاتي وأشواقِي لجميعِ الإخوةِ، أمّا بعدُ.

كانت الجهودُ التي بَذلها دكتورُ برونلي أثراً طيباً في تقريبِ وُجُهاتِ النّظر إلى حدٍّ كبيرٍ إلاّ أنهُ ما زالَتْ بعضُ الاختلافاتِ في وُجُهاتِ النظرِ، وقد ظَهرَ لي أنّ مستر إيرلي مُتعنِّتاً إلاّ أنني أوضَحْتُ للأصدقاءِ الآتي:

1- لَنْ نُغيّرَ خريطةَ المنطقةِ السياسيةَ.

2- نَتعهّدُ بالحِفاظِ على كلِّ المعَاهداتِ والاتّفاقيّاتِ (أبْدى الأصدقاءُ سعادتَهم بتَصريحاتِ المرشدِ عَنْ إسرائيلَ وقالُوا عنهُ: (He is a respectable man).

3- نقَبلُ وجودَ إسرائيلَ بالمنطقةِ (وقالُوا أنهُ ينبغي ألاّ ننظُرَ إلى إسرائيلَ كما تَنظرُ الحكومةُ إلينا فلا هِيَ محظورةٌ ولا نَحنُ محظُورونَ).

4- أوضحْتُ لهم إصرارَنا علَى أنْ تقُومَ الإدارةُ الأمريكيةُ بدعمِ التحوّلِ الدِّيمقراطيِّ بالمنطقةِ وقَدْ ظَهرَ لهم مِنْ نتائجِ المرحلةِ الأُولى أننّا أصحابُ الرصيدِ الجْماهيريّ.

وقد أوضحَ الأصدِقاءُ:

1- سعادتَهم بجُرأتِنا في تناولِ قَضيةِ الحِوارِ معَ أمريكا وأنّ التناولَ كانَ وَاقعِيًّا إلاّ أنهّم أبدَوا استياءَهم من مسألةِ أنّ الحوارَ ينبغي أنْ يتمَّ عبرَ وزارةِ الخارجيةِ المصريةِ، وقالُوا: إنّنا ينْبغِي أنْ نتخلّصَ من هذهِ النّغْمةِ.

2- أوصَوْا بِطرْحِ مسألةِ الحوارِ معَ أمريكا على أوسعِ نطاقٍ حتّى تُصبحَ أمرًا

وَاقعِيًّا، وقتها لَنْ يَبحَثَ الناسُ عن شَرعيَّةِ الحوارِ ولكنَّهم سيَبحثُونَ عن نتائجِ الحِوَارِ.

3ـ يجبُ أنْ يقدِّمَ الإخوانُ الحِزبَ وأنْ يكونَ هذا في خِلالِ عامٍ، وسيُمارِسُ الأصدقاءُ ضُغوطًا على الحكومةِ للموافقةِ عليه.

4ـ تَدعيمَ الحوارِ معَ الحزبِ الوطنيِّ والتنسيقَ معَه في القضايا الكُلِّيةِ ولا مانعَ مِنَ الاختلافِ في الفَرعيَّات.

5ـ ضَرورةَ الحفاظِ على الكِيانِ الحاكمِ وعَدمَ خَلْخلتِهِ دُستوريًّا أو شَعبيًّا وعدمَ المساعدةِ في أيِّ تجَمُّعٍ يسَعَى إلى إحداثِ خلخلةٍ للنظام.

ويَنتظِرُ الأصدقاءُ سَفرَ د. العريان إلى بيروتَ في النصفِ الأولِ من ديسمبرَ لإكمالِ الحوارِ وإنْ لم يتمَّ سيحَضرُ إليكُم صُحفيٌّ أمريكيٌّ وسيُقدِّمُ نفسَه تحتَ اسمِ «جون تروتر» بوكالةِ «s.o.m»، مَطلوبٌ أَنْ يجلِسَ معَ الشاطرِ وعزت.

حاملُ الخطابِ الأخُ حسّانُ وهوَ من السُّودانِ.

أَرجُو عدمَ الثِّقةِ بأيِّ شخصٍ من c a t r

والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ.

أَخوكُم H .a

قرأتُ الخِطابَ أكثرَ من مرةٍ وأَخرجْتُ ملحوظاتي عليه، فَقدْ وَجدْتُ الصِّيغةَ التي تمَّ كتابةُ الخِطابِ بها ركيكةً تَدلُّ على فَقْرِ صاحبِها في اللغةِ، وضَعْفِ قُدرتِهِ عَلى التعبيرِ رغمَ أنَّ كاتبَ الخِطابِ هو أحدُ الإخوانِ في أمريكا، ويبدُو أنَّ

مَعيشةَ الإخوةِ في ظلّ اللغةِ الإنجليزيةِ كانَ لها أكبرُ الأثرِ في تدنّي الثقافةِ العربيةِ لدى إخوانِ الغربِ، إلاّ أنني وقفتُ كثيرًا عندَ الجملِ التي تفيدُ أنّ الإخوانَ يستعينونَ بأمريكا مِنْ أجلِ الوصولِ للحكم، وهُنا قفزتْ إلى ذاكرتي العباراتُ التي قالها الحاج لاشين أبو شنب قبل سنواتٍ طويلةٍ من أنه «يجوزُ الاستعانةُ بالكفّارِ من أجلِ الوصولِ إلى الحقّ» وقولهُ قبلها: إنّ الحقّ يجبُ أن تكونَ له قوةٌ تحميه. فهل الإخوانُ يعتبرونَ أمريكا «الكافر» الذي سيَصِلُ بهِمْ إلى الحقّ؟

وبعدَ عامينِ من قِصّةِ هذا الخطابِ أدلى عصامُ العريانِ بتصريحٍ لجريدةِ الحياةِ اللّندنيةِ، قالَ فيهِ: إنّ الإخوانَ إنْ وصلوا للحكمِ سيعترفونَ بإسرائيلَ وسيلتزمونَ باتفاقياتِ السلامِ معها. قالَ العريانُ نفسَ الكلامِ الذي كانَ مطلوبًا منهُ والذي تلقّى التّعليماتِ بشأنِهِ من الخطابِ المجهولِ الذي وصَلَ للإخوانِ مِنْ شخصيّةٍ إخوانيّةٍ مجهولةٍ تعملُ في الخفاءِ مع الإدارةِ الأمريكيةِ؛ ولأنّ هذا التّصريحَ نشرَتْهُ الحياةُ في عيدِ الفطرِ المباركِ فلمْ ينتبهْ لهُ أحدٌ إلاّ أنّ عصامَ سلطان نائبَ رئيسِ حزبِ الوسطِ كشفَ عنهُ ونشرَهُ وهاجمَ العريانَ بسببِهِ.

الآنَ عليَّ أنْ أبحثَ عن أمرَيْنِ، وسأعرِفُ ما الذي يخفيهِ الإخوانُ في بَطْنِ الزيرِ.

الفصلُ الثامنِ
الشَّيخُ الحكيمُ

تائهٌ بينَ مفَازاتِ الحياةِ ودُروبِها، أَتلمَّسُ الطريقَ إلى أرضٍ خضراءَ نُورانيةٍ تَشِعُّ منها الحياةُ، فالذي كنتُ فيهِ لم يَكُنْ إلاّ سَرابًا كنْتُ أَحسَبُهُ ماءً، حتى إذَا اقْترَبْتُ منهُ وأَرَدْتُ أنْ أتحسَّسَ معانيَه وحُروفَه وأفكارَهُ فإذا بهِ لا شيءَ، لا ماءَ، لا حياةَ، لا مشاعرَ إنسانيةً ترتقِي بِنا ونرتقِي بها، إلى أَنْ عثَرْتُ على «الشَّيخِ الحكيم» الذي كانَ هبةً ربانيةً أَعطانِيْها اللهُ بعدَ أنْ سِرْتُ زمناً في أرضٍ جَدْباءَ تَقَطَّعَتْ زُروعُها، وقدْ كانَ عُثورِي على هذا الشيخِ بمثابةِ العثورِ على كنزٍ أُسطورِيّ، وإذا كانَ الظنُّ أنَّ الكنوزَ هي الجواهرَ والألماسَ والذهبَ والفِضةَ، فإنَّ هذا هو ظَنُّ العامّةِ، أمَّا يقينُ الخاصّةِ فهو أنَّ جواهرَ المعرفةِ ولآلئَ الحكمةِ ونورَ اليقينِ هي الكنزُ الحقيقيُّ الذي لو عَرَفَهُ الناسُ لَتقاتلُوا عليهِ، وما بينَ ظنِّ العامةِ ويقينِ الخاصةِ تَدورُ الدُّنيا بِنا.

كانَتْ رحلتي معَ جماعةِ الإخوانِ هي رحلةَ البحثِ عن الحقيقةِ، رحلةَ البحثِ عن اليقينِ، ظَلَلْتُ أبحثُ عنها وأَنا في داخلِ الجماعةِ، وظلَلْتَ أبحثُ

عنَها بعدَ ذلكَ، وما زلتُ، حتى أمسكْتُ ببعضِ خيوطِها، ولكنْ هل تَستطيعُ أن تجزِمَ أنـك وصلْتَ إلى الحقيقةِ؟ نعَم، قد تنَظـرُ إلى الحقيقةِ وترَاها وتُدرِكُ بعـضَ معانيهـا ولكنَّ رؤيةَ الحقيقةِ غيرُ الوصولِ إليهـا، لن نَصِلَ إليها إلاَّ في عالَمٍ آخرَ، عالمِ الخلودِ، هذا هو عَالَمُ الحقيقةِ، ولكن انْتظِرْ معِي هُنيهةً فأنَا لم أنتهِ من كلامي بعدُ .... هناكَ مِنَ الخَلْقِ بما فِيهمُ الأنبياءُ والملائكةُ من وَصلُوا إمَّا إلى عِلْمِ اليقينِ وإما عينِ اليقينِ، أمَّا الذي وَصلَ إلى حقِّ اليقينِ فهو الرسـولُ ﷺ، فالـذي عـرفَ الحقيقةَ ونظرَ إليها غيرُ الـذي وَصلَ إلى عالَمِها واغْترَفَ مِنهـا، الذي كانَ ذلكَ هُوَ الرسـولُ ﷺ، هو الذي كانَ عندَ سِـدرةِ المُنتَهى، هُـو الذي تَقدَّمَ فاخْـترَقَ، ولو تَقدَّمَ غيرُه، ولو كانَ مِـنْ نورٍ لَاحْترقَ، لذلكَ كانَ ﷺ هو خيرَ خلقِ اللهِ كلِّهم.

أُلقِـيَ في رُوعِي، بعدَ أنْ تركتُ جماعةَ الإخوانِ أنَّ أقربَ نقطةٍ من الممكنِ أنْ تلتقِيَ فيها باللهِ هي وقتُ أنْ تلمسَ جَبهتُكَ الأرضَ سَاجِدًا للهِ سُبحانَه وتعَـالى، ولكـنْ لا يُمكِـنُ أنْ تلتقِيَ بـاللهِ بمجرَّدِ أنْ تَلمـسَ جبهتُكَ الأرضَ فقـط، ولكنْ يجِبُ أنْ يخضَعَ جَسـدُكَ كلُّـه لجبهتِك، القلـبُ إنْ عَصَى الجبهةَ ولم يَسـجُدْ فإنـكَ لم تفعَـلْ شَـيئًا، أرأيـتَ إنْ سَـجدَ وَجهُكَ لِلّـذي فَطرَهُ ولم يَسـجُدْ قلبُـكَ للّذي دَبَّ فيهِ الحيـاةَ، أفكنْتَ على شَيءٍ من السُّـجودِ؟! لحظةُ السـجودِ هي لحظةُ إعلانِ الخُضوعِ للهِ، وأعـلى درجاتِ الحريةِ هي أن تخضَعَ لربِّ العالمينَ لا لِسِـواهُ من خَلْقِ اللهِ، يَخضَعُ قلبُكَ وتخضَعُ حَواسُّـك وتخضَعُ أنفاسُـك، فإذا خَضعـتَ للهِ سَـاجدًا؛ جَسـدًا ورُوحًا، فإنَّكَ تكونُ قد أعلنْتَ بذلكَ تحرُّرَ روحِكَ من أَسْرِ الخلائقِ ووَصلْتَ نفسَكَ بربِّ الخلائقِ.

بعـدَ أنْ كانَ بَـصَري قد خاتَلَني فَظللْـتُ في جماعةِ الإخـوانِ زمنًا، إلاَّ أنَّ روحـي لم تَخدَعْني فكانَ أنْ تركتُـهم، ومن بعدِها بأيامٍ أو بسـاعـاتٍ مَنحني اللهُ تجربةً فريدةً.. تجربةً ما فَتِئَ القلبُ يَسـتعيدُ ذِكْراها وما برحَ الجسدُ يتجرَّعُ ألَمَها كلَّما ألمَّ بهِ ريحُها ...وسبحانَ اللهِ الذي يُغيِّرُ ولا يَتغيَّرُ.. ما بينَ طَرفةِ عينٍ وانتباهتِهـا يُغـيِّرُ اللهُ من حالٍ إلى حـالٍ... كنْتُ أَخطُو خُطـواتي رافعَ الرأسِ وَاثقًا مترفِّعًا داخلَ إحدَى المحاكمِ حيثُ كنْتُ أمارسُ مهنتي، وكانَ بجوارِي شـابٌّ نابهٌ من شـبابِ المحامـيْنَ من أصْدِقائـي الأعزاءِ، وعلى حـينِ فجأةٍ لم أشَعرْ بقدمي!! وكأنَّها زَالَتْ مِنْ مكانِها، ثم إذا بي أَسمَعُ صَوتَ فَرقعةٍ طفيفةٍ صَـادرةٍ مِـن رُكبتِي اليُمنى ومن بعدِ ذلكَ اعْترَاني ألمٌ رهيبٌ لم تكنْ له سـابقةٌ في حَيـاتي، فـكانَ أنْ فقَدْتُ الوَعْيَ مـن وطأةِ الألمِ، وعندَما اسْتَعدْتُ وَعْيي وَجـدْتُ صديقيَ وهـو يَبذِلُ جُهـدَهُ في إفاقتي، ثم قامَ بحَمْـلي هو ومَجموعةٌ من الزملاءِ إلى المستشـفَى حيثُ مكثْتُ ساعةً أو بعضَ ساعةٍ داخلَ أسطوانةِ أشـعّةِ الرّنينِ المغناطيسيّ التي أَشـعرَتْني وكأنّني أَدخلُ إلى قـبرٍ مُظْلِمٍ خاصةً بعدَ أنْ عَصبُوا عينيَّ وصَمُّوا أذنيَّ، ذلكَ القبرُ الذي سـيَكونُ حَتْمًا نهايةَ ذلكَ الإنسانِ الذي تَشغلُه الدُّنيا بزِينتِها عَنْ حقيقةٍ هي أبعدُ ما تكونُ عن خَاطِرِه، رغـمَ أنهَّا أقربُ إليهِ من حَبْلِ الوريدِ، وبعدَ أَنْ أَجريتُ الأشعّةَ أبدَى الطبيبُ عَجبَـهُ ممـا حَدَثَ، وقـالَ لي: (لَديكَ قَطعٌ عجيـبٌ في عَضلةٍ اسـمُها العضلةُ الرُّباعيّةُ وموَضعُ هذِهِ العَضَلةِ فوقَ الركبةِ مباشرةً وهي مِنْ أقوى - أو أقوى على حدِّ ذاكرتي - عضلةٍ في جسـمِ الإنسانِ ومن المستحيلِ أنْ تتعرَّضَ لِقطعٍ دونَ سـببٍ!! أنـا لم أرَ مثلَ هذا من قبلُ، فهـذِهِ لا يُمكِنُ قَطعُها إلاَّ في حادثٍ

مُريع!!) وفي غرفةِ العمليّات استشعرَ فؤادي الموتَ واختلطتْ معانيه بحُشاشاتِ قلبي فبعدَ ثانيةٍ أو أقلّ يدخلُ الواحِدُ في نومِ التخديرِ الذي قدْ لا يقومُ منهُ أبدًا، وقدْ يذهبُ منهُ إلى عالمِ البرزخِ، عندهَا تذكّرتُ قولَكَ يا اللهُ يا حيُّ يا قيُّوم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وانتهتِ السّاعاتُ الثّلاثُ في غرفةِ العمليّاتِ وعُدتُ من جديدٍ إلى دُنيا النّاسِ وقد أحاطَ الجبسُ بذلكَ الموضعِ الذي يَقعُ من أخمصِ القدمِ إلى أعلى الرُّكبةِ، وظلَلْتُ حبيسَ هذا الجبسِ عدةَ أشهرٍ حيثُ رافقتْني عصَاي أتوكَّأُ عليها، وظلَّتْ عصَاي معِي لا أجدُ لي مَندوحةً في غيرِها حتّى أذِنَ اللهُ لي بشفاءٍ من عندِه، كانَتْ هذهِ التجربةُ من أعظمِ التّجاربِ التي مرَّتْ على حياتي وقدْ أطلقتُ عليها (تجربةَ الافتقادِ) ولم يكُنِ الافتقادُ هُنا افتقادَ وفاءٍ لأصدقاءٍ وإخوةٍ عرفْتُهم في اللهِ وامتزجْتُ معهم عندمَا كنّا معًا في الإخوانِ ثمّ لم أرَهم في محنةِ المرضِ، وقد كنْتُ لهم أو لبعضِهم وجَاءَ عندما أدارَ لهُم الزمانُ ظهرَ المِجنّ، فما أكثرَ مَنْ طرَحني مِنْ ذاكرةِ قلبهِ ولم يَعذُرني وقتئذٍ، ولكنَّ الذينَ حمَلوني في قُلوبهم واحتملُوني في مرَضِي أكثرُ، ولم يكُنِ الافتقادُ هُنا افتقادَ دُنيا ستَفنى بزُخْرُفِها إنْ آجلًا أو عاجلًا، فلَمْ يهبِ اللهُ لي مِنْ زينةِ الدُّنيا ورزْقِها كما وَهَبَ لي في هذهِ الأيامِ، وكأنَّ اللهَ سبحانهُ وتعَالى يَضعُ آيةً نصبَ عينيَّ مفادُها أنّ الرّزقَ يأتي إلى العبدِ لا محالةَ سواءٌ كانَ في صِحّةٍ أو مرَضٍ، في قوةٍ أو في ضَعْفٍ، ولكنّ الافتقادَ الذي أعنِيهِ هو افتقادُ السُّجودِ للهِ حينَما عَجزْتُ عن وَضْعِ جَبْهتي

علَى الأرض أثناءَ الصَّلاة، إذْ مكثْتُ أشهرًا لا أُصلِّي إلّا قاعدًا، افتقدْتُ حينَها تَعفيرَ وَجْهي في الأرضِ للهِ ربِّ العالمينَ في موضعٍ لا يكونُ إلَّا للهِ حيثُ تكونُ العِزّةُ للعبدِ حينَ يَذِلُّ للهِ العليِّ القديرِ، مَا أروعَ تِلْكَ السجدةَ التي افتقدْتُها في تلكَ الأيامِ الكالحةِ! وحينما حانَتْ تلكَ اللحظةُ النُّورانيَّةُ التي مَنَّ اللهُ عليَّ فِيها بالسُّجودِ ووَضعْتُ جَبهتي على ٱلأَرضِ ارتجفَ جَسَدِي رَجفةً لم تَحدُثْ لي من قبلُ وارتعشَتْ أَنامِلِي وهي تُحاذِي رَأسِي علَى الأرضِ وَانْهمَرتْ دُموعِي تَترَى بلا حولٍ منِّي ولا إرادةٍ وقدِ احْتَوتْني لذةٌ روحيةٌ لم تُصادِفْها رُوحي قبلَها قَطُّ ونَطقَ قلبي قبلَ أنْ يَنطِقَ لساني قولَ اللهِ سُبحانَه وتَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

بعدَ أنْ سَجدْتُ للهِ الواحدِ الأحدِ وَارْتَعشَ قَلبي رَعشةَ المُحبِّ الوَالِهِ الذي احْتَرقَ شَوقًا للسُّجودِ للهِ أدركَتْ رُوحِي قيمةَ العُبوديَّةِ للهِ.. للهِ وحدَه.. وقيمةَ الذُّلِّ والتَّذلُّلِ للهِ.. للهِ وحدَه.. واستَبصَرَ فؤادي قيمةَ الحريةِ حينَ سَجدْتُ للهِ.. نَطقَ لساني وقتَها رُغمًا عنِّي وكأنَّ قلبي أنطقَهُ: الآنَ آنَ لي أنْ أسجدَ لربِّ العالمينَ لأنالَ حُرِّيتي الكاملةَ وأَتذلَّلَ لربِّ العِزَّةِ حتَّى أَنالَ عِزَّتي... ومعَ السُّجودِ جَاءَتِ الفِطنةُ.. فِطنةُ الإيمانِ، وحينَ سَكتَ اللِّسانُ نَطقَتْ خلَجَاتي: حينَ كنْتُ في الإخوانِ كنْتُ فِيها لِتُقرِّبَني إلى اللهِ زُلفَى وَٱلآنَ وأَنا أَضَعُ جَبهتي في التُّرابِ.. أَسجدُ للهِ وحدَه.. سَجَدَ وَجهِي لِلّذِي فَطرَني، وقَبْلَهُ سَجَدَ قلبي لربِّ العالمِيْنَ بلا وَسيطٍ ولا وَساطةٍ.. هَأنذا أخرجُ حَقًّا وصِدْقًا مِنْ تَبعيَّةِ العِبادِ إلى تَبعيَّةِ ربِّ ٱلعِبادِ.. آه ما أروعَ السجودَ للهِ!

بعدَ هذهِ التَّجربةِ الإيمانيةِ كنْتُ أَجوبُ المساجدَ بَحْثًا عَنْ رَاحةٍ نَفسيَّةٍ

افتقدْتُها لِسَنواتٍ، ومن عجائبِ النفسِ البشريةِ أنَّني كنْتُ أفتقدُ الراحةَ النفسيةَ وأنَا في قلبِ جماعةٍ إسلاميةٍ، لم تكن الْجماعةُ مَسجِدًا نَسجُدُ فيه لربِّ العالمينَ، ولكنَّها كانَتْ مَوطِئًا لأناسٍ أَحَدُهم مَيْتٌ، والآخرُ كَالْمغسِّلِ يُقلِّبُه كيفَ يشاءُ، ولا يَكونُ هَذا إلاَّ عندَما تَنعدِمُ إرادةُ مَنْ وَصفْتُه بالميْتِ، ومَا هُوَ مَيْتٌ، ولكنَّه ليسَ حَيًّا، بلْ هُو واحدٌ مِنَ الذينَ قَبلُوا أنْ يَعِيشُوا كَالْأَمواتِ يَعَبَثُ بعقولِهم مَنْ يُرِيدُ، كنَّا لا نُصلِّي إلاَّ في مساجدَ بعينِها، ولا نُقِيمُ اللَّيلَ في رمضانَ إلاَّ في مساجدَ تابعةٍ لِلإخوانِ، ولا نُصلِّي العيدَ إلاَّ في ذاتِ المساجدِ، وقبلَ أنْ أتسلَّقَ سُورَ الجماعةِ الحصينَ لأقفِزَ إلى العَالَمِ الحَقيقِيِّ هَربًا من عالمِ الأشباحِ انطلقْتُ إلى المساجدِ الحقيقيّةِ التي افْتَقدْتُها سنواتٍ طويلةً، فَأَصبحْتُ من رُوَّادِ مَسجدِ قاهرِ التتارِ بمصرَ الجديدةِ الذي كانَ إمامُه هو الشيخَ الدكتورَ «سالمَ عبدِالجليل» الذي كانَ في يومٍ من الأيّامِ من الإخوانِ ثم سَبَقَنِي وهرَبَ من الْجماعةِ، وكنْتُ قد سافرْتُ معَه في رحلةِ حجٍّ وهبَها اللهُ لي قبلَ تَركِي للإخوانِ بعامٍ، وكانَ هذا الحجُّ هو «الحالةَ الشعوريةَ والقَلبيَّةَ» التي أَهَّلتْنِي لتَرْكِ الجماعةِ، فهناكَ في مساجدِ اللهِ الحقيقيةِ، في الحَرَمَيْنِ المكّيِّ والنَّبويِّ، تخلَّصْتُ مِن اسْتعبادِ واستبدادِ البشرِ وخَضَعْتُ لربِّ العبادِ وحدَه، لا إلهَ إلاَّ هو.

وبعدَ أنْ عُدتُ من مناسكِ الحجِّ وجدْتُ أنَّ مسجدَ قاهرِ التتارِ ارتبطَ في نَفسيَّتي بسياحتِي في الحجِّ، فَأَخذْتُ لا أذهبُ إلاَّ إليهِ وكأنَّهُ يُعِيدُ لي باستمرارٍ ذِكرَى تلكَ الأيامِ المقدَّسةِ التي كنْتُ أعيشُ فِيها كالطَّائرِ الذي لا يَلمِسُ الأرضَ مِنْ فَرْطِ نَشوتي الروحيةِ، وفي اليومِ الذي جاءَ عَقِبَ خُروجِي من

الجماعةِ ذَهبْتُ إلى مسجدِ قاهرِ التتارِ بمصرَ الجديدةِ أسجدُ للهِ ربّ العالمينَ كما سجدْتُ السجدةَ التي اعتبرْتها أولَ سجدةٍ لي في حيَاتي، ذَهبْتُ لهذا المسجدِ كي أُعلنَ لنفسِي في كلِّ سجدةٍ أننّي خرجْتُ من عبوديةِ العبادِ إلى عبوديةِ اللهِ ربِّ العبادِ، وبعدَ أيام مِن انْتظامِي في صَلاةِ المغربِ يومِيًّا بهذا المسجدِ رأيتُه عن بُعدٍ، شَيخاً كَهْلًا يجلِسُ القرفُصاءَ بعدَ صلاةِ العشاءِ، مُنكَبًّا على قراءةِ القرآنِ بصَوتٍ خَافتٍ، غَمرَتْني راحةٌ نفسيةٌ حينَ وَقعَ بَصَرِي عليهِ، ظَننْتُ أنَّ قلبي هو الذي رَآه لا عَيناي، وحينَ تُبصِرُ الناسَ بقلبِكَ فإنَّكَ تكونُ قد أدركْتَ محبَّتَهم، والإنسانُ لا يجهَلُ مَنْ يُحبُّه؛ لذلكَ خُيّلَ لي أنّني رأيتُه من قبلُ، أهُوَ مِنَ الإخوانِ؟ أمْ أنَّه مِنَ الصُّوفيّينَ؟ ويَا أللهُ، حينَما رأيتُه بعينِ قَلْبي وببصرِ بَصيرَتي استشرفْتُ فيهِ الصَّلاحَ والعِلمَ، فَاقتربْتُ منهُ وجَلسْتُ بجوارِهِ، لم يَستغرِبْني، ولكنَّه ابْتَسمَ في وَجْهِي ابتسامةً محبَّةً، فألقيْتُ عليه السلام، فحيَّاني بعباراتٍ محبَّةٍ وبَشَّ في وَجْهِي، طَلبْتُ منهُ أنْ يدعُوَ لي فوَضعَ يَدَه على رَأسِي وأخذَ يدعُو لي دُعاءً فيَّاضًا بصَوتٍ رخيمٍ مُتهدِّجٍ من فَرْطِ الصِّدقِ، أهكذا ودُونَ سَابقِ معرفةٍ تَلتقِي الأَرواحُ؟! وبغيرِ إرادةٍ منّي وكأنَّني مُسيَّرٌ أخبَرْتُه أنَّني كنْتُ مِنَ الإخوانِ وتَركتُهم منذُ شهورٍ، وكأنَّني أُرِيدُ أَنْ أدرأَ عن نفسِي تهمةً لم يوجِّهها لي!! أو كأنَّني كنْتُ أُعلِنُ سَعادتِي بحصولي على صَكِّ الحريةِ، قالَ لي بعاطفةٍ وكأنَّه أبي: وأينَ أنتَ الآنَ؟

قلت: أنَا أنتمِي إلى الحركةِ الإسلاميةِ، إلى التيارِ الإسلاميِّ، فَأنا إسلاميُّ النَّزعةِ.

قالَ والبشَاشَةُ على وَجْهِهِ: لا تَقلْ أنَا إسلاميّ، ولكنْ قُلْ أنَا مُسلِمٌ، اللهُ

قالَ لنَا ذلَكَ، قالَ في كتابهِ الكريم: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ولم يقلْ هو سمّاكُم الإسلاميينَ، وقالَ: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقلْ وَاشْهدْ بأنّاَ إسلاميّون، لذلكَ فإنَّ مصطلحَ الإسلاميين لم يكنْ معروفًا في عهدِ الرسول ﷺ ولا في عهودِ الصحابةِ حتى القرنِ التاسعَ عشرَ، بل كانَ كلٌّ من يجتهدُ فإنما كان ينسبُ الاجتهادَ لنفسِه، لا للإسلامِ، فهَذا حَنفيٌّ وذاك مالكيٌّ، وذلك شافعيٌّ وهكذا، لم يجرؤْ أحدُهم على أنْ ينسبَ الإسلامَ لنفسِه أو يقولَ: أنَا صاحبُ المذهبِ الإسلاميّ؛ ولذلكَ كانَتْ تعبيراتُ «المذاهبِ الإسلاميةِ» تعبيراتٍ حديثةً لم يقلْ بها أصحابُها، وكذلكَ مَصطلَحُ «الفقهِ الإسلاميِّ» فالصحيحُ أنهَّ «فقهُ المسلميْن» والحضارةُ الإسلاميةُ هي حضارةُ المسلمينَ لا الإسلامُ، وتاريخُ الإسلامِ هو تاريخُ المسلمينَ لا الإسلامِ، تاريخُ الإسلام لم يكنْ إلاَّ في عَهدِ الرسالةِ فحسْبُ، وما بعدَ ذلكَ كانَ تاريخَ أجيالٍ من المسلمينَ.

ثمَّ استَطردَ: لا ينبغِي أنْ يختلطَ «الإسلامُ» في الأذهانِ بـ «المسلمِ» فثمَّةَ مسافةٌ بينهما؛ لذلكَ كانَ منَ الخطأِ أن نُسمِّي ابنَ تيميةَ «شيخَ الإسلامِ» إذْ يجوزُ أنْ يكونَ شَيخًا للمسلمينَ، ولكنْ لا توجَدُ مرتبةٌ في الإسلامِ اسمُها «شيخُ الإسلامِ» وكذلكَ مَنْ يقولونَ على أبي حامدٍ الغزالي: «حُجَّةَ الإسلامِ» فَهو ليسَ حجَّة الإسلامِ، فالحُجَّةُ هي الدليلُ، وحُجَّةُ الإسلامِ هي القرآنُ، هِيَ الرّسولُ ﷺ، ولكنْ لا توجَدُ مرتبةٌ اسمُها «حُجَّةُ الإسلامِ». يجوزُ أنْ نقولَ عنهُ فقَط أنهَّ «حُجَّةُ المسلمينَ». المرتبةُ الوحيدةُ في دينِنا هي مرتبةُ النبوَّةِ والرسالةِ، هي نَبيُّ الإسلامِ.

رَددْتُ عليـهِ برعُونةٍ: ولْيكُنْ، أنَا مسُـلمٌ، ولكنّنَـي صاحبُ هذهِ الدّعوةِ، صاحبُ هَذهِالرسالةِ، نحنُ نَملِكُ الإسلامَ.

ردّ بحِكمـةٍ: يـا بُنيَّ الحبيـب، لا ينَبغِي أنْ يدَّعِيَ أيُّ إنسـانٍ أنهُ «صاحبُ الدّعـوةِ» وكأنهّا مملوكةٌ له ملكيةً حصريةً، هذه دِعوتنا جميعًا، والوحيدُ الذي نستطيعُ أنْ نقولَ عنه أنهُّ «صاحبُ الرسالةِ» هو الرسولُ محمدُ ﷺ، هو نَبيُّ الإسلام.

قلـتُ وقد انْخفضَ صَوتي بمقـدار انْخِفاضِ معَرفتي: ولكنْ يا شـيخَنا، أليـسَ يختلـطُ الرجلُ برسـالتِه، بفِكرتِه؟ قرأْتُ من قبلُ كِتابًا عنْ حسـنِ البنا اسمُه «حسن البنا.. الرجلُ وفِكرتُه» لكاتبٍ من الإخوانِ اسمُه محمدُ عبدالله السمّان، وقد كانَ الكتابُ كلُّه يدورُ حولَ أنَّ حسـنَ البنا لم يكنْ رجُلًا ولكنَّه كانَ فِكرةً، كان إسلامًا، كانَ رجُـلًا قرآنيًا، حتّى إنّ كـلَّ الإخوانِ يُطلِقـونَ عليه «صاحبَ الدّعوةِ».

ردَّ الشـيخُ وابتسـامتُه ما زالَتْ تعلُـو وجهَه: فلْيرفعِ النّـاسُ قدْرَ رجالِهم كـما يحُبّونَ، ولكنّهَـم وهُم في حُبِّهم لشـيخِهم لا ينبغِي أنْ يخفِضُوا الإسـلامَ ليِتَسـاوىَ معَ رأسِ شَـيخِهم، انُظرْ يا بُنيَّ الحبيبَ رغمَ حبّنا للمُصطفَى عليهِ الصلاةُ والسـلامُ فإنَّنا لا نَسـتطِيعُ أنْ نقولَ: إنّهُ هوَ الإسـلامُ، نعَم كانَ ﷺ «قُـرآنًا يمَشِـي على الأرضِ» وكانَ خُلقُه القرآنَ، ومعَ ذلكَ لم يقُلْ أحدٌ إنَّ الرسـولَ ﷺ كانَ هوَ الإسـلامَ، ولكنّه كانَ كما قالَ عن نفسِـه: «إنّما أنا بشرٌ فـما حَدَّثْتكـم بهِ من عندِ اللهِ فهُو حَقٌّ وما قلْتُ فيهِ من قِبلِ نفْسِي، فإنّما أنَا بشَرٌ

أُصِيبُ وأُخطِئ». ولِيُؤكِّدَ للنَّاس بَشريَّته قالَ: «إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ كانَتْ تأكلُ القديدَ بمكةَ». الرسولُ إذنْ رجلٌ من بَنِي آدمَ وإنْ علَتْ مرتبتُه على بقيةِ البشرِ، ولكنَّ الإسلامَ عقيدةٌ ولا يُوجَدُ في الإسلامِ مرتبةٌ أُخرى تجعلُ مِنَ المسلمِ «إسلامًا» أو تجعلُه قرآنًا.

قلْتُ باستفهامٍ: ولكنَّني قد أكونُ صاحبَ الدَّعوةِ!! حسنُ البنا يقولُونَ عنهُ ذلك.

ردَّ وقد طَالَ صَبرُه: ما نَحنُ إلاَّ دعاةٌ مِصْداقًا لقولِ الرسولِ ﷺ: «بَلِّغُوا عنِّي ولو آيةً» ولو قالَ الإخوانُ: إنَّ حسنَ البنا هو صاحبُ الدعوةِ، فإنَّما يضَعُونَ شيخَهم في مرتبةِ النُّبوَّةِ، أو كأنَّهم يُخرِجُونَه من المِلَّةِ، فلو كانَ مُتَّبِعًا لدعوةِ الإسلامِ لَكانَ يجبُ أنْ يقولُوا عنهُ إنَّه «داعيةٌ» وحسبُ؛ لأنَّ صاحبَ الدعوةِ هُو الرسولُ ﷺ، ولو قالُوا: إنَّنا نقصِدُ أنَّه صَاحِبُ دَعوةِ الإخوانِ، فَمعنَى ذلكَ أنَّ دعوتَهم تَختلِفُ عَنْ دَعوةِ الإسلامِ!! وإلَّا لما نَسبُوها لِصَاحِبِهم، وما دَامُوا لا يقولُونَ إنَّهم أَصحابُ طريقةٍ في العبادةِ، أَو أصحابُ مذهبٍ فإنَّهم يجبُ أنْ يَخرجُوا من تقديسِ رَجلِهم، ونَفيِ مُلكيَّةِ الدَّعوةِ عنهُ، لا أحدَ منَّا يا بُنيَّ يَملِكُ الإسلامَ، لا نَستطيعُ أنْ نقولَ إلَّا أنَّنا أَسلمْنا للهِ ربِّ العالمينَ، ونَحنُ فقطْ نَسيرُ في طريقِ الإسلامِ، ولكلٍّ منّا مَنزلتُه يا ثروت.

تعَجبْتُ من معرفتِه اسمِي دُونَ أَنْ أُخبِرَه بهِ، فقلْتُ مُندهِشًا: أَتعرِفُني؟!.

قالَ وهو يُمسِكُ برأسِي لِيُقبِّلَها: نعم أَعرِفُكَ، ولكنَّكَ نَسيْتَنِي.

فنَظَرْتُ إليهِ في ذُهولٍ، يا ربي نعَم إنَّهُ هُو، ولكنْ كيفَ عَرفَني بعدَ هذِهِ السَّنواتِ الطويلةِ؟!

■■■

ألف وتسعمئة وتسعة وتسعين

كانَ عامُ 1999 قد أَعلنَ عَن اْنتِصافِهِ حينَما اجْتَمعَ قسمُ المحامينَ بجماعةِ الإخوانِ ذاتَ مساءٍ أشعثَ أغبرَ شديدَ الحرارةِ في مكتبِ أحمد ربيع غزالي، كانَ مختار نوح هو رئيسَ القسمِ الذي تتكوَّنُ إدارتُهُ من سبعةِ أفرادٍ، أمَّا نائبُه فهُوَ خالد بدوي، وكانَ الأمينُ العامُّ للقِسمِ هو أحمد ربيع، أمَّا الأعضاءُ فكانَ منهُم محمد طوسون ضابطُ المباحثِ السابقِ الذي أَصبحَ رئيسًا للقِسمِ بعدَ القَبْضِ علَى مختار نوح وخالد بدوي في قضيةِ النّقابيّينَ، وكانَ قد صَدَرَ قرارٌ من قسمِ المهنيّينَ في الجماعةِ بتَعيِيني مُستشارًا لـ «لجنةِ السبعةِ» التي تُديرُ قسمَ المحامينَ، ومَسئولًا عن إدارةِ المعاركِ الانتخابيةِ للإخوانِ في نِقابةِ المحامينَ، وكانَتْ هذِهِ أولَ جلسةٍ أَحضرُها بعدَ تعيِيني في هَذا الموقعِ، وكانَ مِنَ المُعتادِ بينَ الحينِ والحينِ أنْ يحضُرَ اجْتِماعاتِ المحامينَ أحدُ الإخوانِ من قياداتِ المهنيّينَ، وكانَ القِياديُّ الذي حَضرَ اجتماعَنا في هَذا اليومِ هو الطبيبَ سعد زغلول العشماوي، دارَ الحِوارُ حَولَ الإجراءاتِ العديدةِ التي اتَّخَذْناها لإنهاءِ الحِراسةِ عن نِقابةِ المُحامينَ والقضايا التي رَفعْناها في هَذا الشَّأنِ، والحُكْمِ الذي حَصَلْنا عليهِ من محكمةِ الاستئنافِ والذي قَضَى بإنهاءِ الحراسةِ، وكيفيةِ تنفيذِ هذا الحكمِ، وكانَ من الطَّبيعِيِّ أنْ نتناولَ أثناءَ مناقشاتِنا الوَضْعَ السِّياسيَّ في الدولةِ.

قالَ سعدُ العشماوي وكأنَّه يُلقِي دَرْسًا على مجموعةٍ من التلاميذِ: نظامُ مبارك هو أَقوى نِظامٍ استبداديٍّ في العالمِ، هذَا نِظامٌ لا يَزولُ إلاَّ عَنْ طريقِ مَلَك الموتِ.

قاطَعَه مختار نوح: إرادةُ الناسِ لَها دَورٌ يا دكتور.

ردَّ العشماوي: الإرادةُ الشعبيةُ غائبةٌ يا أخ مختار، أينَ تلكَ الإرادةُ عندَما صَدرَ قرارُ الطاغيةِ بإحالةِ الإخوانِ للمحاكمِ العسكريةِ؟ كلُّ الناسِ دَخلُوا في صمْتِ الأمواتِ ﴿أَفأَنتَ تُسمِعُ مَنْ فِي القُبور! ﴾

تدَخَّلْتُ في الحِوارِ مُندَفِعًا: اِسمَحْ لي بالاختلافِ معَك يا دكتور، نِظامُ مباركٍ هو أضعفُ نظامٍ استبداديّ.

اِبتسمَ العشماويُّ مُستهينًا: كلُّ هذهِ الشُّرطةِ والأمنِ المركزيِّ والجيشِ والحرسِ الجمهوريِّ والقَمْعِ والإحالةِ للمحاكمِ العسكريةِ وتزويرِ الانتخاباتِ وتَقولُ لي: إنَّ هَذا أَضعفُ نظامٍ إستبداديّ؟!

أَومأْتُ برأسِي قَائلًا: هذهِ مظاهرُ ضَعْفٍ وليسَتْ دليلَ قوةٍ.

قَاطعَني: نعَم هُو حَاكِمٌ ضَعِيفٌ ولكنَّه مَنِيعٌ، لا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُزِيحَه مِنْ مَوقِعِه.

أحمد ربيع مُتدخِّلًا: أَلَا تُوجدُ ثَمَّةَ وسيلةٌ يا دكتورُ تكفُلُ لنَا الإطاحةَ بهذا الرجلِ؟

العشماوي: لا تُراهِنْ عَلى الشَّعبِ فَقدْ تعوَّدَ على الخنوعِ، الحلُّ في أَيدِيْنا نحنُ.

أحمد ربيع مستنكرًا: في أيدِينا عن طريقِ الانتخاباتِ المزوَّرةِ والنّقاباتِ!!

العشماوي: ومَا أدراكَ؟ إخوانُكَ يُخطِّطُونَ ليوم إزاحةِ مباركٍ ويُعِدُّونَ العدَّةَ لذلكَ، ولكنْ ليسَ كلُّ ما يُعرَفُ يُقال.

ربَّتَ مختار نوح علَى كَتِفِ الدكتورِ العشماوي مُنهِيًا الحِوار: يا دكتور المسألةُ أبسطُ مما تَظنُّ، لو خرَجَ الشّعبُ في عِدّةِ مُظاهراتٍ بميادِين مصرَ في أيام متتالياتٍ لَسقَطَ نظامُ مباركٍ بأكملِه، الشعبُ سيَكونُ لهُ الدورُ الأولُ في إسقاطِ مباركٍ، ولَنْ يسَقُطَ بغيرِ ذلكَ، أيُّ محُاولاتٍ أُخرى محكومٌ عَليها بالفَشَلِ.

انْتهَى الاجتماعُ بعدَ أنَّ أبديْنا تخوُّفاتٍ مِنَ القَبْضِ عَلينا في حالةِ تنفيذِ حُكْمِ إنهاءِ الحراسةِ، وكانَ الرأيُ أنْ نذهَبَ إلى حليفِنا الأستاذِ رجائي عطية المحامي الذي رَشّحْناهُ لكي يَكونَ نقَيبًا للمحَامِيّنَ؛ لِنأخُذَ منهُ الوُعودَ والعهودَ بما لَهُ مِنْ صِلاتٍ حكوميةٍ وثيقةٍ، على عَدَمِ المَسَاسِ بنا في حالةِ إنهاءِ الحراسةِ.

وفي نهايةِ الاجتماعِ اسْتبَقَنِي أحمد ربيع دقائقَ مَعدُوداتٍ، وبعدَ أَنِ انْصرَفَ الجميعُ قالَ لي وكأنّهُ يهمِسُ: هَلْ أَغضَبْتُ المرشدَ الحاجّ مصطفى مشهور في شيء؟

قلْتُ مُندَهِشًا: لا، لم يحَدُثْ شيءٌ! لماذا تَسألُ؟

أحمد ربيع: كنْتُ معَه بالأمسِ وأخذَ يَسألُني عنكَ وعن أَحوالِكَ، وقَالَ لي

أُرِيـدُكَ أَنْ تُحضِرَ لي ثروت. وعندَما سَـألتُه لماذا لمَ يطلُبْ حُضورَكَ عن طَريقِ مسئولِ منطقتِك، قالَ لي إنَّـه يُرِيدُكَ أَنْ تَذهَبَ إليـهِ دُونَ أَنْ تعَرِفَ منطقتُكَ بخبرِ هذَا اللِّقاءِ.

: ومَاذا قُلتَ لَه عنِّي؟

أحمد ربيع: قلتُ له إنَّكَ ذلكَ الأخُ الذي يُنظِّـرُ لنَا. فقالَ لي مُداعِبًا: أَنَا لا أُحِبُّ المُنظِّرِيْنَ.

: مصيبةٌ لو قَالهَا لكَ بتشكيلٍ آخرَ، لا أُحِبُّ المُنْظَرِيْنَ.

أحمـد ربيـع ضَاحِـكًا: لا هُـوَ قَالهَـا بتشـدِيدِ النـونِ وكَسْرِ الظّـاءِ وليسَ المُنْـظَـرِينَ بتسـكينِ النونِ وفتحِ الظاءِ، اطمئنَّ فهو يُحِبُّكَ، ولكنَّ فكرتَه عَنِ المحامينَ سَيّئةٌ.

– وهل أخبرَكَ بالمِيعادِ؟

ربيع: لو ناسبَكَ نُصلِّي الظُّهرَ معَه غدًا.

– ماذا ستكشِفُ لنَا المقاديرُ غدًا؟ وإنَّ غدًا لِنَاظِرِه قريبُ.

■■■

في مقرّ جماعةِ الإخوانِ بالمنيل انفردَ بنا المُرشدُ الحاجُّ مصطفى مشهور، كانَ كعادتِهِ مُنتَصِبَ الرأسِ عميقَ النظراتِ، سَألَني مباشرةً: (إنتَ زعلان منِّي؟)

تَعجَّبْتُ مِنَ السُّـؤالِ إلَّا أنَّني قلتُ له على الفـورِ: (لأ، أبدًا فضيلتك، ربّنا ما يجيب زعل)

قالَ بهُدوءٍ: أَخبَرُوني أنَّك كنْتُ تُرِيدُ أَنْ تنتقِدَني!

زادَ عَجبِي وَابْتَسمْتُ قائلًا: لا، أبدًا لم يَحْدُثْ هذا، مَنْ أَخبرَ فضيلتَك؟

المرشد: مِنْ مِنطقتِكَ، لذلك فَضَّلْتُ أَنْ تأتِيَ لي عَنْ غَيرِ طريقِهم، أيَكْذِبُونَ عليكَ أمْ عليَّ؟

قلت: (مُمكِن يكون بعضُهم فِهَمَ أَمرًا ما خَطأً.)

المرشد: كيف؟

قلتُ: كلَّفَني إخوانُنا في مدينةِ نصر بإلقاءِ محاضرةٍ في إحدَى الكتائبِ عن كتابٍ لِفضيلتِك، هو كتابُ «تساؤلاتٌ في طريقِ الدعوةِ» وبعدَ أنْ قرأْتُ الكتابَ وجدْتُ أنَّ بعضَ الأفكارِ التي كتبتْها فضيلتُك تَستحِقُّ المناقشةَ والتعقيبَ والأخذَ والردَّ؛ لذلكَ اقترحْتُ عليهم أنْ تكونَ المحاضرةُ عبارةً عن دراسةٍ نقديةٍ لِكتابِ فضيلتِك، ولكنَّهم رَفَضُوا فألَقيْتُ المحاضرةَ بشكلِها العاديِّ.

المرشد: إذنْ لم يَكْذِبُوا عليكَ ولا عَليَّ، كنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَنتقِدَني!

قلت: (لا يا فندم فيه فارق بين حضرتك وبين كتابك، أنَا لا أَنتقِدُكَ ولكني أنتقدُ بعضَ أفكارٍ وَجدْتُ أنَّ لي وُجهةَ نظرٍ في بَعْضِها، وطبعًا حضرتُك عارِفٌ أنَّ عقولَنا نِسبيةٌ، ثم اسْمَحْ لي حضرتك.. لو فُرِضَ وكنْتُ أُرِيدُ أَنْ أنتقِدَ مَوقِفًا صَدرَ منكَ أو تَصرِيحًا أو شَيئًا مِنْ هَذا القَبيلِ، فَهلْ في هَذا شَيءٌ؟!

افترَّ ثَغرُ المرشدِ عن ابتسامةٍ خفيفةٍ: لا ليسَ في هَذا شيءٌ، (لكنْ لو عاوز

تنتقدني لا تقلْ نقدَكَ لأحدٍ ولكنْ تعالَ هُنا وانتهزْ فرصَةً أكونُ فيها وَحْدِي وانتقدْني كما تشَاء، فإخوانُكَ يُحِبُّونَني وقد يَحمِلُونَ في نفوسِهم مَوْجِدَةً منكَ إنْ سَمِعُوكَ وأنتَ تنتقِدُني.

أنهى المرشدُ حديثَه معِي ثم تحرَّكَ بجسدِه إلى الأَمام وأَخذَ يُقلِّبُ بعضَ الأوراقِ التي أَمامَه كأنَّه يبحثُ عَنْ أوراقٍ، إلَّا أنَّ أحمد ربيع أَرادَ أَنْ يُوجِّهَ الحديثَ وُجهةً أُخرى، فسَألَ المرشدَ: (تَسمحُ لي فضيلتُك بسؤالٍ؟ الدولةُ تُحاصِرُنا حِصارًا غيرَ عادِيّ، وتُحِيلُنا إلى المحاكمِ العسكريّةِ ونحنُ لا نُحرِّكُ سَاكِنًا، لماذا هذَا الرُّكونُ والاسْتِضعافُ؟)

المرشد: (وَماذا تُريدُنا أَنْ نفَعلَ ياسي أحمد؟)

أحمد ربيع: نَتَّخذُ أيَّ موقفٍ، أيَّ موقفٍ قويّ.

المرشد: لِتَعلَمْ أنَّ ضعفنَا قوةٌ.

أحمد ربيع: كيف؟

المرشد: هُمْ يُرِيدُونَ اسْتِفزازَنا حَتَّى نَلجأَ للعُنفِ فيَستطيعونَ إبادتَنا، ونحنُ لن نَلجَأَ للعنفِ؛ ولذلكَ فإنَّ ضعفَنا وعدمَ رَدِّنا عَليهم هو أكبرُ وسيلةٍ لِدَفْعِ الاعتداءِ، لا يجوزُ أَنْ نضَعَ السيفَ في مَوضِعِ النَّدَى.

أحمد ربيع: ولكن يجَبُ أَنْ نُعِدَّ العُدَّةَ ليومِ المُواجَهةِ.

وهُنا أشارَ المرشدُ إلى شِعارِ الجماعةِ الموضوعِ بشكلٍ واضحٍ فوقَ المكتبِ: ألاَ ترَى كَلمةَ «وأَعِدُّوا» التي بينَ السَّيفيْنِ، نحنُ نَعملُ بها منذُ سَنَواتٍ طويلةٍ.

وهُنـا تدَخَّلْـتُ في الحديثِ لأولِ مرّةٍ منذُ أنْ تكلَّـمَ أحمد: وماَ الَّذِي نَفعله فضيلتَك وُفقًا لكلمةِ «وأعِدُّوا»؟

نَظـرَ المرشـدُ إلى أحمد ربيع وكأنَّهَ هو الذي سَـألَ السُّـؤالَ: سـتعَرِفُونَ في حينِها.

وحـينَ أَصبحْنا في الشـارعِ، وعَلى شَـاطِئِ النيلِ، قَالَ لي أحمـد ربيع: الآنَ فهَمْتُ تصريحَ الحاجِّ مصطفى الذي قَالَه لِصحيفةٍ عربيةٍ منذُ عامٍ.

أنا: ومَاذا قَالَ؟

ربيـع: الحـاجُّ مصطفى رَجُـلُ طيّبٌ ولكنَّ للسِّـنِّ أحكامُـه، وقد أَخذَتْ بعـضَ التَّصريحـاتِ تَتفلَّتُ منه دُونَ أنْ يَقصِـدَ، وكانَ مِنْ ذلـكَ أنْ قالَ: إنَّنا سنَصِلُ للحُكْمِ عامَ 2018.

أنا: سـنَصِلُ للحُكْمِ!! كيفَ؟ أكَانَ يَقصِدُ أمْ يُهـدِّدُ، أم أنَّ كلماتِه رميةٌ بلا قَصْدٍ؟

ربيع: بَلْ يعَنِي مَا قَالَه.

اِسترسَـلَ أحمـد: ولكنْ، ما هِيَ قِصَّـةُ الكِتابِ الذي كنْـتَ تُرِيدُ أَنْ تَنتقِدَهُ للحـاجِّ مصطفـى؟ هَذا الكلامُ ليـسَ في الإخوانِ يـا عم ثـروت، إنت فاكر نفسَكَ في الجامعةِ! إنتَ في الجماعةِ.

أنـا: أبدًا، الأمرُ كما قُلتُ، كِتابهُ هذا، بـلْ كلُّ كُتيِّباتِه، حينَ قرأتُها تعَجَّبتُ واسـتغربْتُ مِـنْ أنْ يكـونَ هَذا هـو فكرَ مُرشِـدِ الإخوانِ، كلامٌ لا يَسـتَحِقُّ

في مسجدِ سيدِنا الحُسين أخَذْتُ أَجوبُ المقصورةَ مع العميدِ حسنين، أنَظرُ للناسِ البُسَطاءِ وهم يُقبِّلونَ الأعتابَ ويَتلمَّسونَ البَركاتِ، وفي مسجدِ السيدةِ نَفيسةَ جلسْنا وقد هَدَّنا التعبُ وكأنَّنا نتلمَّسُ الاستراحةَ من هذهِ الدُّنيا، كانَ المرَضُ قدْ أنهكَ العميدَ حسنين فَجعلَه «خَيالَ رَجُلٍ» وكانَ قد عادَ لتوّه من عُمرةِ رمضانَ، كانَ «فأرُ الزمنِ» يَسعَى قَارِضًا حَبلَ النهارِ وحَبلَ اللّيلِ إلاَّ أنَّ عامَ 2010 ما زالَ يتنفَّسُ في الحياةِ الدنيا، يُقاوِمُ نِهايتَه ويَشُدُّ شهرَ أكتوبرَ شدًّا حتى لا يَجعَلَ نوفمبرَ مَوطِئًا ليومٍ، أمسكَ العميدُ حسنين مُصحَفًا ثم أَخذَ يَقرأُ فيهِ وأنفَاسُه تتَعالَى، وعلى حينِ غَفوةٍ من الوَقتِ غفَا الرجلُ فتَركتَه على حالهِ إلى أنْ فتَحَ عينيهِ وقالَ بسكينةٍ: (دَعواتك يا عم ثروت)

(ربنُّا يشفيكَ يا موَلانا وَيفتحُ لكَ أبوابَ الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ.)

كلُّ ابن أُنثى وإنْ طَالَتْ سَلامتُه يومًا على آلةٍ حَدْباءَ محَمولُ

(ربنُّا يُطيلُ عُمرَكَ ويُحسِنُ خَاتمتَك.)

ما رَأيُكَ يا أستاذُ ثروت في انْتخاباتِ مجلسِ الشعبِ.

سَحبْتَنا أنتَ يا موَلانا من نورٍ إلى طينٍ.

ضَحِكَ العميدُ حتى بانَتْ نَواجذُه: لا... وأيُّ طينٍ، مجلسُ الشعبِ هذا كما يقولُونَ «مطيّنْ بِطين».

الإخوانُ قَرَّرُوا الانْسِحابَ، وهُناكَ مَشاكِلُ بينهَم بشأنِ هذا الانسحابِ.

سَيظلُّ الإخوانُ يَعيشُونَ في قلبِ المشاكلِ مَا دَامُوا يبَحثُونَ عَنِ الدُّنيا، عندَما عَرفْتُ طَريقَ الوَصْلِ أَدركْتُ أنَّ مَنْ وَصَلَ نفسَهُ بالدُّنيا انْقطَعَ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

- الإخوانُ لدَيهم خُطةٌ للحُكْمِ وأَظنُّهم يَسعَونَ إلى تنَفيذِها بكلِّ قُوَّتِهم.

- نعَم لدَيهم هذِهِ الخُطّة، وأَظنُّني أَعرِفُها بالتَّفصِيلِ.

- تَعْرِفُهَا!! كيف؟

- بحُكْمِ عَمَلِي السَّابقِ في النيابةِ العسَكريةِ ومَوقعِي فِيها واتِّصالِي بالمُخابرَاتِ الحَربيةِ أَعرِفُ مَا يجهلهُ كثيرٌ مِنَ الناسِ.

- وهَلِ المُخابرَاتُ الحربيَّةُ تَعرِفُ خُطَّةَ الإخوانِ للتَّمكِيْنِ؟

-(طبعًا تعرف)

- وما شَأنُ المُخابرَاتِ الحربيةِ بالإخوانِ؟ الإخوانُ تَنظِيمٌ مَدنيٌّ!

- نعَم جَماعةُ الإخوانِ تَنظِيمٌ مَدنِيٌّ، ولكنَّهَا ذاتُ شأنٍ حَربيّ.

- لا أفهم!

- أَمَّا أنَا فأَفْهَم.

الفصلُ التاسعُ

عَلى بِئرِ البَارودِ

نَظَرَ لي الشيخُ الحكيمُ وهو يَبتسِمُ: هَلْ عَرفْتَني؟

نعَـم إنّهَ هُوَ الأسـتاذُ «أحمد إبراهيم أبو غالي» مُـدرِّسُ اللُّغة العربيةِ الذي درَّسَ لي وأنَـا في المرحلـةِ الثانويـةِ، كنْتُ طَالِبًا في مدرسـةِ جمـال عبدالناصر القوميةِ الثانويةِ بمَيدانِ تريومف بمصرَ الجديدةِ، وكانَتِ المدرسـةُ تَضُـمُّ نُخبةً من المدرّسِيْنَ لا يَتكرَّرونَ، سَاهمُوا في تشكيلِ وِجْدَانِنا ووَضَعُوا أقدامَنا على طريـقِ المعرفـةِ، وكانَتْ تَربطُني بمُدرِّسِي اللغـةِ العربيةِ صِلاتٌ قويةٌ إذْ كنْتُ دائمًا ما أفَتحُ معَهم حِواراتٍ ومناقشـاتٍ في شـتَّى فُـروعِ الأدبِ، كانَ رَئيسُ قسـمِ اللُّغةِ العربيةِ بالمدرسةِ هو الأسـتاذُ الدكتورُ «عبدَالعزيزِ المِصريّ» أحدَ أنبَغِ مَنْ درَّسُـوا اللغـةَ العربيةَ في مصرَ في هذهِ الحِقْبةِ، وقد كانَ شَـاعِرًا كبيرًا وأديبًا بارِعًا، ومُدرِّسًـا يَمتلِكُ حُضورًا طَاغيًا يُجبِرُ الجميعَ على الإنصاتِ له وكأنَّـه امْتَلكَ زِمامَ قُلوبِهم، وفي ذاتِ الوقـتِ كانَ يُقدِّمُ دُروسَ اللغةِ العربيةِ لطلبـةِ الثانـويِّ في إذاعةِ «صوتِ العربِ» السـاعةَ الخامسـةَ مسـاءَ كلَّ اثنينِ

وخميس، والمدرِّسُ الثاني هو الأستاذُ «أديبُ أركان» الذي كانَ مِنْ أصلٍ تُركيٍّ، وقد كان أديبًا فِعْلًا وكانَ يَعتبِرُ نفسَهُ من شعراءِ مدرسةِ الدِّيوانِ التي أَسَّسَها عباسُ العقاد، وهو الذي حَبَّبنِي في الشعرِ ودَفعَنِي لكتابتِهِ، أمَّا الثالثُ فَهُوَ الأستاذُ «أحمدُ إبراهيم أبو غالي» الذي دَرَّسَ لنَا العربيَّ في الصفِ الأولِ الثانويِّ، ودرَّسَ لنَا الدِّينَ في سنواتِ الدراسةِ الثانويةِ كلِّهـا، وكانَ مُتديِّنًا خَاشِعًا لا يَقرأُ آيةً مِنْ آياتِ القرآنِ إلاَّ وتَذرِفُ عيناهُ الدُّموعَ، وقد كانَتْ لي معَه أيامٌ، وَضعَ الزمنُ رُكامَه عَليها إلاَّ أنهَّـا أبدًا لا تَنمحِي، وقد ظَللْتُ على صِلةٍ بهِ إلى أنْ تَخرَّجْتُ في المدرسةِ ثمَّ انْقطعَتْ صِلتي به تمَامًا بعدَ ذلكَ، حينَ دارَتْ هذهِ الذِّكرياتُ في رَأسِي وأنَا أَنظرُ إليهِ في المسجدِ أَخذْتُ رأسَه بينَ يَديَّ أُقبِّلُها وأنَا أَتعجَّبُ مِنْ كونِهِ تذَكَّرَني، يا لَهذا الرأسِ الذي كَانَ يُرشِدُ ويُهذِّبُ ويُربِّي، تَخرَّجَ مَن تحتِ يديهِ جمعٌ كبيرٌ من نُبغاءِ مصر، أذكرُ منهُم المستشارَ عزَالدين عبدالخالق نائبَ رئيسِ محكمةِ النقضِ حاليًّا، والدكتورَ محمد نصر فايد مديرَ شركةٍ من كُبرى شَركاتِ الأدويةِ، والمهندسَ أسامةَ فرهود أحدَ أشهرِ المتخصِّصينَ في هندسةِ الطَّيَرانِ بمصرَ ويَشغَلُ موقِعًا كبيرًا في هيئةِ الطَّيرَانِ المدنيِّ، وسامح مدحت أحدَ المدراءِ الكِبارِ ببنكِ فيصلَ، والمستشارَ مصطفى محمد أمين رئيسَ محكمةِ الْجنايـاتِ، وقد كانَ المستشارُ مصطفى من فَرْطِ شَقاوَتِهِ وزَعابيبهِ يُثيرُ الفَصلَ ويَقلِبهُ رَأسًا عَلى عَقبٍ، فَأَطلقَ عليهِ الأستاذ أحمد لقبَ «المَعتُوهِ» حتَّى صَارَ يُلقَّبُ بذلكَ بينَ الصِّحابِ حتَّى الآنَ، هذا غيرُ المستشارِ ناصر بدوي رئيسُ محكمةِ الاستئنافِ، وغيرُهم ممَّنْ يَصعُبُ حَصْرُهم، ومِنَ الأستاذِ أحمد إبراهيم مدرِّسِ الدِّينِ واللُّغةِ العربيَّةِ عرَفْتُ أنا

التلميذُ الغضُّ الصغيرُ طالبُ الصفِ الأولِ الثانويِّ الكثيرَ وفهمْتُ الكثيرَ، كانَ حينَ يتكلّمُ لا أُنصِتُ إليهِ بأذنيَّ، ولكنّني كنْتُ أُنصِتُ إليهِ بكِياني كلِّه، ومنهُ عرفْتُ أنَّ اللهَ خلقَ لنَا العقلَ لا لكي نفهمَ فقطْ ونعيشَ حياتَنا الدُّنيا، ولكنْ كي تكونَ لنَا حُرّيةُ الاختيارِ، وأنَّ أولَ مرحلةٍ من مراحلِ الحريةِ هي القراءةُ، وأذكرُ أنني قُلتُ لهَ يومًا وهو يُحدِّثُنا في الفَصْلِ:

- أليسَتْ قِراءةُ القرآنِ هي أفضلُ قِراءةٍ؟

فقالَ لي عبارةً ظلّتْ باقيةً في ذاكرتي: هذهِ ليسَتْ قراءةً عاديةً ولكنَّها صِلةُ حبٍّ ووَجْدٍ، إذا أَردْتَ أنْ يُحدِّثَكَ اللهُ فاقْرأِ الْقُرآنَ.

وكانَ مما عرفْتهُ مِنَ الأستاذِ أحمدِ إبراهيم أنَّ هناكَ جماعةً تَدعُو للهِ اسمُها «جماعةُ الإخوانِ المسلمينِ» ولم أكنْ قد سَمعْتُ عنها من قبلُ ووَقعَ في خَلَدِي أولَ الأمرِ أنَّهَا طريقةٌ صُوفيةٌ، ثم عَرفْتُ منهُ بعدَ ذلكَ ما جَعلَنِي مُتشوّقًا لهذهِ الجماعةِ مُشفِقًا على مَا أَصَابهَا، وقد كانَ ذَلكَ في ديسمبرَ مِنْ عام 1973، وفي إِحدى حِصصِ الدّينِ قصَّ علينا أُستاذُنا أحمدُ إبراهيم وهو يَشرَحُ الآيةَ الكريمةَ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ خبرًا وقعَ علَينا كالصّاعقةِ ولم نَستطع اسْتيعابَه وقتَها، عَرفْنا منهُ أنّهُ كانَ محبُوسًا في فترةِ السّتينيّاتِ لعدةِ سَنَواتٍ بتهمةِ الانتماءِ لجماعةِ الإخوانِ المسلمينَ، وأنّهُ خرجَ من السجنِ عامَ 1971، وأذكرُ أنني سَألتُه يومًا: هلْ كانَ السجنُ قَاسِيًا مؤلمًا بالنسبةِ لك؟

فقال: «كانَ السجنُ تجربةً أضافتْ لحياتي وضمّختْ رُوحِي بحُبِّ اللهِ،

فَقدْ خلوتُ في السجنِ إلى نفسِي أتعبّدُ للهِ وأتأمّلُ في ملكوتِ اللهِ، وأنا في السجنِ عَرفْتُ أنّ سَجْنَ الأجسادِ لا قِيمةَ له، ولكنّ أقسى مَا يمُرّ على الإنسانِ هو سِجْنُ الأرواحِ». ظَلّتْ هذهِ العبارةُ محفُورةً في ذاكرتي لم تُغادِرْ رُوحِي أبدًا، وحينَ دخلْتُ كليةَ الحقوقِ قرأْتُ عبارةً قالها ابنُ تيميةَ قريبةَ المعنَى من عبارةِ أستاذِي أبو غالي، هذهِ العبارةُ هي: «سِجْنِي خلوةٌ ونَفِيي سِياحةٌ وقَتْلِي شَهادةٌ».

■■■

اعتبرْتُ ذلكَ اليومَ الذي قَابلْتُ فيهِ الأستاذَ أحمدَ إبراهيم أبو غالي بعدَ سَبعةٍ وعشرينَ عَاماً من الانقطاعِ هديةً أرسلَها اللهُ لي، فأنتَ حين ترَى مَنْ تُحبُّهُم لا تَراهُم وَحدَهم، ولكنّك ترَى الزّمنَ الذي عِشْتَ فيهِ معَهم بأحداثِهِ وأشخاصِه وشبابِهِ وحيويّتِهِ، لذلكَ فإنّ آلةَ الزمنِ الحقيقيةَ التي مِنْ شأْنِها أنْ تنقُلَكَ إلى أزمانٍ أُخرى هِيَ أنْ تُقابِلَ مَن انْقَطعْتَ عنهُم منذُ سَنَواتٍ طويلة.

يَسكنُ الأستاذُ أحمدُ إبراهيم في عَقارٍ قديمٍ بشارعِ نخلة المطيعي القريبِ من منطقةِ سفيرٍ بمصرَ الجديدةِ، وقَدْ رَزقَهُ اللهُ ابنةً واحدةً تزوّجَتْ في تِسعينيّاتِ القرنِ الماضِي وهَاجَرَتْ معَ زَوْجِها الطبيبِ إلى كندا حيثُ استقرَّ المُقَامُ بِها هُناكَ، وبَعدَ هِجرةِ ابنتِه بعدّةِ سَنَواتٍ تُوفّيَتْ زوجتُه فتَركَتْهُ وَحيدًا، وشَيئًا فشَيئًا أخذَ يُطِيلُ إقامتَه في مسجدِ قاهرِ التتارِ بعدَ الصّلواتِ حتّى أَصبحَ يَقضِي مُعظمَ اليومِ في المسجدِ، لا يَفعَلُ إلاّ أنْ يقرأَ القرآنَ الكريمَ

عابدًا خاشعًا متبتّلًا لله ربّ العالمين، لا يتحدّث مع الناس إلّا بوجه بشوش، وكلمات لينة، أمّا في بيته فقد كان يقضي فيه فترة الصباح بعد أن يعود من صلاة الفجر فيمضيها في قراءة بعض أمّهات الكتب في كافة فروع المعرفة، ثم يقضي وقتًا ما في كتابة خواطره بخطّه الجميل الأنيق، وقد يسّر الله له أمر حياته إذ كانت تمرّ عليه يوميًا خادمة طيبة تطبخ له طعامه القليل الزاهد، وترتّب له شئون بيته، أمّا جيرانه فقد كانوا يوادّونه بين الحين والآخر، الأمر الذي ملأ عليه حياته.

بعد يومين من لقائي معه في المسجد هذا اللقاء الذي أحدث أثرًا كبيرًا في فكري وتفكيري ذهبت إليه في المسجد فجرًا كي أصلّي برفقته وأستعيد معه زمنًا لا يمكن أن نستعيده إلّا في الأمانيّ والأحلام، وبعد الصلاة أخذني إلى بيته «ذلك البيت الذي دخلته وأنا بعد صبيٌّ على عتبة الشباب» حيث كنت وبعض الرفاق نقصده لنسأله ونحاوره، وبعد أن ساعدته في إعداد طعام الإفطار وتجهيز «عدة الشاي» جلسنا لنتكلّم، وكانت هذه أول مرة أفهم كيف أنّك لا يمكن أن تحكم على الأشياء بظواهرها، إذ سيكون حكمك حينئذ ظاهريًا، وقتها فهمت كيف أنّ العبد الصالح حين قال لسيدنا موسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ كان ينبّهه ألّا يقف عند علم الظاهر.

في جلستي الأولى معه سألته: عندما قابلتك في المسجد قلت لي إنّه لا يوجد شيءٌ اسمه «إسلاميّ» وأنا عشت عمري في ظلّ حركة إسلامية، وجماعة إسلامية هي الإخوان، وكنت أتحدّث عن وجودي في الإخوان، فأقول: «أنا

في ظلّ تجربة إسلامية» وكنّا نُطلق على أفكارنا اسم «المشروع الإسلاميّ» والمرجعية الإسلامية، وخُضْنا الانتخابات في نِقابة المحامين تحت شعار «نعم نُريدُها إسلاميّةً»، ثم إنّ الإخوان يقولون في دعايتهم الانتخابية «الإسلام هو الحلّ» والكلُّ الآنَ يقولُ عن الحركات الإسلامية التي تُمارس السّياسة مُصطلحَ «الإسلام السياسيّ» فهلْ تشرحُ لي وجهة نظرك في هذا الخصوص.

ضَحِكَ الأستاذُ أحمد أبو غالي بطريقةٍ محبّبةٍ كأنّهُ طِفلٌ يضحكُ ثمَّ قالَ: الإسلامُ هو الحلّ، والمسلمونَ هُمُ المشكلة.

بادلْتُهُ الضّحكَ وأنا أقولُ: أنا فعلًا أُريدُ أنْ أستزيدَ ممَّا قلتَه لي.

أخذَ الأستاذُ نفسًا عميقًا ثم قالَ بهدوءٍ: الإسلامُ السّياسيُّ والإسلامُ الاجتماعيُّ والإسلامُ التّعبُّديُّ والإسلامُ الاقتصاديُّ، هذهِ تقسيماتٌ غريبةٌ ومُريبةٌ وليسَتْ مِنَ الإسلام في شيءٍ، فالإسلامُ شيءٌ واحدٌ لا ينقسمُ ولا يتجزَّأُ، اسمعْ منّي يا ابني الحبيب، كلمةُ إسلاميّ ومُشتقّاتُها مِنَ الكلماتِ الدَّخيلةِ علينا، وهي مِنْ تلبيسِ إبليسَ الذي أرادَ أنْ يُحوِّلَ ديننا السَّهلَ البسيطَ الذي يَتّجهُ فيهِ العبدُ إلى ربّهِ مباشرةً دونَ وسيطٍ، إلى دينٍ كهنوتيٍّ مُعقّدٍ، فيه طَبقةٌ تُسمَّى طبقةُ الإسلاميّينَ وهي شبيهةٌ بطبقةِ الكهنة، وطبقةٍ أُخرى اسمُها طبقةُ العُلماء، فيُحذّرونَكَ مِنَ التّعرُّضِ لطبقةِ الإسلاميّينَ لأنّهم يُمثّلونَ الإسلامَ!! وبالتّالي فهُم مثلُ السُّفراءِ ومثلُ السّفارةِ، فأنتَ إذا قُمْتَ بالاعتداءِ على سَفيرِ دولةٍ أجنبيةٍ في بلدِك، أو تعدّيْتَ على أرضِ السّفارةِ فكأنّكَ اعتديْتَ على الدولةِ الأُخرى نفسِها، وكذلكَ إذا انتقدْتَ الإسلاميّينَ

فكأنما تكون قد انتقدت الإسلام نفسه، ويحذرونك أيضًا من التعرض لطبقة العلماء بالنقد، ويلقون في وجهك عبارة مرعبة هي «احذر يا أخي فإن لحوم العلماء مسمومة» فيظن العامة أن هذه العبارة حديث وما هي بحديث وإنما هي مقولة قالها عالم من العلماء هو الحافظ ابن عساكر، وكان ابن عساكر «الشافعي المذهب» قد نشبت بينه وبين الحنابلة خلافات فقهية فوجهوا إليه سهام نقدهم فأراد أن يضرب على أيديهم ويمنعهم من نقده، فقال لهم هذه العبارة، والغريب يا ثروت أن الحنابلة الآن هم الذين يستخدمون هذه العبارة!! وبها أصبحوا طبقة من الكهنة من أصحاب القداسة، وهم الذين يملكون فهم الإسلام إذ ليس لك أن تفهمه وحدك دون «مناولة» من العالم، ليس لك أن تفهمه كما فهمه البدوي البسيط الذي قال له الرسول ﷺ: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**.

توقف الأستاذ عن الحديث ثم قال لي: انتظر... وقام إلى مكتبته التي تأخذ حيزًا كبيرًا من المكان وتناول كتابًا من على أحد الرفوف ثم جلس على أريكته وهو يقول:

نحن نسجد لله في أي مكان، كل الأرض مسجد لنا، قال لنا الرسول ﷺ في الحديث الشريف: **«جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»**، فإذا بنا نتفنن في إقامة المساجد بزخرفتها وعمدانها وطنافسها وقبابها الشاهقة التي تقترب من النسق الروماني ومآذنها المرتفعة، وقلنا على تصورنا الإنساني هذا: هذه هي العمارة الإسلامية!! لماذا يتحول نمط معماري جادت به قريحة أحد البشر، وقد يكون غير مسلم، إلى عمارة تنال شرفًا وقدرًا وقيمة من كلمة

«إسـلامية» التـي تَلتصِقُ بها؟! هذِهِ هي عمارةُ المسـلمينَ لا الإسـلام، جَرِّبْ مـرَةً أنْ تكتبَ مقـالًا تقولُ فيهِ: «إنَّ العِمارةَ الإسـلامية عِمارةٌ فاسـدةُ الذَّوقِ والمعنـى، أو إنَّهَـا عِـمارةٌ مُتَخلِّفةٌ» ثـمَّ انْتظِرْ كـمَّ التَّكفِيرِ الذي سـينالُكَ، مع أنَّكَ عندمَا سـتَنتقِدُ أو سـترفُضُ سـتَنتقِدُ فِكرًا إنسانيًّا لا دِينًا إسـلاميًّا، وإذا زادَ سَـخَطُكَ على اسْـتِبدادٍ مَارَسَهُ حُكّامُنا على مدارِ قُرونٍ اكتُبْ «إنَّ التاريخَ الإسـلاميَّ سـيِّئٌ» وانتظِرْ يا ثروت جَحافِلَ التَّكفيرِ، معَ أنَّكَ تَنتقِدُ أو تُهاجِمُ تاريـخَ المسـلمينَ لا الإسـلامَ، تاريخُ الإسـلامِ انتهَـى كما قُلْتُ لكَ يـومَ وفاةِ الرسولِ ﷺ، وهَلُمَّ جَرّا، لا يُمكِنُ أنْ تَقترِبَ مِنْ بعضِ الأقانيمِ التي قدَّسَها المسلمونَ، لأنَّ اسْمَهَا ارْتبَطَ بكلمةِ «إسلام» وبذلكَ وَضَعَ إبليسُ على ألسنتِنا هذهِ العبارةَ لِتتحوَّلَ إلى صَكِّ قداسـةٍ لا تسـتطيعُ بسـببهِ توجيهَ أيِّ نقدٍ «لشيخِ الإسلامِ أو حُجَّةِ الإسلامِ، أو عَالِمِ الإسلامِ، أو برهانِ الإسلامِ» ثم إذا مارسْتَ نَقدًا للحَركةِ التي نُسمِّيها إسلاميةً، فهُنا سيَستقِرُّ في ضميرِ المُنتمِينَ لهذِهِ الحركةِ أنَّكَ ضِدُّ الإسـلامِ، ألسْتَ تَنتقِدُ جماعةً «إسلاميةً»؟ إذنْ أنتَ عدوٌّ للإسلامِ أو كارِهٌ للإسلامِ.

قلـتُ لـهُ: كلامٌ له قيمتهُ يا أسـتاذ، ولكـنْ كيفَ دخلَ هـذا المُصطَلحُ إلى حياتِنا؟

سـكتَ برُهةً وكأنَّهُ يَسـتجمِعُ أفكارَهُ ثم نظرَ لي قائلًا وهـو يرفَعُ الكتابَ الـذي بيدِهِ: هـذا اللّفظُ يا بُنيَّ لم يـرِدْ لا في القـرآنِ ولا في الحديثِ الشريفِ، الألفاظُ التي جاءَتْ في القرآنِ هي «مُسلم، مُسلمة، مُسلمون» لكنْ إسلاميٌّ أو إسـلاميـة لا وجـودَ لهـا في القرآنِ، فاللهُ سُبحانَه يقولُ في سـورةِ البقرةِ:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾ لم يقُلْ إسلاميَّةً ولم يقُلْ إسلاميّ، وفي سورةِ البقرةِ أيضًا يقولُ سُبحانَه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ومثلُ ذلكَ كثيرٌ في آياتِ القرآنِ، عندَكَ في آلِ عِمْرانَ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ وفي سورةِ يُوسُفَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهكذا، وقد بَحثْتُ في كلِّ المعاجمِ القديمةِ عن هذه الكلمةِ فلم أَجِدْها، ولكنّني في إحدى المرّاتِ وأنا أَبحَثُ صادفتْني هذهِ الكلمةُ «الإسلاميّ» و«الإسلاميّينَ» فقدْ قرأتُها عندَ أبي الحسنِ الأشعريِّ، وابنِ تيميةَ والجاحظِ، وابنِ خلدونَ، ووَجدْتُها مُستخدَمةً أحيانًا عندَ علماءِ الكلامِ، الكتابُ الذي في يَدي مِنْ كُتبِ علماءِ الكلامِ، وقدِ اسْتَخدَمَ هؤلاءِ هذا المصطلحَ من الناحيةِ التأريخيةِ للتفريقِ بينَ مَنْ وُلِدُوا في عصرِ الإسلامِ الأولِ ولم يَشهَدُوا الجاهليةَ، ومَنْ وُلِدُوا وعاشُوا في الجاهليةِ وماتُوا قبلَ الإسلامِ، فالجاهليُّونَ عندَ علماءِ الكلامِ والفلسفةِ وعندَ مَنْ ذكرْتُ لكَ أسماءَهم هُمْ مَنْ ينتسِبُونَ تاريخيًّا إلى العصرِ الجاهليّ، بخِلافِ الإسلاميِّينَ الذينَ ينتسبونَ إلى عصرِ الإسلامِ، وفي العصرِ الحديثِ دخلَ علينا هذا المصطلحُ في القرنِ العشرينَ، ثم اسْتَشرَى وتَفرَّعَ وتفرعَنَ وتَقدَّسَ وتكدَّسَ حتى أصبحَتْ هناكَ مَدلولاتٌ نفسيَّةٌ لهذا المُصطَلحِ، هذهِ المَدلُولاتُ تشيرُ إلى أنّ الإسلاميَّ هو مَنْ «يَدِينُ بالعبوديَّةِ للهِ وحدَه في نظامِ حياتِه» أيْ في القوانينِ والتّشريعاتِ وكلِّ شيءٍ، هو الذي يؤمِنُ بأنّهُ لا يجوزُ لنا أن نُشرِّعَ لأنفسِنا، ففي «الظّلالُ» يقولُ سيدُ قطب: «ويَدخُلُ في إطارِ المجتمعِ الجاهليِّ

(الكافرِ) تلكَ المُجتَمعاتُ التي تَزعُمُ لنفسِها أنَّها مُسلِمةٌ، لا لأنَّها تَعتقِدُ بألُوهيَّةِ أحدٍ غيرِ اللهِ ولا لأنَّها تُقدِّمُ الشعائرَ التَّعبُّدِيةَ لغيرِ اللهِ، ولكنَّها تَدخُلُ في هَذا الإطارِ لأنَّها لا تَدِينُ بالعبوديةِ للهِ وحدَه في نظامِ حياتِها»، فيكونُ مَنْ لا يَدِينُ بالعُبوديَّةِ للهِ في نظامِ حياتِهِ كافرًا، وهذا الكافرُ بطريقِ الاستقراءِ هو «غيرُ الإسلاميِّ». أرأيْتَ أنَّ المدلولَ النَّفسِيَّ لمُصطَلحِ (إسلامي) يقُودُنا شُعوريًّا لِتكفيرِ غيرِنا؟ وكذلكَ عندَما نقُولُ: «حِزبٌ ذُو مَرجعيَّةٍ إسلاميةٍ» أو أنَّنا نَملِكُ «المَشروعَ الإسلاميَّ» اللهُ يا ثروت، لم يَبعَثِ الرَّسولَ ﷺ بالإسلامِ ليُبشِّرَ بهِ النَّاسَ كـ «مشروع»، هذهِ مُصطلحاتٌ تَحُطُّ مِنْ قَداسةِ الإسلامِ لترفعَ من قَدْرِ أفكارِ الناسِ، ولذلكَ يجِبُ أنْ تَعصِفَ الحركةُ التي تُسمِّي نفسَها إسلاميةً ذِهْنَها، وتُجدِّدَ مَصطَلحاتِها لأنَّ تجديدَ المُصْطَلحاتِ سيَقودُ حتمًا إلى تغييرِ الأفكارِ، فلا يُعقَلُ أنْ تظَلَّ الحركةُ المسماةُ إسلاميةً أسيرةً لاجتهاداتٍ ومصطلحاتٍ مَا اجْتهدَ فيهِ الآباءُ، إنَّهم بذلكَ يَفعلُونَ مثلَ مَنْ قالَ: ﴿وَجَدْنا آباءَنا لهَا عَابِدِيْنَ﴾

اِستمرَّتْ جَلستِي معَ الأستاذِ فَترةً زمنيَّةً لم أشعُرْ بطُولِها، وفي صالونِهِ فهمْتُ نظَريَّةَ آينشتين «النسبية» وعرفْتُ لأولِ مرَّةٍ معَنى أنْ يكونَ الزمنُ نِسبيًّا، فقَدْ طالَ الزَّمنُ فقَط مع عَقْربِ الساعةِ ولكنَّه في الحقيقةِ كانَ قصيرًا جِدًّا، وكما أنَّ الزمنَ نسبِيٌّ فإنَّ المعرفةَ أيضًا نسبيةٌ، ولكنَّنِي في جَلَساتِي المتتابعةِ معَ الأستاذِ أحمدَ إبراهيم عرفْتُ ما كانَ خَافِيًا عنِّي.

■■■

كانتْ بدايةُ الأستاذِ أحمد أبو غالي معي هي بدايةَ المدرِّس معَ تلميذِهِ عندَما يلتقِي به في الفصلِ الدراسيِّ الأولِ، تحدَّثَ معِي الأستاذُ وكأنَّهُ يشرحُ بنفسِ طريقتِهِ التي كانَ يتّبعُها وهو يُعلِّمُنا حينَ كنّا غِلْمانًا، يحرِصُ على أنْ يشرحَ التفصيلاتِ ولا ينسَى أنْ يضعَ أمامَنا الدّقائقَ مِنَ الأمورِ، ومعَ أنَّ كثيرًا مما كانَ يقولُهُ لي كنتُ أعرفُهُ فإنَّني كنْتُ أسمعُ منهُ وكأنَّني أعرِفهُ لأولِ مرةٍ، فحينَ كنَّا نحتَسِي الشّايَ باللَّبنِ سألتُهُ عن حَسنِ البنا، هل كانَ داعيةً أم عالمًا أم فَقِيهًا أم زعيمًا، أخذَ الأستاذُ يرشُفُ من فِنجالِه رشفاتٍ ثم تَدفَّقَ في الحديثِ وكأنَّهُ لا يُريدُ أنْ يوقفَهُ أحدٌ أو يقاطِعَهُ إنسان:

أنتَ تعرِفُ أنَّ أصحابَ البنا وتلاميذَه ارتفعُوا بهِ إلى مرتبةٍ فوقَ البشرِ، إلاَّ أنَ الإنصافَ لهذا الرجلِ إنَّما يكونُ بتأدِيمِه «أي ردِّه إلى آدميَّتِهِ» فالآدميةُ لا الملائكيةُ هي التي ترفعُ قَدرَه، وإذَا كانَ اللهُ قد خَلقَنا من طينٍ فلا ينبغِي أَنْ نحوِّلَ أنفسَنا أو نُحوِّلَ مَنْ نُحبُّهم إلى ملائكةٍ نُورانيِّينَ، وتنزيهُ البشرِ إنما يكونُ بتعديدِ معايبِهم وإبعادِهم عَنِ الكمالِ لأنَّ الإقرارَ بنقائصِنا هو في ذاتِهِ الإقرارُ بكمالِ اللهِ.

ما زالتْ شوارعُ المحموديّةِ يا بُنيّ تَذكرُ حسنَ البنا ذلكَ الصبيَّ النَّحيفَ الذي كانَ يَصطحِبُ معَه بعضًا من أترابهِ الصِّبيانِ حيثُ يُضمِرونَ في أنفسِهم أمرًا ثم يَذهبُ أحدُهم إلى صاحبِ حانةٍ تَبيعُ لروّادِها أصنافَ الخُمورِ، ويذهبُ الآخرُ لمُرابٍ يَقرِضُ بالرِّبا، ويَذهبُ ثالثٌ لرجلٍ سَيِّئِ السُّمعةِ، وهكذا حتى يَكتمِلَ عَقْدُ ما اتّفقوا عليهِ فيَدُسُّ كلُّ واحدٍ منهُم خِلسةً وفي غَفلةٍ من الناسِ خِطابًا لمَنْ ذهَبَ إليهِ، وحينَ يَعثُرُ أولئكَ الغافلونَ على

الخِطَابَاتِ يَجِدُونَهَا نَصيحةً إسلاميةً موجَّهةً إليهم مِنْ مجهولٍ يُذكِّرُهم بالحرامِ والحلالِ وتحريم اللهِ ما يفعلُونَه وعُقوبةِ مَنْ يَجترِئُ على حُدودِ اللهِ، وفي نهايةِ الخطابِ يَجِدُ القارِئُ تهديدًا مُوجَّهًا له بالويلِ والثُّبورِ وعظائمِ الأمورِ إنْ لم يَرتَدِعْ.

كانَ الغُلامُ حسنُ البنا يَتنفَّسُ أكسجينَ الحَماسةِ للإسلامِ والغَيرةِ على حُرُماتِه، لكنْ لأنَّ شخصيَّتَه أُشرِبَتْ رُوحَ الزَّعامةِ فإنَّه كانَ يشعُرُ وكأنَّه هو المهدِيُّ المُنتظَرُ، وكأنَّه هو الذي أَرسلَهُ اللهُ على رأسِ مائةِ عامٍ كي يُجدِّدَ للأمةِ أمرَ دينِها، فأَوقفَ نفسَهُ وحياتَه ومَشروعاتِه وطُموحاتِه على الدعوةِ للهِ، هو الدعوةُ والدعوةُ هو، لا فرقَ بينَهُما في اعتقادِه، وكانَ السُّؤالُ الذي يتردَّدُ في ضميرِه دائمًا هو: هَلْ تنفصِلُ الدَّعوةُ عَنِ الدَّاعيةِ؟ وحينَ أَجابَ عَنْ هَذا السُّؤالِ بعدَ سنواتٍ طويلةٍ كانَ ذلكَ عَنْ طريقِ كتابِه « مُذكِّراتُ الدَّعوةِ والداعيةِ».

نَظرَ الصبيُّ حسنُ البنا حولَه يَبحثُ عَنْ طريقةٍ إسلاميةٍ تُشبِعُ ذاتَه فَالْتَمسَها في الطريقةِ الحَصافيةِ الصُّوفيةِ فَانْخرَطَ فيها ونَهَلَ منها، ثم أَخذَ الصبيُّ حسنُ البنا وهو في سِنِّ المُراهقةِ عَهْدَ الطريقةِ الحَصافيَّةِ على يدِ شَيْخِها عبدِالوهابِ الحَصافي الذي سَمَحَ له بعدَ أَخْذِ العَهْدِ بالقِيامِ بأَدوارِ الحَضْرةِ ووَظائفِها بمسجدِ التوبةِ بدمنهور.

كانَتِ الطَّريقةُ هي بدايةَ الطريقِ للبنا، تَعلَّمَ مِنْ شَيْخِها وأَخذَ مِنْ شُيوخِها حلمي زكريا وحسن خزبك وغيرِهما، ومنهم عَرفَ التَّنظيمَ وآلياتِه والسَّمعَ والطاعةَ والثِّقةَ في الشيخِ، وأَدركَ أنَّ وسيلتَه في إقامةِ تنظيمٍ قويٍّ مُحكَمٍ يَدِينُ

له بالولاءِ لا تَكونُ إلاَّ بطاعةِ الأَعضاءِ كما يُطيعُ المُريدُ شَيخَه، ففِي الصُّوفيةِ يكـونُ المريدُ بينَ يَدي شَيخِه كَالْمَيْتِ بينَ يدَي مَنْ يُغسِّلُه، يُقلِّبه كيفَ يشَاءُ، وهَكَذا أَصبحَ البنا في مُقتَبلِ أَيّامِه وهَكذا أَصبحَ الإخوانُ بينَ يدَي البنا.

استمرَّ البنّاَ في الطريقةِ الحصافيةِ لم يُغادِرْها بروحهِ وإنْ غَادرَها بجَسَدِه وكانَ قبلَهَا قَدِ انْقَطعَ عن اسْتكمالِ حفظِ القرآنِ إذْ توقَّفَ عَنْ هذا وهو في الرابعةَ عشرةَ مِن عمرهِ رغمَ أنَّه كانَ يتمتَّعُ بذاكرةٍ لاقطةٍ قويةٍ ولكنَّ البنا وجدَ أنَّ طريقَ العلمِ والفقهِ ليسَ هو طريقَه ولكنَّ طريقَه - كما كَانَ يقولُ - هو صِناعةُ الرِّجالِ، كانَ مِنَ المُمكنِ أنْ يَقتفِيَ أثرَ أَبيهِ في علوم الحديثِ ولكنَّه كانَ يَتنقِلُ بينَ كلِّ العُلومِ فيأخذُ مِنْ كلِّ علمٍ قَطفةً تكونُ هي زادَه فِيما انْتَوى عليهِ، وكانَ ممَّا قالَه لي بعض ممَّنْ صاحَبُوه: إنَّ البنا رَفضَ أَنْ يُؤلِّفَ الكُتبَ لأنَّهَ كانَ يرُيدُ أَنْ يُؤلِّفَ الرِّجالَ، وهذا هُو مَا نَجحَ فيهِ.

وفي القاهرةِ كانَتْ محطَّتُه التاليةُ حيثُ الْتحقَ بمدرسةِ دارِ العُلومِ، ولأنَّه كانَ صاحبَ همَّةٍ عاليةٍ وتأثيرٍ أَعلى فلم يشْغَلْ نفسَهُ بما ينشغِلُ به الشبابُ بل كانَتْ فِكرتُه الدَّعَويةُ تُسيطِرُ عليهِ وتخلِبُ لُبَّهُ، خَاصَّةً وأنَّ أتاتورك كانَ قَدْ مَزَّقَ أَوَتارَ الخِلافةِ الإسلاميةِ وقَضَى عليها، وكانَ هَذا ممَّا مَزَّقَ قلبَ الشابِّ اليافعِ فأخذَ يجُوبُ أَروقَةَ العُلماءِ ويجلسُ إليهم ويَبثُّهم مَشاعِرَه ويَحتدُّ على بَعضِهم أَحيانًا ويَبكِي بينَ أيَديهم أحيانًا أُخرى، ثم كَانَتِ العَلامةُ الفَارِقةُ في حياةِ البنّاَ عندمَا تعرَّفَ على الشيخِ رشيدِ رضا والشيخِ محُبِّ الدينِ الخطيبِ ومِنْ خلالِهما تحدَّدَ مسارُ البنّا.

آل سعود انتصاراته بهزيمة الشريف حسين، ثم قام جيشه المسمّى بالإخوان بشنّ هجوم على شرق الأردن لإثبات أنّ الأمور دانَتْ لعبدالعزيز ثم ها هو في طريقه إلى توحيد الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية.

كانَ رِهانُ الشّيخين رشيد رضا ومحبّ الدين الخطيب على عبدالعزيز آل سعود، فقدْ وَجَدا فيه الخليفة المُنتظَر، ومن غيرُه في عُرْفهما يَصلُحُ لها؟ ومِنْ خلال الشيخ المصريّ حافظ وهبة مستشار الملك عبدالعزيز وأحد المقرّبين له سَعى الشيخان حثيثًا للقاء الملك والعمل من أجل مشروعه السياسيّ والفكريّ، وفي صورةٍ تَبدُو وكأنّها انْقِلابٌ مِنَ الشّيخين على فكر أستاذهما الشيخ محمد عبده المنفتح ومذهبه الحنفيّ الأشعريّ، تَبنّى الشيخان مَذهَبَ المملكة الوهّابيّ الحنبليّ معَ ما فيه وأخذا في الترويج له بحَسَب أنهّ سيكونُ الرّاية المذهبيّة التي ستقومُ عليها الخلافةُ الجديدةُ، وقد وَضَعا في خاطرهما تجربةَ جيش الإخوان الوهابيّ الذي كانَ يَرفعُ شِعارَ «اللهُ أكبرُ ولله الحمدُ» والذي كانَ يُساندُ عبدَالعزيز آل سعود بالسيف وبهذا الشعار حتّى دانَتْ له الجزيرةُ.

وكانَ مِنْ تصاريف القَدَر أن الْتَقى البنّا بالشّيخين، فقدْ كانَ هَمُّ البنا وهِمّتُه متجهَيْن إلى مقابلة العلماء، يَتعرّفُ بهم ويتحدّثُ إليهم ويَعرِضُ عليهم أفكارَه وشُجونَه، وحينَ الْتَقى البنا بالشيخين لَمَحا فيه الحماسةَ والحميّةَ، هما يَحمِلان المَشروعَ والرايةَ والرّؤيَةَ، وهو يَحمِلُ الطّاقةَ والاندفاعَ والفاعليّةَ، تعرّفَ الشابُّ حسنُ البنا مِنْ خلالهما ومن خلال الأخبار التي تأتي محمولةً عن بُعدٍ عَلى تجربة آل سعودٍ ومساندة الإخوان الوهابية لَه واطّلعَ على نظام هذا الجيش وتاريخه وشعاره، فكانَ حُلمُه أنْ يكونَ هو قائدَ الجيش الذي

سيقودُ الأمةَ إلى استعادةِ الخلافةِ مرّةً أخرى ثم الوصول بها إلى أستاذيّةِ العالمِ على حَدِّ قَولِهِ، ولِمَ لا وعبدُالعزيز آلِ سعود لم يَصِلْ للحُكْمِ إلَّا من خلالِ الإخوانِ الوَهّابيّينَ؟ أتجهلُ مِصرُ جماعةً مثلَها؟ ألا بُعدًا لمصرَ إنْ لم تَقِفْ مَعي وإنْ لم يكنْ لي فيها جماعةٌ كجيشِ الإخوانِ الوهابيّ.. كانَ هذا هو لسانَ حسنِ البنا وهو يَخطو خُطُواتِه الأُولى في الإسماعيليةِ مُدَرِّسًا للخطِّ العَربيِّ.

كانَ حسنُ البنا يَحمِلُ ذكاءً فِطْريًّا يَعرِفُ أنَّ المِصريَّ مُتديّنٌ بطبيعتِهِ يَرتجفُ قلبُه عندَ ذِكْرِ الرسول ﷺ ويُحبُّ آلَ البيتِ حبًّا جمًّا، فَلَمْ يَتَّجِهِ البنا إلى مَنْ يذهبُ للمساجدِ وإنّما ذهبَ أولَ ما ذهبَ وهو في الإسماعيليّةِ إلى مَنْ لا يَذهبُونَ إلى المساجدِ فهُمْ أولَى، وفي المقاهِي كانَتْ غزوتُه الدَّعويّةُ الأُولى «غَزوةُ المقاهي» فقَدْ فُوجِئَ الْبُسَطاءُ مِنْ رُوّادِ المَقاهِي البلديةِ برَجُلٍ مِنَ الأفنديَّةِ يرتدِي ملابسَ أفرنجيةً يقفُ متكئًا على أحدِ المقاعدِ يَخطبُ فِيهم خِطابًا دِينيًّا بَسِيطًا، واستمرَّ علَى ذلكَ أيامًا حتَّى اشتهر أمرُه بينَ الناسِ وتَحدَّثُوا عن «خَواجة» الخطِّ العربيِّ الذي يَعِظُهم في المَقاهِي، ومِنَ المَقاهِي إلى المساجدِ الصغيرةِ كانَ مَراحُه ومَغْداهُ، وبعدَ أيامٍ مَعدُوداتٍ نَجَحَ البنا في أنْ يَجمعَ حولَه عدَدًا مِنْ رجالِ الإسماعيليّةِ من أصحابِ الحِرَفِ الْبَسيطةِ، ظلَّ يتزاوَرُ معهم ويَبثُّهم خَواطرَهُ الإيمانيّةَ فترةً، ثم آنَ الأوانُ لِتكونَ البذرةُ الأُولى للجماعةِ.

كانَ الاقتراحُ اقتراحَه وكانَتِ الفكرةُ فِكرتَه، لِمَ أيُّها الأخوةُ لا نُنشِئُ جَمعيّةً لنَا؟ فَلْتَكُنْ جَمعيّةَ الإخوانِ المسلمين، واستقبلَ الجمعُ الذي معَهُ اقْتراحَهُ باسْتحسانٍ، فَهُو قائدُهم وهُمْ رِجالُه، فكانَ عامُ 1928 هو عامَ التأسيسِ

ألف وتسعمئة وثمانية وعشر

الرسميِّ لجمعيةِ الإخوانِ المسلمين، كانَ كلُّ غرضِها هو الدعوةَ للهِ، والدعوةَ فقط، وكانَ الداعيةُ هو الشابَ حسنَ البنا.

سكتَ الأستاذُ أحمدُ إبراهيم وأَومأَ لي أنْ سَلْ مَا تشاء، فَسألْتهُ: هُناكَ دقائقُ في حِكايتِكَ لم يَقُلْها أحدٌ على حدِّ علْمِي مثلَ تأثُّره بفِكرة «جيش الإخوانِ» الذي انْتَصرَ لآلِ سعودٍ فهَلْ هِي حقيقةٌ موثَّقةٌ؟ لقد سَمِعْتُها من قبلُ من أحدِ أصدِقائي مِنَ الإخوانِ اسمُه أحمد ربيع وكانَ قَدْ سَعَى لتوثيقِ روايتِهِ بحِوَاراتٍ مُسَجَّلةٍ أجراها معَ بَعْضِ أفرادٍ منَ الرعيلِ الأولِ للإخوان.

ابتسمَ الأستاذُ وهو يَقولُ: وهِيَ عندِي أيضًا مُوثَّقةٌ يا وَلَدِي، فَقدْ قرأتُها في بعضِ أوراقٍ تركَها جَدِّي.

أنا: جَدُّكَ المُباشَرُ؟ مَنْ هُو؟

رد: خالُ أمِّي وعَمُّها في ذاتِ الوقتِ.

أنا: فَزُّورةٌ هي! ومَنْ هو؟

ردَّ ضاحِكًا: ستَعرِفُه في حينِه.

■■■

مَتَى سَمعْتُ مثلَ الذي قالَه لي الأستاذُ أحمد إبراهيم أبَو غالي؟ سَمعْتُه وأنا في مكتبِ أحمد ربيع، في ذلكَ اليومِ الذي كانَ يومًا متفردًا مِنْ عام 1999 عندَما عُدْنا من مقابلتِنا معَ الحاجِّ مصطفى مشهور، في هذا اليومِ في مكتبِ أحمد ربيع أكلْنا «الفشنكاح» والفشنكاح إنْ لم تَكُنْ تعرِفُ هُو طَبَقُ

طعـام يحتوِي على أصنـاف كثيرة من اللُّحوم، عَشِـقَه العَشَرات مِنَ الإخوان المسلمينَ خَاصَّةً إخوانُ الجيزة، صاحبُ اختراع «الفشنكاح» وصاحبُ اسم هـذا الطبـق هُوَ المُمَثِّلُ الراحلُ فريد شـوقي، فقدِ اعْتادَ عَلى أنْ يأكلَ في أحد المطاعم بشـارع جامعة الـدول العربية، وكانَ هذا المطعمُ يقع أسـفلَ العمارة المُجاورة لِمكتـب أحمد ربيع، ولأنَّ فريد شـوقي كانَ صاحبَ ذوَق خاصّ في الطعـام لذلك حينَما دخلَ هذا المطعمَ يومَ الافتتاح طَلَبَ مِنْ صَاحِب المطعم أَنْ يَصطحِبَهُ إلى داخـل « المطبخ» وحينَ رَأى أَوانيَ الطعام أَخذَ طَبقًا ووَضعَ فيه من كلِّ صنف، ما بينَ الكُفتة والمحشيِّ والممبار والكبدة والمخّ والمشويّات ثم جَعلَ الطبقَ مُزدانًا بالخَضّرِ والجرجَير والبَصل الأخضر، ثم قالَ لصاحب المطعـم: خُذْ نَصيحتي وَاجْعَلْ هذا الطبقَ هو الطَّبـقَ الرئيسَ للمطعم وأنتَ تكسب، فقالَ له صاحبُ المطعم، وما هُوَ الاسمُ الذي نُطلِقُه عليه؟

قالَ فريد شوقي: الفشنكاح.

ومن وقتِها اشتَهرَ هذا المطعمُ بالفشنكاح.

ولأنَّ كثيرًا مِـنَ الإخـوان كانُوا يَعقِدُونَ جَلَسـاتِهم في مكتـب أحمد ربيع، فَمكاتـبُ المحامينَ لها قَدْرٌ مِنَ الحصانـة والتَّغطية الأمنّية إذْ إنَّه مِنَ الطبيعيِّ أنْ يَسـتقبلَ المحامـي في مكتبه عَشَرات الناس من أصحـاب القَضايا والحَاجَات، لِذلـكَ عَرفَ الإخوانُ طَبقَ الفشـنكاح وأَحبّـُوه، وللحَقِّ فقـدْ كانَ أحمد ربيع يَتكلَّـفُ مئات الْجُنيَهات مِن جَيبـه الخاصّ لإطعام أَضيافه منَ الإخوان في كلِّ جَلْسـة تَنعقِدُ بمكتبه، ومِنْ طرائـف تاريخ الإخوان أنَّ أحمد ربيع فيما بعدُ كانَ

يَحملُ أطباقَ الفشنكاح ويذهبُ بها إلى سِجْنِ طُرّةَ في زيارةِ يوم الخميس لتكونَ طَعامًا للإخوان المَحبُوسينَ في قضيةِ النِّقاباتِ المهنيةِ، وقد كانَ أحمد يذهبُ إليهم بالفشنكاح بناءً على طَلَبِ الدكتور محمد بديع مُرشدِ الإخوانِ فيما بعدُ الذي كانَ محبُوسًا مَعَهم، ويَبدُو أنَّه أحبَّ هذا الطبقَ وأصبحَ مُدمِنًا له.

المهمُّ أنَّنا بعدَ أنِ الْتَهَمْنا الفشنكاح أخرجَ أحمد مِنْ أحدِ أدراجِ مَكتَبهِ رُزمةَ أوراقٍ ثم قالَ لي:

هذهِ أوراقُ التاريخِ، تحتَوي عَلى تاريخٍ أهملَهُ الإخوانُ، ولكنَّني بَحثْتُ عنهُ وجَلستُ مِنْ أجلِهِ معَ عددٍ كبيرٍ من شيوخِ الإخوانِ، منهمُ الأستاذُ محمود عبدالحليم والمرشدُ الراحلُ حامد أبو النصر وبعضُ الرعيلِ الأولِ مِنَ الإخوانِ مِنَ الذينَ عَاصَرُوا حسنَ البنا وأخذُوا منهُ وكانُوا شُهودًا على فترةِ التّكوينِ، سَجَّلْتُ حِواراتٍ معَ بَعْضِهم ودَوَّنْتُ مَا قَالَهُ لي البعضُ الآخرُ وجَمَعْتُ كلَّ هذا في تلكَ الأوراقِ لعلّي أجعلُ منها كِتاباً في المستقبلِ.

قلْتُ لهُ: وهَلْ ستَقرأُ لي؟!

أحمد ربيع: نَعم حَتَّى أكونَ دقيقًا وحتّى نَتناقشَ في الفِقْراتِ التي سَأَقرؤُها (وما زالَتْ هِوايةُ أحمد الأثيرةُ حتّى الآنَ هِيَ أنْ يكتبَ أفكارَهُ ثم يَقرؤُها عَلينا).

وبَدأَ أحمد ربيع في التّلاوة:

في صفحةٍ من صَفَحاتِ التاريخِ يجلسُ الشيخُ حسنُ البنا على أحدِ مقاعدِ الرّيادةِ والتّفرُّدِ، لا شَكَّ أنَّ هذا الرجلَ كانَ عَبقريًّا، جمعَ بينَ هِمَّةٍ عاليةٍ وتأثيرٍ

بليغ، والفكرةُ عندما تَرِدُ على الذِّهْنِ قَدْ تباغِتُنا وقد تَدخُلُ على مَهَلٍ، ويَبدُو أنَّ حسنَ البنا قَدْ فكَّرَ في إنشاءِ جماعتِه وخَطَّطَ لَهَا حينَما كَانَ شابًّا يافِعًا يطلبِ العلمِ في مدرسةِ دارِ العلوم، فَقَدْ قرأَ وقتَها الأخبارَ التي أَخَذَتْ تتواترُ من نجدٍ والجزيرةِ العربيةِ عن جيشِ «الأميرِ عبدِالعزيزِ بنِ عبدِالرحمنِ آلِ سعود» الذي أخذَ يُساعِدُهُ في إخضاعِ الجزيرةِ العربيةِ له، ليأخذَ الحكمَ عَنوةً مِنْ آل رشيد، أطلقَ عبدُالعزيزِ آلِ سعود على جَيشِهِ «الإخوانُ» و«إخوانُ مَنْ أطاعَ اللهَ» وجَعلَ شِعارًا لهمُ السَّيفَ وعبارةَ التَّوحيدِ «لا إلهَ إلا الله، محمدٌ رسولُ الله».

قاطعْتُه: إذنْ الاسمُ لَه أَصلٌ؟

أحمد ربيع: نَعم هَكَذا قَالَ لي الأستاذُ محمود عبدالحليم.

قلت متعجِّبًا: ولكنَّه لم يَقُلْ هَذا في كتابهِ «الإخوانُ المسلمونَ.. أحداثٌ صَنعَتِ التَّاريخَ» لا عَلى الاسمِ ولا عَلى الشِّعارِ!

أحمد ربيع: ستتعجَّبُ حينَما تَعرِفُ أنَّه قالَ هَذا، ولكنَّ الكِتابَ خَضَعَ لمُراجَعةٍ منَ الحاجِّ مصطفى مشهور، وقد طَلَبَ منهُ أنْ يحذِفَ هذَا الْكَلامَ وكانَ مُبرِّرُهُ في ذلكَ أنَّ هَذا الكَلامَ مِنْ شَأنِهِ أنْ يَفتحَ أبوابَ جَهنَّمَ على الإخوانِ، لذلكَ جَاءَ في إحدَى المُقدِّماتِ من الكتابِ أنَّ الإخوانَ لا يَعتبرُونَ هَذا الكِتابَ تأريخًا رَسْمِيًّا لهم ولكنَّهم يَعتبِرُونَه تأريخًا جيدًا، والسببُ في هَذا أنَّ الأستاذ محمود عبدالحليم كتبَ أشياءَ كانَ الإخوانُ يُرِيدُونَ إخفاءَها، وَافقَ الأستاذُ عَلى تخفيفِ البعض وحَذْفِ البعضِ الآخر، إلاَّ أنَّهُ أصرَّ على أن يُبقِيَ في الكتابِ أشياءَ أُخرى لم يَرضَ عنَها الحاجُّ مصطفى.

أَومأْتُ برأسي ثم طلبْتُ منهُ أَنْ يُكمِلَ القِراءةَ، فقَرأَ:

في هَذا الزمنِ لم تَكُنِ العبقريةُ وُقْفًا على شَخْصٍ واحدٍ، إذْ كانَ العالمُ يَعُجُّ بالعبَاقرةِ، وكأنّنَا كُنَّا نَعيشُ في وادِي عَبقرَ أو في مدينةِ عبقرينُو، فكانَ من عباقرةِ هذا الزمنِ عبدُالعزيزِ آل سِعود، استطاعَ عبدُالعزيزِ آل سعود أَنْ يُقِيمَ دولةً، وكانَتْ عُدَّتُه في ذلكَ «فِكرةً وجيشًا» أمَّا الفِكرةُ فهي «الوَهَّابيَّةُ» نِسبةً إلى الشيخ محمدِ بنِ عبدِالوهاب الذي كانَ حَليفًا لجدِّهِ الأكبرِ «محمدِ بنِ سعود» مؤسِّسِ الدولةِ السعوديةِ الأُولى في الدّرعيَّةِ على إقامةِ دولةٍ إسلاميةٍ تَكونُ الوهابيةُ الحَنبليَّةُ مذهبهَا، إلَّا أنَّ اللهَ لم يُقيِّضْ لهما انْتِصارًا لِفكرتِهما ولا تَوفِيقًا لِتحالُفِهما إذْ لم يَستَطعْ محمدُ بن سُعودٍ ولا ولدُه من بعدِه إقامةَ هذِهِ الدولةِ واسْتَطاعَتْ جيوشُ الوالي المصريِّ «محمد علي» التي قَادَها طوسون باشا هزيمةَ آلِ سعودٍ وأَسْرِ قائدِهم عبدِالله الذي أُخِذَ إلى إستانبول، حيثُ قُتِلَ هناك.

قاطعْتُه: طوسون باشَا هَذا هُو الابنُ الأكبرُ لمحمد علي.

هَزَّ أحمد رأسَه علامةَ التأكيدِ ثم أكمَلَ:

درسَ عبدُالعزيزِ آل سعود أحداثَ التاريخِ جيدًا وهو يُجهِّزُ نفسَه مُنطلقًا من «الكويتِ» ليَهزِمَ آلَ رشيد ويَستوليَ على الجزيرةِ كلِّها ويُخضِعَها لحُكمِه، ذلكَ الحكمُ الذي بَذلَ مِنْ أجلِهِ الأجدادُ الأرواحَ والأبدانَ وَالأموالَ، وعرفَ أنَّ اجتماعَ مَنْ معَه على فكرةٍ لَهُوَ أمرٌ كفيلٌ بنَجاحِهِ في إقامةِ دولتِهِ، فكانَتِ الفكرةُ هي «الوَهّابيةُ» تلك الحركةُ التي أخذَتْ تُحارِبُ البِدَعَ حتى

توَسَّعَتْ في مَفهومِها وشَدَّدَتْ على نفسِها وعلى أتباعِها، رَأى عبدُالعزيز آل سعود أنَّ «الوهابيَّة» هي الرايةُ التي سيَرفعُها ويُعلِنُ دَولتَهُ باسْمِها، ومِنَ البدوِ صَنعَ الرجلُ العبقريُّ جَيشَهُ، كانَ عبدُالعزيز آل سعودٍ مؤسّسُ الدولةِ السُّعوديةِ الحاليةِ يؤَلِّفُ الرجالَ ويُصَنِّعُهم على عَينِهِ، لذلكَ أَخذَ يدعُو البدوَ إلى «هَجْرِ البداوةِ والباديةِ» والهجرةِ إلى التديُّنِ والاستقرارِ، فكانَتِ «الهجرةُ» هي وسيلةَ عبدِالعزيزِ آلِ سعود لتكوينِ جيشِهِ، حتّى أُطلِقَ على الأماكنِ التي استَقرُّوا فِيها «الهِجَر» وأُطلِقَ على جَيْشِهِ جيشُ الإخوانِ، دَولةُ آلِ سعودٍ لم يَكتُبِ اللهُ لهاَ النَّجاحَ إلَّا عندَما جمَعَتْ بينَ الفِكرةِ والقُوَّةِ، الفكرةُ هِيَ الرَّايةُ، والقُوَّةُ هي الجيش.

قاطعْتُه للمرةِ الثالثةِ: محمدُ بنُ عبدِالوهاب لم يُنشِئْ مَذهبًا بالمعنى المعروفِ، فَهوَ صاحبُ حَركةٍ، وحركتُه تَتبعُ المذهبَ الحنبليَّ، وقدْ عمَّرَ كثيرًا وماتَ بعدَ أنْ تجاوزَ التسعينَ وقد أَصبحَ هو ذاتُهُ «الفكرة».

أكمل أحمد:

اِرتسمَتْ هذهِ الأفكارُ في رأسِ الشابِّ حسنِ البنا فكانَ أنْ أنَشأَ فورَ تخرُّجِهِ «الحركةَ» أنَشأَ الجماعةَ، وكانَ هاجسُ جيشِ «إخوانِ آلِ سعود» يُسيطرُ على فؤادِهِ، وكانَتْ رايتهُم تُلهِمُه، فأَطلقَ على حركتِهِ «الإخوانُ المسلمون» ولكنْ هَلْ تَستطيعُ الجماعةُ المدنيةُ أَنْ تُقيمَ دولةً؟ هَلْ من شأنِها أنْ تخُضِعَ مصرَ لحكمِه، هَلْ مِنْ شأنِها أن تُعيدَ دولةَ الخِلافةِ الفقيدةِ؟ ليسَ في طَوْقِ جماعةٍ تَنشغِلُ بالدعوةِ والعِلْمِ وتحسينِ أخلاقِ الناسِ أَنْ تَصِلَ إلى

ما يُرِيدُ، فالإسلامُ لم يكنْ مجرّدَ نظريةٍ تُبحِرُ في الهواءِ الطَّلْقِ فَيلتقِطُها مَنْ يَشغَفُ بِها، بل الإسلامُ يمتلكُ حركةً ذاتيةً، فهو دينُ الحركةِ، دينُ الجماعةِ، دينُ الفاعليةِ والمبادرةِ، والفاعليةُ لا تكونُ كذلكَ إلّا بالفاعلِينَ، لذلكَ يجبُ أنْ تكونَ الحركةُ جَيْشًا لا مَدرسةً، والجيشُ يَلزَمهُ السلاحُ، والسلاحُ في فترةِ الاستضعافِ يكونُ شِعارًا، لذلكَ جعَلَ الشابُّ حسنُ البنا من السَّيفيْنِ شِعارًا للجماعةِ، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ للفِكرةِ وجُودٌ في الشِّعارِ، لذلكَ وضَعَ المُصحَفَ، وبينَ السيفينِ كتَبَ كلمةً قرآنيةً هِيَ «وأَعِدُّوا» ولكنْ هل ستكونُ الفكرةُ هي الإسلامَ الذي يَعرِفُه الناسُ، فبِماذا تَتَميَّزُ الجماعةُ إذنْ إنْ جعلَتْ مِنَ الإسلامِ فحسبُ فكرةً لها؟ فالجمعيةُ الشرعيةُ، وأنصارُ السُّنَّةِ، تَسبقُ الجماعةَ في العمرِ، وفكرتُها هي الإسلامُ، فكَّرَ حسَنِ البنَّا في أنْ يكونَ أكثرَ تحدِيدًا، وأَمامَهُ عبدُالعزيزِ آلِ سعود الذي اعتبَرَهُ جيشُ الإخوانِ الإمامَ والقائدَ، ومعَ ذلكَ لم يَكُنِ الْأَمرُ كافيًا عندَ الملكِ عبدِالعزيز، فَهُو لم يَخلِطْ نفسَهُ بالفِكرةِ، ولكنّ حسنَ البنّا وَجدَ الفِكرةَ، الفِكرةُ هي شَخْصُه، هُوَ الإمامُ والقائدُ والمُرشِدُ وصاحبُ الدّعوةِ، هُوَ الرّجلُ الذي اخْتلَطَ بفِكرتِهِ واخْتلطَتْ فكرتُه بهِ، وكَما أنّ هناكَ دعوةَ محمدِ بنِ عبدِالوهاب الذي كانَ تَلامِيذُه يُطلِقُونَ عليهِ «صاحبَ الدّعوةِ» اِقتداءً بِما قَالَتْهُ زَوجةُ الأميرِ محمدِ بنِ سعودِ «مُوضَى بنتُ محمدِ بن عبدِالله العُرَيْني» حِينَ أَوصَتْ زَوجَها باتِّباعِ محمدِ بنِ عبدِالوهاب فقالَتْ له: اتَّبِعْ دَعوةَ هذا الرجلِ فَهُو غَنِيمَةٌ خصَّكَ اللهُ بها.

فكانَ حسنُ البَنَّا أيَضًا هو «صاحبَ الدعوةِ».

ومن بعدِ ذلكَ ظَلَّتْ جماعةُ الإخوانِ المسلمينَ تَعيشُ في كَنَفِ الفِكرةِ والقوةِ.

انتهى أحمد من القراءة، فقلت له: وكأنك تريد أن تقول إن الجماعة تمتلك أدوات القوة وتعمل بها، إذن إما أنها ستحسن استخدام القوة فتصل إلى ما تريد وإما أن تكون القوة التي تمتلكها عبارة عن...

قاطعني: بئر بارود تقف عليه الجماعة قد ينفجر فيها في أي لحظة.

قلت: ولكن الذي تحدثنا فيه الآن عبارة عن تاريخ وقد تكون الرؤى تغيرت، أوافقك أن هذه كانت أفكار حسن البنا، وأوافقك أنه استلهم تجربته من عبدالعزيز آل سعود الذي أقام دولة، ولكن هل ما زال هذا التفكير حيًا في قلوب إخواننا الآن؟ هل هو منهج لمن بيده الأمر في الجماعة؟

رد: وما الذي كنا نفعله في الجماعة عبر سنوات؟ وما معنى المعسكرات والكتائب والتدريبات الرياضية؟ وما هو مغزى شعار السيفين الذي لا تزال الجماعة عليه؟ أنت يا صديقي لم تلمس فرحة «إخواننا» في المكتب (يقصد مكتب الإرشاد) بالحملات الأمنية التي تشنها الحكومة علينا، الإخوان يقولون إن هذه الحملات وحبس الإخوان عبارة عن معسكرات تدريب للجماعة وتمحيص للصف وتربية على الشدائد، أكل هذا ليس من ورائه طائل؟ ثم ألم يحدث لك أن شاهدت في المحكمة العسكرية أثناء عرض الإخوة على النيابة العسكرية عام 1996 تعاطف عدد من الضباط معنا حتى كنا نقول لأنفسنا ونحن في عجب من تعاطفهم «وكأنهم إخوان» ثم نقول: «كم منا وليس فينا!».

قلت له: كلامك عن تعاطف ضباط النيابة العسكرية مع الإخوان نبهني ونشط ذاكرتي، لذلك أستطيع أن أضيف لكلامك شيئًا خطيرًا تذكرته الآن.

أحمد ربيع: ما هو؟

باغَتّهُ: أنَـا الآنَ على يقـينٍ أنّ الجماعةَ لهـا تنَظيمٌ داخلَ الجيـش يعَملُ منذُ فـترةٍ، وقـدْ عرَفْتُ هـَذا مِنْ خِلالِ أَحَـدِ الإخوةِ الذيـنَ كانُوا مَعِـي في أُسرةٍ إخوانيّةٍ واحدةٍ بِمنطقةِ الزيتون.

ربيع: مَنْ هو؟

أنـا: اسمُه أشرف وهـو أخٌ طيـّبٌ، وكَانَ ضَابِطًـا سَابِقًا في الجيـشِ من الضبّاطِ المهندسين.

ربيع: وكيفَ عَرفَ هو ذلك؟

أنا: الحقيقةُ هو لم يَقُلْ لي ذَلكَ بشكلٍ صَريحٍ، ولكنَّنا كنّا في يومٍ من الأيام نُصَلِّي الجُمعـةَ في مسـجدِ «العزيز بـالله» بالزيتونِ وبعدَ الصلاةِ وَجَدْتُه يُسَلِّمُ بِحميميَّةٍ على شَـخصَـيْنِ وبعدَ أنْ انصَرفَـا سـألتُـه عَنْهما فقَـالَ إنَّهما مِنَ الإخوانِ، ولكنَّهما لا يُشارِكانِ في أيِّ أنشطةٍ إخوانيةٍ لأنَّهما يَشغَلانِ مَواقعَ حسَّاسةً في الدولةِ.

ربيع: ومَا فِي ذلكَ؟

أَنـا: لا شَيء، كلُّ الحِكايـةِ أنَّني أَعرفُ هذيْنِ الشَّـخصَيْنِ، هُما مِنْ ضُبَّاطِ الجيـشِ، أَوّلهُـما كانَ قائدَ الكتيبـةِ التي كنْتُ مجنّدًا فِيهـا في الجيش والثاني كانَ مسـئولَ الأمـنِ في الكتيبةِ، يَعنِـي عامَ 1981 كانَ أحدُهما هُو الرائدَ هاشـم، والثاني كانَ النقيبَ هاني.

وبعـدَ سَنَواتٍ مـن حَدِيثـي معَ أحمـد ربيع أصبـحَ هـذانِ الضابطانِ من أصحابِ الرُّتَبِ الكبيرةِ والمواقعِ الحسَّاسةِ في الدَّولةِ.

الفَصلُ العاشرُ

القِطارُ المَخْطُوفُ

عام ألف وتسعمئة وسبعة وستين

لم تكنْ هَزيمةُ 1967 مجردَ هزيمةٍ عسكريةٍ وقعَتْ على رأس مِصرَ، وليتَها كانَتْ كذلكَ، ولكنَّها كانَتْ نكبةً اجْتماعيةً خلَّفَتْ وَراءَها آثارًا خطيرةً، عَضَّتْ هذهِ الهزيمةُ بنوَاجذِها نفُوسَ الشبابِ فَوقَعُوا أسرى في مشاعرِ القَهْرِ وَانْتَبَهُوا إلى أنَّهم يَتنفَّسونَ في بلادِهم دُخانَ الاستبدادِ، والنفسُ المقهورةُ تعيشُ في سِجنٍ نَفسِيٍّ قَسْوتُه طاغيةٌ، فَهِي تَشعُرُ بالعَجْزِ أمامَ العدوِّ الخارجيِّ الذي قَهَرَها، والضعفِ أمامَ الحاكمِ المستبدِّ الذي امْتَلكَ مقاديرَها فتَحكَّمَ فيها، فما بالُكَ إذا وَقعَ الإنسانُ بينَ هذا وذاكَ وهو في السّجنِ يَجرَعُ ويلاتِ التعذيبِ؟ حِينَئذٍ يشعرُ المقهورُ بأنَّهُ لا شيء، بأنَّهُ بقايا إنسانٍ عَاجزٍ ذليلٍ مُهانٍ، لكنَّ هذا الشُّعورَ لا يَستمِرُّ أبدًا، فالنفسُ الإنسانيةُ لَهَا وَسائلُها للدِّفاعِ عنِ الذّاتِ، ولكي تَستعِيدَ تَوازُنَها النفسيَّ؛ فإنَّها تثأرُ لذاتِها التي تَعرَّضَتْ للقهرِ والمَهانةِ والتَّحقيرِ فتَستعِلي عَلى الآخَرِينَ وتَحتقِرُهم، وبذلكَ يَتحوَّلُ هَذا الإنسانُ المقهورُ إلى صورةٍ من قاهرِهِ المستبدِّ، وبعدَ أنْ كانَ يرَى نَفسَه قَدْ أَصبحَ عَبدًا أو أَقربَ إلى العَبدِ إذا بهِ يَشعرُ بسِيادةٍ كاذبةٍ، يَكرهُ مِنْ خِلالِها قَومَهُ الذينَ لم يَقِفُوا معَهُ حينَ

استبدَّ بهِ المُستبِدُّ، ويكرهُ وطنَهُ المقهورَ بالهزيمةِ، فيَسعَى إلى الهجرةِ الحقيقيةِ أو الهجرةِ الشعوريةِ والعزلةِ عَنِ المجتمعِ التي يَتصوَّرُ أنَّها ستكفُلُ لهَ الحمايةَ والصِّيانةَ، وما يَصدُقُ على الأفرادِ يَصدُقُ أيضًا على الْجَماعاتِ والتّكوينات البشريةِ، لذلك فإنَّ أيَّ جماعةٍ ظلَّتْ عمرَها تحتَ رُكامِ الاستبدادِ والقَهْرِ لا بدَّ أنْ تتحوَّلَ إلى جماعةٍ مُستبِدَّةٍ إذا ما حَكَمَتْ، ستتحوَّلُ دونَ أنْ تَشعُرَ إلى نسخةٍ أُخرى مِنَ المستبدِّ الذي قهرَها، كلُّ التاريخِ كانَ كذلكَ.

■■■

ألفٍ وتسعمئةٍ وسبعةٍ وستين

في حرِّ يوليو مِنْ عام 1967 وفي أحدِ السجونِ المصريةِ جلسَ الشابُّ الغامضُ صاحبُ النَّظَراتِ العميقةِ الحادّةِ والشعرِ الأسودِ المفرُوقِ من منتصفِه معَ مجموعةٍ من المساجيْنِ من شبابِ الإخوانِ، كلّهم سُجِنُوا لأنَّهم كانُوا فاعِلِيْنَ في تنظيمِ سيدِ قطب، كلُّهم عَانَى القَهرَ والاستبدادَ والشُّعورَ بالمَهانةِ والذِّلّةِ تحتَ وَطأةِ التّعذيبِ.

لا شَكَّ أنَّ هزيمةَ يونيو أصابَتِ المسجونيْنَ بمَشاعرَ مختلفةٍ، شَعرَ بعَضُهم بالأَسى والمَرارةِ، وصَبُّوا نقمتَهم عَلى الحاكِمِ الذي رَأَوا أنّهُ خرجَ عَنِ الإسلامِ فأصابَ البلادَ في مَقتلٍ، وشعرَ البعضُ الآخرُ بالفرْحةِ في هذا الحاكِمِ الذي هو في ظَنِّهم ألدُّ أعداءِ الإسلامِ، وقَالُوا: هزَمَهُ اللهُ وهَزَمَ شَعبَهُ الذي خرَجَ عَنْ طريقِ الإسلامِ وخَضَعَ لحاكمِهِ الكافرِ المستبِدِّ، ومَا هَذا الشَّعبُ إلاَّ شَعبُ فِرْعونَ الذي اسْتَخفَّ قومَه فأَطاعُوه.

تحدَّثَ الشابُّ الغامضُ بلسانٍ طَلْقٍ بليغٍ، وقَالَ للشَّبابِ الذين يجلِسُونَ

معَـه: لا يَظُـنَّ أَحدُكم أنَّ أمةَ يهودَ هِي التي هَزَمَتْ جمـالَ عبدالناصر، ولكنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي هَزَمَهُ لأنَّهُ كفرَ باللهِ ربِّ العالمين.

كيفَ عبدُالناصرِ كافرٌ؟!: سألَه أحدُ الشَّبابِ الذينَ يَتحلَّقُونَ حَولَه.

ليـسَ عبدُالناصرِ وَحْدَه الذي كَفرَ ولكنَّ الشَّـعبَ كلَّـه كَفرَ، فعبدُالناصرِ المسـتبدُّ يَحكُمُ بغيرِ مَا أَنزلَ اللهُ، والشَّـعبُ الخانعُ البليدُ وَافقَهُ عَلى ذلكَ، ومن وَافـقَ على الكُفرِ فقدْ كَفرَ: قَالهَا صاحبُنَا الغامـضُ بنَبرتِهِ الحادَّةِ التي تَتداخَلُ العَصَبيَّةُ معَها.

ثم اسْتَرسَلَ: الكَبائرُ أيضًا تُورِثُ الكُفرَ.

قـالَ شـابٌّ مِنَ الجالسِـيْنَ نَحيـفُ البدنِ لَوَّحَتِ الشَّـمسُ وَجْهَه بسُـمرةٍ خَفيفةٍ: ولكنَّ أَحدًا مِنَ العُلَماءِ لم يَقُلْ ذَلك!.

ردَّ عليـهِ صاحبُنَـا الغَامِضُ: أنتَ مِنْ إخوانِ المَحلَّـةِ، أَليسَ كَذلكَ؟ ومَعَ ذلكَ تَركْتَ بلدَكَ وتَدرَّبتَ على السِّلاحِ فِي قريةِ الزواملِ بـ «إنشاص الخاصةِ» بالقربِ مِن معسـكراتِ الجيشِ وفي حدائقِ الإصلاحِ الزراعيِّ وكانَ الناسُ يَظُنُّونَنَـا من أفرادِ الجيـشِ، فَهلْ كنْتَ تَفعلُ ذلكَ لمحاربةِ اليهودِ؟ أنتَ فَعلْتَ ذلكَ لِلْقَضاءِ عَلى حَاكمٍ كافرٍ، ومِنْ بَعْدِهِ سيكونُ الإسلامُ خَالِصًا نقيًّا، ومعَ ذلكَ يا أَخِي فإنَّ الشهيدَ سيدً قطب يقولُ بِكُفْرِ مَن ارْتكبَ معصيةً ثم لم يَتُبْ إِلَى اللهِ ربِّ العالمين، أَلَمْ تَقرأْ قولَهُ عَنِ المعصيةِ فِي تفسيرِهِ لآياتِ المواريثِ؟

ردَّ الشابُ المَحلاَّوِيّ: لا، لم أقرأْ إلاَّ «معالمُ في الطَّريق».

أشـارَ إليـهِ صاحبُـا الغامضُ بكَفِّ يَـدِهِ عَلامةَ أَنْ أَنصِتْ: إذنْ اسـمَعْها

منِّي، قالَ الشـهيدُ: «يَترتَّبُ على تَعدِّي آياتِ المواريثِ وعصيانِ اللهِ ورسـولهِ فيها النارُ والخلودُ والعذابُ المهينُ».

سَـكَتَ الشـابُّ الغامضُ قليلًا وأَطرقَ إلى الأرضِ ثم عادَ إلى اسْتِرسَـالِهِ قائلًا: ثُمَّ يسألُ الشهيدُ عَنْ سببِ هذا الخلودِ في النارِ، فيَقولُ: لماذا تترتَّبُ كلُّ هذهِ النتائجِ الضخمةِ على طاعةٍ أو معصيةٍ في تشريعٍ جُزئيٍّ كتَشريعِ الميراثِ، وفي جُزئيَّةٍ منْ هَذا التَّشريعِ، وحَدٍّ من حُدودهِ؟

وحينَ يَضَعُ الشهيدُ أمامَنا كَلِماتِهِ الاستفهاميةَ التَّعجُّبيةَ بأنَّ الآثارَ قَدْ تَبدُو أمـامَ الـذي لا يَعرِفُ حقيقةَ هـذا الأمرِ وأصلَـه العميقَ أَضخم مِـنَ الفِعلِ، فالفعـلَ قد يبـدُو هيِّنًا، أمَّا الأثرُ فهـو خَطِيرٌ رهيبٌ، إلَّا أنَّ الشـهيدَ صاحبَ الظِّـلالِ رحمَهُ اللهُ لا يَترُكُنا حَيارَى نَتخبَّـطُ في دَياجِيرِ الظَّلامِ، بل يعُودُ ليُجلِّيَ لَنا الغُموضَ، إسمَعُوه وهو يَقولُ رحمَه الله:

إنَّ الأمرَ في هذا الدِّينَ بل في دينِ اللهِ كلِّه منذُ أنْ أرسلَ رُسُلهَ للناسِ منذُ فَجْرِ التاريخِ هو: لمَنِ الأُلوهيَّةُ في هذِهِ الأرضِ؟ ولمن الرُّبُوبيَّةُ على هؤلاء الناسِ؟

هَلْ تَسـتطيعونَ الإجابةَ على السؤالِ الذي طَرحَهُ الشهيدُ؟ تعَرفُونَ الإجابةَ قَطعًا، ومنْ هُنا نَنطلِقُ، ومن هنا نَفهَمُ، وعلى الإجابةِ عَنْ هَذا السؤالِ في صِيغتَيْهِ هاتيْنِ يَترتَّبُ كلُّ شيءٍ في أمرِ هذا الدِّينِ، وكلُّ شَيءٍ في أمرِ الناسِ أجمعِيْنَ!.

يسَـألُنا الشـهيدُ صاحبُ الظِّلالِ قائـلًا :لمَنِ الأُلوهيَّةُ؟ ولمـن الرُّبُوبيَّةُ؟ للهِ وحدَه - بلا شَريكَ مِنْ خَلْقِهِ - فَهُو الإيمانُ إذنْ، وهُو الإسلامُ، وهُوَ الدِّينُ، أمَّا مَنْ يُعطِي الألوهيةَ والربوبيةَ لبعضِ مَنْ خَلقَ اللهُ فهو الشِّركُ إذنْ أو الْكُفرُ

المبينَ، فاللهُ وَحدَهُ هو الذي يختارُ للنَّاسِ منهجَ حياتِهم، واللهُ وَحدَهُ هو الذي يُسِنُّ للناسِ شرائعَهم واللهُ وحدَه هو الذي يضعُ للناسِ موازينَهم وقيَمَهم وأوضاعَ حياتِهم وأنظمةَ مجتمعاتِهم، وليسَ لغيرهِ - أفرادًا أو جماعاتٍ - شيءٌ مِنْ هَذا الحقِّ، فإذا كانَتِ الألوهيَّةُ أو الربوبيةُ لأحدٍ من خَلْقِ الله - شَرِكةً معَ اللهِ أو أصالـةً من دُونِه - فهِيَ الدَّينُونةُ مِنَ العِبادِ لغيرِ اللهِ وهي العبوديةُ من النـاسِ لغـيرِ الله، وهي الطاعةُ من البـشرِ لغيرِ الله، وذلـكَ بالاتّباعِ للمناهجِ والأنظمةِ والشرائعِ والقِيمِ والموازينِ التي يَضَعُها ناسٌ مِنَ البشرِ، ومن ثمَّ فَلا دينٌ، ولا إيمانٌ، ولا إسلامٌ، إنَّمَا هو الشِّركُ والكُفرُ والفُسوقُ والعِصيانُ.

وهُنـا أَسـكتَهُ رجلٌ صاحـبُ وَجْـهٍ وَضِيءٍ في مُنتَصَفِ العَقْـدِ الرَّابعِ من عمره: صَهْ يا أخِي مَا هَكَذا تُورَدُ الإبل، معَ حبِّنا للشهيدِ سيدِ قطب رحمَهُ اللهُ إلَّا أنَّ هَذا ليسَ هُوَ فكرَ الإخوانِ ولا مَنهجَ الإخوانِ.

ردَّ صاحبُنَا الغامضُ بنبَرتِهِ الحادَّةِ العَصَبيَّةِ: وبماذا تُبرِّرُ الخلودَ في النارِ لمَنْ يعَصِي اللهَ إذنْ في أيِّ حُكْمٍ من أحكامِ المواريثِ.

قالَ الرجلُ الوَضِيءُ بنبرتهِ الهادئةِ الواثقةِ: إنَّما يكونُ هَذا عندَ كُفرِ التكذيبِ، كَأنْ يرفُضَ هذِهِ الأحكامَ لأنَّهُ يرَى أنَّها غيرُ مُنزَلةٍ من عندِ اللهِ، أمَّا رفضُ التَّطبيقِ لِدُنيا يُصِيبُها معَ يقينِهِ بأنَّها مِنْ عندِ اللهِ فإنَّ هَذا يوجبُ عَلى صاحبِها الذي لم يَتُبْ عذابَ السعيرِ تَطهيرًا لهُ مِنَ الدَّنَسِ ومَا رَانَ عَلى قلبِهِ ثم مآلُه الجنةُ إنْ شَاءَ اللهُ.

ردَّ صاحبُنـا الغامـضُ عـلى الرجـلِ الـوَضِيء: لا أراكَ عَلَى حَقٍّ يا أسـتاذُ أحمد، أُرِيدُ أنْ أَجلسَ معَكَ كَثِيرًا فَبحرُ العِلمِ واسعٌ لا نهايةَ له وسَـأعقدُ لكَ

جَلَسَـاتٍ معَ الشـيخِ علي إسـماعيل فَهُوَ حَـرِيٌّ بأنْ يَردَّ عليـكَ ويَضَعَكَ على طريقِ الحق.

قال الرجلُ الوضيء: مصطفى مشهور ليسَ على رأيِ الشهيدِ سيدِ قطب.

ردَّ صاحِبُنا الغَامضُ بحِدَّةٍ: أنتَ لا تعَرِفُ يا أُستاذُ أحمد شَيئًا، مصطفى مشهور يَستخدِمُ التَّقيَّةَ، هو معَنا في عَقِيدتِنا.

الرجلُ الوضيء: المرُشِدُ حَسَن الهُضَيْبي يقولُ مثلَ قولي.

أَنهَى الشـابُّ الحِوارَ بقولِـه: الهُضيبـي كافـرٌ، وإنْ كتَـبَ اللهُ لـكَ عُمرًا سَـتَرَاني وأنا أَحكمُ العالمَ بالإسلام، سـيَقولُ العالمُ إنَّ «شكري مصطفى» هو من مِيراثِ النُّبوةِ، وسَـأملأُ أنهارَ وبحارَ العالمِ بدِماءِ الكُفَّارِ، سـأُعيدُ الخِلافةَ وستكونُ القُدسُ هي عاصمةَ الخلافةِ.

وقبلَ أنْ ينَتهِيَ الشـابُّ «شـكري مصطفى» من كلامِهِ سَـمعَ المُجتمِعُونَ صَوتَ صُراخٍ وعِراكٍ يتَصاعَدُ مِنْ إِحدَى باحَاتِ السِّجن.

■■■

كانَ المغـربُ قـد أَعلَنَ عن قُدومِه وأنَا في مكتبِ أحمد ربيع غزالي، فَصلَّيْنا جماعةً ثم جَلَسْنا على الأرضِ بعدَ أنْ خَتَمْنا الصَّلاةَ، سَادَتْ لحظةُ صَمْتٍ بيننَا وكأنَّـما نبَحَـثُ عَنْ مُفتَتَحٍ مغايرٍ للحديثِ الذي كانَ يَـدورُ بيننَا قبلَ الصلاةِ، قَطعَ أحمد ربيع الصَّمتَ قائلًا: حَسَـنُ البنّا كانَ داعيةً عظِيمًا، ولو تَفرَّغَ للفِقْهِ لكانَ فقيهَ العصرِ فَلَدَيهِ بصيرةٌ ثاقبةٌ وفَراسَةٌ مُذهِلةٌ.

قلتُ مكمِّلًا: وذاكرةٌ لاقطةٌ مثلَ: «الفوتو كوبي» وأظنُّه كانَ في ذاكرتِهِ مثلَ: «أبو العلاء المعري والإمام الشافعي».

أكملَ أحمد ربيع: ولكنَّه فضَّلَ الزَّعامةَ على الفِقهِ، رَأَى أنَّه مِنَ الأفضلِ أَنْ يصنعَ رجالًا وتنظيمًا لِتحقيقِ فِكرتِهِ، ولم يُفكِّرْ في أنْ يَدخلَ مجالَ العِلمِ والتأليفِ والكتابةِ.

قلتُ مؤكِّدًا: ذلكَ أنَّه كما وَصَلْتَ أنتَ في بحثِكَ كانَ يَبحثُ عن إقامةِ دولةٍ، والدولةُ يَصنعُها فَردٌ، والفردُ يَصنعُ تَنظِيمًا، والتنظيمُ يَمتلِكُ آلةَ القوةِ، ووَجاهةَ الفِكرةِ، حسنُ البَنّا كانَ لا يرغبُ في الكتابةِ عن دولةِ الإسلامِ التي يَرتجِيْها ولكنَّه كانَ يُريدُ إقامتَها.

أحمد ربيع: وهَلْ تَظنُّ أنَّنا ما زِلْنا على الفكرةِ الأُولى التي بَدأَ بها حَسَنُ البنَّا؟

قلتَ: جَلستُ معَ أبو العُلا ماضي كثيرًا في الفَتْراتِ الأخيرةِ وهو عَلى وَشْكِ أَن يُؤسِّسَ معَ الدكتورِ العوا جمعيةً ثقافيةً، وقد قالَ لي كَلامًا كَثيرًا في هَذا المجالِ، قالَ إنَّ هذهِ ليسَتْ هي جماعةَ الإخوانِ التي يَعرِفُها، وقالَ تحديدًا: إنَّ جماعةَ الإخوانِ مثلُ القطارِ الذي كانَ مُتَّجهًا إلى مدينةٍ ما فقامَ بعضُ الأشرارِ باخْتِطافِ القطارِ وتَغييرِ مَسارِهِ، وعندَما سألتُه عمَّا يقصِدُ قالَ: إنَّ تنظيمَ سيدِ قطب بَدأَ في السيطرةِ على الجماعةِ، وأذكرُ أيضًا أنَّه قالَ: إنَّ أفرادَ تنظيمِ سيدِ قطب لَيسُوا من أبناءِ الفِكرةِ الأصليّةِ للإخوانِ ولكنْ لَديهم رؤىً خاصَّةٌ بهم، ولكنَّني أَرجَعْتُ هَذا الْكَلامَ إلى خِلافِهِ معَ الْجماعةِ في مسألةِ إنشاءِ حزبِ الوَسَطِ.

أحمد ربيع: وهَلْ أبو العُلا فقَط هُو الذي قَالَ هَذا الْكَلامَ؟

قلت: لا، لقدْ تناقشْتُ معَ عصام سلطان في أشياء كثيرةٍ عن حزبِ الوسطِ وكان يُنهي حواراتِهِ معي دائمًا بعبارةٍ مَا زَالَ يُكرّرُها كثيرًا، هي «إنَّ جماعةَ الإخوان يقودُها الآنَ مجموعةٌ مِنَ الأغبياءِ الذينَ لا يفهمونَ، ولو فَهمُوا لماتُوا» وأنَّ «الجماعةَ انتهتْ بوفاةِ الأستاذ عمر التّلمساني وأنَّ مَنْ يُديرُ الجماعةَ الآنَ هُم المنُخنِقةُ والمَوقُوذَةُ والمتردّيةُ والنَّطِيحةُ وما أكلَ السَّبُعُ» ولكنّني اعتبرتُ أنَّ عصام قالَ هَذا الكلامَ وهو تحتَ وَطأةِ الانفعالِ مِنْ ردِّ فِعْلِ الجماعةِ على إنشاءِ الحزبِ، كما أنَّ هذا الكلامَ لا علاقةَ له بالفِكرةِ بقدْرِ ما هُوَ مُتعلّقٌ بالإمكانياتِ.

أحمد ربيع: سَأتركُكَ تتذكَّرُ وأنا أثِقُ في ذاكرتِكَ، هَلْ تَذكُرُ شَهرَ نوفمبرَ من عام 1995، هَلْ تتذكَّرُ ما الَّذِي حَدَثَ فيهِ؟

وقبلَ أنْ أُجيبَ استأذنَ أحمد ربيع لِيذهَبَ إلى غُرفةِ مكتبهِ حتَّى يَقضِي بعضَ شُئونِ المكتبِ، أمَّا أنَا فذهبْتُ بذاكرتي إلى شهرِ نوفمبرَ مِنْ عام 1995.

كانَ هَذا الشهرُ قَاتمًا كَئِيبًا، يَكفِي أنَّه تمَّ القبضُ فيهِ علَى بَعْضِ رُموزِ الجماعةِ، وكانَتِ التّحقيقاتُ في نيابةِ أمنِ الدولةِ تجرِي عَلى قَدمٍ وساقٍ، كانَ عددُ المقبوضِ عليهم كثيرًا، وكانَ منهُم «عبدُالمنعم أبو الفتوح ومحمود عزت والسيدُ عبدُالستار المليجي ومحيي الظايط وصلاحُ عبدِالمقصود» وغيرُهم كثيرٌ، وكانَ مِنْ نَصيبي أنْ حضَرْتُ التّحقيقَ معَ عبدِالمنعم أبو الفتوح، كانَ رئيسُ نيابةِ أمنِ الدولةِ الذي أجرَى التّحقيقَ اسمُه عبدُالمنعم الحَلْواني، وقَدْ كانَ مُتعاطِفًا جِدًّا معنا، وسَمحَ لي بمساحةٍ كبيرةٍ في المُرافعةِ بعدَ أنِ انْتهَى

مِن اسْتِجواب أبو الفتوح، وكانَ يَحضُرُ مَعِي للمُدافعةِ عَنْ أبو الفتوح أحدُ المحامينَ مِنَ الإخوانِ اسمُه صلاح سالم وهو مِنْ أغربِ مَنْ قَابلْتُ من الإخوة حتَّى إنّنَا كنّا نُطلِقُ عليهِ من كثرةِ رَغْيهِ «لسانٌ تحوَّلَ إلى إنسانٍ» وأَذكرُ أنَّ وكيلاً النيابةِ قالَ لنَا بعدَ أنْ أخرجَ سكرتيرَ التحقيق: إنَّ قرارَ الحبس قد صَدرَ بالفعلِ وأنَّه لا يَملِكُ شَيئًا حِيالَ ذَلكَ، وأنَّه يأسَى لما يحدُثُ للإخوانِ، وما إنْ قالَ رئيسُ النيابةِ ذلكَ حتّى اسْتأذنَه صلاحٌ وخرجَ ليُخبرَ كلَّ الذينَ في رُدهاتِ النيابةِ بما قالَه لنَا رئيسُ النيابةِ، وفَضَحَ تعاطُفَ الرجلِ معَنا، وكادَتْ تَحدُثُ مشاكلُ كثيرةٌ بسببِ رُعونةِ هذَا الأخِ وانفلاتِ لسانِهِ.

كانَ عَجَبِي وَقْتَها كبيرًا أنْ أجدَ أحدَ رُؤساءِ نيابةِ أمنِ الدولةِ الكبارِ مُتعاطِفًا معَ الإخوانِ إلى حدِّ أنْ يُبدِيَ لَنا خَيبةَ أَملِهِ لأنَّه لا يَستطِيعُ أنْ يفعلَ شَيئًا حِيالَ قرارِ حبْسِ الإخوانِ احتياطيًّا على ذِمّةِ التحقيقِ، وفيما بعدُ زالَ عَجَبي عندَما كنّا وبعضَ الإخوانِ في رحلةٍ صيفيّةٍ إلى الإسكندريةِ، وفي نادِي الأطباءِ بمِنْطقةِ «سابا باشا» تقابَلْنا معَ الحاجِّ جمعة أمين عضوِ مكتبِ الإرشادِ والذي يُطلَقُ عليهِ في الإخوانِ «الحارسُ الأمينُ على الأصولِ العشرِيْنَ» وجَرّنا الحديثُ عَنِ القضايا العسكريةِ التي بَدأَ النظامُ يُواجِهُ الإخوانَ بها إلى الحديثِ عَنْ تَحقيقاتِ نيابةِ أمنِ الدولةِ التي تُجريها معَ الإخوانِ وقراراتِ الحبسِ «سابقةِ التّجهيزِ»، حينَها قالَ أحدُ الإخوةِ للحاجّ جمعة: هؤلاءِ هُمْ طواغيتُ هذَا الزّمانِ.

فقالَ له الحاجُّ جمعة بصوتٍ تعمَّدَ أنْ يكونَ خافِتًا وكأنَّه يُدلِي بسرٍّ خطيرٍ: ليسُوا جميعًا، فاللهُ قد هَدَى البعضَ.

قالَ أخٌ من إخوانِ الإسكندرية اسمُه المهندسُ «علي» كانَ يعملُ مُوظَّفًا في إحدى النِّقاباتِ: هَلْ أَسلمَ بعضُهم؟!

ارتسمتْ على وَجْهي ابتسامةٌ واسعةٌ وأَنا أتذكَّرُ تلكَ الأحداثَ وأَسترجعُ ذلكَ اللِّقاءَ، فقدْ أيقنْتُ بعدَ كلمةِ الأخِ علي الغريبةِ على مَسَامِعي أنَّني لو نظرْتُ إلى وَجْهي في المرآةِ لوجدْتُ عيوني قَدْ أَصبحَتْ مثلَ علامةِ التعجُّبِ مِنْ فَرْطِ انْدِهاشي وانْشِدَاهي، حتَّى إنَّني ضَحكْتُ وقتَها أمامَ الجالسِيْنَ مِنْ كلمةِ الأخِ علي، أيُعقَلُ أنْ يكونَ أحدُ الإخوةِ يتحدَّثُ عَنْ مُسلِمِيْنَ مثلَنا فيقولُ عنهم: هَلْ أَسلَمُوا!! نَظَرَ الإخوةُ لي وهُمْ يَستغرِبُونَ ضِحْكَتِي، فقلْتُ وأَنا أَقطعُ ضِحكتي: لا تؤاخِذوني ياجماعة فقدْ تذكَّرْتُ فيلمَ «فَجرُ الإسلامِ» عندَما قالَ الممثِّلُ الذي أدَّى الدَّورَ وهو يَكسِرُ الأَصنامَ «شُلَّتْ يَدِي» فَفَرِحَ الكُفَّارُ، ففاجَأَهُم وهو يُغيظُهم «إنهَّا سَليمةٌ».

لم يأبهِ الْحاجُّ جمعة أمين لِضَحِكتي وقالَ وصَوتُه يَزدادُ خُفوتًا: عندَكُم عبدُالمنعمِ الحلواني رئيسُ نيابةِ أمنِ الدولةِ، لقدْ عَقدْتُ معَه صَداقةً قويةً وَاسْتَضفْتُهُ في بَيتِي أيامًا عندَما جَاءَ للإسكندريةِ هذا الصيفَ، وشَرَحْتُ لَهُ الأُصولَ العشرينَ للإمامِ الشهيدِ حسن البنا، وقدِ اقْتنعَ تمامًا بدعوةِ الإخوانِ، وقَدْ أَوصَلْتُهُ إلى بعضِ الإخوةِ لِيُتابعُوا معَه، وأَيضًا إخوانُنا في القضاةِ «بيشتغلوا دلوقتِ على مستشار اسمُه الخضيري» وأخونا المُستشارُ مصطفى الشقيري ربَّنا يكرمه هل تَعرِفُونه؟

فقلتُ له: نعم أَعرِفُهُ فقَدْ كانَ مَعِي في شُعبةِ الزيتونِ وانْتَقلَ مَعِي لإحدَى شُعبِ مدينةِ نصر.

فَأكمَلَ جمعةُ أمين حكايتَه وقالَ: مصطفى الشـقيري (عاملْ شُـغل كويّس معَ القُضاة)

قـالَ الأخُ المهندسُ عَلي الذي سَـألَ «هَلْ أَسـلمَ بعضُهم»: أنَـا أَعرِفُ أنَّ الأخَ الدكتورَ سـعد زغلول العشـماويّ هو ابنُ عم وكيلِ نيابةٍ اسـمُه أشرف العشماوي وأنَّه (عامل معَاه شُغلْ)

تَوالَـتِ الصُّـورُ والأحداثُ عَـلى ذاكِرتي وكأنَّني أشَـاهِدُها شَـاخِصةً أمَامَ بَصَرِي، وكانَتِ الصُّورةُ التي تذكَّرْتُها وجَعلَتْني أَهبُّ وَاقِفًا، صورةَ الحاجّ جمعة وأنـا أَصطحِبُه في سيَّارتي لأُوصِلَه لبيتِـه وكانَ معَنا في السيارةِ أخٌ مِنْ إخوانِ الإسكندريةِ أذكرُ أنَّ اسْمَه جمالُ عبدالمنعم، وإذْ أَردْتُ أنْ أَقطعَ الصَّمتَ الذي سـادَ بيننَا في السيارةِ فسَألْتُ الحاجَّ جمعة: ولكنْ ليسَ بالقُضاةِ فقَط نَستطيعُ أنْ نَصِـلَ للتّمكينِ، فَـردَّ الحاجُّ جمعة بثقةٍ: نَحنُ نُنشِـئُ يا أخِي مـدارسَ نُربِّي فيها الجيـلَ الجديدَ، فقلْـتُ له: ولكنَّ هذَا أيضًـا لا يَكفِي، فردَّ بثِقـةٍ: (بلاش طمع، اعتـبرْ أننَّـي لم أقُـلْ لكَ إنَّنَـا وَصَلْنا بالفِعْـلِ إلى الجيـشِ، فَهتفتُ وأنَـا أقولُ له بدهشةٍ: هَلْ لنَا نشاطٌ في الجيشِ، فردَّ قائلًا: أنَا لم أَقُلْ شَيئًا افهَمْها كمَا تُرِيدُ.

■■■

في لحظـةٍ من لحَظَـاتِ حياتِكَ يجـبُ أنْ تتَوقَّـفَ لِتلتقِطَ أنفاسَـكَ، وحينهَا ضَـعْ يدَكَ على عقارِبِ الزمنِ وقُمْ بتحريكِهـا لِتمرَّ على حيَاتِكَ المنقضيةِ كلِّها، توَقَّـفْ بالعقاربِ عندَ اللحظاتِ المهمّةِ في حياتِـك وانْظُرْ لهَا مِنْ زَاويتِكَ التي تقِفُ فِيها الآنَ، ستَقبلُ بعضَها وترفضُ بعَضَهـا وتكرَهُ بعضَها وتحُبُّ بعضَها

إلَّا أنَّكَ ستتَعلَّمُ منها كلِّها، هذِهِ هي لحَظاتُ المراجعةِ والفَحصِ والتَّمحيصِ التي نَغسِلُ فِيها أرواحنَا فتَزدادُ إشراقًا، كانَتْ أهمُّ لحظاتِ حَياتي التي أَحبَبْتُها فأَوقفْتُ عندَها عقاربَ الزمنِ هي تلكَ اللحظاتِ التي جَمَعَني فِيها الزمنُ بالأستاذِ أحمد إبراهيم أبو غالي الذي عَلَّمني حينَ كنْتُ صَغِيرًا، وعلَّمنِي حينَ ظَنَنْتُ أنّني أَصبَحْتُ كبيرًا، تيقَّنتُ وأنَا أُوقفُ عقاربَ الزمنِ عندَ لحظاتي معَ ذلكَ الأستاذِ الشيخ أنَّ الزَّمنَ لا يَنسحِبُ من حياتِنا بلْ يَظلُّ دائرًا سائرًا في أرواحِنا لا يُغادِرُها إلى أنْ تَنسحِبَ أرواحُنا من أجسادِنا ذاهبةً إلى دُنيا أُخرى وزمنٍ آخرَ، وفي نهايةِ الزمنِ نَصلُ لمستقرِّنا الأخيرِ فَيتغيَّرُ القانونُ، فَبدلًا مِنْ أَنْ يمرَّ عَلينا الزمنُ نَمرُّ نَحنُ عليهِ، وبَدلًا مِنْ أنْ يدورَ بنا، نَدورُ نحنُ بهِ.

تَوقَّفَ عقربُ الزمنِ عندِي عَلى تلكَ الأيامِ التي كنْتُ لا أَكادُ فيها أُغادِرُ الأستاذَ أحمد أبو غالي، لم يتَجاوزِ العقَربُ عامَ 2004 بلْ ظَلَّ يقفزُ مِنْ أعلاهُ إلى أدنَاهِ ومِن مَيمنتِهِ إلى مَيسَرتِهِ، وتَوقَّفَتْ حركةُ المكانِ عندَ شارعِ نخلة المطيعي بمصرَ الجديدةِ، وتَوقَّفَ الشارعُ عندَ بيتِ الأستاذِ، كلُّ العالمِ كانَ عندَ هذِهِ النقطةِ التي لا حَجمَ لهَا عندَ الكونِ.

حينَ طرَقتُ البابَ فَتحَ الأستاذُ بعدَ فترةٍ، وَجدْتُه ممُسِكًا بورَقةٍ يَقرؤُها، أَلقيْتُ عليه السلام فردَّ ببشاشةٍ وقد تَهلَّلَ وجهُه، أَجلسَنِي كالعادةِ في غرفةِ المعيشةِ التي تأخذُ المكتبةُ منها مسَاحةً كَبيرةً، جلسَ على أريكتِه وانْشَغلَ باستِكمالِ قراءةِ الورقةِ، ثم قالَ لي: الحَقّانيّةُ، مصطَلحٌ جديدٌ.

قلتُ بخِفّةٍ وقد وَجدْتُها فرصةً لأَتعالَمَ على الشيخِ: الحقَّانيةُ ليستْ مُصطلَحًا

جديـدًا، فالحقانيةُ مِنَ الحقِّ، ونحـنُ كرجالِ قانونٍ نعَرفُ «الحَقّانية»َ.... المقرُّ الرئيسيُّ لمحكمةِ الإسـكندريةِ اسـمُه «الحقّانيـّةُ» ووزارةُ العدلِ في مصرَ كانَ اسمُها الحَقّانيّةُ.

قَاطَعَنِـي الأسـتاذُ ضَاحِـكًا: (خُـذْ عنـدَكَ كـمان) هنُـاكَ الطّريقـةُ الحَقّانيّةُ النّقشـبنديّةُ وهي طريقةٌ صُوفيّةٌ... ثم أكملَ: لا علَى هذهِ التعبيراتِ قَصدْتُ ولكنْ قَصدْتُ شَـيئًا آخرَ، هَذا الشّيءُ جاءَ لي في خطابٍ من تلميذةٍ نجَيبةٍ من تلاميذِي تَعوّدَتْ كلَّ حينٍ أنْ ترسِلَ لي خَواطِرَها الدينية.

وهَلْ هِيَ مِنَ الإخوان؟

لا أبَـدا، إنّها فتـاةٌ وَهبهَا اللهُ قَدْرًا مِنَ البَصيرةِ اسـمُها هُـدى عبدِالجـواد الصاوي، والدُها كانَ ذاتَ يومٍ من أتباعِ شـكري مصطفى ثم خرجَ عليهِ حينَ تبيّنَ لهُ الحقُّ، وهو اليومَ من كبارِ الأطباءِ في المملكةِ السعوديةِ وله مَوقعٌ متميّزٌ في هيئةِ الإعجازِ العلميّ للقرآنِ، وهُدى هذهِ كابْنَتِي «ميساء» التي سَافرَتْ إلى كنـدا معَ زَوجِها، تُفكرُ بنفسِ طريقتِها وتُدافعُ عـنِ الذي تُؤمِنُ به بِكلِّ قوتها، ولكنّهَا في ذاتِ الوقتِ لا تَتشبّثُ بِرأيِها إذا ما تَبيّنَ لَهَا عَدمُ صَوابهِ، بَلْ إنّهَا تُسارِعُ بإعلانِ أنهّا كانَتْ عَلى خَطأٍ وتلكَ فضيلةٌ تاهَتْ عَنْ قادةِ الحركةِ الإسـلاميةِ في زمنِنا، أمّا ما جَعلَ لتلميذتِي هذهِ مكانةً عندِي هِيَ أنهّا دائمًا تبَحثُ عَنِ الحقِّ.

- أَلِذلكَ أرسلَتْ لكَ شَيئًا عَنِ الحَقّانيةِ؟
- لا إنّهَا تقَصِدُ شيئًا آخرَ.
- ما هو؟

هِـي تُشَـخِّصُ حالةَ الحركةِ الإسـلاميةِ، وأظنُّها تقصِـدُ جماعةً مثلَ جماعةِ الإخوانِ، وتَستخدِمُ تعبيرَ الحـقْـنِ أي المداواةِ بالدواءِ الذي يُحقَنُ به المريضُ في موضـعٍ مُتعلِّـقٍ بقائـدِ الجماعـةِ أو شـيخِها أو عالمِهـا وطريقتِه مـعَ أتباعِه، وانشِـداهِ أتباعِهِ له لدرجةِ أنهم يَعتبرُونَهُ قِدّيسًـا مُلهِمًا وكأنَّه الإسـلامُ نفسُـه، وما انْشَدَهُوا لمرْشِدِهم أو شيخِهم إلاّ لأنَّهَ حَقَنَهم بما يُريدُ، فأَصبحَ هُوَ حاقِناً وأصبحُوا هُمْ محقونيْنَ.

مـادامَ الموضوعُ مُتعلِقًا بحالِ الحركةِ الإسـلاميةِ وتَبعيَّةِ الأفرادِ لمتبوعِيْهم حتَّى بتْنا بينَ التابعِ والمتبوعِ، فهلْ تَسمَحُ لي بقراءةِ هذِهِ الخاطرةِ؟

نَاوَلني الأستاذُ الورقةَ وهو يَقولُ: اقْرأْ بتركيزٍ وقِفْ عندَ كلِّ لفظٍ بإمعانٍ فكتابـاتُ هـُدى مشـفّرةٌ إذا نَجحْتَ في فكِّ شـفرتِها وَصلْـتَ إلى المعَاني التي تَقصِدُها، تَناولْتُ منهُ الورقةَ وأخذْتُ أقرؤُها بتُؤدةٍ، الخاطرةُ طَويلةٌ وعميقةٌ ومُلغَزةٌ في بعضِ الأحيانِ ولكنَّ ذاكرتي اجْتَزأَتْ منها الفقْراتِ التاليةَ:

«أُفكّرُ كثيرًا يا أُسـتاذي العزيزَ فيما كانَ عليهِ الناسُ قبلَ أنْ يتَحوّلَ الجميعُ إلى مُسوخٍ.. ومَنْ الذي كانَ عالمًا بأفكارِهم وتَوجُّهاتِهم حتَّى اسْتَطاعَ أنْ يَعبَثَ بأصلِ تكوينِهم عبرَ الزمنِ.. لا أَشُـكُّ أبدًا في أنَّ مَنْ قامَ بذلكَ العملِ المُشـينِ قَدِ ارْتَدَى بإخلاصٍ ثوبَ اللهِ.. ظنَّ أنهَّ المتحدِّثُ باسـمِه وأنَّه يدُه الباطشـةُ في الأرضِ.. هـلْ تَعلَّـمَ كُتُبَه ورحماتِـه وعَرفَ منها نَقاطَ ضَعْـفِ المَخلوقِيْنَ ثم اسْتَخدَمَهم بها؟ تَمعَّنَ في الوثائقِ التي تَشرَحُ كيفَ هُو.. خَبَّأَ منها ما يُمكِنُ أَنْ يُرشِدَه للنورِ ونَشرَ ما يُرِيدُ هو.. فَأظهرَ اللهَ بوجْهٍ لم يَكُنْ أبدًا له.. ونَشرَ أَديانًا ومَذاهِبَ لم يُخبِرْ عَنْها.. مَسَخَ كلَّ ما يُوصِلُ للهِ الحقِّ.. وحتَّى يَقبلَ الناسُ ذلكَ

ويُدافِعُوا عنهُ كانَ يجبُ مَسْخُهم أيضًا.. هـذا هُوَ «الحَقّانيُّ» صاحِبُ الأمرِ والنَّهـيِ.. زَعيمُ «أهلِ الحقْنِ» وهو مَنْ يُصدِرُ الأحكامَ المُطلَقةَ على الجمهورِ سَواءٌ كانُوا مِنَ «العامةِ» أو مِنْ «طَلبةِ الحَقْنِ» ولم ينْسَ «الحقّانيّ» أنْ يَضَعُوا قواعدَ مشددةً لحمايةِ أنفسِهم.. فكانَتِ القواعدُ الصارمةُ والوعيدُ الشديدُ لمَنْ انتقدَهُم أو خاصَمَهم أو جادلَهُم للدرجةِ التي أصبحَتْ تُعقَدُ النَّدَواتُ والمؤتمراتُ وتُطبَعُ الكتبُ والمجلّاتُ في التَّحذيرِ من المَساسِ بهم.. وكأنّما نسِيَ هَؤلاءِ أنَّ لهم نَبيًّا عندَما قالَ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ**» ردَّ عليهِ ربُّه: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ نَسُوا أنَّ الشخصَ الصالحَ في كلِّ تاريخٍ هو الذي يَتحمَّلُ أذَى الناسِ وجَهْلَهم ويُمسِكُ بأيدِيهم ويُوجِّهُهم، لا يَتكبَّرُ أبدًا أو يَشترِطُ طَريقةً معيّنةً في التعاملِ معَه و«الأدبِ» في المرورِ من مملكتِه وأخذِ مَوعدٍ مع زبانيتِه لمقابلةِ قَداستِه.. لم يَكُنْ نبيٌّ هكَذا ولم يَكُنِ اللهُ، فَمَنْ أنتُم؟

أمّا السَّدَنةُ «طُلّابُ الحَقْنِ» أو «المُتَحيْقِنُونَ» فهُم الطّوّافُونَ بمنازلِ الحقانيّينَ.. النَّاشِرونَ لمناقِبهم.. المكافِئونَ بجُزءٍ لا بأسَ بهِ من قَداستِهم.. رَفعَ أهلُ الحَقْنِ عَنْهُم شُبُهاتِ الخَطأِ فأَصبحُوا دائمًا على صَوابٍ، وإنْ زَلّتْ ألسنتُهم أو أقلامُهم بما يُخالِفُ مرتبتَهم العُليا يُغفرْ لهم، خَطؤُهم هُوَ الاجتهادُ وصَوابُهم هُوَ الفتحُ المبينُ، وكلٌّ مِنْ عندِ اللهِ.

ولا شكَّ أنَّ طالبَ الحَقْنِ المُبتدِئ أو «الطُّويلِب» كَما يَحلُو لبعضِ مَنْ سَبقُوهُ بأعوامٍ في ذلكَ الفِكْرِ أنْ يُسمُّوه.. لا شَكَّ أنّهُ يُلاقِي المقابلَ ويَقبِضُ الثمنَ فَورَ قيامِه بذلكَ العملِ.. يَبتسِمُ له الجميعُ.. يُبادِرُونَه بالتَّحيةِ، حتَّى في المعامَلاتِ فإنْ كانَ هُوَ التاجرَ ذهبَ إليهِ الناسُ باعتبارِه «الصادقَ الأمينَ»

وإنْ كانَ هُو المُشتَرِي فقَدْ «حلّتْ علَينا البرَكَةُ» بدُخولِهِ إلى أيِّ متجرٍ وإنْ أرادَ أنْ يأخذَ ما يأخُذُ «مِنْ غيرِ فلوس» فسيكونُ ذلكَ عَنْ تمامِ رِضا من صاحبِ الخانِ فهذهِ «برَكةٌ» حلّتْ عليهِ وعَلى عَائلتِهِ البعيدةِ من بعدِه.

ولكنْ.. لا تَنسَ أنّ القَداسة أيضًا لهَا ضَريبةٌ.. يجبُ أنْ تتظاهَرَ أمامَ الجميعِ وأنْ يقتنعَ الجميعُ أنّ تِرياقَ القَداسةِ قَدْ أصابَكَ بالفعِلِ وأنّكَ لم تعُدْ تُخطِئ أبدًا مثلَ الحقّانيّينَ.. وأنّكَ بالرغمِ من ترَديدِكَ لمسائلَ عَنِ التّوبةِ والاستغفارِ إلا أنّكَ لم تُخطِئْ يومًا ولم تَغفِرْ لأحدِهم إنْ فعلَ.

علاقةُ «طَالبِ الحَقّ» باللهِ علاقةٌ شائكةٌ لأنّهُ لا يَنفرِدُ به مثلَ «الحقّاني» أو يبتعِدَ عنهُ مثلَ مَنْ لم يمُنّ عليهِ أحدُهم بالانضمامِ لذلكَ الفَصيلِ المُبارَك، هو بينَ اثنيْنِ لذلكَ فإنّهُ رَغمًا عنهُ يتحوّلُ لاثنينِ؛ عاميٍّ عاديٍّ، وحقّانيٍّ ينفضُ عن ثوبهِ النّاصعِ خوفَ ما يكونُ قدْ مسّهُ مِنْ رَذاذِ هَواءٍ لم يُعطّرْ بذكْرِ الحقّ.

وفي الطّبقةِ الدُّنيا يأتي «العوامُّ» و«العاميُّ» مُصطلحٌ يُطلقُه حُرّاسُ الكُتبِ والنّظريّاتِ الحُقّانيةِ على كافةِ البشريةِ دونَهم وطُلّابِهم.. وكلُّ ما يَصِلُ ذلكَ الشخصَ الذي يمثّلُ الأغلبيةُ عَنِ اللهِ أنّهُ الغيبُ الذي لا يُمكِنُكَ السؤالُ عنهُ أو تَخيُّلُ أيّ علاقةٍ بهِ.. مَصدرُ العِقابِ والعَذابِ.. كما هُوَ مَنْ ترفَعُ يدَيْكَ لهُ وتقولُ «ياربّ» فيُجيبُكَ صَوتٌ: لن يُجيبَ فَاسِدًا مثلَكَ.

يبتعِدُ اللهُ عَنهم بقَدْرِ مَا يسمَعُونَ مِنْ عاداتِ المجتمعِ أو أحكامِ الكبارِ، حتّى إذا ما ذُكِرَ «الله» وَجدْتَ زَفراتِ الجميعِ حولَكَ مِنَ العوامّ تنطِقُ بالألمِ.

لم يعرِفْ أحدٌ اللهَ..

ابنتُك هدى»

أنهيت القراءة ثم ابتدرته قائلًا: الحقانون وعالم الممسوخ والمحقونون، عشنا فعلًا وقلوبنا تتلقى الحقن من الحقانين، كان الحقانون وسطاء، يملكون الحلال والحرام، بيدهم الحق «والحقن» لا نراهم على باطل أبدًا، هذا هو حال جماعة الإخوان المسلمين بالحرف الواحد.

مادام الجسد مهيأ للحقْن فإن كل الأفكار قابلة أن تدخل إليه، لذلك كان جهد حسن البنا الأكبر هو أن يصنع الجسد القابل للحقْن، ولما أصبح الجسدُ مهيأً حَقَنه بما يريد، والجسد المهيأ للحقن يظل دائمًا قابلًا لأي حقن مادام الذين يحقنونه هم القادة، هل عرفت لماذا اشترط حسن البنا في أركان البيعة «السمع والطاعة والثقة في القيادة»؟ اشترطها ليجعل الجسد على الدوام مستقبلًا للحقن المستمر، هل رأيت في المستشفيات «الكانيولا الوريدية» التي يركبونها على وريد في اليد ليكون الجسد على أهبة الاستعداد لاستقبال أي حقنة، هكذا هي الثقة في القيادة، وكذلك السمع والطاعة، ومن وقتها وأصبحت وسيلة تسخير الأخ الجديد هي بحقنه بمضخة الحَقْن «المحقن» الذي يحتوي على الثقة في القيادة والسمع والطاعة حينها يمكن أن تضع في هذا الجسد ما تشاء من أفكار، كن على رأس الإخوان تستطيع أن تجعلهم ليبراليين أو خوارج لو أحببت، لذلك دخل على جسد الإخوان أفكار سيد قطب وأفكار الوهابيين والحنابلة، المهم أن تأتي هذه الأفكار من مركز الحَقْن الرئيسي.

هذا عن الأفكار، فماذا عن الوسائل؟ هل يفكر الإخوان في استخدام القوة؟

القوة هي وسيلة الإخوان الوحيدة، الإخوان وفقًا لرسائل حسن البنا يجب أن يستخدموا القوة.

أين هذا؟! هل قال حسن البنا ذلك؟

نعم قال ذلك طبعًا، ولكن لا أحد يتوقف للقراءة والبحث، كل الأبحاث التاريخية تقف عند الأمور السطحية المشهورة، لم يعلق في ذاكرة التاريخ أن عباس العقاد حذر من الإخوان وحذر من أنهم سيستخدمون القوة لفرض رأيهم.

هذه معلومات أخفاها التاريخ!!.

لا بل أخفاها الحقانون، أظهروا أشياء وأخفوا أشياء، إذ لو أظهروها لفقدوا قداستهم ولعرف الناس أي إله هم يعبدون.

فماذا قال العقاد؟

كتب مقالًا في يناير من عام 1949 قال فيه «سيستخدم الإخوان القوة ذات يوم لفرض أفكارهم».

والبنا، ماذا قال عن القوة؟

هل قرأت رسالة المؤتمر الخامس، وهل قرأها الباحثون؟

طبعا قرأتها!!.

أمسك الأستاذ أبو غالي كتاب «الرسائل» لحسن البنا وقلّب صفحاته وهو يقول: ولكننا أحيانًا نقرأ ثم لا نضع في قلوبنا إلا ما نحب، حدد حسن البنا وسائل التدرج في استخدام القوة، كل شيء يقدر بقدره، فلتستمع مني

ما سأقرؤه لك من رسالة المؤتمر الخامس: «الإخوان يعلمون أن أول درجة من درجات القوة: قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك: قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما: قوة الساعد والسلاح».

قوة الساعد والسلاح!!.

انتظر، البنا لم يقل شيئًا بعد.

وماذا بعد؟

قال «ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوافر لها هذه المعاني جميعًا، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فيكون مصيرها الفناء والهلاك».

آهًا، لقد مرت هذه العبارات على سمعي من قبل، هناك من قادة الإخوان من قالوا لنا: «إن استخدام القوة قد يترتب عليه فناء الجماعة إذا كانت الجماعة ضعيفة أو مستضعفة».

حسن البنا لا يقول شيئًا من عنده، هكذا يوحي للإخوان، ولكن الإسلام هو الذي يقول ذلك، فهل تستطيع أن تعترض على الإسلام؟ انظر للحقنة التي يتم حقن الجسد الإخواني بها وهو يقول في ذات الرسالة: «هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره - باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدد لذلك حدودًا واشترط شروطًا ووجه القوة توجيهًا محدودًا؟ وهل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكيّ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام

من ظروف؟ أو من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟ هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه.. وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين: إن الإخوان المسلمون سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولًا، وينتظرون بعد ذلك ثم يُقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح».

إن الكلمات واضحة صريحة، الإخوان سيستخدمون القوة حيث لا يجدي غيرها، وحين يستكملون عدة الإيمان والوحدة، وقبلها سينذرون، وقد أعذر من أنذر.

أظن يا ثروت أن زمن القوة التي أنذر بها البنا قد اقترب، ويبدو أنهم استكملوا عدتهم.

لن يستخدموا القوة إلا إذا ضمنوا أنهم يحكمون السيطرة على الجيش المصري وأن قوة نظامهم الخاص أو جيش الإخوان الخاص بهم قد وصل إلى الذروة.

وكانت نبوءة كاشفة لما سيحدث بعد ذلك من أحداث ونتائج، أحداث لم ترد على عقل بشر ولكنها دُبِّرت وأديرت بشكل مخابراتي جهنمي.

الفصل الحادي عشر

مثلث برمودا

ليست الكتابة ترفًا ولكنها فريضة، أن يكتب الإنسان فكرته وتجربته وهو مدرك لأهمية فعل «الكتابة» وقدسيته فإنه يتعبد لله، الكتابة هي الفريضة الغائبة، الكتابة لحظة مقدسة، ليس في تاريخ «الكاتب» فحسب ولكن في سجل البشرية، ويستمد فعل «الكتابة» قداسته من أنه كان حالة من الحالات التي تعلمها الإنسان مباشرة من الله دون وسيط أو وحي أو إلهام، فالله سبحانه هو الذي علم الإنسان الكتابة حين علم آدم الأسماء كلها، رأى آدم عليه السلام وهو يتأمل الكون وما حوى أن الله كتب الكون كله، فجعله كتابًا مسطورًا ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ وأقسم بالقلم ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ وجعل المعرفة تبدأ من الحرف المكتوب فكانت «ألف لام ميم» و«ألف لام راء» و«كاف هاء ياء عين صاد» و«نون» وعلم الله آدم الأسماء كلها، وطلب منا أن نقرأ، فقال سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فريضةٌ إذن أن نقرأ، ولا يستطيع الإنسان أن يقرأ إلا إذا كانت هناك كتابة، لذلك ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ ولأنه قال لنا: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فإننا حين نقرأ تكون الكتابة جاهزة، تكون حروف الكتابة مكتملة،

وما على الإنسان إلا استخلاص المعاني، وحين تكون الكتابة جاهزة تكون المشكلة هي غياب القراءة، ومن ثم تنشأ فريضة القراءة، أما قبل الكتابة، فإن الحروف والكلمات تكون غائبة، وبالتالي يكون فعل القراءة غير وارد من الأصل لأن وجوده يتوقف على وجود الكتابة، إلا أنها ما زالت عدمًا، فإذا ما كتب الكاتب وهب لأفكاره الحياة، وأعطى أمر ﴿ٱقْرَأْ﴾ إمكانية أن يقوم المأمور بتنفيذ أمر الآمر، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولذلك عندما قال الله سبحانه ﴿ٱقْرَأْ﴾ كان الجواب «ما أنا بقارئ» لكن عندما يكون الأمر «اكتب» فيجب أن يكون الجواب «إنما أنا كاتب إنما أنا كاتب».

■■■

هل كان سر الإخوان غامضًا لهذه الدرجة؟! في الحقيقة لا، فقد كان تحت عيني طول الوقت ولكنني لم أره، فالإنسان لا يرى ما لا يحب، فإذا رأى ممن يحبهم ما لا يحبه بحث لهم وله عن تبرير يستقيم مع حسن ظنه وتفسير أقرب لفكرته وعاطفته، والحقيقة أنك تستطيع رؤية الحقيقة إذا خرجت من مشاعرك؛ فالمشاعر تصنع للأشياء التي نراها «رتوشًا» وألوانًا مبهجة أو قاتمة كئيبة، بل المشاعر في بعض الأحيان تغير الحقيقة تمامًا وتستبدل أشياء أخرى مكانها، لذلك ستظل الصورة المزيفة للأشياء التي تحبها ساكنة في وجداننا لا نصدق عنها ما يغيرها أبدًا، وقد نصل في سبيل الدفاع عن الصورة المزيفة التي نحبها إلى درجة رجم كل من يضع الصورة صادمة بلا رتوش أمام عيوننا، وقد نتمادى فنكذب عيوننا ونسفه أسماعنا، وعلى نفس المنوال

أيضًا سيظل التصور الكريه للأشياء التي نكرهها قابضًا على قلوبنا حتى ولو كانت الصورة الحقيقية لها مضمخة بالجمال، لن تستطيع أن تحكم على الأشياء أبدًا وأنت تحب أو تكره، فإذا جرَّدت نفسك ما استطعت من المشاعر حينها ستتاح لك فرصة الاقتراب من «الصورة الحقيقية» وحينما كنت أعيش في «قلب المشاعر الناعمة الحالمة» لم أك أرى إلا ما يحرك هذه المشاعر الجميلة، وكنت أضع غطاءً ساترًا على الأشياء التي قد تزعج خاطري وتقلقل مشاعري، وهكذا نحن جميعًا، الإخوان وغير الإخوان، فليس الإخوان بدعًا في هذا الأمر ولكن الكل سواء، فكل من انفعل بفكرته واندمج فيها ومشى بقلبه معها لا يمكن أن تطالبه برؤية محايدة، فالحياد ضد المشاعر وهكذا هو الإنسان.

لذلك فإنني لم أقترب من الأفكار السرية للجماعة إلا بعد أن اقتربت من منطقة الحياد، وكان ذلك قبل خروجي من الإخوان بفترة قصيرة، وبعد ذلك أخذت أقترب من «أسرار الجماعة المخفية» شيئًا فشيئًا حتى رأيت الصورة السرية التي لا يباح لأحد من خارج الكهنة الكبار أن يراها، إلا أنني لم أضع يدي على «الرقوق» المخفية في البئر السحرية للجماعة إلا في شهر يناير من عام 2008م أي بعد أن تركت جماعة الإخوان بست سنوات، وبعدها بعام ذهبت مع أسرتي للحج لأصحح مسار قلبي، لأجعله خالصًا لله وحده، وهناك تداعت الأفكار على قلبي، لقد كشف الله لي الأسرار فعرفت، وكان مما عرفته أن الإنسان قد يسلك طريق الحق فيضله الشيطان ويزين له طريق الباطل، وقد تكون وسيلة الشيطان في ذلك هي أن يبث في روع الإنسان

ويوسوس له أن هذا الطريق هو الذي سيقربه إلى الله، وكما يحدث للأفراد يحدث للجماعات، تذهب للباطل وهي تظن أنها في طريق الحق.

ورغم أنني لم أدخل إلى كهف أسرار الجماعة ولم أغص في بئرها السحرية لأضع يدي على جواهرها المخفية إلا في عام 2008م فإن خيوط بعض هذه الأسرار كانت قد بدأت تتجمع في يدي قبل هذا التاريخ، كان بعضها قد وقع تحت يدي عام 1999م إلا أنني بحثت عن تأويل له يتفق مع حسن ظني بالجماعة، ثم وقع البعض الآخر تحت يدي من عام 2002م إلى نهاية عام 2004م، إلى أن وقف علمي عند حد معين كتبت عنه ودللت عليه، وكان معظم من ينتقدون الإخوان يدورون حول الفكرة التي طرحتها وكشفت عنها، وهي أن التنظيم القطبي سيطر على مقادير الجماعة وجعل من أفكار سيد قطب دستورًا فكريًا للإخوان، ولكن عندما عرفت الحقيقة أدركت أن الأمر كان أخطر من ذلك بكثير.

وأنا أرتب أوراقي وأفكاري حتى أمتثل للأمر الذي استلهمته من حشاشات ضميري «أن اكتب»، اكتب لتعطي أفكارك الحياة، اكتب لتميط اللثام عن السر المظلم الذي يضعونه في مغارات معتمة، اكتب لتختلف عن الذين كتبوا ليتفقوا وهم يعلمون أن اتفاقهم نقمة، وليكن اختلافك رحمة، حينها عدت بذاكرتي إلى شهر نوفمبر من عام 1995م، ذلك الشهر الذي أعادني إليه أحمد ربيع ونحن نتحاور في مكتبه، كان هذا الشهر بالنسبة لي كئيبًا مرجعًا مزعجًا، فدفعة ثانية من قيادات الإخوان تم القبض عليها، وها هي نيابة أمن الدولة تبدأ التحقيق معهم، تذكرتني واسترجعت مشاعري حين

كنت مع الإخوة في نيابة أمن الدولة بمصر الجديدة لأحضر معهم التحقيقات وأدافع عنهم قدر جهدي، كنت أحمل في قلبي همومًا لا قبل لي بتحملها، فلقد عشت عمري لا أتصور أن يقوم إنسان بحبس إنسان لا لجريمة ارتكبها ولكن لأنه يختلف معه في الرأي، والإخوان الذين تغلغلوا في شرايين قلبي ما هم إلا أصحاب رأي، ومن أفدح الظلم أن يُحبس أصحاب الرأي، فالحرية عندي هي أعظم منة منَّ الله بها علينا، خلقنا الله أحرارًا وأعطانا حرية الاختيار، حتى حرية الكفر مكفولة في الإسلام، من ذا الذي يعطي لنفسه الحق في أن يتعقب الإنسان في بلده ليمنعه من أن يعبر عن أفكاره، أو يحبسه ليمنع رأيه، فليحبسه إذن لكنه لن يستطيع أن يحبس الأفكار، فالأفكار تولد لتنطلق في السماء الرحيبة بأجنحة كالطير يجنح نحو الأفق.

كنتُ قد خرجت من غرفة التحقيق التي جرت فيها وقائع التحقيق مع الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح، فوجدت الدكتور محمود عزت عضو مكتب الإرشاد يقف في الردهة بجوار إحدى غرف التحقيق ويقف معه مختار نوح وأحمد ربيع وعاطف عواد، كان الدكتور محمود عزت هو أحد المقبوض عليهم، وكانت التهمة التي توجه إلى الجميع هي الانتماء إلى تنظيم مخالف للقانون، وكانت التهمة الموجهة إلى الدكتور محمود عزت والدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح هي إنشاء هذا التنظيم وهو الأمر الذي يترتب عليه صدور عقوبة مشددة ضدهما، ذهبت إلى المجموعة التي كانت تقف مع محمود عزت فوجدتهم يتأهبون للذهاب إلى إحدى حجرات الموظفين ليقيموا صلاة المغرب فانضممت لهم وانضم إلينا عدد كبير من المتهمين

والمحامين، أمَّنا محمود عزت في الصلاة وبعد الصلاة ألقى درسًا قصيرًا عن الثبات واليقين أننا على الحق وأن الله ناصر دعوته وغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والله متم نوره ولو كره الكافرون، كنت أعرف أن الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الآيات التي تجري على ألسنة الإخوان كثيرًا، ولكنني لم أستسغ سماع آيات عن الكفر والكفار في موضع الخلاف السياسي، لذلك قفزت في ذهني علامات استفهام عن الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هل هنا مجال تطبيقها؟! وبعد أن قام المحامون والمتهمون إلى شئونهم استبقيت محمود عزت وأشرت لعاطف عواد وأحمد ربيع بعدم القيام ثم سألت محمود عزت: نريد أن نعرف منك سبب هذه الحملة الأمنية على الإخوان.

ظل محمود عزت صامتًا حتى إنني ظننت أنه لم يسمع السؤال، ثم قال بعد فترة وكأنه يقدح زناد فكره: هل تعرفون أن ما يحدث في هذه الأيام يعتبر نزهة جميلة بالنسبة لما كان يحدث لنا ونحن في سجون عبدالناصر؟، لم تكن هناك تحقيقات مثل هذه ولا محامون، ولا أي شيء آدمي، وحين دخلنا الزنازين أول مرة كنا نشرب الماء الذي قام حراس السجن برشه في الزنازين، كنا نشرب كما تشرب الحيوانات وكانوا يتعمدون ذلك لإذلالنا، أتعرفون لماذا كانوا يفعلون ذلك؟ لأنهم تلقوا الأوامر بهذا من الكافر جمال عبدالناصر، أَوَ تعرفون لماذا فعل بنا عبدالناصر هذا؟، لأنه تلقى الأمر بذلك من أسياده الملحدين في روسيا، أصدر عبدالناصر أوامره بالقبض علينا من موسكو طاعة منه للكفرة، والآن تلقى مبارك أوامره من أسياده في أمريكا

فأصدر أوامره بالقبض علينا، روسيا الملحدة في الستينيات، وأمريكا الكافرة في التسعينيات.

قطع عاطف عواد استرساله: ولماذا ترغب أمريكا في القضاء على الإخوان؟ أمريكا توافق على نشاط الإخوان عندها.

نظر إليه محمود عزت وكأنه يعاتبه: أمريكا هي الطاغوت الأكبر في العالم وهي لا تريد للإسلام أن يرتفع شأنه، أمريكا تعلم أننا لو حكمنا سنقضي على إسرائيل ثم سنتجه صوبها ونقضي على قيادتها للعالم، الإخوان يا أخ عاطف سيقيمون دولة الإسلام ثم سيحصلون لهذه الدولة على أستاذية العالم، وأمريكا تعلم ذلك؛ لذلك هي تحرض علينا نظامنا الكافر.

قال عاطف وكأنه يتعجب: ولكن كيف تقبل أمريكا أن يزاول الإخوان نشاطًا في بلادهم، ولا تقبل أن نزاول نشاطًا في بلادنا؟ أنا أظن أننا لو فتحنا حوارات مع أمريكا لقَبِلَت ذلك.

لم يرد محمود عزت على عاطف ولكن أحمد ربيع تدخل قائلًا: ولكن كيف سنقيم دولة الإسلام ونحن في قمة الاستضعاف؟!، لا توجد خطة لدينا.

رد محمود عزت: لهذا يتم القبض علينا.

تعجبت من الإجابة فقلت له: يتم القبض علينا لأنه لا توجد خطة لدينا!

محمود عزت: لا، ولكن لأنه توجد خطة لدينا.

أحمد ربيع: وهل يعرفون خطتنا؟!

محمود عزت: يحاولون الوصول إليها ولكنهم لن يصلوا.

أحمد ربيع: هل خيار القوة هو خطتنا؟

محمود عزت: الأفكار التي لا تساندها قوة تموت.

تدخلت في الحديث: وما هي القوة التي تساندنا؟

محمود عزت: هذا سؤال لا يسأله أحد، ولكن القوة التي تساندنا هي قوة ذاتية، يعني مننا فينا، جواهر قوتنا تحت أيدينا.

ختم أحمد ربيع قائلًا: واللبيب بالإشارة يفهم.

■■■

ظلت عبارة محمود عزت «القوة التي تساندنا قوة ذاتية» عالقة في ذاكرتي لا ترغب في التلاشي، ما معنى قوة ذاتية؟ وإلام يقصد من «مننا فينا»؟

والفكر يجلب بعضه، والخيوط تتشابك وتلتقي، فقبل أعوام قليلة من حوارنا مع محمود عزت وحين كنت من إخوان «منطقة الزيتون» حضرت كتيبة إخوانية في بيت أحد الإخوة المسئولين في المنطقة، وكان بيته (وتلك مصادفة غريبة) كائنًا في شارع اسمه «الليث بن سعد» المتفرع من شارع طومانباي، ووجه المصادفة أن الليث بن سعد الفقيه المصري الذي لم تلد النساء أفقه منه، والذي ضربوا به المثل في الفقه حتى إن كثيرًا من الفقهاء قالوا عنه: «الليث حكيم الفقهاء ولكن تلاميذه ضيعوا علمه» ولذلك عندما عرفت أن الكتيبة

ستنعقد في بيت في شارع اسمه الليث بن سعد استبشرت خيرًا وقلت لنفسي أُمنّيها: جادك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الفقه في ابن الليث.

كان المحاضر هو الدكتور جمال عبدالهادي أستاذ التاريخ الإسلامي، وهو أحد الدعاة الكبار في الإخوان، وكانت له العديد من الدروس يلقيها في أحد المساجد بمنطقة الأميرية القريبة من الزيتون، والحق أن الدكتور جمال عبدالهادي رجل مفعم بالمشاعر الإيمانية الفياضة حتى إنه كثيرًا ما كان يبكي أثناء درسه، وهو من الرجال الذين يأخذون أنفسهم بالشدة في العبادة، ولم يحدث أن طلب دنيا أو مغنمًا بل كان مخلصًا لفكرته مدافعًا عنها، إلا أن قلب الإنسان غير عقله وفكره، فمن الممكن أن يجذبك أحدهم بنقاء سريرته ونبل عاطفته ويصدمك بطريقة تفكيره.

في تلك الكتيبة الإخوانية قال الدكتور جمال عدة أفكار كانت صادمة بالنسبة لي، وكنت قد دوَّنت هذه المحاضرة في مفكرتي، وكان مما قاله الشيخ:

لا نستطيع أن نتهم شخصًا بعينه بالكفر، فلا يجوز إطلاق القول بالكفر إلا بأن يثبت بالدليل الشرعي، وبالتالي لا يجوز تكفير الأعيان (أي الأشخاص) إلا إذا ثبت ذلك من خلال قول أو فعل.

ولكننا نستطيع تكفير الحكومات والأنظمة، ويثبت كفرها إذا امتنعت عن تحكيم شرع الله وهي تعلم وجوب هذا التحكيم، ويثبت علمها بالوجوب إذا أنذرها أهل العلم والفقه، ونظرًا لأننا أنذرنا حكوماتنا وأخذنا عليهم الحجة فتكون الحكومات المصرية كافرة كفرًا يخرجها من الملة.

ولأن الله سبحانه قال في كتابه الكريم: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لذلك لا ينبغي أن نشرع لأنفسنا، ومن يشرع لنفسه فهو يشرك بالله سبحانه وتعالى ويتحاكم إلى الطاغوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾.

وفي نهاية المحاضرة قلت له: يا فضيلة الشيخ لقد أشكل عليَّ شيء مما قلته فهل من إيضاح؟

فرد بسماحته: تفضل يا أخي.

قلت: كيف تكفر الحكومة ولا يكفر الحاكم، فالحكومة هي شيء معنوي، اعتباري، والأشياء الاعتبارية لا تكفر ولا تؤمن، ولكن الأشخاص الذين يديرونها هم الذين كذلك، أنا أرى أننا لا يمكن أن نقول إن دولة كذا هي دولة كافرة، ولكننا نقولها من باب المجاز، إنما نقصد أن معظم شعبها على الكفر وأن أفراد حكومتها على الكفر، وكذلك لو قلنا إن الحكومة كافرة لأنها تتحاكم إلى الطاغوت ولا تحكم بما أنزل الله فإن هذا مجاز، إنما هنا نقصد أن بضعة أفراد عددهم معروف وأعيانهم معروفة قد كفروا بالله، وبذلك نكون قد حكمنا بكفر رفعت المحجوب لأنه هو ومجلس الشعب يُشرِّعون من دون الله، والقضاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله فهم أيضًا كفار، والمحامون الذين يترافعون بالقوانين التي ما أنزل الله بها من سلطان هم أيضًا كفار، فهل أنا بهذه المثابة كافر لأنني أعمل بالمحاماة؟

ضحك الجالسون في الكتيبة من كلمتي الأخيرة وقال أحد الإخوة اسمه ياسر وهو يحوِّل الأمر إلى دعابة: معلهش يا مولانا، الطبع يحكم والأخ ثروت يعمل بالمحاماة ..هو طبعًا ماكنش بيسـأل وبس إنما كان يترافع، وواضح أنه يخشى على مهنته.

قال الشـيخ جمال عبدالهادي: الأمر يا أخي يحتمل الخلاف، والشـيخ ابن باز قال: إن من يحكم بغير ما أنزل الله أو يتحاكم إليه وهو يعلم أن الذي أنزله الله أفضـل من الـذي يتحاكم إليه فهو كافر كفرًا لا يخرجه من الملة، وأنا أرى أن الـذي يتحـاكـم إلى غير ما أنزل الله مجبرًا مضطـرًّا لا خيار له فلا شيء عليه إن شـاء الله، وإلا من يدافع عنا يا أخ ثروت؟ نحن نريدكم أنت والأخ مختار نوح والأخ جمال تاج وباقي الإخوة لتدافعوا عنا في المحاكم.

ثم أكمل الشيخ: ولكن نصيحتي لكم أن تستعدوا ليوم التمكين، في هذا اليوم يجب أن نكون جاهزين أصحاء أقوياء، فالمؤمن القوي خير عند الله من المؤمـن الضعيـف، ولقد عرفت من وقـت قريب أن بعـض الإخوة يقومون بعمـل تدريبـات رياضيـة، وليت هـذه التدريبات تكون نواة لجيش مسـلم، يقـف في مواجهـة اليهود في اليوم الموعود، كل منكم يجب أن يشـترك في هذه التدريبات.

رد أخ من الجالسين اسمه خالد عبدالمطلب: وكيف نشترك؟

قال الشـيخ: الحقيقة لا أعرف، اسـألوا الدكتور محمـود عزت فقد تكون عنده الإجابة.

ياله من دنيا غريبة وعقول غريبة! أأسخر من نفسي أم أجعل نفسي تسخر مني؟! الموضوع كله يصلح أن يكتبه كاتب ساخر في مسرحية ساخرة، لقد كنتُ أحد أفراد الجيش المسلم وكنت أتلقى تدريبات رياضية وأذهب لمعسكرات، كنت في الجيش المسلم دون أن أعلم.

■■■

كنت أتردد مرة كل أسبوع على بيت الأستاذ أحمد أبو غالي، أحببت أن أتعلم منه كل شيء وأن آخذ العلم على يديه، وما بين الدين والدنيا، والإخوان والبنا، كانت تدور حواراتنا، وفي هذه الحوارات كنت حريصًا على أن أدوِّن في دفتري مختصرًا للحوارات التي تجري بيننا، قال لي الأستاذ ذات صباح بعد صلاة الفجر:

تريدني أن أحدثك عن حسن البنا إذن فاسمع، حسن البنا كان داعية لا مثيل له، يمتلك قدرات وملكات قلما تتجمع في رجل واحد، ولكنه كرجل حركي كان أكثر تأثيرًا من كونه داعية، وإذا قارنت بينه وبين أحد كبار الدعاة في قرننا العشرين وهو الشيخ «إبراهيم عزت» أحد أكبر أئمة التبليغ والدعوة ستجد الشيخ إبراهيم يماثل البنا في القدرات الدعوية ولكنه أقل منه كثيرًا في مجال العمل الحركي، وقد كنت قريبًا من الشيخ إبراهيم عزت إذ كنا معًا في الإخوان فعرفته وخبرت معدنه النفيس الذي لا يتكرر، ثم عاصرت معه فترة تركه للإخوان والتحاقه بالتبليغ والدعوة.

كان حسن البنا من الذين يضعون الخطط ويرتبون لتنفيذها على آجال

وأزمنة لذلك فإنه منذ أن أنشأ جماعته، وكان قد استقر من أول لحظة في عمر الجماعة على ضرورة إنشاء جيش مسلم يذب عن الدعوة ويناصر الفكرة، وقد قرأنا معًا رسالة المؤتمر الخامس التي تؤكد أن البنا آمن بطريق القوة.

- كانت دولة آل سعود شاخصة في ذهن حسن البنا، وكان يعتبرها الدولة «البروفة» لدولة الخلافة الإسلامية التي كان يرى نفسه من خلالها خليفة المسلمين.

ومن فرط المعلومات المذهلة التي تدفق بها الأستاذ أحمد إبراهيم سألته ذات يوم:

- كيف لك أن تعرف كل هذه الأخبار وتقف عند كل هذه الأفكار؟

فقال وهو يبتسم: لعلك تعرف الشيخ طنطاوي جوهري عليه رحمة الله، هل سمعت عنه أو قرأت له من قبل أو عرفت نبذة من تاريخه؟

انتابتني لحظة سكون رأيت فيها بخيالي صورة الشيخ طنطاوي جوهري صاحب المؤلفات الدينية والعلمية وتفسيره الفريد «الجواهر» للقرآن الكريم وكتبه التي كاد أن يحصل بموجبها على جائزة نوبل إلا أن المنية وافته قبل أن ينالها.

قلت للأستاذ: نعم، بالتأكيد أعرفه.

أنا حفيد الشيخ طنطاوي جوهري أحد عباقرة المسلمين من الذين اعتمد عليهم حسن البنا في إنشاء جماعته فقد كان خالًا وعمًّا لأمي، كما أنني كنت تلميذًا لسيد قطب، وصديقًا لشكري مصطفى أثناء فترة السجن وخرجنا معًا إلى الحرية في ذات اليوم.

تناهت كلمات الأستاذ إلى سمعي فقفز خيالي إلى صور الذين تركوا أثرًا كبيرًا في الحركة الإسلامية فرأيت صورة سيد قطب الذي تحدثت بذكره الركبان، ثم استقرت في ذهني صورة شكري مصطفى بوجهه البيضاوي وشعره الذي تعود على أن يفرقه من المنتصف ونظرات عينيه العميقة الغائرة ولحيته الكثة.

ثم قلت له: شكري مصطفى مؤسس التكفير والهجرة!

رد قائلًا: اسم جماعته الحقيقي هو جماعة المسلمين.

قلت: وما صلة شكري مصطفى صاحب التكفير والهجرة بالإخوان؟

رد: شكري مصطفى هو المؤسس الثالث لجماعة الإخوان المسلمين الحالية.

قلت وقد ارتسم الذهول على مُحيّاي: كيف؟!

رد منهيًا الحوار: لكل شيء أوان، فلا تتعجل قطف ثمرة المعرفة، في يوم ما سأعطيك بعض أوراق أظنها أخطر أوراق في تاريخ الحركة المسماة بالإسلامية.

عن شكري مصطفى وصلته بالإخوان

وقد تكون عن أشياء أخرى أيضًا.

■■■

(يباح لك أيها الإنسان أن تكون أمينًا وصادقًا ومهذبًا ومخلصًا، ولكن فقط مع نفسك، أما من هم خارج «أمتك» فقد خلقهم ربك من أجلك

فمباح لك أن تستخدمهم كما تستخدم الخُف الذي تضعه في قدمك) «إبليس في سفر الشيطان».

في أعماق كل واحد منا مثلث شديد الشبه بمثلث برمودا اسمه «اللاشعور» تدخل فيه الحكايات والأخبار والأنباء والمعارف فتختفي، ثم تظهر هذه الأشياء في صورة تصرفات يستطيع الطبيب النفسي حين يخضعها للتحليل أن يعرف دوافع هذه التصرفات، وكما الأفراد تكون الجماعات، حيث تخلق لنفسها «مثلث برمودا» أو «اللاشعور» الذي يكون بمثابة مساحة غير مرئية تختفي فيه بعض الأفكار والأنباء، ولكنها وبدون قصدٍ أو تعمدٍ منها تظهر في صورة تصرفات، فإذا ما صادفك أي تكوين إنساني يتدثر أمام الناس بالفضيلة والغايات النبيلة والقيم الروحية الأصيلة ثم يمارس أفراده الكذب والخداع والتزوير على العامة الذين لا ينتمون إليهم، ويتفانون في إهانة الكرامة الإنسانية لمن يختلف معهم في الرأي، أو حتى لمن يشتط في الخلاف معهم فاعلم أن الدافع لهذه التصرفات المغايرة للقيم الظاهرة التي يدعون لها بعض أفكار مستترة ومخفية في مثلث برمودا أو منطقة لا شعور الجماعة.

حين دخلت إلى التنظيم كنت أدخل تنظيمًا دعويًّا يرى أن الدعوة هي أصل حركتها، وأن الناس كلهم، كل الناس، هم أحبابنا ولو كانوا يرغبون في استئصال شأفتنا، فإن قابلونا بالكراهية قابلناهم بالحب، هكذا حدثتني أفكار من استمعت إليهم، وهكذا قرأت في كتب الإخوان، وهكذا تعلمت من كتاب «دعاة لا قضاة». لا شك أنني كنت أعرف أن هذا التنظيم يمارس قدرًا من السياسة ولكنه يمارسها بقدر، بحسب أنه رأى أن طريق «شمولية

التنظيم» هو الحل، ولكن لم يرد في بالي أنني ألتحق بتنظيم سياسي له أفكاره الباطنية، يمارس الدعوة في بعض الأحيان، والسياسة الغالبة أو المُغالِبة في معظم الأحيان، أو أنني ألتحق بجيش يتم إعداده ليكون «جيش الإسلام» الذي ينظر للآخرين نظرة الكاره للكاره والعدو للعدو، جيش الإسلام الذي عليه أن يحارب حتى يرفع راية «لا إله إلا الله» التي يرى أنها سقطت، وهنيئًا له من يعيدها مرة أخرى، هنيئًا له من سيعيد الإسلام للعالمين.

دخلت أنا إلى جماعة أخرى غير الجماعة التي تعلن هذه الأيام أنها جماعة الإخوان المسلمين، وحين بايعت كنت أبايع جماعة مدنية دعوية منهجها هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، قرءوا في القرآن أمرًا من الله لمن هو أفضل منهم «موسى عليه السلام» إذ قال الله له ولأخيه هارون ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ حين أرسلهما إلى رأس الكفر فرعون أشر الخلق، ويعرفان أن سيدنا محمدًا ﷺ لم يقبل أن يُهلك الله قومه حينما آذوه وهم في أشد جبروت الكفر والطغيان.

لذلك أوجعتني الروح العدائية التي لمحتها في نفوس الإخوة في فترات وجودي الأخيرة في الجماعة، كانوا ينظرون للمجتمع نظرة ناقمة ساخطة، في عيونهم كل الناس أشقياء ونحن الخامة البشرية التي وصلت إلى أعلى درجات النقاء!! ثم أوجعتني الطريقة العدائية التي يتعاملون بها مع خصومهم الفكريين، وتلك القسوة القاتلة التي يتعاملون بها مع من خرج من التنظيم، ولكنني أثناء بحثي وتنقيبي وجدت أن كل هذه الأشياء تهون أمام النظام الخاص للجماعة وجرائمه، فقد هالني هذا الجيش الذي لم تكن له إلا فكرة واحدة، هي القوة، وليست له إلا مهمة واحدة هي « النصر أو الشهادة».

ذرف الشيخ صاحب الجسد الواهن «أحمد عادل كمال» دمعة وهو يحدثني عن تاريخ مضى: كنا صغارًا لا نعرف شيئًا وتحركنا عاطفتنا الدينية فقمنا بما قمنا به ونوازع الخير تدفعنا، فقتلنا باسم الإسلام، واغتلنا الآمنين لنصرة الإسلام، فياليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا.

كان أحمد عادل كمال أحد الكبار في النظام الخاص في زمن حسن البنا، وكان متهمًا في بعض قضايا النظام الخاص قبل الثورة، قُدم للمحاكمة آنذاك في بعضها، وخفي أمره عن عيون القضاء في البعض الآخر، والآن أصبح قلبًا يحمل رجلًا إذ لا يستطيع جسده النحيل أن يحمله، أخذت منه كتابه الشهير «النقط فوق الحروف» لأقرأ حكايته مع النظام الخاص، ثم أهداني بعد ذلك مجموعة من كتبه الرائدة في مجال الفتوحات الإسلامية حيث يعتبر الآن المؤرخ الأكبر لهذه الفتوحات من الناحية العسكرية.

مر على ذلك اللقاء ثلاثة عشر عامًا وتوالت اللقاءات بيننا بعد ذلك وكانت آخر مرة رأيته فيها منذ خمس سنوات حين دعاني وعائلتي على مائدة عشاء في بيته بمصر الجديدة، وفي جلستنا الأخيرة هذه حدثني عن «بيعة النظام الخاص» التي كانت تختلف عن البيعة العادية، فقال: كنا نؤديها في غرفة مظلمة وعلى مصحف ومسدس، ولم يكن يباح لمن يبايع أن يعرف من بايع لأنه كان يؤديها في غرفة مظلمة!!

كنت قبل هذا اللقاء بسنوات قد قرأت قولًا مشابهًا في كتابٍ لأحد الكبار في النظام الخاص، وهو محمود الصباغ الذي كان مسئولًا عن تنظيم الإخوان

في الجيش «قسم الوحدات» قبل الثورة، وكتابه هو «التنظيم الخاص» قص علينا محمود الصباغ خبر البيعة فقال: «كانت البيعة تتم في منزل بحي الصليبة، حيث يدعى العضو المرشح للبيعة ومعه المسئول عن تكوينه والأخ عبدالرحمن السندي المسئول عن تكوين الجيش الإسلامي داخل الجماعة، وبعد استراحة في حجرة الاستقبال يتوجه ثلاثتهم إلى حجرة البيعة، فيجدونها مطفأة الأنوار، ويجلسون على بساط في مواجهة أخ في الإسلام مغطى الجسد تمامًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه برداء أبيض يخرج من جانبيه يداه ممتدتان على منضدة منخفضة (طبلية) عليها مصحف شريف، ولا يمكن للقادم الجديد مهما أمعن النظر فيمن يجلس في مواجهته أن يخمن بأي صورة من صور التخمين من عسى أن يكون هذا الأخ، وتبدأ البيعة بأن يقوم الجالس في المواجهة ليتلقاها نيابة عن المرشد العام بتذكير القادم للبيعة بآيات الله التي تحض على القتال في سبيله وتجعله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وتبين له الظروف التي تضطرنا إلى أن نجعل تكويننا سريًّا في هذه المرحلة، مع بيان شرعية هذه الظروف... فإننا نأخذ البيعة على الجهاد في سبيل الله حتى ينتصر الإسلام أو نهلك دونه مع الالتزام بالكتمان والطاعة، ثم يخرج من جانبه مسدسًا، ويطلب للمبايع أن يتحسسه وأن يتحسس المصحف الشريف الذي يبايع عليه، ثم يقول له: فإن خنت العهد أو أفشيت السر فسوف يؤدي ذلك إلى إخلاء سبيل الجماعة منك، ويكون مأواك جهنم وبئس المصير، فإذا قبل العضو بذلك كُلِّف بأداء القسم على الانضمام عضوًا في الجيش الإسلامي والتعهد بالسمع والطاعة».

أخـذت أبحـث بعدها عـن كتب الإخـوان وحدهـم التـي تتحدث عن النظـام الخـاص وتاريخـه وفكـره، لا أريد أن آخـذ رأي غيرهـم في تنظيمهم الخـاص، ولا أحب أن أسـمع من المختلفين معهم عن كيـف كان هو النظام الخاص، فقرأت للرجل الذي كان مقربًا من حسن البنا، سكرتيره، ومسئول المعلومات في التنظيم، محمود عساف، الذي أخرجت له المطابع كتابه الشهير «مع الشـهيد حسـن البنا» تقـع عيني على صفحـات من الكتـاب يقول فيها عساف: «في يوم من أيام سنة 1944م دعيت أنا والمرحوم الدكتور عبدالعزيز كامل لكي نؤدي بيعة النظام الخاص، ذهبنا في بيت في حارة الصليبية.. دخلنا غرفـة معتمة يجلس فيها شـخص غـير واضح المعالم يبـدو أن صوته معروف وهو صوت صالح عشماوي، وأمامه منضدة منخفضة الأرجل، وهو جالس أمامها متربعًا، وعلى المنضدة مصحف ومسدس، وطلب من كل منا أن يضع يـده اليمنى على المصحف والمسـدس ويؤدي البيعة بالطاعـة للنظام الخاص والعمـل عـلى نـصرة الدعوة الإسـلامية، كان هـذا موقفًا عجيبًـا يبعث على الرهبة، وخرجنا معًا إلى ضوء الطريق ويكاد كل منا يكتم غيظه».

أوقفتنـي عبـارات «الجهـاد في سـبيل الله حتـى ينتصر الإسـلام أو نهلك دونه» وتعجبت من هذه السِّرِّية التي تتم البيعة في أحضانها، إلا أنني مضيت إلى حـال طريقـي في الحيـاة إلى أن وقع تحـت يدي كتاب عنوانه «الأسـطورة الماسـونية» لكاتب أمريكي اسـمه جي كي يحكي تجربته مع المحفل الماسـوني حينما كان عضوًا فيه، شـيئًا شـبيهًا بالذي كان يحدث في النظام الخاص يحكي عنه جي كي، ما هذا التطابق المذهل؟ أهكذا بلا ترتيب وبتصاريف الله يكون

الشكل واحدًا، وكأنهما توءم افترقا منذ الولادة واجتمعا الآن، أحدهما في أمريكا والآخر في مصر!! يقول الماسوني جي كي عندما ذهب يبايع ويلتحق بالمحفل الماسوني:

«عندما حضرت إليهم وضعوني في غرفة تحضير، والتي كان فيها بعض الملابس التي كان يجب عليَّ أن أرتديها، ومن ثم أعطوني عصبة للعينين، ويتم إجراء الالتزام أو «القَسَم» عند مذبح في منتصف غرفة المحفل، وهو ببساطة مجرد طاولة موضوع عليها الإنجيل أو أي كتاب مقدس آخر يؤمن به الشخص، وبعد طقس الدخول (القسم) وهو ينطبق على جميع درجات الماسونية، يلقي عليك رئيس المحفل محاضرة حول تاريخ المجموعة ورموزها، والتي يكون قد حفظها حرفيًا، فهذه الرموز والطقوس لم تتغير منذ مائتي عام».

وقعت في فخ «الألغاز» وأنا أقرأ النصوص السابقة، فأخذت أضرب أخماسًا لأسداس، ولكنني أزعم أن وجهي تغضن من تأثير الدهشة حينما قرأت عن درجات أعضاء الماسون، فقد كانوا: «أخ مبتدئ، وأخ زميل من أهل الصنعة، وأخ خبير» فقد كان في الإخوان مثل هذه الدرجات: «أخ مبتدئ أو منتسب، أخ وأخ عامل، أخ مجاهد».

قفزت من مكاني وأنا أقرأ درجات العضوية في الماسون، أعلى درجات الماسونية هي «الأستاذية» وحسن البنا نفسه استخدم هذه الكلمة للدلالة على أعلى درجة يريدها لتنظيم الإخوان هي درجة «أستاذية» العالم، ولم تكن

هذه الكلمة مستخدمة قبل ذلك في هذا السياق، أما المفاجأة التي ألجمتني فكانت متمثلة في الشعار، هناك صلة قوية من ناحية التشكيل الهندسي بين شعار الإخوان وشعار الماسون، شعار الماسون يطلق عليه من ناحية التشكيل الهندسي «الخاموس» وشعار الإخوان ينتمي أيضًا إلى «الخاموس» خمس نقاط تتصل ببعض، مدينة واشنطن أقيم تصميمها المعماري وفقًا للرموز الماسونية، إذا أردت أن تستخرج بالقمر الصناعي صورة مدينة واشنطن ستجدها منشأة على شكل الشعار «الخاموس» وإذا أردت أن تستخرج الخاموس ستجده في شعار الإخوان، السيفان المتقاطعان، والمصحف وسط السيفين حيث يشكل المركز!! خُيِّل لي أن هناك من أراد عند اختيار حسن البنا شعار جماعته أن يضع بصمة الماسون في الشعار، فالماسونية تعيش في ظل الرموز.

يا الله، هل كل خيوط العالم تتصل ببعض، إخوان، جهاد، خوارج، تكفير، شكري مصطفى، سيد قطب، يهود التلمود، الجيتو، الماسونية، نازية، استعلاء؟!، أين رأسي؟! هل نحن على كوكب الأرض؟!!!

الفصل الثاني عشر

الماسيو إخواكية

على مدار أيام وأسابيع ارتقيت روحيًّا كما لم أرتق من قبل، شعرت في حواراتي مع الأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي بأنني في رحلة عروج روحية، أعرج فيها إلى آفاق رحيبة لم أصل إليها من قبل، كل منا له «المعراج» خاصته ولكن معظمنا لا يعرف الطريق إليه، كل منا له رحلته النورانية التي تنتظره، آفاقه التي تشتاق لها روحه، فإذا انكب على مناخره في الحياة الدنيا وسباقها المحموم نسي أشواق الروح، وتاهت منه المسالك، ومن نفَّض قلبه من الدنيا عرف مسارب رحلته، حينئذ يصل ويتصل، يرتقي فيلتقي، في رحلتك المعراجية إن اهتديت إليها ستتصل بنور اليقين، حتى لو كشف الله لك حجب الغيب ما زاد ذلك من إيمانك شيئًا، وستنغمس روحك في بحر حلاوة الإيمان فتمتزج بمياهه وتصبح قطرة من مائه، ولو علم الناس الحلاوة التي ذقتها آنذاك لحسدوك عليها، كنت أشفق على الناس الذين لم يصلوا إلى هذه الحلاوة، كيف يعيشون، ولماذا يقبعون في وهدة السكون والخمول والبلادة، ألا يعرفون أن لذات الإيمان لا تصل إلى من التصق بطين الأرض، ويفوز باللذات كل مغامر سعى لنور اليقين؟

كانت جلساتي مع الأستاذ ثرية، ولكنها ليست غنية، هكذا تعلمت منه، فأنا أنهل منه ثروة روحية ومعرفية، ولكن جلساتي معه لا تغنيني عن استمراري في التلقي منه ومن حكمته، فالغِنى من الاستغناء، وطالب العلم لا يستغني أبدًا.

ذات يوم استغربني وأنا أناديه بلقب لم تألفه أذنه مني إذ قلت له: يا حاج.

فقال: هذا لقب من اختراعات المسلمين ولا علاقة له بالإسلام، لا أقول لك إنه حرام ولكن أقول إنه غير لائق، فمن غير اللائق أن تتحول عبادة المسلم إلى «لقب» يخاطبه به الناس، هل تعلم أن المسلمين استخدموا هذا اللقب في بدايات القرن العشرين؟ كانت الألقاب بين الناس تدور حول طبيعة العمل، أو المكانة الاجتماعية لكن لم يكن فيها لقب «الحاج» فإذا كان الناس قد درجوا فيما بينهم على استخدام هذا اللقب فأصبح عرفًا، فإن هذا العرف لا ينبغي أن يكون بين أصحاب الدعوات.

قلت له: إذن سأجعل لقبك هو «العالم» فأنت أعلى من عرفت في العلم.

فنظر لي نظرة مبتسرة وقال: ما أنا يا بُني إلا طالب علم، لا يوجد في الدنيا كلها أحد من بني البشر يقال له «العالم» ولكن يوجد ذو علم، وطالب علم، ويظل الإنسان يطلب العلم إلى أن يموت، حتى إذا قال الرجل إنه علم فقد جهل، إنما الله هو العليم، حتى إن الله عندما تحدث عن علم الناس فقال مثلًا: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ أي أن هذا العبد الذي قال عنه المفسرون إنه أعلم أهل الأرض

كل ما أعطاه الله له «علمًا» وليس العلم، وعندما وصف الله علم الأنبياء قال عن كل واحد منهم: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وليس العلم، حتى إن الرجل الصالح الذي كان في حضرة النبي سليمان والذي أحضر عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه قال عنه الله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولم يقل: قال الذي عنده علم الكتاب، كلنا نسير في طريق العلم ونطلبه، فمنا من يأخذه بالأسباب التي سخرها لنا الله، ومنا من يأخذه بلا أسباب، بل بالتلقي من لدن الله سبحانه، وكل واحد من بني البشر لديه نقص في العلم، حتى الذين يتلقون من لدن الله بلا أسباب كونية، فعلومهم ناقصة أيضًا، وما عَلِمه الواحد منا اليوم كان يجهله بالأمس، وما سيعلمه غدًا يجهله اليوم، لذلك لا ينبغي لأحدنا أن يظن أنه العالم، أو يقول عن أحدهم أنه أعلم أهل الأرض، فكلنا طلاب علم، لذلك عندما ظن سيدنا موسى - عليه السلام - أنه أعلم أهل الأرض أرسله الله لعبد عنده بعض العلم فكان في علمه أعلم من موسى لأنه جمع بين بعض علم الظاهر وبعض علم الباطن، في حين أن موسى لم يقف إلا على بعض علم الظاهر؛ علم المحسوسات والمرئيات.

توقف الأستاذ عن الحديث وأغمض عينيه وكأنما يستدعي أفكاره ويستجمع مشاعره الصوفية الرقيقة ثم قال وهو ما زال مغمض العينين: في دنيانا يا ثروت يوجد من يأخذ العلم عن طريق الأسباب، وهناك من يأخذ العلم عن طريق رب الأسباب، كان ذو القرنين من الصنف الأول، أعطاه الله من كل شيء سببًا، أعطاه أسباب العلم، الطريق الذي يوصل إليه، فأتبع سببًا، سار في الطريق وحصَّل العلم، ومن حصَّل العلم بالأسباب

عليه أن يُعَلِّمُ الناس ما تعلمه، وتلك هي صدقة العلم، ولكن العبد الصالح الذي قابله سيدنا موسى عليه السلام لم يتلق العلم بالأسباب، ولكنه تلقاه من رب الأسباب مباشرة، فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾؛ أي أنه تلقى العلم بلا وسائل الكسب والتعلم والطلب والاستفادة، بل بمجرد إحسان الله عليه به، وهذا هو العلم اللدني، وصاحب هذا العلم غير مأمور بتعليم الناس هذا العلم لأنهم لا يطيقونه، لن يستطيعوا معه صبرًا، وكيف يصبرون على ما لم يُحيطوا به خبرًا، لذلك لم يطلب العبد الصالح من موسى أن يصاحبه لأنه يعلم أنه لن يطيق ما سيراه، ولكن موسى هو الذي طلب أن يصاحب العبد الصالح ولم يستطع معه صبرًا، تعرف يا ثروت، ما هو اللقب الذي أحب أن تناديني به؟

قلت متشوقًا: ما هو؟

قال وعباراته مغدقة بالمحبة: قل لي يا «أبو غالي».

■■■

أخذنا الحديث طويلًا، ولأننا كنا في نهار شتائي بارد من عام 2004م فقد وضع الأستاذ أبو غالي وهو جالس على مقعده الأثير بطانية تدثر بها من البرد، ثم نفث في يديه ليبعث حرارة تلطف برودتها، وكان ذلك إشارة منه لم أفهم مغزاها، فقلت له: هل أُعد كوبين من الشاي، أم أنصرف؟ فقال بابتسامة عريضة تكاد تنطق: الشاي يا أستاذ، تعلَّم علم الإشارات، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

صمت الأستاذ أثناء فترة إعدادي للشاي، وحين انطفأ الجهاز الكهربائي المعدني إشارة إلى أن الماء الذي بالإناء قد وصل إلى درجة غليانه القصوى، وأثناء صبي للماء في الكوبين قال الأستاذ: هل يستطيع هذا الكوب الصغير أن يحوي ماء الإناء بكامله؟

قلت له: بالبديهة لا، فله قدره، وحجمه لا يهيئه لاستقبال كل الماء.

قال: كل مهيَّأٌ لما خلق له، ولا يستطيع الإناء الصغير أن يحوي ماء النهر، ولكن كلما اتسع الإناء زاد الماء، اجعل إناءك متسعًا، وكلما اتسع إناؤك صب الله فيه العلم بقدر قدره، فكل شيء عنده بمقدار.

رشف الأستاذ من الشاي رشفة ثم عاد إلى الحديث قائلًا: أوحى الله إلى أم موسى، ولكنه أوحى إليها فقط بالذي يداوي ما كان قد اعتل به قلبها، أوحى لها بما يداوي خوفها على ابنها موسى عليه السلام، مع أن الذي أوحاه لها يخالف علم الظاهر، إذ كيف عندما تخاف على ابنها من الهلاك أن تلقيه في الماء الذي هو نوع من أنواع الهلاك؟! لذلك لم تتلق أم موسى هذا الأمر في المنام فتظن أنه أضغاث أحلام، ولكنها تلقته في اليقظة وحيًا من عند الله فكان يقينًا.

أكمل الأستاذ أبو غالي: وأعطى اللهُ الرجلَ الذي كان في حضرة سليمان عليه السلام فيضًا من لدنه، علمًا من الكتاب، وكان من هذا العلم علم الزمن والمكان، فخرج بعلمه الذي تلقاه من لدن الله سبحانه من زمننا ودخل إلى بعد زمني آخر، وخرج من مكاننا ودخل إلى بُعدٍ مكاني آخر، وسار في البعد المكاني

الآخر وفقًا لقوانين بعده الزمني ما شاء الله له أن يسير، حتى ذهب إلى مكان بلقيس فخرج إلى زمنها وأخذ عرشها وعاد به بنفس الطريقة التي ذهب إليها، قد تكون هذه الرحلة قد استغرقت معه زمنًا طويلًا في البعد المكاني والزماني الآخر، ولكنها كانت بالنسبة لبعدنا مثل طرفة عين، قبل أن يرتد إلينا البصر.

أخذ الأستاذ رشفات من الشاي يبعث بها الدفء إلى أوصاله ثم قال: هيأ الله سيدنا النبي ﷺ بما لم يهيئ به أحدًا من خلقه، أصلح الله إناء الرسول ﷺ فوصل إلى سدرة المنتهى، ثم تقدم واخترق الحجب، أما جبريل عليه السلام فلم يستطع أن يتقدم وقال إنه لم يهيأ لهذا وإنه لو تقدم لاحترق.

سكت الأستاذ وطال صمته ثم غفت عيونه، فظننته نام فتنحنحت، فقال:

غفت العيونُ من السُّهادِ ودمعهِ
لكن قلبي لا ينـــام ولا ينـــي

ما الذي تريد أن تعرفه يا ولدي؟

ولأن روح التحدي كانت تتمكن مني في كثير من الأحيان وكنت قد دخلت في جدل مع بعض السلفيين عن أحد دعاتهم فقد أردت أن أثبت لنفسي صحة رأيي، فهبطت من تلك السماء التي كنا نحلق فيها إلى دنيا الناس وسألته: يقولون عن عالم حديث اسمه «أبو إسحاق الحويني» إنه أعلم أهل الأرض، هل سمعت عنه؟

نظر لي بعتاب بعد أن فهم أن لددي هو الذي وجهني لهذا السؤال ثم قال وهو يوافقني على ما أيقن أنه رأيي: تابعت هذا الرجل ورأيت أن لديه قدرًا

من علم الحديث لا بأس به، هو رجل جيد، ولكنه في مجال الحديث الذي تخصص فيه لا يصل إلى مقام علماء الأمة الثقات، أين هو من الشيخ أحمد شاكر عالم الحديث الفقيه، بل أين هو من أي عالم من علماء الأزهر؟! أبو إسحاق ليس فقيهًا ولا نحويًّا وثقافته الخاصة نطاقها محدود، فكيف يكون أعلم أهل الأرض؟! هل اطلع أحدهم على الغيب فعرف قدر العلم الذي عند كل واحد من البشر؟!

● قلت: والدكتور القرضاوي؟

– فقيه من فقهاء الأمة الكبار ولكنني لا أحب أن يقال عنه إنه «فقيه الأمة».

● والدكتور العوا؟

– ذو علم ولكنه ليس فقيهًا.

● وما الفارق؟

– رب من هو حامل علم إلى من هو أفقه منه، العوا لديه ملكة الحفظ، ولكن ليست لديه ملكة الفقه، وليست لديه فراسة الفقيه وحنكته، يعيبه الاندفاع والتهور، والفقيه لا يبلغ مكانته إلا بالأناة.

المهم أن كل واحد من هؤلاء يرد على كلامه الخطأ والصواب، فهم بشر.

● وهل يوجد في جماعة الإخوان حاليًّا من نستطيع أن نصفهم بالعلماء أو الفقهاء؟

- الله أعلم، كيف لي أن أعرف هذا؟!

● وشكري مصطفى زعيم التكفير والهجرة الذي قلت لي عنه إنه المؤسس الثالث لجماعة الإخوان؟

- شكري له قصة طويلة شرحها يطول، ولكنه ترك أثرًا خطيرًا على الجماعات الداعية للإسلام، أثرًا سيظل قائمًا ولن يصبح أثرًا إلا إذا صححت هذه الجماعات أفكارها.

● كيف ذلك وكيف تأثروا به؟

- لا تتعجل، ستعلم كل شيء في حينه كما قلت لك، وستنال وطرك إذا أذن الله..

● قلت وأنا أستدرجه: والشيخ الغزالي؟

- قال وهو ينظر لي بطرف عينيه: هو امتداد لمدرسة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وتأثر تأثرًا كبيرًا بالكواكبي، يعني تقدر تعتبره مجددًا من مجددي هذه الأمة.

● قال عن بعض الإخوان إن لهم صلات بالماسونية، وكانت اتهاماته خطيرة.

- لتريح وتستريح، هناك صلة نسب بين كل الجمعيات السرية في العالم، طريقتها واحدة حتى ولو اختلفت الأفكار والتوجهات، لا تقوم جمعية سرية إلا لأنها تؤمن أنها مختلفة ومتميزة عن باقي مجتمعها، أو أنها مختلفة عن العالم كله، لا تقوم جمعية سرية إلا لتُعد نفسها ليوم مشهود تكون فيه في منتهى الجاهزية لفرض أفكارها على العالم، والماسونية من هذه الجمعيات وقد كانت

لها هيمنة وتأثير على المجتمع المصري في بدايات القرن العشرين إلى منتصفه، وبعد أن ألغاها عبدالناصر أخذت تظهر في صور أخرى، لذلك كن على يقين أن الماسونية استطاعت دخول جماعة الإخوان، ودخول جمعيات مصرية أخرى، بل إن الماسونية دخلت إلى القصر الرئاسي في مصر، وقصور رؤساء وملوك عرب، بل إن معظم وزراء مصر ورجالها الكبار ماسون، ولعلك قد قرأت من قبل أن أمريكا بجلالة قدرها تدار من المحفل الماسوني، وخذ عندك هذه واحفظها كما تحفظ اسمك.. الماسون هم الذين أقاموا أمريكا وأنشئوا دولتها، هذه حقيقة يعرفها كل العالم، وما أمريكا إلا قارة ماسونية، ثم ألم تقل لي إن الأمن المصري استطاع تجنيد بعض أفراد من الإخوان؟!

● نعم حدث هذا كثير.

- إذن فلماذا لا تكون الماسونية قد فعلت ذلك أيضًا؟ وخذ بالك يا فتى، جمعية الإخوان جمعية عالمية، والماسونية جمعية عالمية، الماسون أخوية، والإخوان كذلك، ولذلك ليس من المستبعد أبدًا أن تكون الماسونية قد قامت في أمريكا وغيرها من دول الغرب بتجنيد بعض مواطنين مصريين ودفعهم دفعًا لدخول تنظيمات الإخوان في المجتمعات الغربية.

● وأيضًا ليس من المستبعد أن تقوم بتجنيدهم وهم في مصر، أليست يد الماسون المخابراتية طويلة؟

- نعم ممكن ولكن تجنيد الشخص وتربيته وهو في بلاد الغربة أيسر بكثير من تجنيده في مصر لذلك فما أن يذهب المبعوث المصري للدراسة والحصول

على الدكتوراه في أمريكا مثلًا حتى تتلقفه أجهزة استخباراتية أمريكية وهي أجهزة ماسونية العقيدة لتجنيده وتجهيزه كي يكون له دور ما في بلده في لحظة من اللحظات.

● يعني أي مبعوث يذهب للدراسة يخضع لهذا الأمر؟! هذا تصور غير منطقي!!

- ليس أي شخص يا ثروت، ألم تكن تقوم بتجنيد أفراد وإدخالهم للإخوان؟

● نعم فعلت ذلك كثيرًا.

- هل كنت تقوم بتجنيد أي فرد يقع عليه نظرك؟

● لا طبعًا ولكنني كنت أتخير أشخاصًا بأعينهم أتفرس فيهم الاستعداد.

- هذا هو منطق التجنيد لأي منظمة في الكون، الماسون أو أجهزة المخابرات الغربية تتفرس الأشخاص الذين لديهم الاستعداد، وتتأكد من قدراتهم وملكاتهم وإمكاناتهم ثم تخضعهم لاختبارات متعددة، المنطق واحد في كل العالم يا عم ثروت، ومِن هؤلاء المبعوثين من يتم دفعه لدخول الإخوان ومساعدته في ذلك وترقيته سريعًا في الجماعة، ومنهم من يتم دفعه للالتحاق بالحزب الحاكم، وحين يعود إلى مصر يلتحق بوظيفة مرموقة في الدولة حيث ينتظره دور ما في المستقبل تحدده وقتها هذه الأجهزة، فإذا

كان إخوانيًّا يتـم وضعـه بمكان مميـز في الجماعة ويظل تحـت الرعاية إلى يوم الوقت المنشود، أجهزة استخبارات أمريكا الماسونية لا تلعب ولا تترك شيئًا للصدفة، والماسونية هي أكبر وأقدم جمعية محترفة في العالم.

● لكن ليست هناك أدلة يقينية على ذلك؟

- نعم، الذي أقوله هو استنباط على ضوء المعلومات المتاحة، وفي الغالب لن تكون هناك أي أدلة يقينية، بل إن أي باحث سيسـعى وراء هذا الخيط لن يصل إلى نتائج إلا من خلال المقاربة والاسـتنباط والاسـتقراء، فبالاستنباط نستطيع فك بعض الألغاز.

● ولكن الاستنباط سيكون ضربًا من التخمين لأن المعلومات المتاحة قليلة؟

- عن من؟

● عـن الماسـونية، وحتى عن الإخوان فجزء كبير مـن تكوينها وأفكارها وتاريخها سري حتى إن الجماعة لم تشكل إلى الآن لجنة لكتابة تاريخها رغم أن مقدمة كتاب «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ» للأستاذ محمود عبدالحليم، تلك المقدمة التي كتبها الأستاذ مصطفى مشهور رحمة الله عليهم جميعًا قالت إن الإخوان على وشـك عمل لجنة لكتابة تاريخهم الذي سـيعتبر التاريخ الرسـمي لهـم ولكنهم لم يفعلـوا، وقد كان ذلك منذ أكثر من خمسـة وعشريـن عامًا تقريبًـا، ولذلك فإن جلسـاتي معك تدور حـول البحث عن الجزء الأكبر من جبل الجماعة الجليدي المختفي تحت الماء والذي لم يره أحد.

يقينًا هناك مشكلة حقيقية في الجماعة، أي عالم اجتماع سيدرك ذلك وهو يعد دراسة عن الإخوان لأن المخفي أكبر بكثير من المتاح، ومع هذا فإن المعلومات المحجوبة لا تجعلنا نتعسف أو نشتط في الاستنباط ولكننا يجب أن نخضع الأمور للمنطق والبداهة.

- إذن يجب أولًا قبل الاستنباط أن تحدثني عن الماسونية؟

- قام الشيخ إلى ركن من أركان مكتبته وعاد بكتاب مغلف بطريقة خاصة، أعطاني الكتاب فأخذت أقلب صفحاته فوجدت كل صفحة من صفحاته مغلقة بغلاف شفاف، في الصفحة الأولى عنوان الكتاب «الحقائق الأصلية في تاريخ الماسونية العملية» تأليف شاهين بك مكاريوس، ويتذيل الكتاب في صفحته الأخيرة عبارة «وكان الفراغ من طبعه في أول ديسمبر كانون الأول سنة 1879 مسيحية» وتحتوي صفحة الغلاف على تعريف بالمؤلف ومن التعريف يتضح أنه حاصل على درجة الأستاذية العليا في الماسون وهي الدرجة الثالثة والثلاثون، وفي الصفحة الثانية صورة لرئيس المحفل الماسوني الأكبر إدريس بك راغب ثم تعريف به وبتاريخه وأعماله من أجل الماسونية.

نظرت إلى الأستاذ وأنا أقول: يبدو أن هذا الكتاب قديم جدًّا، ولكن ما حكاية سنة 1879 مسيحية هذه؟

- يقصدون ميلادية ولكن الماسون لهم تعبيرات خاصة بهم، وقد مر على طبع هذا الكتاب أكثر من قرن من الزمان، وهو يحتوي على تأريخ للماسون وبعض وصاياهم وتعليماتهم، اقرأه لعلك تجد فيه شيئًا.

■■■

استمر الشيخ في حديثه: تاريخ الماسونية يكتنفه الغموض، فهناك من يقول إنها بدأت منذ أزمنة سحيقة موغلة في القدم، وقيل إنها بدأت في زمن سيدنا موسى وإنه هو الذي نقل لليهود أسرار «البناء» المصري، ويستقر البعض على أنها بدأت في زمن سيدنا سليمان، وهناك من يقول إنها ازدهرت بعد السيد المسيح، وهي تعُرف بجمعية «البنائين» أي المهندسين وكانت عضويتها قاصرة على البنائين والرسامين والمثالين، وانضم إلى هذه الجمعية مجموعة من عظماء العالم في هذه الفنون الذين تمكنوا من إقامة البنايات الفخيمة في جهات متعددة من العالم، وحدث أن تهاوت «فنون البناء» في العالم بسبب الحروب وانسحب البناءون الكبار من عضوية الجمعية فكادت أن تتلاشى، وتوقفت كثير من المحافل الماسونية في كثير من دول العالم حتى غدت أثرًا بعد عين فارتأى محفل «ماري بولس» بلندن أن يسمح بالعضوية لغير البنائين بشرط موافقة الأعضاء على ذلك وكان ذلك عام 1715 ميلادية، وفي الماسون لا يتم إعطاء العضوية إلا لأصحاب الشهادات العليا، ولأن للماسون أهدافًا سرية فإنها تضع أسرارها هذه في جوف بئر من الرموز بحيث لا يستطيع أحد الوصول إليها، وقد يظن المستمع للوهلة الأولى أننا نتحدث عن شيء أسطوري لا وجود له في الواقع، ولكنه واقع، وأظن أن معظم الرؤساء في العالم الآن يتبعون الماسونية ولهم درجاتهم في تلك الجمعية السرية الرهيبة، والهدف المعلن للماسونية هو توحيد العالم كله تحت راية واحدة هي رايتهم، والماسونية ليست جمعية محلية ولكنها جمعية دولية، كل دولة في العالم فيها «محفل رئيسي» يسمى المحفل الأعظم، وتوجد

في الدولة الواحدة عدة محافل، وكان مقر المحفل الأعظم للعالم كله في لندن ثم أصبح الآن في واشنطن، وستقرأ في صفحات الكتاب الذي بين يديك ما كتبه صاحبه «شاهين مكاريوس» من أن «الماسونية منتشرة في العالم انتشارًا يحسدها عليه أعظم الأديان «المولـــودة» التي امتدت في أربعة أقطار المعمورة، والماسونية ترغب في أن يكون العالم كله عائلة واحدة لا فرق بين أعضائها تجمعهم جامعة الإخاء» والماسون في سبيل تحقيق هدفهم يقومون بتجنيد الأفراد القادرين على تحقيق غاياتهم من كل الأديان والأجناس والمِلل، إلا أن الماسونية لا تقبل عضوية النساء، وهم ينادون على بعض بلقب «أخ» و«الأخوة».

● ولكن كل هذه المقاربات لا تدل على أن الإخوان لهم علاقة بالماسون!

- لا يقول أحد - وأكررها لك - إن الإخوان تنظيم ماسوني، لو قلنا ذلك لكان هذا تعسفًا وافتئاتًا على البحث العلمي، ولكن لو قلنا ونحن نُعمل قواعد الاستقراء إن الماسون كجمعية دولية تريد ابتلاع العالم كله في بطنها لم تقم بدفع بعض الماسونيين إلى الانخراط في تنظيم الإخوان وترقيتهم فيها بهدف «تحريف الإخوان عن منهجهم الحقيقي» نكون قد تعدينا على قواعد البحث العلمي، ولقمنا باتهام الشيخ محمد الغزالي الذي قال ذلك بالخفة والرعونة والكذب، وهناك قضية منطقية لها عدة فروض، تقول هذه القضية إنه: إذا كان قد ثبت أن الماسون يقومون بتجنيد أفراد من كل الديانات ومن كل الدول لتحقيق هدفهم الظاهر وهو التحكم في العالم كله بحكوماته ومؤسساته المدنية وجعل العالم «قرية واحدة» وأنهم اهتموا

بمصر اهتمامًا كبيرًا حتى إنهم كانوا السبب في إنشاء قناة السويس لتربط العالم ببعض، وإذا كان الحلم الماسوني الأمريكي الذي يعيش حكام أمريكا من أجله هو أن تصبح بلادهم إمبراطورية لم ينجب التاريخ مثلها، يدين لها كل العالم بالتبعية، وكانت أجهزة المخابرات الأمريكية والغربية تحت سيطرة الماسونية العالمية وتدار من خلالها، واقرأ في ذلك كتب الإخوان عن الماسونية ليست أجهزة المخابرات فقط، بل إن أمريكا كلها تدار من خلال الماسون، ولا يجوز أن يحكم أمريكا رئيس لا ينتمي للماسونية، ثم أكمل مقدمات القضية وقل إن مصر دولة لها أهمية عظمى في الشرق وهي خاضعة لأمريكا منذ فترة، ولا ينبغي لها أن تفلت من قبضة الماسونية، وجماعة الإخوان أيضًا لها أهمية كبرى في مصر وفي العالم كله باعتبارها سيدة الحركة الإسلامية في العالم والمتحكمة فيها، وهي أيضًا جمعية دولية تبتغي ابتلاع العالم وجعله تحت «أستاذيتهم» إذن فمن المنطقي أن يقوم الماسون أو المخابرات الأمريكية والغربية بتجنيد بعض المصريين المسلمين في الحركة الماسونية ودفعهم للالتحاق بالإخوان وتهيئة السبيل لهم حتى يصلوا إلى مبتغاهم، هذه فرضية لا ينبغي أن تغيب عن ذهن الباحثين أبدًا.

- والمصريون المسيحيون أيضًا قد يخضعون للتجنيد «الماسو مخابراتي» يا مولانا؟

– لا شك في هذا طبعًا.

- ولكنني لا أفهم كيف يدخل الرجل المسلم العادي إلى الماسونية ثم

يتطـور فيها ثم يتم إلحاقه أثناء بعثته الدراسـية مثلًا في أمريكا بطرق مخابراتية بجماعـة الإخوان المضطهدة في بلده مصر، ويدخل طبعًا للإخوان عن طريق المراكـز الإسـلامية المنتشرة هناك أوعـن طريق منظمات الإخـوان الأمريكية العلنية، وهو يعلم أن جماعة الإخوان يُحبس أفرادها في مصر لبضع سـنوات، ليعود إلى بلده ويتعرض فيها لما يتعرض له باقي الإخوان من حبس واضطهاد واقتحام لبيته في أي وقت، وذلك انتظارًا ليوم سـيتولى فيه مسـئولية كبرى في جماعته!! ما الذي يجبره على ذلك؟ إيمانه بالماسـونية؟ هذا أمر في تقديري غير منطقي على الإطلاق يا أستاذي.

- عنـدك حق، ولذلك انظر حولك لتعرف وتسـتنبط وتفهم، هل تعرف قيادات الإخوان الذين درسوا في الخارج، في أمريكا مثلًا؟

● أعرف بعضهم.

- هل هناك من لم يتم اتهامه في قضايا عسكرية؟

● لحد الآن هناك طبعًا.

- هل يوجد قيادي لم يتم اعتقاله أبدًا؟

● أظن كلهم اعتقلوا، ولكن تتفاوت المدد.

- انظر للقيادي الذي كانت مدة اعتقاله أقل مدة.

● بمعنى؟

- أحيانًا يتم الاعتقال للتغطية الأمنية فقط، ولذلك تكون مدته قصيرة.

● وكيف يتم ضبط هذه المسألة يا شيخنا؟

- يا أخي كما أن هناك من وضعت الماسونية يدها عليه في الإخوان، هناك عشرات من النظام وأجهزته وضعت الماسونية يدها عليهم ووصلوا لمواقع تتيح لهم اتخاذ القرار، هؤلاء يتدخلون لتهيئة الأخ المحبوس تهيئة خاصة، السَّجان هنا يجتبيه لنفسه.

● حلمك علينا يا مولانا فهذه لا أفهمها!!

- سأسير معك خطوة خطوة، أظنك قرأت سورة يوسف عليه السلام وحفظتها.

● نعم بالفعل.

- سيدنا يوسف عليه السلام دخل السجن بعد كيد امرأة العزيز، وقد كان هذا السجن تهيئة من الله ليوسف كي يقوم بالمهمة التي سيسندها له في المستقبل، كان يوسف عليه السلام إذن في بعثة خاصة عندما دخل السجن، وقد كان هذا السجن حقيقيًّا بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، لأن هذه هي تهيئة الرب للعبد، ولكن انظر في المقابل كيف يهيئ العبد عبداً مثله، كيف يصطفيه ويجتبيه لنفسه بعيدًا عن العيون، سيدنا يوسف عندما أراد أن يصطفي أخاه لنفسه بعيدًا عن عيون إخوته، ماذا فعل، آوى إليه أخاه في السر ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ كان الإيواء هنا بمثابة الاحتواء، والاحتواء لا يكون احتواءً إلا إذا كان نفسيًّا قبل أن يكون ماديًّا، وما كانت أمنا «حواء» إلا لأنها تحوي وتضم، وبعد الضم يجب أن تكون هناك رسالة طمأنة، كي يكون الشخص قرير العين، لذلك قال يوسف عليه السلام لأخيه:

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾ ثم مسح على أحزانه قائلًا: ﴿ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ كانت هذه رسائل طمأنة وهدهدة مشاعر حتى يجعله جاهزًا لما سيحدث أمام الناس، بعد ذلك أحكم يوسف تدبيره فوضع سقاية الملك الفضية في رحل أخيه، ثم صاح فيهم أحد رجال يوسف ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ وبعد حوارٍ وأخذٍ ورد تم استخراج السقاية الـ﴿ صُوَاعَ ﴾ من رَحْلِ بنيامين فتم اعتقاله ظاهرًا أمام الناس وفي الحقيقة كان هذا الاعتقال إكرامًا له وإخفاءً لحقيقة تبعيته ليوسف، فقد كانوا لا يعرفون أن عزيز مصر هذا هو أخوهم يوسف، وأظن أن طرق إخفاء تبعية أحدهم لأي منظمة يدخل فيها السجن لفترات بسيطة.

● السجن فقط؟

– لا طبعًا هذه أشياء يعرفها رجال المخابرات، يدخل فيها طبعًا أن يظهر الشخص الذي تم تجنيده بصورة الشخص المعادي للجهة التي جندته، فإذا كان تابعًا للمخابرات الأمريكية مثلًا فمن الممكن أن يكون أكثر الناس عداءً للمشروع الأمريكي، أو أن ينشئ جمعية لمعاداة الصهيونية مثلًا.

● ولماذا تخترق الماسونية جماعة الإخوان؟

– السؤال الصحيح هو: كيف لا تخترق الماسونية جماعة الإخوان؟ سيكون مثيرًا للدهشة إن لم يحدث هذا!!

● لماذا؟

- لأن الماسونية بما تشكله من مبادئ سرية لا يعرف العالم عنها شيئًا سيكون من مصلحتها قطعًا أن تنحرف جماعة الإخوان المسلمين عن مسارها الوسطي المعتدل وتصبح جماعة داعية للعنف، تكفيرية، انقلابية، فهذا سيجعل من السهل استئصال شأفتها.

● أقلقتني إجاباتك يا سيدي لذلك أكرر عليك السؤال، هل من الممكن أن تكون جمعية الإخوان من جمعيات الماسون في العالم؟

- لا طبعًا، فمعظم أفراد الإخوان من أصحاب النوايا الطيبة والمشاعر الدينية الحقيقية، ولكن من الممكن وفقًا للقضية المنطقية التي طرحناها أن يكون بعض الأفراد أو بعض القيادات لهم صلة بالماسونية، هؤلاء من الممكن أن يديروا الجماعة لتحقيق خطط الماسونية السرية.

● وكيف يقبل أعضاء الجماعة هذا الأمر؟

- ومن قال لك إنهم يعلمون عند صحة هذه الفرضية أنهم يعملون لتحقيق مصالح الماسونية، هذا أمر شبيه بمواطن مصري مسلم ومتدين يعمل في مؤسسة أمريكية كبرى، هو في الحقيقة في عمله هذا يخدم توجهات مؤسسته حتى ولو كانت تنتج آلة من آلات الدمار التي ستقوم أمريكا في يوم ما باستخدامها لتدمير أهله وبيته، وليس شرطًا أن يعلم أن مؤسسته هذه تنتج هذه الآلة وأنها ستدمر بها أهله، ومع ذلك عمله ساعدها في ذلك، وبالتالي ووفقًا لهذا الاستنباط من الممكن أن تعمل مؤسسة كبرى كمؤسسة الإخوان بكل أفرادها في خدمة بعض أهداف الماسونية، أو الأمريكان، أو الصهيونية،

دون أن يعلم أفراد الإخوان أن جماعتهم حين تقوم باتخاذ موقف ما إنما تخدم جهة ما، لأن شكل القرار سيكون وكأنه يصب في مصلحة الإسلام، وبالتالي سيكون أي معارض لهذا القرار وكأنه يقف ضد تمكين الإسلام.

● يـاربي!! المسـألة أكـبر مما كنت أتوقـع، بل أكبر مـن أي توقع لأي فرد سـليم الطويـة، هذا خليط بـشري مدهش مكـون من الماسـونية والإخوانية والأمريكية، «ماسيو إخواكية».. هذا مصطلح سياسي جديد!

الفصل الثالث عشر

الخـوارجيون

انتهينا من الماسـون، وشكوكنا «الاسـتنباطية» التي لم تجد إجابات قاطعة، لا يستطيع أحد أن يصل إلى نتيجة حاسمة في مسألة الماسون والإخوان، فهذه أمـور ذات نكهة مخابراتيـة تتم إن حدثت في عالم موغـل في السرية، والبحث العلمـي لا يقـوم إلا عـلى الأمـور الظاهرة أمـام الباحث، ومادام الاسـتنتاج سيكون هو الوسيلة فإن النتيجة النهائية للبحث لن تكون يقينية لأن الاستنباط يخضع لعقل المُسْتَنْبِط الذي يختلف من شخص لآخر، وبعد أن فرغنا من تلك الرياضـة العقلية التي أجهدتنا طاف بي الأسـتاذ أحمـد إبراهيم أبو غالي حول التاريـخ الجامد الذي ليس فيـه إلا الأحداث والوقائع، لم يذهب طبعًا إلى كل التاريخ، فما كان هذا في طوق أحد، ولكنه أخذ من تاريخ المسلمين حلقة، ثم سـار معها وتتبع تشـابكها مع حلقات أخرى، إلى أن وصل لهذا الزمن الذي قدَّر الله أن نشهده، إلا أن منهجه كان مختلفًا عن المناهج التقليدية، فحين أراد أن يعود إلى زمن سـيدنا علي بن أبي طالب بدأ من هزيمة يونيو 1967م، تمامًا كـما يفعل الروائيون، أو كتَّاب السـيناريوهات السـينمائية، ولـك أن تتعجب

مثلما تعجبت أنا!! ما علاقة هزيمة 1967 بزمن سيدنا علي بن أبي طالب؟! إلا أنني لا أستطيع أن أنكر أنني ظللت مشدوهًا لطريقته مشدودًا لكلماته.

قال الأستاذ وكأنه يحدث نفسه، وكأن أحدًا لا يجلس معه بالمرة: ولكأنما كانت سنة 1967م شديدة الوطأة على التاريخ، فمع هزيمة يونيو خرج إلى الوجود رأس ثعبان أخذ ينفث سمه في عقول الشباب، ومن عجب أن هذا الثعبان ما فتئ يظهر في كل جيل منذ عصر الصحابة إلا أن العلم الراسخ كان يقهره، ظهر هذا الثعبان في زمن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقهره الصحابة رضوان الله عليهم، ومع ذلك ظل في مكمنه يترقب ويناور ويخطط، حتى إذا ما رأى فرصة سانحة انقض على العقول يلدغها وينفث فيها ريح السَّمُوم فيحيلها أثرًا بعد عين.

ويا للمفارقات الساخرة، لقد كان هذا الثعبان صوامًا قوامًا قراءً للقرآن باذلًا النفس في سبيل فكرته، شجاعًا، إلا أن القرآن كان لا يجاوز حنجرته، ولا يصل إلى فؤاده، يأخذه بظاهر اللفظ ولو كان اللفظ مجازيًّا، تركيبة عقله العصبية تدفعه إلى العنف وتدل على افتقاده لمهارات فهم اللغة ومراميها فلا يستطيع أن يُفرِّق بين الحقيقة والمجاز، يغشاه اضطراب في المعرفة، ولعل شجاعته كانت ناتجة من نقص بنيته المعرفية التي جعلته لا يتعرف على مواطن الخطر فيلقي بنفسه إلى التهلكة، ولذلك كان هذا الثعبان البشري هو أول ظهور في البشرية لمرض «التوحد» الذي يُحدث خللًا في السلوك الاجتماعي والمهارات اللغوية، ويفقد صاحبه القدرة على التواصل مع الآخرين، خذها ملحوظة عندك يا ثروت، اكتب أننا لكي نستطيع تحليل ظاهرة ما يُسمى بالجماعات الإسلامية تحليلًا علميًّا دقيقًا فإننا يجب أن نعرض تلك الجماعات على الطب النفسي، ومع

ذلك فلك أن تعرف أن هذا الثعبان خرج في زمن سيدنا علي كرَّم الله وجهه، خرج معه مقاتلًا في خلافه مع سيدنا معاوية بن أبي سفيان، وكان مقاتلًا شجاعًا صنديدًا عنيدًا، وحين رفع جيش معاوية المصحف طلبًا للتحكيم ألزم سيدنا علي بالموافقة على التحكيم، ثم خرج عليه في نهاية الأمر لأنه وافق على التحكيم!! فكان هذا الثعبان خارجًا مع علي ثم خارجًا على عليٍّ، فكانت «الخوارج».

وحين اشتط بهم الفكر وخرجوا بالأمة إلى فكر التفكير أرسل لهم سيدنا علي بن أبي طالب سيدنا عبدالله بن عباس حَبر هذه الأمة ليناظرهم، هل قرأت من قبل هذه المناظرة أو عرفت خبرها؟ إنها مناظرة فريدة لن أقصها عليك كاملة ولكن سأحكي لك طرفًا منها.

حين ذهب إليهم ابن عباس قالوا له: ما جاء بك يابن عم رسول الله؟

قال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نُزِّل القرآن، وهم أعلم بتأويله. ثم قال لهم: ماذا نقمتم على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله؟

فقالوا: حكَّم الرجال في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

قال: أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا أترجعون؟

قالوا: وما لنا لا نرجع.

قال: أما قولكم «حكَّم الرجال في أمر الله» فإن الله قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ

بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾ فصيَّر الله ذلك إلى حكم الرجال، فناشدتكم الله، أتعلمون أن حكم الرجال في دماء المسلمين وفي إصلاح ذات بينهم أفضل، أو في أرنب ثمنه رُبع درهم؟ وفي بُضع امرأة؟

قالوا: بلى، هذا أفضل.

قال: أخرجتم من هذه؟

قالوا: نعم.

والمفارقة أنهم لم يخرجوا من فكرهم، بل أخذوا يُكفِّرون من ارتكب معصية، من عصى الله فسرق أو قتل أو زنى أو شرب خمرًا فهو في النار خالدًا فيها أبدًا، ولا يخلد في النار إلا الكافرون.

■■■

اعتدل الأستاذ أبو غالي في جلسته وعاد بي إلى ذكرياته إذ كان في السجن معتقلًا مع الإخوان على إثر قضية تنظيم سيد قطب عام 1965 م، تركته دون أن أقاطعه يفيض بما لديه، أحمل فقط مفكرتي أدون بها بعض الملحوظات، قال الأستاذ:

صراخ وأنين في باحة السجن أثناء فترة الفسحة، فقد نشبت معركة حامية الوطيس بين مجموعة من المساجين، أشعل أوار هذه المعركة خلاف فقهي بينهم، قال نفرٌ من الذين انشدهوا لفكر الشيخ علي إسماعيل والشاب شكري مصطفى بتكفير الإخوان المسلمين ورفضوا الصلاة معهم في جماعة، وثار الإخوان على هؤلاء النفر، وقالوا لا تكفير لمسلم، ومن رمى أخاه بالكفر فقد

الفجر جماعة ثم بعد الصلاة قال لنا: لقد تبين لي أن الفكر الذي كنت عليه هو فكر الخوارج، وهو فكر يفرق الأمة ويقضي على الجماعة، لذلك أنا أخلع هذا الفكر، ثم قام بخلع جلبابه وهو يقول: كما أخلع هذا الجلباب.

كان الأستاذ أبو غالي يحكي قصة شكري مصطفى مع الإخوان في السجون بجاذبية مذهلة تجعلك لا تسمع غيره ولا تلتفت لأي صوت يمر على أذنيك، وما ذلك إلا لأن الحاكي يحكي بكيانه ومشاعره، فترى انفعالاته وهدوءه وكأنها أشخاص يحركها الحاكي فتثبت في ذهنك، وهكذا كان عهده معنا حينما كنا نتلقى منه العلم ونحن في المرحلة الثانوية.

سألته عندما أيقنت أنه توقف عن الحكي: قرأت عن علي إسماعيل من قبل، ولكن من هما المحمدان؟

ابتسم الأستاذ وأومأ برأسه وهو يقول: كنت أعرف أنك ستسأل هذا السؤال، وعهدي معك أن أحكي ما ينفعك في الوقت الذي ينفعك، فلرب علم يضر اليوم وينفع غدًا.

قلت: ولم؟ وما الضرر في المعرفة؟!

هو: ألم تترك الإخوان قريبًا؟

أنا: وما دخل هذا بذاك؟

هو: قد لا تستطيع رؤية انفعالاتك، ولكنني أراها، ما أشد وطأة الظلم على النفس، وأنت مظلوم.

أنا: نعم ولكن ما دخل هذه المعرفة بهذا الظلم؟ أزعم أنني الآن في قمة

الحياد وأنني لا أبحث إلا عن المعرفة أيًّا كانت، والمعرفة هي أم الحياد سواء كانت معك أو ضدك فأنت معها.

هو: ستعرف حين يحين الحين.

أنا: ولكن أليست هناك أمارة عليهما؟

هو: شغفك بالمعرفة يقتلك.

ثم تابع حديثه: هما يا بني من بايعا شكري مصطفى وأخذ منهما العهد، هما من رجاله الأخفياء، وقد أمرهما أن يخفيا إسلامهما .

● يخفيان إسلامهما!! وهل كانا غير ذلك؟!

- لا .. ولكن تلبست شكري فكرة أن الإسلام غاب عن الدنيا، وأن من اتبعه ودخل في زمرته فقد أصبح مسلمًا حقًّا، وأوحى له شيطانه أنه هو الذي سيعيد الإسلام للعالم مرة أخرى، وآمن معه أصحابه بهذه الفكرة التي هي أصلاً من نبت الخوارج ولكن شكري زاد عليها، وأخذت به الظنون مبلغًا حتى وقع في يقينه أن الله سيعيد به قصة الغلام والراهب التي نزلت بشأنها سورة «البروج»، كان هذا الفتى المسكين يظن أنه سيكون من أصحاب الأخدود، وكان يخاتله الظن أحيانًا أن الله سينجيه، ثم تغلب عليه قصة الغلام والراهب فيستقر في قلبه أنه سيُقتل في سبيل نشر الإسلام بين أهل الكفر، فقال لصاحبيه: إذا قضى الله أمرًا وقتلني أهل الكفر فسافرا إلى اليمن، فمن هناك سينطلق نور الإسلام.

كان لليمن مكانة كبيرة عند شكري مصطفى، وقد سافر المحمدان فعلًا

لليمن تنفيذًا للأمر الشكروي، بل إن مصطفى مشهور بنفسه أحب اليمن من حب شكري مصطفى لها وسافر إليها كثيرًا، هل أزيدك من الشعر بيتًا؟ كانت اليمن حلمًا لكل من فكر في إقامة دولة الإسلام، ولحسن البنا قصة حب وعشق مع اليمن.

قلت له: وهل كان الحاج مصطفى مشهور متأثرا بشكري مصطفى؟! وما علاقة الشهيد حسن البنا بهذا الأمر؟

قال: اليمن عندهم هي الإسلام.

■■■

بعد أن انتهى درس الدكتور جمال عبدالهادي انصرف الرجل وظللنا بالشقة التي انعقدت فيها الكتيبة إلى أن صلينا الفجر، قطعنا الوقت كله في قيام الليل ولم ننم إلا ساعتين فقط، ولكنني لم أنم، ففي تلك الأيام من شتاء 1989م دعاني أخ من الإخوان المقربين إلى قلبي اسمه عادل السوداني لحضور تدريبات رياضية في نادي الشمس، يعقبها مباراة في كرة القدم، استجبت لدعوته وانتظمت في هذه التدريبات وكانت معي مجموعة من الإخوان وبعض أفراد لم أكن أعلم هل ينتمون للإخوان أم لا، وكان ينظم هذه التدريبات أخ اسمه مصطفى، لم تكن هذه التدريبات عادية، فقد كانت أبواب نادي الشمس تُفتح لنا بعد منتصف الليل، بعد أن ينصرف كل رواد النادي، وكان الذي يفتح لنا النادي بعد إغلاقه أحد الأعضاء البارزين في النادي وهو المرحوم «أشرف فوزي» الذي كان بطلًا من أبطال

إفريقيا في رياضة الجودو وقتها وكان يقوم بأعمال مدير أمن النادي، وكنا نجري تدريبات رياضية متنوعة منها السباحة، وكان أشرف فوزي يعطي تعليماته لمشرف حمام السباحة بتسخين ماء الحمام إذ إننا كنا في شهر الشتاء، وكنا نتدرب أيضًا على رياضة الكونغوفو، حيث كان يقوم بتدريبنا عليها أخ كان بطلًا لمصر وكانت له شهرة كبيرة في هذه الرياضة اسمه أحمد، وأحيانًا كان يحضر هذه التدريبات أخ من إخوان منطقة مصر الجديدة من المشاهير في رياضة الكاراتيه اسمه أيمن وقد كان بطلًا لمصر في هذه الرياضة، وفي بعض الأحيان كانت تتم بيننا مباريات كونغوفو عنيفة حامية الوطيس، وأذكر أن أولى تلك المباريات كانت التحامًا عنيفًا بين الأخ الأستاذ أحمد بطل إفريقيا في الكونغوفو وكان مرشحًا لبطولة العالم والأخ الدكتور أيمن بطل مصر في الكاراتيه، وقد تفوق أحمد على أيمن تفوقًا واضحًا لدرجة أن أيمن لحقته إصابات متعددة في كل أنحاء جسده من جرَّاء هذه المباراة، ولقد ظللت مشتركًا معهم على هذه التدريبات فترة إلى أن وجدت أنهم أصبحوا يذهبون دون أن يخبروني فلم أدر وقتها سبب استبعادي، كما أنني لم أكن أعلم أنها تدريبات تتم بشكل تنظيمي أو بترتيبات إخوانية، كنت أظنها مجرد توافق بين مجموعة من الصحاب على ممارسة الرياضة، ولكن كلمات الدكتور جمال عبدالهادي الأخيرة أكدت لي بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه التدريبات الرياضية هي تدريبات إخوانية منظمة بهدف الاستعداد ليوم التمكين.

■■■

تمتد أوقاتنا أحيانًا فتصبح في عمر الزمن وكأنها الزمن كله، أراني وأنا جالس مع أحمد ربيع في مكتبه في منتصف عام 1999م لا أبرح مكاني فأظن أن الزمن تلكأ في دورانه حتى ننتهي من حوارنا، أستمهل الدقائق لتستوعب المعاني والأفكار، ولكن كل إناء لابد له أن يمتلئ، ورغم ذلك سمح الله للزمن أن ينتظرنا إلى أن نفرغ من حديثنا.

قال أحمد ربيع: «كلنا يبحث عن المربع الناقص» قلت له:

- وهل عندك هذا المربع الناقص؟

قال: ليس بالضبط، ولكن هناك أسرار عرفتها بمحض الصدفة قد تقودنا إلى المربع الناقص.

- مثل؟

- في عام 1992م عندما اجتمع بنا المستشار مأمون الهضيبي والحاج مصطفى مشهور من أجل إقناعنا بالعدول عن الشورى التي أجريناها والتي انتهت بخروج أحمد سيف الإسلام حسن البنا من قائمة المرشحين للنقابة العامة للمحامين، أذكر أننا لم نعدل عن الشورى لكن المستشار مأمون هو الذي قام بإلغاء هذه الشورى، وقد كنت حاضرًا في جلسة من هذه الجلسات.

نعم ولكنك لم تكن حاضرًا الجلسة التي أعنيها.

ما الذي حدث فيها؟

كان الاجتماع منعقدًا في مكتب مختار نوح، وكان الحوار محتدمًا؛ فقد كان المستشار مأمون يصر على أن يكون أحمد سيف الإسلام مرشحًا للإخوان رغم أنه لم يحصل إلا على صوت واحد في الشورى التي أجريناها، أخذ المستشار يضع الحجج والبراهين على ضرورة أن يكون أحمد سيف الإسلام مرشحًا لنا، وأثناء الحوار أراد الحاج مصطفى مشهور أن يؤكد على منطق المستشار فقال: إن اختيارنا لسيف ضرورة لأنه ابن البنا، وإننا بهذا الاختيار نفعل مثلما فعل الرسول ﷺ عندما أشار له البعض بقتل المنافقين فرفض حتى لا يقال إن محمدًا يقتل أصحابه، وللأسف لم ينطق أحد من الإخوة تعقيبًا على هذا الاستدلال فقلت للحاج مصطفى: إن هذا القياس فاسد إذ من الأولى أن نقيس بحديث «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»، وهنا يا مولاي كأنك قلبت الدنيا على رأسي قام خالد بدوي شاخطًا فيَّ قائلًا: قياس فاسد! هل هذه طريقة تخاطب بها الحاج مصطفى؟! قم يا ولد وقبِّل يد أبيك الحاج مصطفى معتذرًا عن هذه الفظاظة، وانبرى محمد طوسون بدوره معنفًا وكأنني ارتكبت جرمًا، أما مختار نوح فقد قال بوسطيته إن أحمد لم يقصد، فضحكت في وجوههم مستسخفًا إياهم وقلت بل أقصد، وتكهرب الجو.

● أعرف هذه القصة فقد باتت من القصص المشهورة وتحدثت كثيرًا بخصوصها مع مختار، ولكن أين المربع الناقص؟

- في هذا الاجتماع قلت للحاج مصطفى مشهور إننا يجب أن ننشئ تنظيمًا لنا داخل الجيش، وإننا يجب أن نعيد الحياة لقسم الوحدات، فقال الحاج مصطفى متسرعًا: أنشأناه، فأسكته المستشار مأمون فورًا حتى قبل أن يكتمل خروج

الكلمة من فم الرجل وقال: إنت عاوز تخرب بيتنا يا أحمد يا ربيع يا متقذلك، لا يمكن أن نوافق على العمل داخل الجيش، هذا أمر شديد الحساسية ولو فعلناه لقضينا على تنظيم الإخوان فعلًا، أنسيتم نهاية تنظيم الفنية العسكرية وصالح سرية وجماعة شكري مصطفى؟!، إدخال العمل المسلح في الجماعة هو حكم بالإعدام على الجماعة كلها، ولن يكون هذا مسلكنا.

هكذا يكون المستشار مأمون أنكر تمامًا.

ولكن الحاج مصطفى أقر وعاجله المستشار مأمون بالإنكار وكأنه كان ينبهه على خطر الإفصاح أمامنا عن هذا الأمر.

كنت أتعجب من قرار قسم التربية بجعل رسالة التعاليم من ضمن مناهج التربية لكل الإخوان، وهي رسالة كتبها حسن البنا لأفراد النظام الخاص فقط، هي رسالة حربية.

إذن ضع روايتي هذه بجانب ما لديك من قرائن وأدلة ومنها قصة الرائد هاشم والنقيب هاني التي رويتها لي، وستتيقن أن الإخوان لديهم تنظيم داخل الجيش.

ليس الجيش فقط، ولكنني كما قلت لك أكاد أقسم أن الإخوان لديهم تنظيم مسلح، نظام خاص جديد.

الإخوان لديهم أخطر من ذلك.

قلت له وقد انتبهت كل حواسي: ما هو؟ هل لديهم قنبلة؟

قال أحمد وهو يلعب بأعصابي: بل أخطر من القنبلة، خطة تمكين كاملة.

الفصل الرابع عشر

مدينة التكفير

- جدي من محافظة الشرقية، من كفر عوض الله حجازي.

● أين هذا الكفر؟ فأنا من الشرقية أيضًا؟

- كفـر عوض الله حجازي يتبع مركز الزقازيـق، وهو بجوار منطقة آثار تل بسطة، هل تعرفها؟

● أعرفها طبعًا.

- إذن من أي بلاد الشرقية أنت؟

● أنا من الجوسق مركز بلبيس، ففيها عائلة أبي رحمه الله، منذ أن جاء الجد الأكبر لآل الخِرباوي من دمشق.

ندَّت عن الأسـتاذ أحمد إبراهيم أبو غالي ابتسامة هادئة مريحة وهو يقول: هل كان لجدك الأكبر كتب في تفسير القرآن؟

تعجبـت من سـؤاله: فعلًا الجـد الأكبر لنا هـو برهان الديـن إبراهيم بن

عمر بن حسن الرباط بن علي الخرباوي وقد جاء إلى القاهرة من دمشق من قرية «خِربة روحا» وكان محدثًا وأديبًا وعروضيًّا وله عشرات المؤلفات التي حققها العلماء ومنها تفسيره للقرآن الكريم، وقد كنى نفسه بـ «الخِرباوي الدمشقي البقاعي» وفي القاهرة تعرف على قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلاني فصاحبه زمنًا، والغريب يا أستاذ أحمد أن جدي الأكبر كان بطبيعته ناقدًا ساخرًا لا يعجبه حال الحكام، فأحقد ذلك عليه بعض القلوب فوشى به بعضهم عند والي مصر فنفاه إلى بلبيس بسبب قصيدة شعر هجاه فيها، فاستقر به المقام في بلبيس ردحًا من الزمن وتزوج بها وأنجب ثلاثة أبناء ذكور، ومن بعد ذلك كان دائم السفر لتحصيل العلم من بلاد عدة إلى أن توفي في دمشق تاركًا أولاده في بلبيس.

- عليه رحمة الله، كتابه الأشهر هو «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وقد عكفت على دراسته لسنوات، ماشاء الله طبيعة جدك ناقدة ساخرة وطبيعتك كذلك، العرق يمد لسابع جد.

● ولكن من الذي يسأل من؟ أسألك عن جدك فتستدرجني للحديث عن جدي؟

قهقه الأستاذ قهقهة خفيفة ثم قال: تيجي تصيده يصيدك، شُف يا سيدي، جدي هو الشيخ طنطاوي جوهري ولعلك قرأت عنه.

● يا سبحان الله، طبعًا قرأت عنه، هذا هو عبقري القرن العشرين وحكيم الشرق كما قالوا عنه وقد كان مرشحًا لجائزة نوبل، وكان صديقًا للعالم

«مصطفى مشرفة» وله كتابه «الجواهر في تفسير القرآن» على ما أذكر، وقد كان مؤسسًا لجماعة الإخوان مع حسن البنا، وأعرف أن حسن البنا عرض عليه أن يكون مرشدًا للجماعة ولكنه رفض، ولكنك قلت لي إنه ليس جدك المباشر.

جد أمي لأبيها هو الشيخ محمد شلبي عم الشيخ طنطاوي جوهري، وقد كان جد أمي هذا رجلًا تقيًّا يحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم، واشتهر عنه الوعظ في المآتم، حتى أصبح ذائع الصيت في هذا المجال في كل قرى مركز الزقازيق والمراكز المجاورة، وقد كفل له هذا الأمر مصاحبة العلماء والأخذ منهم، وقد لمح جدي الشيخ محمد شلبي نبوغًا في ابن أخيه طنطاوي، فأشار على أخيه «جوهري» أن يرسل ابنه إلى الأزهر ليتعلم الفصاحة والبلاغة وعلوم الدين، ونظرًا لأن جدي محمد شلبي كان مسموع الكلمة في قريته وبين أهله فقد وافقه أخوه على نصيحته، وعلى ذلك أرسل الشيخ جوهرى ابنه «طنطاوي» مع أولاد أخيه للجامع الأزهر، وكان أحد أبناء جدي الشيخ محمد شلبي ويُدعى عوض الله نسبة إلى جدنا الأكبر «عوض الله حجازي» الذي سميت القرية على اسمه لم يكمل تعليمه الأزهري وعاد إلى القرية والأرض والفلاحة في نفس الفترة التي انقطع فيها الشيخ طنطاوي عن الأزهر لظروف مرضه ومرض والده، إلا أن أقدار الله هيأت للشيخ طنطاوي فيما بعد عودة للأزهر والعلم، ولكن ظل جدي عوض الله في الأرض والفلاحة، بيد أنه استغل بعض العلم الذي حصّله فاشتغل في الزقازيق كاتب حسابات و«قبانيًّا» لدى أحد الخواجات الذين كانوا يحتكرون تجارة القطن، وتزوج جدي «عوض الله القباني» من إحدى بنات العائلة وهي «مفيدة» ابنة خال «الشيخ طنطاوي»

وعندما مات الخواجة الذي كان يعمل عنده جدي عوض الله سافر بحثًا عن الرزق في مديريات مصر إلى أن حط رحاله في قليوب ثم استقر مقامه فيها، عوض الله القباني هذا هو جد أمي لأبيها، فأمي هي آمنة بنت رزق بن عوض الله القباني بن الشيخ محمد شلبي عم الشيخ طنطاوي جوهري.

● الإخوان في تاريخهم يحتفون به احتفاءً كبيرًا ويذكرونه دائمًا بالخير.

- نعم هذا صحيح فقد كانت لجدي الشيخ طنطاوي جوهري شهرة طبّقت الآفاق، وكان علماء العالم يعرفونه ويراسلونه، وقد تقابل مع بعض مشاهير العالم وكتبوا عنه واعتبروه أحد العبقريات التي جادت بها البشرية، وهو أول من اعتمد في تفسيره للقرآن الكريم على الإعجاز العلمي، فهو الرائد في هذا المجال، كما أنه كان رحمه الله موسوعي الثقافة، حتى إنه كان يدخل مع مصطفى مشرفة في مناقشات عميقة عن نظرية النسبية لأينشتين، وقد برع في علوم الفلك التي شُغف بها وملكت عليه فؤاده فهام في ملكوتها، وأحب الموسيقى وألف عدة سيمفونيات على النمط الغربي، ولعل التاريخ لا يعرف أن جدي درس في بداية الثلاثينيات التصوير السينمائي على يد خواجة يوناني، كما تعلم الإخراج السينمائي على يد الممثل الإيطالي المصري «استيفان روستي» الذي كان صديقًا له، وقد كان جدي - رحمه الله - فيلسوفًا محبًّا للعلم والتعلم يضارع أكبر فلاسفة التاريخ، وقد وقعت تحت يدي بعض أوراق من مذكراته الشخصية وللأسف فقدتها عندما تم اعتقالي عام 1964م في قضية تنظيم سيد قطب، بل فقدت كل أوراقي وكتبي تحت أقدام العسكر الذين داهموا بيتي، وكانت هذه هي الخسارة الكبرى التي منيت بها من اعتقالي.

● خسارة كبيرة فعلًا، ولكن ألا تذكر منها شيئًا؟

- أذكر طبعًا، قرأت فيها أنه درس قوانين مندل للوراثة، ومن الأشياء التي عجبت منها وقتها في مذكراته أنه قال: «يوهان مندل الراهب العالم يكفيه اكتشافه كي يُدخله الله الجنة».

● وما علاقته بالإخوان؟

- كان جدي رحمه الله محبًّا للعمل الاجتماعي، وكان قد أنشأ أكثر من جمعية في مجالات شتى منها جمعية «الأخوة» وقد دعاه حسن البنا إلى الانضمام لجمعية الإخوان وعرض عليه أن يصبح مرشدها، إلا أن جدي كان يعلم أن هذا العرض من حسن البنا هو فقط من باب توقيره لسنه ومقامه، فقال له: أنت صاحب هذه الجمعية فأنت الذي أنشأتها، وقال له متبسطًا كما قرأت في مذكراته: «على رأي المثل يا شيخ حسن جحا أولى بلحم طوره»، ولكن هناك نقطة هامة في تاريخ الشيخين حسن البنا وطنطاوي جوهري أظن أن أحدًا لم يلتفت لها.

● وما هي؟

- في عام 1935م عرض الشيخ حسن البنا على جدي أن يقوم بإنشاء تنظيم خاص للجماعة، وإنشاء هيكله وطريقته وبرنامجه وأهدافه، ولكن جدي رفض وقال له لو فعلت ذلك فأنت في طريق وأنا في طريق. ولما ناقشه البنا وذكر له حديث النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» وأننا لن نستطيع استعادة الخلافة إلا بالقوة لأننا فقدناها بالقوة،

وأن دولة الإسلام لن تعود بالأماني والأحلام، ولكن جدي رفض هذا المنطق وقال له: يا شيخ حسن لا تتوغل في هذا المجال فنحن دولة مسلمة حتى ولو فقدنا الخلافة، ولكن الشيخ حسن غضب غضبًا يتفق مع مقام الشيخ طنطاوي، وطلب منه أن يدرس تجربة المملكة العربية السعودية التي كانت ناشئة حديثًا، وقال له وهو يحبب له الفكرة: إن عبدالعزيز آل سعود لم ينشئ دولة إسلامية في الجزيرة إلا بجيش الإخوان، فلم لا يكون لدينا الجيش الذي ننشئ به دولة إسلامية في مصر، وكما قرأت في مذكرات جدي قال للبنا ما معناه: إن القياس مع الفارق فالجزيرة العربية لم تكن دولة أصلًا ولكن مصر دولة منذ آلاف السنين، ابن سعود ننشئ دولة من لا دولة فهل ننشئ نحن دولة فوق الدولة؟!

● وماذا حدث بعد ذلك؟

- كرر جدي على البنا أنه لو علم أنه أنشأ أو سينشئ نظامًا خاصًا مسلحًا فسيترك الجماعة، لذلك تأخر البنا في إنشاء النظام الخاص إلى قبل وفاة جدي بعدة أشهر، كان جدي قد نشب بينه وبين البنا خلاف بسيط ويبدو أن بعض الإخوان لاكوا سيرته، واستخفوا بعلمه، فأخذوا يسخرون من حبه للموسيقى والرسم، واستهزءوا بطريقته في التفسير العلمي للقرآن وأخذوا يتداولون فيما بينهم مقالات تهاجمه كتبها خصومه الفكريون من بعض علماء الأزهر، وتقوّلوا عليه بلا دليل ولا سبب إنه كان يريد أن يشغل موقع المرشد بدلًا من البنا ويرى نفسه الأجدر بهذا الموقع، فشق هذا عليه خاصة أن البنا لم ينتصر له، وإن ظل معطيًا لجدي مقامه ومكانته لا يريم عن ذلك أبدًا، لذلك التمس جدي له العذر وبرر عدم إنصافه أمام شانئيه لانشغاله بأمر الدعوة

وبالأحداث السياسية التي كانت تمر بها مصر وقتئذ، ومن ساعتها بدأ جدي يغيب عن فاعليات الجماعة وانشغل بشئون كتاباته وعلومه وسفرياته، وفي هذه الفترة من عام 1939م أنشأ البنا النظام الخاص بشكل سري حتى إن أفراد التنظيم المدني للجماعة لم يعلموا شيئًا عن هذا النظام الخاص السري، وتوفي جدي رحمة الله عليه عام 1940م.

● إذن كان حسن البنا يخطط مبكرًا لما سيفعله في المستقبل؟ عاش البنا بين الفكرة والقوة والدولة، الفكرة تحميها قوة، تنشئ بها دولة، القوة ووسائلها فكر أصيل إذن يا أستاذي في جماعة الإخوان ولم يكن فكرًا طارئًا عليها؟

- كان جدي يمج مظاهر العنف، فقد كان شاعرًا مرهفًا محبًا للخضرة والنجوم ويبدو أن شيئًا آلمه في أيامه الأخيرة، وقد يكون قد حدث فتور بينه وبين حسن البنا فما زلت أحتفظ بقصاصة كتبها جدي بخطه الجميل، فقد كان خطاطًا ورسامًا، قال فيها وكأنه يتحدث عن نفسه «أعرض الرجل عن جرحه الثخين، وحمل مصباحًا يواجه به الظلام، ونايًا يعزف به الأنغام، فقال الجمع الذين يجهلون مقصده وهم يحملون في نفوسهم مضاضة منه.. احذروه.. إنه يشفي غليل نفس، ويضرم النار بمصباحه.. ويزعج الأسماع بأنغامه.. اهجروه ولا تصيخوا إليه واعلموا أنه أصيب بمسٍّ، فأعرض عنهم والنور في صدره وشغاف قلبه كأنه نور شمس، ومصباحه يهزم قافلة الظلام التي تعيش في جوف رمس، ونايه تهتز من نغماته ورود الربيع من كل جنس».

■■■

صوت واهن ضعيف تتماوج فيه الأنفاس المتقطعة التي تدل على أن صاحبها شيخ كبير..

- ألو السلام عليكم.

● وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- أنا أخ لك في الله أكلمك من الكويت ولعلك لا تعرفني ولكنني بحثت عن هاتفك فترة طويلة حتى أخذته من الأخ الدكتور كمال حبيب، وقد حاولت الاتصال بك كثيرًا ولكنني كنت أجد هاتفك مغلقًا.

● يا مرحبًا بك ولكن هلا تعارفنا؟

- أبي كان يحب الرسول ﷺ لذلك أطلق عليّ اسم محمد فأنا محمد، وكان أبي عليه رحمة الله يحب الخلفاء العباسيين ولذلك قصة، فأنا المأمون، واسمي من الأسماء المركبة لذلك فأنا «محمد المأمون» أما لقب العائلة فهو المحرزي، فأنا محمد المأمون المحرزي وأنا من أهل محافظة قنا، ولقد حصلت على الدكتوراه في التربية وأعيش في الكويت منذ سنين طويلة.

● يا مرحبًا بك يا دكتور أعرفك طبعًا فأنت من جيل الرواد في الإخوان.

- قرأت لك كثيرًا وأحب أن أجلس معك عندما تسمح لنا الأقدار.

● مترقبًا ومستفسرًا: على الرحب والسعة يا سيدي، ولكن هلا أخبرتني عن الموضوع الذي تريدني لأجله؟

- الدكتور المحرزي: أنا يا بني عشت عمري كله مع الإخوان، آمنت

بدعوتهم ونافحت عنهم وتوليت العديد من المسئوليات الخطيرة في التنظيم، كان كمال السنانيري رحمه الله من المقربين لقلبي وكذا عصام الشربيني عليه رحمة الله، فريد عبدالخالق هو أستاذي وكمال الهلباوي من أكرم من عرفت من الإخوان، ولكن عندما فرض الحاج مصطفى مشهور سيطرته على الجماعة تغيرت وانقلبت إلى وجه آخر، وجه قبيح لا نعرفه، الجماعة الموجودة الآن ليست هي جماعة الإخوان المسلمين، والحقيقة يا أخ ثروت أنا لا أعرف كيف يصبر الإخوان على الإدارة التي تديرهم، إنها إدارة كاذبة مخادعة فاشلة تكفيرية، أضاعت الإخوان يوم أن ولغت في السياسة، جريمة أن تستمر هذه الإدارة في مكانها، لقد رأيتهم وهم يتحدثون في التلفزيون فرأيت الكذب يقفز منهم قفزًا، إي وربي إنهم يكذبون كما يتنفسون، والمأساة يا أخي أنهم يعرفون أننا نعرف كذبهم ولكنهم لا يأبهون، هذه الإدارة تشكل فيما بينها جماعة «الإخوان الكذابون».

طالت المكالمة الهاتفية ثم تواعدنا على لقاء واتفقنا على ندوة يكون موضوعها «ضرورة أن يتحول التنظيم إلى تيار»، ولكن ذهني سرح مع حديث الأخ الكبير محمد المأمون المحرزي، لماذا يكذب الإخوان؟ لماذا يقولون ما لا يفعلون؟ تخرج من أفواههم الوعود ثم تتلاشى وعودهم وتتبدد كما يتبدد الظلام أمام ضوء النهار، ثم تخرج ماكينة التبريرات بالمبررات التي دعتهم إلى النكول عن وعودهم! هل هم جماعة من المنافقين؟ أم أنهم ينظرون لنا نظرة أخرى لا ندرك معانيها؟ ما هي الأحوال التي يجوز الكذب فيها، والتي أيضًا يجوز فيها النكول عن تنفيذ الوعود؟ أبحث في الفقه فأجد

إجابات تكشف جزءًا من الحقيقة، لا يجوز أن يكذب المسلم إلا في ثلاث حالات، منها «الكذب في الحرب» بل إن الكذب على الكفار لا يجوز إلا إذا كنا نحاربهم، فإن ذلك يجوز والحرب خدعة، فإذا كانت هذه هي إجابة الفقه فأين إجابة الإخوان؟

أتنقل بين الأزمنة لكشف الحقيقة المستترة، أبحث عن ذلك الشيطان الكامن في نفوس الناس يبحث عن طريقة لغوايتهم، والشيطان كالكلب ما أن يرى إناءً حتى يلغ فيه، فإذا لم تُطهر إناءك من النجاسة يحرم عليك الوضوء منه، هل ولغ الشيطان في إناء الجماعة فأفقدها طهرها؟! يخيل إليَّ أحيانًا أن بيني وبين الحقيقة آمادًا، وأظن أحيانًا أخرى أن الحقيقة شاخصة أمامي، تحتاج فقط أن أستبصرها.

أزمنة الحقيقة كثيرة ولكنها تجمعت في جعبتي وأنا جالس في زمني هذا وفي مكتبي المزدحم بالأوراق والكتب والوقائع التي تنتظرني أن أكتبها، أذهب إلى عام 1992م وأحداثه، ثم أغادره إلى عامي 1995و 1996م بأيامهم الرهيبة ومحاكمهم العسكرية، ثم عام 1999م المزعج المؤلم وما بعده، ثم أنطلق في أزمنة ما بعد عام 2003م حتى وقت جلوسي وحدي في مكتبي أراجع أوراقي وأخط كلماتي، وفجأة أجدني عدت إلى بداية إنشاء الجماعة فأصطحب حسن البنا وهو ينشئ جماعته، ثم آخذ نفسي لعام 1965م ومأساته، تلك المأساة التي أخرجت لنا من جوف أنفاق مظلمة موغلة في التطرف فكرًا يشبه دراكولا مصاص الدماء، فكرًا لا يعيش إلا في الظلام، فإذا خرج عليه الصبح اختفى فنظن أنه ذهب وانقضى فإذا به قد اختبأ في

كهوف معتمة ينتظر لحظة سانحة يجن فيها الليل ليغرس أنيابه في قلوب غضة طرية فيحولها إلى قطعة حجر لا تتغذى إلا بالدماء، ويا لهول تلك الأنياب المتعطشة للدماء، فكل من غرس دراكولا أنيابه في قلبه يتحول هو الآخر إلى دراكولا، ولا ينهزم دراكولا الظلام إلا بالتوحيد، نهزمه بحديث رسول الله ﷺ: «**قل لا إله إلا الله ثم استقم**».

وكما أتنقل بين الأزمنة أتنقل بين الأمكنة فأذهب إلى الجزيرة العربية، فأشاهد الحلم الذي تحول إلى واقع، حلم دولة آل سعود، وكيف فكر رجل من أهل مصر في استنساخ هذا الحلم، ليكون هو الخليفة المنتظر وإمام المسلمين، ومن السعودية أذهب لليمن، تلك الدولة التي كان لها أكبر الأثر في التوجه الجديد لجماعة الإخوان، اليمن هي الحلم، اليمن هي المبتغى.

وأعود إلى زمن عام 2003م محمولًا على البساط السحري، فأجدني جالسًا مع الأستاذ أحمد أبو غالي في بيته بمصر الجديدة نتحدث، أسأله فيستفيض أحيانًا ويوجز أحيانًا، يستخدم عبارات صريحة معظم الوقت، إلا أنه يستخدم الرموز في أوقات أخرى، ها هو الشيخ يجلس متكئًا على أريكة عريضة مربعًا قدميه ناظرًا إلى كوب الشاي الذي بيده:

جدي طنطاوي جوهري رحمه الله كان لا يحب المشاكل، ويكره العنف، إلا أنه كان جريئًا في الحق الذي يعتقده، يمارس ما يعتقده بكل قوة، ورغم ذلك كانت له اهتمامات جرّت عليه العديد من المشاكل ومنها اهتمامه بتحضير الأرواح، وكان حسن البنا يناقشه في هذا الأمر منكرًا عليه ذلك، وقد سجل

جــدي في مذكراته أنه قال للبنـا حينما جادله في تحضير الأرواح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ثـم قـال لـه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيقـول له البنا هذه عليك لا لك، فالروح من أمر الله فكيف تعلمها والله يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا)؟ فرد جدي: لم ينف الله عنا العلم بالكلية ولكنه قال: وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا.

ثم استطرد الأستاذ: كان الشـيخ طنطاوي جوهري مهتمًّا بعلم الأرواح وكان مشـهورًا في هـذا الأمر وأيضًا التنويم المغناطيـسي، وقد كتب كتابًا عن الروح، وتجده في تفسيره لسورة الإسراء أطال كثيرًا في شرح أحوال الروح.

● وهل أنت معه في أفكاره؟

- لا أظـن أنـني أتفق معه في كل ما كتبه فأنـا أحمل رأيًا عن الروح ومعنى أن الروح من أمر ربي، وقد لا يتفق قولي مع كثير من المفسرين ولكنني أقول: إن هذا رأيي ولا أقول إن هذا هو الحق.

● زدني علمًا يا أستاذ.

إذن انتبه واسـمع بقلبك قبل أن تسمع بأذنك، فهذا العلم من العلوم التي يجـب أن تتهيأ القلوب والأفئدة لسـماعها، فـإذا شردت فإن ذنبك على جنبك، لقـد جعل الله سـبحانه وتعالى الكـون كله يا بُني محصـورًا في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فعبّر الله سبحانه عن عالم الدنيـا أو عـن ذلك العالم الذي يُـدرك بالحواس الظاهرة بقولـه «الخلق» وعبَّر عـن «عالم الآخرة» وهو ما يدرك بالحـواس الباطنة بقوله «الأمر»، فعالم الخلق

الـذي هو الحيـاة الدنيا خُلـق ليفنـى، فالجبـال ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ والأرض والجبـال كذلك ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ و﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ و﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ وصـولًا إلى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ هـذا هـو عـالم الخلق، عـالم الفنـاء، أما عالم الأمـر فهو عالم الأمـور العظيمة في الكـون، تلك الأمور التـي خلقها الله تعـالى للبقاء لا للفناء، ومنها الـروح والقلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار، ويُسمى عالم الأمر أمرًا لأن الله سبحانه وتعالى أوجده بأمر «كن» من لا شيء بلا واسـطة شيء، كقوله: ﴿ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ وسـمي عـالم الخلق خلقًـا لأن الله الخالق أوجده بالوسـائط من شيء كقولـه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ هـذه الوسـائط كلها خلقهـا الله مـن «شيء» مخلوق لذلـك فإنه سـماها خلقًا، فهو مثـلًا: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ وقـال سـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ وقـال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وكذلـك نحـن نخلـق أشـياء في حياتنـا الدنيـا لنسـخرها لمصلحتنـا، ونحـن لا نَخلـق من العدم ولكـن نَخلق من شيء مخلـوق، لذلك يقول الله سـبحانه وتعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ولما كانت الوسـائط التي أوجدها الله في الكون مخلوقة من شيء مخلوق لذلك هي مخلوقة للفناء.

ثم أكمل الأستاذ: وما ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ إلا ليخبرنا الله سبحانه أن الروح من عالم الأمر والخلود والبقاء أبدعها الله من غير مادة، فهي بهذه المثابة ليست من عالم الخلق والفناء، ولذلك فإن ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ليست لرفع العلم عنا، أو إخبارنا أن علم الروح مبهم علينا، وأنه ليس لنا أن نعرف الروح أو نعرف حقيقتها وكنهها وكيفيتها، حتى إن البعض تمادى في فهمه هذا ووقع في خطأ حين قال: إن الرسول لم يكن عالمًا أو عارفًا بعلم الروح وذلك ظنا منهم أن قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عائد على الرسول ﷺ وعلى كل البشر، ذلك أنه كان في هذه الجزئية فقط عائدًا على جماعة اليهود الذين سألوا الرسول ﷺ عن الروح.

استمتعت بحديث الشيخ أيما استمتاع خاصة وأنه كان مسترسلًا منطلقًا وكأن الذي ينطق هو قلبه وليس لسانه.

سألته: يقولون: إن البنا استكمل تفسير القرآن الكريم الذي كان الشيخ رشيد رضا قد كتبه ولم يستكمله، فهل كان البنا عالمًا من علماء التفسير؟

قال الشيخ بابتسامته السمحاء: كون أن الأستاذ البنا استكمل تفسير المنار فهذا أمر لا أعرفه، ولكن الذي أعلمه أن الشيخ رشيد رضا كان يكتب تفسير المنار من واقع دروس التفسير التي كان يلقيها الشيخ محمد عبده، أما مسألة أن البنا كان من علماء التفسير فهذا أمر لا يقدم ولا يؤخر لأن كل علومنا ناقصة، كما أنه لا يوجد شيء اسمه تفسير القرآن الكريم، فلو كان هناك تفسير لكان من الرسول ﷺ، وما كتبه المفسرون هو مجرد فهمهم لآيات

القرآن، وفهمهم هذا يرد عليه الخطأ والصواب، القرآن يا ثروت لا تنفد عجائبه ومادام الله جعله لكل الأجيال إلى أن تقوم الساعة لذلك لا ينبغي أن يقول أحد إنني أنا فقط الذي فهمته وفسرته على النحو الذي أراده رب العالمين، ولكنها فقط مجرد خواطر ورؤى حول آيات القرآن الكريم ومعرفة لمعاني الكلمات وصولًا إلى بحث الأفهام عن المعاني، ولأن الأفهام نسبية فإن ما ستراه سيكون نسبيًّا بدوره.

● ولكن هل لمحت في فكر البنا نوازع للتكفير؟

- أصدقك القول، ما تسمى الحركة الإسلامية تحتاج إعادة صياغة من جديد، محتاجة أن تبدأ وكأنها لم تكن من قبل، ولكن عليها أن تجعل من رصيدها القديم وسيلة لتطويرها، فكل من أنشئوا حركات أطلقوا عليها حركات إسلامية هم من التكفيريين بقدر أو بآخر، يضيق التكفير عند البعض ويتسع عند البعض الآخر، وحسن البنا لديه نوازع للتكفير لا ريب في هذا حتى ولو قال غير ذلك في أدبياته، ولكن التكفير يقفز في وجوهنا من رسائله في أحيان كثيرة.

● كيف هذا؟

- ألم تقرأ رسالة التعاليم؟

● قرأتها.

- إذن تعرف أنه قال في البند الخامس والعشرين من الرسالة وهو يوجه تعليماته للإخوان وما يجب أن يفعلوه في حياتهم: «أن تقاطع المحاكم الأهلية

وكل قضاء غير إسلامي، والأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التي تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة».

● العجيب أنني قرأتها ولم أنتبه لمعانيها!

- لم يكن إذن سيد قطب هو أول من ابتدع جاهلية المجتمع والانعزال عنه، ولم يكن شكري مصطفى منتجًا لأفكار خاصة به وهو يدعو إلى هجرة المجتمع الكافر الذي يحكم بغير ما أنزل الله، ولكنه استمد بعض أفكاره من رسالة التعاليم هذه، وستجد في التعليمة رقم 37 أيضًا: «أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة أو جماعة لا يكون الاتصال بها في مصلحة فكرتك وخاصة إذا أمرت بذلك». هذه يا بُني لمحات تكفيرية واضحة الدلالة وستجد في فكر البنا أشياء كثيرة لن تجد لها إلا تفسيرًا واحدًا.

هي أن فكر التكفير كان مختبئًا في ضمير البنا لم تظهر منه إلا بعض فلتات.

لذلك كانت للاغتيالات التي قام بها النظام الخاص تبريرات شرعية عند الإخوان.

يا لها من مفاجأة، داخل حسن البنا الداعية الوسطي المعتدل حسن بنا آخر لا نعرفه، هو حسن البنا التكفيري الصغير.

■■■

وأنا جالس في مكتبي أقلب الأفكار حملني بساط الزمن إلى عام 1951م، لأجد في قلب القاهرة حوارًا محتدمًا بين الشيخ محمد الغزالي الذي كان في

الرابعة والثلاثين من عمره وقتها وبعض شباب الإخوان، وكان الغزالي قد ترك الإخوان وانشق عنهم بعد أن لم يرتض البيعة للمستشار حسن الهضيبي، سأل الغزالي شبابَ الإخوان الذين كانوا يجادلونه: هل نحن جماعة من المسلمين أم جماعة المسلمين؟

قال له بعضهم: بل نحن جماعة المسلمين، وقال آخرون: بل نحن جماعة من المسلمين.

رد عليهم بقوله: إجابتكم هذه يترتب عليها نتائج ذات بال، بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال! فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالفة الأستاذ حسن الهضيبي ضربًا من مخالفة الله ورسوله، وطريقًا ممهدة إلى النار وبئس القرار!

خرج الغزالي من هذا اللقاء وهو يتعجب من طريقة تفكير بعض الإخوان، ولكنه لم يتوقع أن تصبح نغمة «جماعة الإخوان هي جماعة المسلمين» نغمة سائدة ومتسيدة عند الشباب، أنظر إلى الغزالي وهو في زمنه من زمني فأجده بعد أن تحاور مع هؤلاء الشباب يصطحب رفيقه وصديقه الشيخ سيد سابق في نزهة سير قريبًا من شعبة الإخوان في المنيل، فمرّ بهما اثنان من شباب الإخوان من أولئك الشبان المفتونين بقيادتهم وأبيا إلا إسماعهما رأيهما فيهما، فقالا لهما بألفاظ صريحة فجة فظة: أنتما من أهل جهنم! وصادف ذلك من الشيخين ساعة تبسط وضحك فمضيا في طريقهما وقد سقط طنين الكلمة النابية على الثرى قبل أن يتماسك في آذانهما.

ما زلت في زمني انظر للشيخ الغزالي في زمن فصله من الإخوان، وها هو يستمع إلى خطبة الجمعة في مسجد الروضة بعد قرار فصله من الجماعة فتفجعه كلمات الشيخ الإخواني التي طنت في أذنه طنين الذباب وهو يؤكد أن الولاء لمرشد الإخوان حسن الهضيبي يكفر السيئات، وأن الخروج على الجماعة يمحق الفضائل، وأن الذين نابذوا المرشد عادوا للجاهلية الأولى لأنهم خلعوا البيعة، يخرج الشيخ الغزالي من خطبة الجمعة غاضبًا فيقابله أحد الإخوة من الذين تم فصلهم من الجماعة، فيأسى الشيخ الغزالي أمامه من فكر خطيب الجمعة فيقدم إليه الأخ المفصول خطابًا أرسله له أحد إخوانه من الذين كانوا معه في أسرة إخوانية واحدة وكان من أكثر المقربين إلى نفسه، يقرأ الغزالي الخطاب فيهز رأسه أسفًا، فالأخ الراسل يقول للأخ المفصول وهو يؤنبه ويسخط عليه: هل تظن نفسك مسلمًا بعد ما خرجت من صفوف الجماعة؟».

ألقيت قلمي وأنا أتعجب من هذا التطابق الذي بين زمننا وزمن الغزالي حين تم فصله من الإخوان، ما حدث له يحدث الآن حرفيًا لكل من ترك الإخوان مختلفًا معهم، ولعله حين كتب رأيه وقتها قال الإخوان: إنه غاوي شهرة ويرغب في الانتقام وإنه عميل للبوليس السياسي تم دسه على الجماعة ليخربها وينقض بنيانها.

أخذت أقلب الكتب في مكتبتي كالمحموم، أكان فكر التكفير في الإخوان منذ النشأة وظل في ركابهم حتى بعد مقتل حسن البنا؟ ألم يهذب حسن الهضيبي هذه الأفكار التكفيرية؟ أمسك كفي كتاب المفكر الإخواني سعيد

حوي «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين» أقلب في صفحات الكتاب ليقع نظري على عبارة غريبة يقول فيها: «إننا في هذا المدخل استقرأنا النصوص لنصل إلى مواصفات جماعة المسلمين، وبرهنا على أنها موجودة في دعوة الأستاذ البنا» مواصفات جماعة المسلمين موجودة في جماعة الإخوان، أفر الصفحات لتقع عيني على عبارة أخرى: «إن مواصفات الجماعة التي يصح أن نعتبرها جماعة المسلمين موجودة في جماعة الإخوان كما أقامها البنا». إذن جماعة الإخوان بلا مواربة أو تورية هي جماعة المسلمين!!

تركت كتاب سعيد حوي وأخذت من الرف كتابًا للأستاذ محمد قطب عنوانه «جاهلية القرن العشرين» وسبحان الله، كل الكتاب يدور حول تكفير المجتمعات المسلمة، أما سيد قطب فلم يدخر جهدًا في إثبات كفر المجتمعات، كتابه «في ظلال القرآن» يصرخ في كل حرف بهذا المعنى، فيقول وهو يفسر آية من آيات القرآن: «وهنا يرشدنا الله إلى اعتزال معابد الجاهلية التي هي المساجد التي نعبد الله فيها واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي».

ويقول أيضًا: «لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن تنفصل عقديًّا وشعوريًّا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها حتى يأذن الله بقيام دار إسلام تعتصم بها».

تبًّا للكتب التي شوهت مشاعر المسلمين وقلوبهم، ولكن السر الأول يقترب الآن مني رويدًا رويدًا، الفكرة التي عليها جماعة الإخوان الآن،

ولكنني لا أستطيع أن أعوِّل على تلك الشذرات المتفرقة، إذ قد يكون لها أكثر من تأويل، الأمر بالنسبة لي شديد الوضوح، جماعة الإخوان هي جماعة تكفيرية يقينًا، كان التكفير فيها مستترًا مخفيًّا في زمن البنا لا يستطيع أن يعبر عن نفسه، ربما لأشياء كثيرة منها أن حسن البنا نفسه لم تكن لديه فكرة عقائدية واضحة فهو رجل التوفيق بين العقائد، كان يبتغي تجميع الكل في واحد، كان هذا هدفه، لذلك فإنه لم يعلن عن بعض رؤاه بشكل صريح حتى لا يصطدم مع من يريد أن يجعلهم ردءًا له يصدقونه ويدفعون عنه غوائل الأيام، ومن الممكن أن يكون بعض الإخوان على مدار تاريخ الجماعة قد تسرب إلى عقولهم غول التكفير، إلا أن هذا قد لا يعبر بالضرورة عن التوجه العام للجماعة، ولكن ألم تصبح أفكار التكفير غالبة على الجماعة؟! لقد صارت جماعة الإخوان «مدينة التكفير» في عالم مضطرم بالصراعات الفكرية والعقائدية والسياسية، فقدت وسطيتها التي تزعمها، فكيف أصبحت أمواج التكفير عند الإخوان بهذه القوة الهادرة وهذا العنفوان المتكبر؟ هناك سبب ما، سبب ما زال بعيدًا عن يدي، ولكنني على وشك أن أقع عليه.

الفصل الخامس عشر

شعب اللّٰه المختار

كان من الجُرم أن أقترب من «الأوراق المخفية» لتنظيم الإخوان، والاقترابُ من «الأوراق المخفية» لدى أي جماعةٍ من الجماعات يعد بمثابة الاقتراب من منطقة ملغومة شديدة الخطورة؛ إذ لا تسعى أي جماعة إلى إخفاء بعض أوراقها وجعلها في «طيات النسيان» إلا إذا كانت هذه الأوراق تشير إلى حقائق ترغب الجماعة في إخفائها عن الأنظار؛ إما لخطورتها، وإما لأنها تكشف عن توجهاتٍ فكريةٍ أو حركيةٍ تمثل منهجًا حقيقيًّا للجماعة غير منهجها أو خطابها المعلن.

وكما تفعل بعض الدول، تفعل جماعة الإخوان، فإذا كانت الدولُ تُخفي وثائقَها وتحيطها بالسرية وتضع عددًا من السنوات للكشف عنها، فإن جماعة الإخوان تسعى دائمًا إلى إخفاء جميع وثائقها، إلا أنها - عكس الدول - لا تسمح أبدًا بالإفراج عن هذه الوثائق مهما طال الزمن، وحين اقتربتُ من وثائق الإخوان المخفية اقتربت من منطقة الخطر، وهي منطقة الداخلُ

فيها مفقود والخارج منها مولود، ولكن ما جدوى هذه المغامرة؟! وما أهمية أن يعرف الناس أوراق الإخوان المخفية؟ تلك الأوراق التي لا يعرفها أعضاء الجماعة أنفسهم؛ حيث يظنون أنهم يركبون مركبًا صيغ من النور يسير في موكب رباني يقودهم إلى دولة الإسلام المفقودة، من ذا الذي يستطيع أن يقاوم سحر هذا المركب النوراني، والموكب الرباني؟ طيبون هم، تقودهم نواياهم الطيبة، مخلصون هم، تحركهم مشاعرهم النقية الثقية، والنوايا الطيبة والمشاعر النقية تدل على الطريق في بعض الأحيان، ولكنها في أحيان أخرى تُعمي البصر.

للمغامرة أهمية إذن، فهي تكشف الخطر الذي يواجهنا جميعًا، ذلك الخطر الذي يتسلل برفق إلى حياتنا وهو يتبسم وكأنه «داعية» يحبب إلينا أخلاق الإسلام ولكنه في ذات الوقت يخفي خلف ظهره نصلًا حادًّا يريد غرسه في قلوبنا، وكما تكشف مغامرتي هذا الخطر تكشف أيضًا الوهم الذي يعيشه أصحاب النوايا الطيبة، وليته كان وهمًا فحسب، ولو كان ذلك لهان الخطب، ولكنهم لا يدرون أنهم يجلسون على طاولة متفجرات فوق فوهة بركان، وحين تنفجر القنبلة ويثور البركان فإنه لن ينفجر أو يثور فقط في وجه أولئك الذين يظنون أنهم يتهادون فوق مركبهم النوراني في الموكب الرباني، ولكنه سينفجر في وجوه الجميع، سينفجر في وجه مصر كلها، حينها سيصبح الإسلام في عيون العالم متهمًا، ومن حيث يظن الطيبون أنهم يذهبون لدولة الإسلام المفقودة، فإنهم سيفقدون دولة المسلمين المنشودة.

ولكن مع هذا كله فإنني لا أنكر أنني تعلمت الكثير والكثير من فريق من الإخوان أراه الآن أصبح أثرًا بعد عين، قرأت القرآن على أيديهم وسلكت

دروب العلم من خلالهم ونهلتُ من معينهم، إلا أنني ظللت من الناحية الإنسانية والعقائدية كما أنا، فلم أكن جاهليًّا وانتقلت معهم وبهم إلى الإسلام، ولم أكن فظًّا غليظ القلب فصنعوا لي قلبًا جديدًا مفعمًا بالمشاعر الرقيقة، ما زلت أعيش حياتي كما خلقني الله، وهل يستطيع الإنسانُ أن يكون إلا نفسه؟! كانوا هم أنفُسَهم وكنتُ أنا نفسي، حاولتُ أن أكون غير نفسي وفشلت.. فالطبع يغلب التطبع ولم أكُ يومًا من رجال الدبلوماسية، ففهمني بعضهم على أنني المقاتل القاتل المخاتل مع أنني كنتُ المقتول الذي سعى إلى كشف سر قاتله!!

■■■

قنبلة يا أحمد يا ربيع!! أو أكثر من قنبلة! جماعة الإخوان أعادت للحياة مرة أخرى قسم الوحدات، الجماعة لها تنظيم داخل الجيش.

هي أكثر من قنبلة فعلًا يا ثروت، فهي كتيبة عسكرية كاملة، أو قل جيش عسكريًّا كاملًا، الإخوان بذلك يا صديقي يكونون قد أعادوا منذ زمن إحياء قسم الوحدات، وهو أخطر أقسام الجماعة كما تعلم، ومع قسم الوحدات تم إنشاء قسم للقضاة، هذه مؤسسات يريد الإخوان السيطرة عليها لأنها ستكون الأداة التي ستساعدنا في مرحلة التمكين، وبهذا التنظيم وضعت الجماعة خطة تمكين كاملة.

أعرف قصة قسم القضاة، وعندما كنت من إخوان منطقة الزيتون كان معي في أسرتي لفترة المستشار الشقيري وهو رئيس دائرة في الاستئناف، وأعرف أنه كان يزاول نشاطًا إخوانيًّا وسط القضاة.

شوف يا عم ثروت نحن الآن في عام 1999م، أراهنك أننا سندخل في صدام قوي مع النظام في غضون عشر سنوات من الآن.

تقديرات الحاج مصطفى مشهور تختلف عن تقديراتك فقد قال في الحديث الصحفي الذي قلت لي عنه بجريدة الشرق الأوسط العام الماضي إن الإخوان سيصلون إلى الحكم بعد عشرين عامًا ؛ أي عام 2018م، وقال أيضًا إن الإخوان لديهم خطة سيصلون إلى الحكم من خلالها .

الحاج مصطفى له فلتات لسان تفضح أسراره في بعض الأحيان مع أنه من الشخصيات الكتومة! انفلت لسانه معنا منذ سنوات في القصة التي حكيتها لك ولكن المستشار مأمون أسكته وأنكر، ولكنني لم أعوّل طبعًا على إنكار المستشار، ولعلك لاحظت أنه في جلسته معنا ظهر اليوم انفلت لسانه بكلمة خطيرة تستطيع أن تعتبرها اعتراف العمر.

هل عندما أشار إلى شعار الجماعة وقال لك: «ألا ترى كلمة (وأعدوا) التي بين السيفين؟ نحن نعمل بها منذ سنوات طويلة»؟

نعم، هي هذه الكلمة، فهمتها فورًا لأنني أحفظ الحاج مصطفى عن ظهر قلب، تعرف أنني كنت من أوائل من دخل جماعة الإخوان من محافظة الجيزة في السبعينيات، وكان أول مسئول إخواني عني هو الحاج مصطفى، فقد كان نقيبي في أول أسرة إخوانية التحقت بها، وكانت جلسات أسرتي تنعقد في مقر الإخوان بشارع سوق التوفيقية إذ إننا كنا من مناطق مختلفة، ومازلت أذكر الحاج مصطفى وهو يقول لنا في إحدى جلسات الأسرة: في يوم قريب

أقرب مما تتوقعون سنعيد قسم الوحدات مرة أخرى، فلا حياة للإخوان بغير هـذا القسـم، هل تتصورون دولة بلا أمن وبلا جيـش؟! نحن دولة بل نحن أكـبر من دولة، نحن أمة الإسـلام، ويجب أن يكون لهـذه الأمة أمن وجيش، ويوم أن يعود قسـم الوحدات سيكون شعاره «وأعدوا»، وأذكر أننا ناقشناه وقتهـا بخصوص قسـم الوحـدات، وعن سـبب التأخر في تفعيلـه فقال لنا: هنـاك من الإخوان من يرفضون هذا الأمر تمامًا خوفًا من ردود فعل للنظام، ولكن الحاج مصطفى أنهى كلامه معنا في هذا الشأن قائلًا: «إن جبهة الرفض يقل عددها وعن قريب سيكون للإخوان قوة تحميهم» .

اعتراف خطـير يا أحمد، ولكنني أرفض هـذه الطريقة في التفكير والتخطيـط، أنا مرتبك الآن فلم يدر في خلدي قطُّ أن أكون منخرطًا في تنظيم مثل هذا، أنا دخلت الإخوان من باب الدعوة لا من باب القوة والفتونة، نعم قرأت من قبل كثيرًا عن قسـم الوحدات ولكنني اعتقدت أنه ظل محبوسًا في «فترة من فترات» تاريخ الجماعة ولم يطلق أحدهم سراحه.

لا عليك يا صـديقي فنحن إخوان علـى طريقتنا لا على طريقتهم، وكل يمارس ما يـراه معبرًا عن نفسـيته، المهم ألا نتورط في مثل هذه الأنشـطة المهلكة، أما قسم الوحدات الذي ظننته «محبوسًا في التاريخ لم يتم الإفراج عنه» فهو يحتاج إلى أبحاث ودراسـات، وبغض النظر عن تاريخه فإنه كان مختصًّا بقيادة تنظيم الإخوان في الجيش والشرطة، وكان قد تم إسناده في أيامه الأولى في زمن حسن البنا للصاغ محمود لبيب، وبعد ذلك

تولاه الأستاذ صلاح شادي، ثم أبو المكارم عبدالحي، ثم عادت مسئوليته إلى الأستاذ صلاح شادي مرة أخرى إلى أن توفاه الله، أما حاليًا فإن مسئولية قسم الوحدات تقع على عاتق الأستاذ إبراهيم شرف الذي كان ضابطًا بالجيش.

سمعت أنه مريض جدًّا ويقال إنه سيسافر إلى لندن للعلاج.

شفاه الله وعافاه، لقد بذل جهدًا كبيرًا في سبيل تفعيل هذا القسم وإخفاء نشاطه.

ولكنك لم تقل لي ما هي خطة التمكين؟

خطة التمكين هذه ناقشناها مرة، وأنا باعتباري عضوًا في شورى الإخوان اطلعت على بعض بنودها، وهي تقوم على السيطرة على الجيش والإعلام والقضاء، هذه ثلاث ركائز إن سيطرنا عليها كان طريق وصولنا للحكم ميسرًا، ولكن القارئ للخطة يظن للوهلة الأولى أنها مجرد أمنيات ويقع في خلده أنها خطة للمستقبل وأن الإخوان يضعون تصورًا لكيفية التمكين، ولكن مع مسار الأحداث التي مرت بنا اتضح أن الإخوان قطعوا أشواطًا في طريق تنفيذ هذه الخطة.

داهمني الوقت وأنا أجلس مع أحمد ربيع حتى أنني غادرت مكتبه مع الهزيع الأخير من الليل، قدت سيارتي دون أن أشعر بالموجودات التي تمر بي وأنا في طريقي إلى البيت، ومع صوت الشيخ مصطفى إسماعيل وهو يقرأ من سورة الإسراء سبحت مع آيات الله في أجواء هُيُومية عاشقة، وسرحت مع ذاتي في خواطر غُيُومية ملبدة، ما الذي دار داخل جماعة الإخوان أو ما الذي حدث لقلبها؟ القلبُ كما يقول العلماءُ قُلَّبْ.

وما سُمِّي القلبُ قلبًا إلا من تقلبهِ   فاحذر على القلبِ من قلبٍ وتحويلِ

ولكن جماعة الإخوانِ لم تحذر، ولم يتنبه البعضُ منهم.. لم يتنبه الراشدون من رجالهم، وها هو «قطارُ الإخوانِ» يسير بعيدًا عنهم وهو يحمل رُكَّابًا لا نعرفهم ولا نستطيع أن نتصفح وجوههم، وإذا بهذا القطار ينقلب وهو في منتصفِ الطريق فيما يُعرف بأكبر عملية انقلابٍ فكري في العصر الحديث، ولكن هل انقلب القطار فعلًا أم أننا كنا نحن الذين لا نراه على حقيقته؟! شعرت بعد أن سكت صوت الشيخ مصطفى إسماعيل بانقباض في صدري، هل أسير في الطريق الصحيح؟ هذا هو القرآن أسمعه نديًّا بصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وكأنه يتنزل من السماء وأكاد أشعر بالملائكة تحف المكان، هذه هي دعوة الحب التي لا تقوم إلا بالحب، فكيف تتحول هذه الدعوة في عقول هؤلاء إلى دعوة للكراهية والبغضاء والعنف؟! وقر في قلبي وأنا أتوقف بالسيارة أمام بيتي أن عمري في جماعة الإخوان سيكون قصيرًا، ولكنه كان أقصر مما تنبأت.

■■■

يجتازنا الزمن ولا نجتازه، يمر بنا ولا نمر عليه، وحين يمر بنا لا نستطيع أن نوقفه أو نلتقط لحظة منه نحيا فيها على الدوام بشكل سرمدي بلا ابتداء ولا انقطاع ولا انتهاء، غاية ما نستطيعه أن نضع أحداثه في أرشيف الزمن، حينها نستطيع أن نمر على الزمن كلما جنَّ علينا الضباب.

التاريخ: يوم مجهول من أيام عام 1972م.

المكان: مدينة الإسكندرية.

شاب صغير ذو وجه أبيض وشعر بني يسعى إلى لقاء الحاج مصطفى مشهور لسؤاله عن الإخوان وتاريخهم وفكرهم، تطرق اللقاء إلى شكري مصطفى الذي كان معتقلًا في السجن في قضية سيد قطب عام 1965م.

الشاب الصغير وهو يتحدث بعاطفة متقدة: يا حاج مصطفى أنا أحبك في الله وأحب دعوة الإخوان المسلمين وقد تعاطفت معكم تعاطفًا كبيرًا، وتأذيت نفسيًّا من الظلم الذي وقع عليكم أثناء حكم عبدالناصر.

رد مصطفى مشهور بصوته الهادئ: أحبك الذي أحببتني فيه يا أخي الكريم، عرفني بنفسك.

قال الشاب ووجهه يتهلل من الفرحة: أنا ابنك خالد الزعفراني، وأريد أن أستفسر منك عن بعض الأشياء.

ابتسم الحاج مصطفى في وجه الشاب ثم قال: استفسر كما تشاء.

خالد الزعفراني بأدب جريء وجرأة متأدبة: تعرفت منذ فترة على أخ كان معكم في محنة السجن اسمه شكري أحمد مصطفى، أريد أن أسأل عن دينه وفكره كيف هو؟ فقد جلس مع كثير من الإخوة وأخذ يتنقل بين المحافظات ويجتذب أنصارًا لأفكاره وأريد أن أتأكد أنه من الإخوان ويسير على منهج الإخوان.

مصطفى مشهور مستفسرًا: شكري الذي تخرج في كلية الزراعة؟

خالد الزعفراني مجيبًا: نعم هو.

مصطفى مشهور: أعرف شكري طبعًا وهو شاب ممتاز ظاهره كباطنه، وهو متدين بحق، صحيح فيه بعض التشدد والغلو في الدين ولكنه لم يخرج عن أفكارنا، وما زالت صلة تربطنا به.

خالد الزعفراني: أأصاحبه وآخذ منه؟

مصطفى مشهور: لا بأس خذ منه فهو أخ من الإخوان.

خالد الزعفراني: أنا ذهبت لكثير من الإخوان الذين كانوا معه في السجن وكلهم امتدحه وامتدح أفكاره ولكن بضعة نفر قالوا: إنه يكفر المجتمع.

مصطفى مشهور: لا، هو لم يخرج عن ضوابط التكفير التي نعرفها، كن معه ولا تخش شيئًا.

قام الشاب خالد الزعفراني من جلسته مع الحاج مصطفى مشهور وقد عزم عزمًا أكيدًا على أن يتبع شكري مصطفى ويأخذ منه، فقد زالت الشكوك والشبهات التي كانت تعتمل في ضميره حينما أخذ صك الإجازة من الحاج مصطفى.

لم تكن خطوات شكري مصطفى بطيئة عيية، ولكنه كان يقطع الفراسخ والأميال إلى تكوين جماعته في سرعة مذهلة، كان هذا الشاب الذي نشأ كاليتيم في ظروف بالغة القسوة يؤمن بما يقول ويقول ما يؤمن به، اختلطت

فكرته بشخصه واختلط هو بفكرته فعاش على يقين أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا إسلامًا، وبمقدار إيمانه بفكرته كان مقدار تأثيره على الشباب المتعطش للإيمان.

بعد أيام من لقاء الزعفراني بمشهور وفي بيت عائلته الكائن بإحدى ضواحي الإسكندرية استضاف خالد الزعفراني شيخه الجديد شكري مصطفى ليقضي بينهم يومًا أو بعض يوم، وحين رآه العم «خليل الزعفراني» أوجس منه خيفة وقال لابنه إبراهيم الطالب في كلية الطب والذي أصبح أحد رموز جماعة الإخوان فيما بعد: هذا الشاب الذي استضافه ابن عمك خالد له سحنة لا أستريح لها، خذ حذرك يا بُني من هذا الشاب فما في قلبه من شر يبدو واضحًا في وجهه وأنا قرَّاء وجوه، وفي المساء دار حوار فكري بين أبناء عائلة الزعفراني والشيخ الشاب شكري مصطفى، أصر فيها الشيخ على تكفير مرتكب الكبيرة، في حين رد عليه بعض شباب العائلة وعلى رأسهم حمزة خليل الزعفراني الذي استشهد فيما بعد في حرب 1973م بأن هذا الفكر غير صحيح، فالرجل يدخل الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» ويظل على إسلامه ما دام معتقدًا في «الشهادة»، فإذا ارتكب كبيرة فإنه لا يخرج من الإسلام ولكنه يتلقى العقاب الذي توعده به الله سبحانه في الدنيا والآخرة، وفي اليوم التالي خرج شكري مصطفى من بيت آل الزعفراني وهو لا يصطحب معه من المصدقين به إلا الشاب خالد الزعفراني، فقد كانت شهادة الحاج مصطفى مشهور في شأن شكري مصطفى كفيلة بأن يظل مرهونًا معه حتى حين، وحين أذن الله خرج خالد الزعفراني من فكر شكري مصطفى ووقف

ضده وأقنع عددًا من الشباب باعتزال هذا الفكر الخوارجي وكان من هؤلاء الشباب الطالب «صلاح الصاوي» الذي أصبح دكتورًا في الشريعة وداعية إسلاميًّا كبيرًا ورئيسًا لجامعة إسلامية فيما بعد، وطالب الطب عبدالجواد الصاوي الذي أصبح أمين عام هيئة الإعجاز العلمي للقرآن فيما بعد، والطالب عبدالله سعد صاحب منتجعات الريف الأوروبي فيما بعد.

وفي حضن عام 1977م فعلها شكري، بدأ في تطبيق أفكاره تطبيقًا عمليًّا، هو الآن يعيش في دولة فريدة من نوعها، كأنها دولة الإسلام الأولى، تسربل شكري بزمن «الدعوة السرية» والعزلة عن ذلك المجتمع الجاهلي الكافر، أوصى بعض أصحابه بأن يخفوا إسلامهم، وقال لهم إذا ضُيق علينا فهاجروا إلى اليمن، فإن لم تستطيعوا فإلى السعودية أو إلى أي دولة تصلح لإقامة دولة الإسلام، لا يقوم الإسلام إلا بالهجرة كما قام في زمن الرسول ﷺ، ثم أضمر شكري في نفسه شرًّا، فرأى أن يضع أول بصمة لدولته، لن تقوم دولة الإسلام إلا بأن يَهرق دمًا على أعتابها، والدم الذي سيهرقه هو دم الكافر الذي يحارب الإسلام ويكتب الكتب ضد «إسلامه»، الكافر هو الشيخ الذهبي وزير الأوقاف الذي حارب أفكار شكري، هو كافر من ناحية وصيد ثمين وسهل من ناحية أخرى، وقام شكري بتنفيذ خطته، خطف الشيخ البريء المسالم، ثم أمر أحد رجاله بأن يطلق رصاصة على رأس الشيخ فأودت بحياته.

حمد خالد الزعفراني ربه على أنه تنبه مبكرًا لخطورة فكر شكري حتى إنه كان أول من كتب في الصحف منبهًا للقنبلة التي يختزنها هذا الشيخ السطحي الغر في عقله، قنبلة التكفير، كان خالد هو من واجه شكري علنًا وقال له:

إنك خوارجي تنتمي لفكر الخوارج ولست على فكر أهل السنة والجماعة، لقد اشتطت بك الأفكار يا شكري فأخرجتك عن الطريق الصحيح، ولكن الدنيا بمسارها وتقلباتها وغدوها ورواحها ما زالت تقدح في ذهن خالد الزعفراني، ما السبب الذي جعل الحاج مصطفى مشهور وجمهرة من إخوانه يمتدحون أفكار شكري مصطفى، وكيف أصبحت أفكار شكري مصطفى متوهجة داخل جماعة الإخوان لدرجة أن بعض قيادات الشباب في الإسكندرية استحلوا الزنا بالأجنبيات وغير المسلمات تطبيقًا لفتاوى كان شكري مصطفى قد أصدرها وهو يقيم الركائز الفكرية لدولته؟!

■■■

التاريخ: أول ديسمبر من عام 1977م.

المكان: 1 شارع سوق التوفيقية مقر جماعة الإخوان المسلمين.

يجلس شيخ عجوز على مكتب متهالك في حجرة فقيرة الأثاث إلا أن هواءها كان مختلطًا بعبق التاريخ، شف وجه الشيخ عن غضب بريء، ولكن هذا الغضب لم يمح الطيبة التي كانت بادية في قسمات وجهه، دخل رجل متوسط العمر على الشيخ العجوز وهو يحمل رزمة من الصحف والمجلات، وضعها أمام الشيخ وهو يقول: الصحف والمجلات يا فضيلة المرشد كلها تتحدث عن الأحكام التي صدرت في قضية التكفير والهجرة وقتل الشيخ الذهبي، شكري مصطفى وابن أخته ماهر وأحمد طارق عبدالعليم واثنان آخران أخذوا إعدامًا .

يرد المرشد الأستاذ عمر التلمساني وهو يأخذ نفسًا من سيجارته: أنا عرفت الأحكام أمس يا جابر، يوجد شاب اسمه مختار نوح من شباب المحامين كان يحضر القضية ويتابع تفصيلاتها، وقد حضر لي في البيت عقب صدور الأحكام وأخبرني بها، ما فعله شكري يا جابر مصيبة عظمى، وللأسف كان على صلة ببعض إخوانك.

رد جابر رزق: ومن هم يا أستاذ؟

نظر عمر التلمساني إلى الأوراق التي أمامه برهة ثم نقل بصره إلى جابر رزق وهو يقول: هذه أسرار يا جابر لن تعرفها الآن وقد تعرفها بعد حين.

رد جابر رزق وهو يستحضر السيرة النبوية: يعني دي أسماء المنافقين يا فضيلة المرشد، خلاص اعتبرني أبو عبيدة بن الجراح وأخبرني بالأسماء.

ضحك المرشد: ألأنك صحفي فتجري وراء الخبر؟ هذه يا جابر من الأخبار التي لن ننشرها ولكننا سنرسلها، اتركني الآن لأكتب ما أريد.

«احذروا تنظيم العشرات فهم ليسوا من الإخوان». كان هذا هو التحذير الذي كتبه عمر التلمساني وأرسله إلى الشيخ منّاع القطان مسئول الإخوان بالمملكة العربية السعودية، وللدكتور يوسف القرضاوي في قطر، ولباقي مسئولي الإخوان في الخليج، وفي الرسالة كتب الأستاذ التلمساني: «هؤلاء هم تنظيم سيد قطب من أصحاب الفكر التكفيري الذي قضى في السجون عشر سنوات وعندما خرجوا أطلقنا عليهم تنظيم العشرات.. هؤلاء ينتمون إلى أفكار غير أفكارنا».

كانت الأحداث التي مرت بها مصر في تلك الآونة ضاغطة على قلب الأستاذ عمر التلمساني، فالإجرام الذي مارسته جماعة التكفير والهجرة التي سمت نفسها «جماعة المسلمين» فاق كل تصور، اختطافها للشيخ الذهبي وقتله وتكفيرهم لكل المجتمع، حتى إن شكري مصطفى قال لرئيس المحكمة التي حاكمته: أؤمن أنني سأخرج من محكمتكم هذه منتصرًا، سيرسل الله عليكم ريحًا صرصرًا عاتية تنجيني من كفركم وسجنكم، وسأطلق على عينك اليسرى التي يكمن فيها الشيطان رصاصة ترديك قتيلًا، وسأعيد الإسلام إلى الدنيا مرة أخرى.

كان التلمساني منزعجًا من تلك الأحداث حتى إنه قال لبعض المقربين منه: هذه نكبة حلَّت علينا فشكري كان من الإخوان وقد وقفنا ضده داخل السجن عندما أعلن عن أفكاره التكفيرية واستطعنا بفضل الله تحجيمه، ولكن للأسف كان هناك من يؤيده ويغذي غروره وجهله وتطرفه، كان التلمساني يخشى أن يمس أحدهم سمعة جماعة الإخوان فيلصق بها شكري مصطفى وأفعاله، فالجماعة حين عادت وهي لا تألو جهدًا في تطهير نفسها من اغتيالات النظام الخاص، أبعد هذا يقلق شكري مصطفى مضاجعنا؟!

وصل خبر هذه الرسالة إلى الأستاذ مصطفى مشهور، عرف أن الرسالة تضمنت العديد من الأسماء التي تدين له بالولاء والطاعة، والتي كانت تعتبر أنه هو المرشد ولا أحد غيره، كيف يفرط فيهم عمر التلمساني وينهال عليهم برسالته؟! تنظيم العشرات! ما له تنظيم العشرات! بل ما الذي يأخذونه على فكر شكري مصطفى، نعم لم يكن حصيفًا في اغتيال الشيخ الذهبي ولكنه

لم يكن مخطئًا، العبرة بفكر شكري لا بفعله، ثم كيف يكتب المرشد أسماء محمود عزت ومحمد بديع وغيرهما من الشباب المخلص في رسالته؟ ولماذا يحذر منهم؟ ومع ذلك فإن عزت وبديع لم يسافرا إلى الخارج فكيف يضع التلمساني اسميهما؟ أجمع مصطفى مشهور أمره على أن يسافر إلى دول الخليج في جولة واسعة ليتدارك فيها أثر رسالة التلمساني، ولكن الرسالة كانت قد وصلت وعرف أمرها قادة الإخوان في الخليج وبقي أن يزيل مشهور أثر الرسالة من أذهان من وصلت إليهم.

■■■

التاريخ: قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير بنيف وعام.

المكان: نقابة الصحفيين بشارع عبدالخالق ثروت.

يجلس الشيخ الكبير الدكتور يوسف القرضاوي على منصة قاعة الندوات يلقي كلمته عن فكر سيد قطب، انتهى القرضاوي في كلمته إلى أن سيد قطب خرج بفكره عن العقيدة التي عليها أهل السنة والجماعة، في اليوم التالي لهذه الندوة قرأ أهل مصر تصريحات أدلى بها محمود عزت بخصوص ندوة الشيخ القرضاوي قال فيها عزت: إن المشكلة ليست في فكر سيد قطب ولكن المشكلة في أن الذي قرأ لسيد قطب - يقصد الشيخ يوسف القرضاوي - لم يفهم ما قرأه، فسيد قطب هو أبرز علماء أهل السنة والجماعة.

بعدها بأيام استضاف الباحث الإعلامي «ضياء رشوان» الدكتور يوسف القرضاوي في قناة الفراعين الفضائية ليسأله عن تفصيلات ما قاله في ندوة

نقابة الصحفيين وردود فعل قادة جماعة الإخوان عنها، فقال القرضاوي وهو يعرف مدى تأثير الكلمة التي سيقولها: «سيد قطب انتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، وقد كان انضمامه للإخوان بناء على رغبته واقتناعه بالجماعة، ولم تكن أفكاره في أول الأمر تميل إلى التكفير ولكنه أثناء تجربة السجن أخذ يتحدث عن الحاكمية والجاهلية في كتبه خاصة الطبعة الثانية من كتابه في ظلال القرآن».

واستطرد القرضاوي في حواره التلفزيوني: ولك أن تعتبر يا أخي الكريم أن ما كتبه قطب من أفكار خلال المرحلة الأخيرة من حياته يؤكد خروجه عن أهل السنة والجماعة بوجه ما، فأهل السنة والجماعة يقتصدون في عملية التكفير حتى مع الخوارج ووفقًا لما استقر عليه الفقه في هذا المجال فإنني أستطيع القول بأن الأستاذ قطب في هذا الأمر بعد عن الصراط السوي لأهل السنة والجماعة.

اعتدل الإعلامي الخبير في الجماعات الإسلامية ضياء رشوان في جلسته وهو يسأل القرضاوي: هل سيد قطب بهذه الأفكار ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين؟

رد القرضاوي قائلًا: سيد قطب كان من المعجبين بالإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، وكتب عنه مقالته الشهيرة «حسن البنا وعبقرية البناء» وقد أشاد في هذه المقالة بقدرات البنا التنظيمية في تأسيس الجماعة وتشكيل هياكلها التنظيمية، لكن قطب لم ينقل عن فكر البنا مثلما نقل عن الشيخ أبو الأعلى المودودي، فقد تأثر قطب بالمودودي كثيرًا وأخذ

عنـه فكرة الحاكمية والجاهلية، ولكن قطب خرج في النهاية بنتائج عن تكفير المجتمع وجاهليته تختلف تمامًا عما قاله المودودي.

ضياء رشـوان: وما هي الحاكميـة والجاهلية التي أصبحت علامة في فكر سيد قطب؟

الشـيخ القرضـاوي: لا غبـار على الحاكميـة فهي فكرة إسـلامية أصيلة، وتعنـي أن تكـون المرجعيـة للشريعـة الإسـلامية، وقـد تحدث عنهـا الإمام أبو حامـد الغزالي وغيره من علماء المسـلمين، أما «الجاهلية» فدلالتها تختلف عنـد قطـب عما جاءت عليـه في القرآن الكريـم اختلافًا كليًّـا وجزئيًّا، حيث يعتـبر قطـب في كتابه «معـالم في الطريق» أن المجتمع بالأسـاس غير مسـلم، ومهمـة المصلحين هي رد الناس أولًا إلى العقيدة الإسـلامية الصحيحة وأن يشـهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدًا رسـول الله، ولا شـك يـا أخي الكريم ضيـاء أن قطـب أخطـأ في قضية تكفير مجموع المسـلمين وليـس فقط الحكام والأنظمة، ولا شـك أيضًا أن قطب يتحمل بعض المسئولية عن تيار التكفير، فقد أخذ أفكار المودودي ورتب عليها نتائج لم تخطر على بال المودودي نفسه، وهذا أيضًا ما فعله شكري مصطفى، حيث أخذ شكري أفكار قطب وخرج منها بنتائج لم تخطر على بال قطب، حيث اعتبر شـكري أن جماعته التي سماها «جماعة المسلمين» هي فقط التي على الإسلام ومن دونهم فهم كفار.

ضياء رشـوان: هل تسـتطيع القـول إن هناك صلة بين أفكار سـيد قطب وأفكار حسن البنا؟

الشيخ القرضاوي: انظر يا أخي، منهج سيد قطب ليس هو منهج الإخوان الذي وضع حسن البنا أسسه، فسيد قطب لم يعش في الإخوان ولم يترب على حصيرتها فقد كانت فترة وجوده في الجماعة قليلة، وأنا أرى أن أفكاره لا توافق فكر الإخوان، وأحذر كل الإخوان الذين يقرءون لسيد قطب من أن يقعوا أسرى لأفكاره.

وكأن النار اشتعلت في مقر الإخوان بالمنيل، اجتماعات ولقاءات وتوجيهات للبعض كي يكتب مقالات يهاجم فيها الشيخ القرضاوي ويدافع عن فكر سيد قطب، ثم كانت مكالمة تليفونية بين أحد كبار الإخوان والباحث الإعلامي ضياء رشوان: شوف يا أستاذ ضياء، لقد فتحت مجالًا في برنامجك «منابر ومدافع» لكل من هاجم فكر الشهيد سيد قطب، ونريد أن تفسح لنا المجال نحن أيضًا لنقول كلمتنا.

ضياء رشوان: على الرحب والسعة أهلًا وسهلًا هذا شيء نسعى إليه ويسعدنا.

وكان أن استضافت قناة الفراعين محمود عزت ومحمد مرسي كممثلين لجماعة الإخوان كلها ليردا على الشيخ يوسف القرضاوي، وفي هذه الحلقة التلفزيونية قال محمود عزت ردًّا على سؤال من الباحث ضياء رشوان: أفكار سيد قطب هي أفكار الإخوان، والدليل على ذلك أن عددًا من أعضاء مكتب إرشاد جماعة الإخوان عندما كانوا في السجن مع سيد قطب انتدبوا من بينهم الأستاذ عمر التلمساني ليناقش الأستاذ سيد قطب في أفكاره فقال له سيد قطب: أنا لا أكفر

المسلمين، فخرج عمر التلمساني لأعضاء مكتب الإرشاد وهم: عبدالعزيز عطية، أحمد شريت، حامد أبو النصر وقال لهم اتضح أن سيد قطب لا يكفر أحدًا، أما كتاب «دعاة لا قضاة» الذي كتبه المرشد حسن الهضيبي فهو ليس كتابًا للرد على أفكار سيد قطب ولكنه كان لوضع معايير وأسس لكيفية فهم أفكار سيد قطب؛ أي إن الأخ من الإخوان قبل أن يقرأ لسيد قطب يجب أن يقرأ كتاب المعايير «دعاة لا قضاة» أولًا حتى يفهم قصد سيد قطب.

نظر ضياء رشوان ناحية محمد مرسي وسأله: هل كتاب «معالم في الطريق» يا دكتور محمد هو كتاب الإخوان الذي يعبر عن أفكارهم؟ بمعنى: هل أفكار الإخوان المسلمين موجودة في كتب سيد قطب؟

تنحنح الدكتور محمد مرسي وبدأ حديثه بقوله: الحقيقة أنني أتفق مع كلام الدكتور محمود عزت وهو الذي قرأ للأستاذ سيد قطب في حياته، ولكنني قرأت للأستاذ سيد قطب بعد وفاته، وعندما قرأت له عشت في كتاباته فصارت جزءًا مني، والحقيقة أنني عندما قرأت للأستاذ سيد قطب وجدت فيه الإسلام، بما فيه من السعة والرؤية الشاملة للإسلام، وصحيح أن الأستاذ سيد قطب يقول نصوصًا تكفيرية ولكننا لا نعتبرها نصوصًا تكفيرية، ولكنها نصوص تحرك الوجدان وتتحدى العقل، ويجب لمن يقرأ لسيد قطب أن يتعلم اللغة العربية أولًا، قلبي على القرضاوي الذي لا يعرف العربية ولا يتقن غير التركستانية، فإذا عرف العربية سيعرف أن ما يقوله قطب هو الإسلام، وأنا شخصيًا عندما قرأت لقطب تحريت الدقة وسألت الكبار حتى أفهم ما كتبه.

وقبل أن تنتهي الحلقة تلقى ضياء رشوان مداخلة تليفونية على الهواء من الدكتور محمد بديع يؤيد فيها دفاع الصاحبين مرسي وعزت عن أستاذهما وصاحب فكرهما سيد قطب.

أخذ العجب من الدكتور القرضاوي مأخذه عندما شاهد ردود قادة الإخوان على رأيه!! وحين تقابل مع المفكر الكبير الدكتور محمد سليم العوا دار نقاش بينهما عن هذا الأمر، سأله القرضاوي والدهشة تقفز من عيونه: من هؤلاء يا دكتور محمد (يقصد من أي مدرسة فكرية هؤلاء، هل هم إخوان حقًّا ولماذا يدافعون عن قطب)؟

فقال الدكتور سليم العوا: هؤلاء يا مولانا هم تنظيم العشرات..

فرد عليه الشيخ يوسف القرضاوي وقد فغر فاهُ من الدهشةِ: أهم هم؟! أهؤلاء من حذَّرَنا منهم التلمساني؟!! أأصبحوا الآن قادة للإخوان! إنا لله وإنا إليه راجعون.

جزع الشيخ يوسف القرضاوي من سيطرة تنظيم العشرات على فكر جماعة الإخوان، أدرك وهو الخبير أن أجيالًا وأجيالًا دخلت جماعة الإخوان وجلست على حصيرة أخرى غير حصيرة الإخوان المسلمين التي يعرفها والتي تربى عليها، نهلت هذه الأجيال من كتاب الظلال ومن «معالم في الطريق»، كرهت هذه الأجيال المعاني الجميلة التي في الكون، اعتبرت الموسيقى زندقة، والآداب العالمية مَحرقة، والفنون شيطنة، تربت هذه الأجيال فكريًّا على أن الديمقراطية حرام، والليبرالية كفر، فتحت هذه الأجيال رءوسها ليتم

حشوها بكراهية كل المناهج السياسية والاجتماعية التي ابتدعها الإنسان لنفسه، فهمت أننا نعيش في جاهلية أشد ضراوة من جاهلية القرون الأولى وأن القوانين التي وضعناها لأنفسنا لتنظم معايشنا هي الطاغوت والكفر، فهمت «إن الحكم إلا لله» على نحو يخاصم اجتهادات البشر، ليس لنا أن نجتهد لأنفسنا وكيف نجتهد والله هو الحاكم الحكم، فهمت الله على غير مراد الله، الله عندهم هو الذي لا يرحم إلا هم، ولا يغفر إلا لهم، ولا يدخل الجنة سواهم، أما النار فقد خلقها الله لغير الإخوان، الإخوان هم شعب الله المختار، ولعلك لا تقرأ هذا في كتاباتهم ولكنك ستراه في أفعالهم.

آلاف الإخوان الآن من الذين سيقوا إلى الجماعة منذ منتصف التسعينيات يختلفون عن الإخوان الذين يعرفهم الشيخ يوسف، حتى أولئك الذين يرفضون أفكار القطبيين أمسوا يمالئونهم ويصانعونهم، وما صانعوهم إلا ليبحثوا لأنفسهم عن مكان لهم على خريطة الإخوان.

القطبية كانت هي الطريق الثاني الذي سار فيه الإخوان بعد طريق حسن البنا، ويغيم الضباب الآن على الطريق الثالث لهم فلا يستبصره من في عينيه قذى، ولكن زرقاء اليمامة تراه فتدرك أنه يجلس في أحضاننا ولا نراه.

الآن بدأت ملامح «فكرة الإخوان» تتضح، ولكن ما زال الدليل على وجود هذا الطريق الثالث قابعًا في أغوار الإخوان، وعلى الضفة الأخرى ظللت أبحث عن دليل على «تنظيم الجيش»، نعم للإخوان تنظيم في الجيش يعمل منذ سنوات طويلة، وصلتُ إلى هذا بالاستقراء دون أن أرى الدليل،

وأثناء بحثي عن اليقين أدركت أنني كنت مثل «سنتياغو» بطل رواية الخيميائي لباولو كويلو الذي ظل يبحث عن حلمه، حلم الكنز المدفون عند الأهرامات، فترك شجرته التي كان ينام تحت ظلها في بيته الصغير بإسبانيا وأخذ يجوب البلاد ويقابل الصعاب حتى وصل إلى الأهرامات فيحفر هناك في المكان الذي تنبأ أن الكنز تحت ثراه، ليجد أن هذا المكان لا يوجد فيه الكنز، ولكن توجد فيه ورقة صغيرة بها إشارة تدله على المكان الحقيقي للكنز، وكانت مفاجأة سنتياغو أن الكنز، حلمه الوحيد، كان مدفونًا تحت الشجرة التي يضع رأسه فوق حناياها في بلده لينام فيحلم بالكنز، كان حلمه تحت رأسه في بيته بإسبانيا ولكنه لم يكن منتبهًا لإشارات قلبه، وكذلك كنت أنا، كانت أسرار تنظيم الإخوان في الجيش موجودة على بعد عدة أشبار من عيني ولكنني لم أكن منتبهًا لإشاراتها.

الفصل السادس عشر

الذئبة الحمراء

● علا نشيج الشيخ وهو يختم الصلاة، ما الذي يبكيك يا شيخي؟ أهي رقة حملت فؤادك إلى آفاق إيمانية، أم قسوة من الدنيا ألمت بك؟

- سأسافر يا ثروت وأترك مصر ولا أعلم هل أعود أم سيطويني الثرى في الخارج.

● وما الداعي للسفر يا عم «أبو غالي»؟

- لواعج الشوق تضنيني، وابنتي وإن لم تغب عن قلبي إلا أنها غابت عن عيوني، أصبح لي حفدة لم أرهم، ولم يروني.

● أتترك رُبى مصر ومنهلها وتذهب إلى كندا وأونتاريو؟

- ولي فيها مآرب أخرى، فقد وَهَنَ الجسدُ وضاق «مجرى الدم» في القلب فحق للطبيب أن يفحصه ويُعمل مشرط جراحته فيه.

● أخشى عليك البرودة والثلج.

- دفء القلوب يذيب الجليد.

● أوَ تترك القلوب التي أحبتك؟

- والله ما تركتها وإن غابت صورتي عن عيونها، ولكنني أسعى للقلوب التي أحببتها وحُرمت من رؤية صورتها.

● ولكنني ما زلت لم أنهل شيئًا مما لديك؟

صل تصل.

● لم أضع يدي على مكمن الداء الذي أشقى المسلمين؟

- صل ما عرفته بما لم تفهمه تصل إلى ما خفي عنك، فإذا عرفت فالزم.

● وعلم القلوب يا شيخي؟

- الذي لن تعرفه بقلبك لا قيمة له عندك.

● أريد أن أعرف الله؟

- أول الطريق لمعرفة الله هو الحرية.

● لمستها وشعرت بعبقها، ولو أنني ظللت على ما كنت فيه من الطاعة الصماء لبقيت عبدًا خاضعًا لهيمنة الآمر من دون الله، وقد رضيت يا شيخي أن أقاسي وأتجرع نظرات التشكيك وعبارات السخرية والتخوين والتكفير والتحقير والسب وتلويث الأسماء والألقاب وذَم «ذِمة القلوب» وما لا يحصى من المتاعب من أجل أن أسلك طريق الحرية التي تعبدنا الله بها، وذات يوم سيطوي الزمن صفحتي في الحياة، وسينمحي اسمي من الوجود ولكن سيظل الناس بين ثلاثة، واحد يكبل الناس بالأغلال، باسم الدين

والفضيلة، وواحد يبحث عن حريته ليصل إلى طريق الله، وواحد يستتيم للعبودية ويراها الدين فيقبح الأحرار بأفظع النعوت.

- إنك ما فعلت شيئًا، وما دام قلبك تألم من الذي نالك فأنت لم تنل حريتك بعد وما زلت أسير نفسك.

● كل النفوس تعيش أسرى ما تحب، وأنا أحب نفسي.

- إذا كان حب نفسك هو المنتهى فأنت إما أن تكون عبدًا للدنيا أو عبدًا للجنة، فإذا كان حب الله في نفسك هو المنتهى فأنت حر لأنك ستكون عبدًا لله رب النفس والدنيا والجنة.

● فكيف أفعل؟

- كن في معية الله وحده تهن عليك الدنيا وخطوبها.

● ومتى ستسافر بإذن الله؟

- آخر ديسمبر إن شاء الله.

● سأدوِّن عندي أنك تركتني وسافرت في ديسمبر من عام 2004م، ومتى ستعود بمشيئة الله؟

- لا أعرف ولكن عندما يشاء الله.

بمشيئة الله تعود بالسلامة.

● لا تقل بمشيئة الله ولا بإذن الله، فأنت لا تعرف مشيئته ولم تطلع على إذنه، ولكن قل «إن شاء» و«إذا أذن» واجعل الأمر موكولًا إليه.

● حديثنا عن الإخوان لم ينته بعد، وما زلت لم أفهم كيف توغل التكفيريون في الإخوان.

- أثناء سفري ابحث ونقب، ادخل على الفكر الحالي للإخوان، اقرأ ما يكتبون، وقارن، هل هذا هو الفكر الوسطي المعتدل؟

● وما شأن اليمن مع التكفيريين خوارج العصر؟

- ابحث بنفسك، لا تنتظر الإجابات السهلة، وعندما تعرف حرر نفسك من أدران البشر، حرر نفسك من أدران من ران على قلوبهم فظنوا أنهم أرباب العصا يضربون بها من عصى، حرر نفسك من أولئك الذين ظنوا أن الله فوضهم في الحكم على الناس فأدخلوهم إلى «غضب الله»، حرر نفسك من خزنة النار الذين يقبضون على قلوب الناس ويقذفون بها في نار أمانيهم.

● سمعت من قال إن الله لن يغفر لفلان أبدًا.

- هذا سوء أدب مع الله، أأشركه الله في الحكم! أم أخذ عهدًا على الله؟!

● سأظل متصلًا بك على الهاتف وسأراسلك.

- وأنا سأظل باقيًا معك فلا أفارقك .

فانخرطت في البكاء.

■■■

سنوات تمر، وسنوات تنقضي، ولغة غريبة فجة تدخل في قاموس الإخوان؛ أهل الدعوة والذكر والطاعات.

«خصوم الإخوان يكرهون الإسلام»!!

«المختلفون مع الإخوان لا يقبلون الحل الإسلامي».

«ينقمون عليهم أن آمنوا بالله العزيز الحميد».

«السلام عليكم هي تحية الإسلام» فلا يجوز إلقاؤها على المسيحيين.

«الليبراليون وأصحاب المناهج الأرضية أعداء الله».

«لا يجوز الترحم على أموات أهل الكتاب والمشركين والكفار».

«لا تحب المسيحيين لأن المرء يحشر مع من يحب».

سعى لي صديقي المهندس أسامة فرهود الذي لم أره منذ زمن بعيد وهو في لهفة ووجل: الحقني يا ثروت يبدو أنني سأدخل النار.

ضحكت وأنا أداعبه: هل فعلت مثل نجيب الريحاني؟

لم يفهم قصدي: مش فاهم!!

قلت له: قال نجيب الريحاني «علشانك انتي انكوي بالنار والقح جتتي» فهل وقعت في الجوى وأنت الزوج المثالي؟

- أنا بتكلم عن نار الآخرة.

● وما الذي سيدخلك إياها؟

- زميل لي في العمل يبدو أنه إخوان أو من المحبين للإخوان قال لي عندما رآني أمتدح زميلًا مسيحيًّا وأقول إنني أحبه جدًّا، انتحى بي وقال لي لا ينبغي

أن تحب هذا المسيحي، فقلت له متعجبًا: لماذا؟ فقال لأن الرسول ﷺ قال في الحديث الشريف: «**إن المرء يحشر مع من يحب**» والمسيحيون سيدخلون النار، وبما أنني أحب مسيحيًّا فسأحشر معه.

- ضحكت وقلت له: وأنا أيضًا أحب كثيرًا من المسيحيين.

طيب وبعدين؟!

- هل تذكر أستاذنا أحمد أبو غالي الذي كان يدرس لنا العربي والدين حين كنا في المرحلة الثانوية.

- أذكره طبعًا ولا أنساه.

- أخذت ألتقي به منذ عام 2002م إلى أن سافر آخر عام 2004م إلى ابنته في كندا (أي منذ عامين) ولو كنت معنا في جلساتنا لسمعت منه ما أبهج خاطرك.

- وهل حدثك عن هذه الأمور؟

- يكفي أن تعرف منه الأصل العام ثم ستجد قلبك يقودك نحو «النور».

- وماذا يقول لك قلبك؟

- لا يوجد حديث بهذا اللفظ يا أسامة ويستحيل أن يكون هناك حديث بهذه الكلمات والحروف، ومن خبرتي أعرف أن دعاة السلفيين والإخوان في زمننا هذا يحرفون المعاني، ولكنني سأسألك سؤالًا، لو فرض وكان ما نسبوه للرسول ﷺ صحيحًا بهذه الألفاظ، فكيف يتحول حديث «الحب»

إلى حديث «نهي عن الحب»؟! أليست مفارقة هي؟! عم الرسول ﷺ أبو طالب كان كافرًا، أليس كذلك؟

- نعم.

● ومات كافرًا.

- نعم.

● ألم يكن الرسول ﷺ يحبه؟! ألم يبك يوم وفاته؟! ألم يُطلق على عام وفاته عام الحزن؟! فهل الرسول ﷺ ينهانا عن حب أهل الكتاب خوفًا من أن نحشر معهم، ثم يحب هو عمه الكافر!! أمر الجنة والنار موكول إلى الله يا أسامة، واعلم أن الله لا يحاسبنا على مشاعر قلوبنا ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ألم يقل الرسول ﷺ: «**اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تحاسبني فيما لا أملك**».

- هل يرحم الله أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالإسلام؟

● يرحم أهل الكتاب، والكفار، والمشركين، والبوذيين، والبهائيين، والملحدين، والمسلمين أهل السنة منهم والشيعة والخوارج والمعتزلة وكل الفرق.

- ألا يوجد نهي عن الترحم؟

● عندما كنت في الإخوان يا أسامة كنا نتحرج من الترحم على الأموات من المسيحيين، فنستخدم عبارات أخرى مثل «الراحل الكبير» بدلًا من

المرحوم إذا تحتم علينا أن نذكر في مؤتمر أو ندوة اسم سياسي أو كاتب مسيحي، فإذا كنا في عزاء كنا نصطنع «الخنف» في حرف الراء فنقول: «ربنا ينحمه» بدلًا من يرحمه، وعندما مات بابا الفاتيكان وترحم عليه الشيخ يوسف القرضاوي رماه وجدي غنيم بالكفر، رمى القرضاوي واتهمه الإخوان والسلفيون بقلة الدين والنفاق، اتهموا القرضاوي لا وجدي غنيم وتمسكوا بفتاوى لابن باز وابن عثيمين والألباني والحويني لا تجيز الترحم!! تعرف يا أسامة، كانت المشكلة في السابق هي: هل يجوز الترحم على أهل الكتاب أم لا؟ ثم دخلنا بعدها إلى مرحلة أخرى هي: هل يجوز الترحم على الليبراليين والاشتراكيين والناصريين والعلمانيين أم لا؟ والآن نحن في مرحلة ما هو حال «غير الإخوان والسلفيين» من الترحم عليهم؟! يقف الإخوان والسلفيون في مصر على خزائن رحمة الله ليمنحوها للمقربين منهم ومن تنظيماتهم ويمنعوها من باقي عباد الله.

- ولكن ما هو أصل مسألة عدم جواز الترحم هذه، ولماذا أفتى هؤلاء العلماء بذلك؟!!

● ترى هل أستطيع القول إن كل هؤلاء كانوا على خطأ، ابن باز وابن عثيمين والألباني وغيرهم، هل تعرف نص فتاواهم، يقول ابن باز: «من مات من اليهود والنصارى ومن مات تاركًا للصلاة هؤلاء كلهم لا يترحم عليهم لقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ هل هذا فقه يا أسامة؟! هذه المسألة

تثير أشياءَ كثيرة، ومع ذلك فأنا لن أحدثك عن مفهوم الشرك، ولن أناقش ابن باز حول تطوعه التكفيري بإضافة تارك الصلاة لحزمة المحرومين من الرحمة، وليكن ما فهموه من عدم جواز الاستغفار، لن أناقشهم فيه، فليقفوا على صنابير المغفرة وليغلقوها في وجوه الناس، ولكن ألا يعلمون أن الاستغفار غير الترحم، الله غفور يغفر الذنب، وغفار وغافر، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ المغفرة في الإسلام يا صديقي لا تبعد عن معناها اللغوي، المغفرة في القرآن الكريم من خلال الأسماء الحسنى (غافر - غفار - غفور) تعني الستر والتغطية.

ولكن كما أن الله سبحانه غفار وغافر وغفور فهو رحيم ورحمن، والرحمة هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وتكون بالمسامحة واللطف والعطف.

والرحمن اسم يختص بالله عز وجل.

والرحمن سبحانه هو المتصف بالرحمة الشاملة التي تشمل المؤمنين والكافرين، ثم إن الله سبقت رحمته غضبه.

ومن هنا لا تثريب علينا يا صديقي إذا ترحمنا على هؤلاء الأموات لأن المغفرة غير الرحمة ولو كانت المغفرة هي الرحمة لما كانت لله الأسماء الحسنى ويجب علينا أن ننزه الله عن أنه يطلق على نفسه الأسماء المتشابهة، فالرحمن غير الرحيم، والغفور غير الغافر والغفار، ولكل منهم موضعه، أما عن تحريم هؤلاء الشيوخ يا أسامة الترحم على أموات أهل الكتاب فأين يذهبون من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وكلنا بمختلف عقائدنا شيء!! وأين هم من قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؟!

وإذا أسلم رجلٌ وظل أبواه على دينهما الكتابي أو على كفرهما إن كانا كفارًا أفلا يجوز له أن يترحم عليهما مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾؟ وأين يذهب هؤلاء من حديث الرسول ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**» وحديث: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» والأحاديث هنا على عموم اللفظ مهما كان دين الرحماء.

- وهل يعتبرنا الإخوان كفارًا، إنهم يقولون غير ذلك، نصوص عباراتهم تقول إنهم جماعة من المسلمين وإنهم لا يكفرون أحدًا؟

● اقرأ أنت وابحث وافهم، استخدم عقلك، فقد طلب الله منا أن نستخدم العقول لا أن نسلمها لغيرنا كي يفكروا بدلًا منا، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ و﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾. عليك يا صديقي أنت تقرأ ما يقولون لتعرف نظرتهم لمن خالفهم، لا يكفي أن تسمع رأيهم في أنفسهم، فالمرء يقول عن نفسه إنه أعقل وأحكم الناس، ولكن انظر إلى فعله، انظر لأفعالهم في حياتنا هل تتفق مع أقوالهم؟! هل قرأت ما نشرته مجلة المصور عن وثيقة كتبها الإخوان بعنوان «فتح مصر»؟ أتظن أن المسلم يفتح بلدًا مسلمًا؟! هل تعرف لماذا يكذب الإخوان علينا؟ فكر وستصل إلى الإجابة بنفسك دون الاستعانة بصديق، تصفح يا صديقي مقالات قيادات الإخوان تجد منهم من يقول عن الليبراليين (الليبراليون فوضويون، أتباع «مكيافيلي»، ومبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، خمور أو مخدرات، أو شذوذ أو دعارة، أو احتكار أو

صفقات من أي نوع، أو زراعات من أي نوع: خشخاش أو بانجو، أو تجارة في البشر أو بيع للآثار أو أرض الوطن، أو إنشاء مزارع للثعالب، ومزابل للخنازير، هؤلاء ليسوا مسلمين وإن صلوا وصاموا وحجوا البيت)، واقرأ ما كتبه الحاج مصطفى مشهور عن الديمقراطية والتي اعتبرها شركًا بالله، واقرأ تصريحات محمود غزلان ومحمد بديع ومحمود عزت وغيرهم، هل تعرف ماذا قال أحدهم عن الناصريين وعن حمدين صباحي وحزبه «الكرامة»؟ قال: (إنهم الشيوعيون، أتباع ماركس، وإنجلز ولينين، وماوتسي تونج، وهنري كوريل مؤسس الحزب الشيوعي المصري «حِدِتّو»، وجيفارا، وفيدل كاسترو في أمريكا اللاتينية، إنهم ملاحدة لعنهم الله في كل دين). انظر يا أسامة إلى كل تصرفات الإخوان السياسية وضع كل تصريحات قادتهم بجوار بعضها وستجد المعنى ظاهرًا أمام عينيك.

- أي معنى؟ ألم تكن منهم في يوم من الأيام وتعرف كيف يفكرون؟!

● لذلك لن أقول لك ما وصلت إليه يقينًا، لأن ما أصبح يقينًا عندي قد يصبح مشكوكًا فيه عند غيري، وأنا لا أحب أن أفرض رأيي على أحد، حرك عقلك وقلبك لتصل إلى يقينك.

- وما هو يقينك أنت؟

● سأكتبه ذات يوم ولكنني سأقول للناس لا تأخذوا به جملة واحدة ولا ترفضوه جملة واحدة ولكن فكروا فيه أولًا، وبعد أن تفكروا وتبحثوا وتقلبوا الأمر على كل الوجوه اقبلوا أو ارفضوا، فحين يخرج الكتاب من المطبعة

سيكون ملكًا للقارئ لا للكاتب، واعلموا أن ما كتبته كان نتاج رحلتي أنا وفكري أنا وعقلي أنا، وكل هذه الأشياء نسبية، يرد عليها الخطأ والنسيان وحظ النفس وفساد الاستنباط، وسأدعو الله أن يغفر لي ما وقعت فيه من خطأ.

- لا أريد ان أعرف منطقتهم الفكرية الآن ولكنني أريد أن أعرف كيف يفكر التنظيم الحديدي وهو يدير مؤسسته، ما هو منطق العسكرة يا ثروت؟

● أظنهم أصيبوا بمرض الذئبة الحمراء.

- بمعنى؟

● كتبتُ مرة عن هذا المرض فقلت: (**الباحث في علم نفس الجماعات يعرف أن الجماعة - أي جماعة - عندما تشعر بالخطر فإنها تدافع عن نفسها عبر عدة وسائل، إذ تسعى أولًا إلى وأد أي حركات تجديدية داخلية ومحاربتها بشتى الطرق، فيما يعرف في العلوم الطبية بمرض «الذئبة الحمراء» وهو مرض يصيب الجسم ينتج عن خلل في الجهاز المناعي للجسم تجعله بدلًا من أن يحمي الجسم من البكتيريا والفيروسات فإنه يهاجم الجسم الذي يحميه، كما أنها تسعى في ذات الوقت إلى الانكماش والتقوقع على ذاتها كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس بحيث تبقى بمعزل عن البناء الحضاري للمجتمع، إلا أن أبرز ما تقع فيه الجماعة التي تشعر بالاضطهاد هو مسارعتها للاحتماء بقوى خارجية - خارج الجماعة أو خارج الدولة - بغض النظر عن أي اعتبارات وطنية، وقد يتداخل مع الرغبة في الاحتماء بالقوى الخارجية شعور**

الجماعة بالاستعلاء والتفرد وإحساسها بأنها «حامل أختام الحقيقة» وأن ما لديها من صواب يجب أن ينتصر على «أصحاب الضلالة»، وأنه في سبيل الانتصار للحقيقة يحق للجماعة أن تسلك الوسائل التي ترى أنها قد تحقق لها هذا «النصر المنشود» حتى ولو كان هذا الطريق هو بتر أبنائها وتشويه رجالها الذين يختلفون معها في الرأي.. فلا رأي إلا ما يرى القادة.. وهذا هو منطق الطغاة في كل العصور، وهو نفسه منطق الفراعين الذي حدثنا عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وتبرير كل فرعون لطغيانه هو أنه صاحب الرأي والمُلك والقيادة ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ولأن قادة الإخوان مثلهم مثل كل الفراعين الطغاة، فلا اختلاف عندهم في الرأي لأن الاختلاف ينهض بسبب تنوع الأفهام، أما في الإخوان فلا تعدد للأفهام ولكن معظمهم إلا من رحم ربي يتماهى في عقل رجل واحد هو من تحكم في مقاليد أمورهم).

لذلك يا أسامة تجد أن كل من قال (أنا أفكر) قد تعرض لتنكيلٍ وتجريحٍ وتشويه، رغم أنه عندما كان يفكر كان يفكر لصالحهم، ولكنهم كجسد مريض أصبح فعلهم يماثل تمامًا ما يفعله الجهاز المناعي في الجسم إذا أصابه الخلل!! فقد انطلقت كرات الدم البيضاء من جسد الإخوان لتهاجم أبناء الإخوان الذين يُشكلون قلبها وعقلها على ظن أنهم أعداء لهذا الجسم.

■■■

منطق التكفير واحد، ومنطق التفكير واحد، أدوات التفكير هي الاستقراء والاستنباط والملاحظة والتجريب، يقع العقل في الخطأ ألف مرة ليصل إلى الصواب مرة.

أما التكفير فينهض عندما يفقد المُكفر أدوات التفكير فلا يجد أمامه إلا التكفير، فالتكفير هو بضاعة العيي الذي يأخذ الدين على حرف، لذلك يبدأ الشاب متشددًا في تدينه فإذا سلك طريق العلم «توسط دينه».

فإذا أردت أن تعرف حظ بعضهم من «الوسطية» فانظر إلى علومهم وعقولهم.

ولأن شكري مصطفى لم يكن لديه حظ من العلم فقد كان متشددًا خوارجيًّا تكفيريًّا، ورغم ذلك فقد كان شكري شاعرًا!! ولكنه كان شاعرًا ضيق الخيال مقلدًا، أعلى ما نظمه من الشعر كان تقليدًا لقصيدة «هاشم الرفاعي» «رسالة في ليلة التنفيذ»، ولكنه كان تقليدًا بليدًا، ظل شكري قليل العلم يدور حول ذاته، وحين ارتفع شأن بعض تابعيه في العلم تركوه، ولأن البعض الآخر ركن إلى التقليد فقد اتبعوه، ولا يزالون يتبعون رغم فوات عقود على إعدام الرجل.

بعد أن خرج شكري مصطفى من السجن عام 1971م أخذ يجوب البلاد بحثًا عن أنصار له ولدعوته، كان شكري يؤمن أنه هو بعينه «المهدي المنتظر» وفي إحدى الشقق بمنطقة الإبراهيمية بالإسكندرية جلس شكري مع بعض أنصاره وأخذ يحدثهم عن آخر الزمان والمهدي المنتظر .

قال له خالد الزعفراني: يجب أن تختار خليفة لك من الآن.

شكري مصطفى متعجبًا: ولم؟

الزعفراني: لعلهم يقتلونك.

شكري مصطفى: لن يقتلني أحد فأنا المهدي المنتظر.

- ولكن اسمك وصفاتك ليست مثل اسم وصفات المهدي المنتظر.

- سأكون أنا ولا أحد غيري وسنذهب إلى اليمن، فعنها تحدث رسول الله ﷺ وقال إن أهلها ألين قلوبًا وأرق أفئدة والإيمان يمان والحكمة يمانية والفقه يمان، ولن يتم إعلان ظهور المهدي إلا من اليمن.

- المهدي المنتظر سيكون اسمه محمد أو أحمد أو محمود، وسيكون من بيت النبوة، ففي الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد: «**لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**» واسمك لا يواطئ اسم النبي ﷺ.

- وهل تظن أن المهدي المنتظر سيكون إما «محمد» أو «محمود»؟ أنا المهدي ولا مهدي غيري، أنا المنتظر، وقد عاهدت كل أحبابي على السفر إلى اليمن.

- نحن أحبابك ولَمْ تعاهدنا!!

- أنتم أصحابي أما أحبابي فهم في السجون لم يعف عنهم السادات بعد، وسيسافرون بعد خروجهم من السجن إلى اليمن وفاءً للعهود التي أخذتها عليهم.

- ثم ماذا؟

- سيعود الإسلام إلى الدنيا بأسرها، سيعود بعد أن غاب عن البشرية بعد انتهاء الخلافة الراشدة، كل الدنيا كانت تسير في طريق الكفر، حتى صحابة الرسول ﷺ كفروا بعد انتهاء الخلافة، وارتدوا عن الإسلام، وأنا الذي سأعلن عودة الإسلام من اليمن وسأملأ الدنيا عدلًا، أنا شكري مصطفى ولا مهدي غيري.

الفصل السابع عشر

الحقيقـــة

● «متى عدت من السفر يا شيخنا ومولانا، الحمد لله على سلامتك».

– «عدت منذ أيام وفي صحبتي ابنتي ميساء وزوجها وأحفادي».

● «اشتقنا لك ولجلساتك التي يشع منها النور».

– «والله ما ابتعدت عنكم إلا بجسدي، كنت في غربة جسدي أترنم بشعر شوقي:

كـل المناهـل بعـد النيـل آسـنةٌ	مـا أبعـد النيـل إلا عـن أمانينا
لم تنـأ عنـه وإن فارقت شـاطئه	وقـد نأينـا وإن كنـا مقيمينا».

«أراك قطعت شوطًا».

● «بل قطعني الزمن».

– «سيظل الزمـن غامضًـا عليك إلى أن تـدرك أنك لن تصـل إلى عقدته بعقلك».

● «فكيف أفهمه؟».

- «بروحك».

● «اشتقنا إلى لقياك، فمتى نلتقي؟».

- «سأنتظرك غدًا بعد صلاة الظهر».

كان عام 2008م سعيدًا على كل الوجوه، فقد عاد الأستاذ أحمد أبو غالي من سفره الطويل، وكنت في هذا العام قد بدأت في كتابة كتابي الأول عن الإخوان والحركة الإسلامية، فأخذت أقرأ وأجمع المراجع وأفتح حوارات مع بعض القيادات التاريخية للجماعة، ومن أسف فقد وجدت أن معظم «شيوخ الإخوان» الكبار في السن قد أصبحوا نسيًا منسيًّا لا يذكرهم أحد إلا بعد وفاتهم عن طريق نعي يكتب لهم في موقع الإخوان.

عدتُ مرة أخرى إلى البيت الذي غبت عنه سنوات، في شارع نخلة المطيعي، ذلك الشارع القديم في مصر الجديدة الذي يحمل عبق الزمن الجميل، كان الأستاذ أبو غالي قد أخبرني أن هذا الشارع كان من أرقى شوارع مصر الجديدة في فترة الخمسينيات والستينيات حيث كان يقطن فيه كبار القوم وترتفع فيه أرقى البنايات، وفي العلوم التي يسمونها «ما وراء الطبيعة» يرتبط الإنسان أحيانًا بالمكان، وتنشأ بينهما علاقة روحية لا يعرف أحد كنهها، فإذا بالمكان الذي كنا نراه جمادًا يشع بالحياة ويفيض بالأحاسيس والمشاعر، سبقتنا إلى هذه الحقيقة مشاعر الشعراء التي سكبوها في أشعارهم، فقد تغنوا للأطلال ووقفوا على الديار، حتى الجبال شعروا بها وشعرت بهم، فقال قيس بن الملوح وهو يحدثنا عن لقائه بجبل التوباد:

وأجهشت للتوباد حين رأيته   وكبر للرحمن حين رآني

وكدت أنا كذلك أن أجهش للبناية التي يقطن بها الأستاذ أبو غالي، ورأيتها وكأنها ابتسمت لأيام قضيتها رائحًا غاديًا عليها، إيه ما أجملك يا أيام أبو غالي!

رأيته وقد خط الزمن خطوطه على وجهه وأعمل أثره في جسده، وكأنه فارقنا عشرين عامًا، خطوط الزمن تتحرك ببطء على وجوهنا ونحن صغار، وبعد أن نتجاوز الكهولة وندخل إلى الشيخوخة تتسارع هذه الخطوط وكأنها تعوض ما فاتها، ولكن تكبر أجسادنا وتشيخ، إلا أن الزمن لا يمر على أرواحنا، نشعر من داخلنا أننا ما زلنا صغارًا، كأنني، وكأنك أيها الشيخ أو الكهل، تخرجت من الجامعة منذ عام أو عامين، تظل أرواحنا تعيش وتمرح في فترة الشباب لا تغادرها أبدًا، لذلك قال الرسول ﷺ إن أجسادنا ستبعث في «فترة الشباب» لن يدخل الجنة عجوز.

- لن أمكث في مصر طويلًا يا ثروت، ثلاثة أشهر فقط لا غير ثم سيحملني الهواء إلى كندا مرة أخرى إن كتب الله لنا عمرًا..

ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت في أرض سواها

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

كلنا سيموت يا سيدي وستمر عقود وعقود، وأجيال وأجيال، وقرون وقرون، وستنمحي سيرتنا وصورتنا، وسنغوص في بُعدٍ سحيق من الزمن، ولن تبقى إلا صفحتنا عند الله سبحانه وتعالى.

- أرى الزمن قد ترك طابعه على قلبك.

● حيرني الزمن إلى أن فهمته، هل حصلت على الجنسية الكندية؟

- كنت قد قدمت للحصول عليها منذ زمن وحصلت عليها منذ عامين.

● ومصر؟

ومن لي بمصر يحمل جسدي ويواريه الثرى عندما يحين الحين وينقضي الأجل، كبرت في السن يا ثروت فأنا من مواليد 1932 م وقد سئمت تكاليف الحياة كما يقول الشاعر، ومن يعش ثمانين حولًا لا أبالك يسأم.

● أطال الله في عمرك.

- كنت قد كتبت منذ زمن طويل مذكراتي عن فترة السجن وعلاقتي بالإخوان وشكري مصطفى وقصة التكفير والهجرة أو «جماعة المسلمين» وأثرها في الإخوان والجماعات الداعية للإسلام، وهي على جزأين؛ الأول يتعلق بالذكريات وقد كتبته بعد خروجي من السجن بعامين، والثاني يتعلق بالأفكار وهذه لم أكتبها إلا عندما خلوت إلى نفسي في كندا، وقد تركت هذه المذكرات مع الدكتور «أكثم الخطيب» زوج ابنتي ميساء وطلبت منه أن ينشر هذه المذكرات بالتنسيق معك بعد وفاتي.

● ولماذا لا تنشرها من الآن؟! أنا تعاقدت مع دار الهلال على نشر كتاب لي وسيرحبون جدًّا بمذكراتك.

- أنا لا أريد من هذه المذكرات إلا أن تكون علمًا ينتفع به لذلك أحببت أن تنشر بعد وفاتي لتكون صدقة جارية، في مذكراتي هذه حاولت ما وسعني الجهد أن أضع رؤية جديدة للحركة المسماة بالإسلامية، حاولت تصحيح بعض المفاهيم، وعلى الله قصد السبيل.

● هل لي أن أقرأها أثناء وجودك بمصر؟

- لا أمانع في هذا.

غاب الأستاذ دقائق ثم عاد ومعه رزمة من الأوراق.

- هذه صورة ضوئية من مذكراتي المكتوبة بخط اليد اقرأها ولكنك ستعيدها لي مرة أخرى، أمامك ثلاثة أيام.

قرأتها في بعض يوم، أو قل التهمتها، كانت أخطر ما قرأت في حياتي، وأظنها ستثير يقظة في العقول اليابسة حين يتم نشرها.

سلمته المذكرات وأنا أقول له.

● لن أقول لك أثر هذه المذكرات على نفسي وقلبي وروحي، ولكنني فهمت منها الإسلام، لم أكن أفهم الإسلام من قبل، كنا نظنه فقط شعائر وشرائع، عرفت منك أن الإسلام هو النغمة التي بثها الله في الكون لتتكامل بها سيمفونية «الخلائق»، الإسلام هو رسالة الحب التي لم نفهم كلماتها الرحيمة، أنزل الله الإسلام علينا كي يكون رسالة للعالمين فأصبح رسالة عربية، قمنا بتعريب الإسلام وقصره على أفهام العرب وأدخلنا عليه أعرافهم وتقاليدهم وطريقة تفكيرهم فأضعنا كثيرًا من معالمه، اتضح لي من الجزء المتعلق بالفكر في مذكراتك يا سيدي أن الإسلام أوسع مدى من عقولنا الضيقة وأفهامنا الغليظة، وأن الله حين طلب من البشر كلهم تعمير الدنيا ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ لم نركن إلى قيم التعمير، فطلب منا أن نتقن العمل

«**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**» فلم نأل نفسنا جهدًا ناحية عمل أو إتقان عمل، وهلم جرا، ولكن دعاة السلفية والوهابية ومن تأثر بهم من الإخوان يا سيدي سيرجمونك لأنك سلبت منهم بضاعتهم التي يتكسبون بها.

– وماذا يضير المرجوم إذا كان الراجم لا يرى الراحم، رحمة ربي غالبة، ولا أبالي ولو كرهني الناس جميعًا ما دام قلبي متعلقًا بالله، كل أصحاب الرسالات حاربهم أقوامهم وستظل هذه سنة الخلق، سيقولون عني ما قالوه في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيدي وسيدك محمد ﷺ، فإذا تقولوا عليك أو رجموك بألسنتهم فحاربهم بالحب ولا تقل إلا «اللهم اهد قومي» واجعل قلبك مطمئنًّا بالإيمان.

● في الذكريات وجدتك تتحدث عن محمد ومحمود والجمَّال، فمن هم؟

– لا يهم الأسماء الآن، إنما الذي يهم هو الأفعال، انظر إلى ما كتبت وقارن بما هو حادث، فلعلها أسماء سقطت من ذاكرة الناس، وقد تكون متصدرة للأحداث.

● وهل سافر أحدهم لليمن فعلًا؟

– سافروا كلهم لليمن، فقد أقسموا على ذلك وقد أبروا بقسمهم.

● وهل يوجد مِن قيادات الإخوان الحاليين مَن سافر إلى اليمن بعد خروجه من السجن حتى ولو بعد خروجه بأشهر أو سنوات؟

– أنت أعلم بهم مني، فقد كنتَ معهم وتعرف سيرة كل واحد منهم.

● كنت قد حدثتني من قبل عن أن اليمن كانت من مشاريع حسن البنا فما هي قصته معها؟

- ابحث يا ثروت عن سر اليمن في فكر كل من اشتاق لإقامة حكومة إسلامية، أما عن حسن البنا فعلى غير ما يعرف المؤرخون بدأت علاقته باليمن منذ العام الأول الذي نشأت فيه جماعة الإخوان، فقد تعرَّف حسن البنا على المؤرخ اليمني الكبير «محمد زبارة» أمير القصر السعيد حيث نزل ضيفًا على الإخوان بدارهم في الإسماعيلية، أعجب محمد زبارة بحسن البنا إعجابًا كبيرًا ورآه شابًّا متوقد الحماس للإسلام يحمل فكرًا راجحًا وبصيرة ثاقبة ورؤية إصلاحية فعرض عليه السفر لليمن ليقوم بشئون التعليم فيها، ولكن هذا المشروع فشل لرفض الحكومة المصرية التي يعمل حسن البنا مدرسًا في مدارسها هذا الأمر، كانت اليمن حلمًا في خاطر البنا، وجد أنها هي الأرض الصالحة لإقامة دولة الإسلام التي في خياله، لذلك كان يقول لأتباعه من الإخوان: «إن نجاح الإخوان المسلمين سيكون من هذا الصقع المبارك لأن أهله مشهود لهم بالإيمان والحكمة».

- هل تعرف يا ثروت ابن حسن البنا؟

● أحمد سيف الإسلام؟ نعم أعرفه وأحفظه عن ظهر قلب.

- إذن هل تعرف أن البنا سمى ابنه «سيف الإسلام» تأثرًا بأسماء أبناء إمام اليمن إذ كان لقب كل واحد منهم «سيف الإسلام» وكان لإمام اليمن ابن اسمه سيف الإسلام «أحمد حميد الدين» الذي أصبح إمامًا لليمن بعد

أبيه؟ كان لحسن البنا علاقات طيبة بأحمد هذا لذلك أطلق على ابنه اسم أحمد سيف الإسلام تيمنًا به.

وفي عام 1937 وثق البنا صلاته ببعض الطلاب اليمنيين الذين كانوا يتلقون العلم في مصر وعندما عاد هؤلاء الطلاب إلى بلادهم أنشئوا فرعًا لتنظيم الإخوان في اليمن، وكان لهؤلاء الطلاب توجهات إصلاحية تناهض أفكار إمام اليمن «الإمام يحيى» الذي كان يدير بلاده بشكل متخلف مستغرق في الجهل، ومع أن طلاب اليمن الذين التحقوا بالإخوان كانوا يشكلون معارضة للحاكم فإن حسن البنا في ذات الوقت عقد صلات طيبة بالإمام يحيى وبأبنائه، وقد استغل حسن البنا هذه الصلة في القيام بدور الوسيط بين الحاكم والمعارضة، وفي تراث حسن البنا ستجد عددًا من الرسائل أرسلها للإمام يحيى يطالبه فيها بإقامة حكم إسلامي في البلاد، وظل حسن البنا يقوم بدور المنسق بين حركات المعارضة اليمنية عن طريق شخصيات مصرية وعربية، ولذلك يعتبر تنظيم الإخوان في اليمن هو أول تنظيم للإخوان خارج مصر.

● أخذتنا لحظة من الصمت إلى أن قطعتها قائلًا: ولكن يبقى السؤال يبحث عن إجابة، لماذا يكذب الإخوان؟ ولماذا يصخب شبابهم بالسب والشتم واتهام الأخلاق بلا بينة؟! هذه أشياء أصبحت ظاهرة وغالبة في هذه الأيام وستصبح قاعدة عامة بعد سنوات قليلة.

ما تبريرها إذن؟

- ثقافة التكفير الجديدة التي هيمنت على الإخوان، أفراد الجماعة يتم تربيتهم عليها، يستطيع أي مراقب أن يفهم ذلك بسهولة، فبدون أن تعرف ما الذي يدور بالتفصيل داخل الجماعة عليك أن تراقب سلوك الأفراد وعندما تجد أن أخلاقهم قد تبدلت ستفهم ما الذي يحدث في الخفاء.

● ولكن كيف يقنعونهم أن هذا دين؟

- باستخدام أدوات الفقه في غير موضعها، ومن خلال الضرورات تبيح المحظورات، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، هذه هي الأدوات الفقهية التي تيسر لهم ارتكاب الخطايا دون أن يرمش لهم جفن، يستندون في خطواتهم الحركية إلى قاعدة «تكثير المصالح ودرء المفاسد» ويلقنون شبابهم أدلة في غير موضعها عن وجوبية التنظيم لأنه هو الذي سيقيم الخلافة دون غيره، ولأن هناك وفقًا لمفهومهم من يقف ضد هذه الفريضة؛ فريضة الخلافة، يقولون في دراساتهم ودروسهم: «يجب علينا أن نسعى إلى إقامة فريضة الخلافة بكل الوسائل حتى ولو كانت هذه الوسائل في ظاهرها مفسدة، فالضرورات تبيح المحظورات، وهذه القاعدة هي إحدى القواعد الكلية الفرعية، فقد أدرجها بعض العلماء تحت قاعدة «الضرر يزال» وبعضهم تحت قاعدة «المشقة تجلب التيسير» أو تحت قاعدة «إذا ضاق الأمر اتسع» وأنه لا واجب مع عجز، ولا حرام مع ضرورة!!» هذا هو كلامهم المحفوظ الذي ما فتئوا يرددونه على مدى أجيال وأجيال، ألم تكن تدرس هذه القواعد وأنت معهم؟

● نعم كنت أدرسها ولكن بتطبيقات مختلفة نوعًا ما.

- وتحت قاعدة لا حرام مع ضرورة ستتسع ضرورات الإخوان، وسيكذبون ويشتمون وقد يفعلون أكثر من ذلك.

● وجدتك في مذكراتك في الجزء المتعلق بالأفكار ترد على هذا التوظيف المتعسف للقواعد الفقهية، وقد كنت أدرك أن هذا التوظيف هو الذي يدفع الجماعة لارتكاب خطاياها إلا أنني أردت أن أسمعها منك صراحة، الآن أصبحت لديَّ إجابات على أسرار كنت أظنها طلاسم أو ألغازًا مدفونة في أعماق كهوف سرية فإذا بها واضحة للعيان، ولكنها تحتاج فقط إلى إمعان النظر، لي طلب عندك يا شيخي الحبيب.

- سل تُجب.

● هل لي أن أحتفظ بصورة من بعض صفحات قرأتها في مذكراتك عن شكري مصطفى وجماعته؟

- هذه من جزء الذكريات لا الأفكار، لأي شيء تريدها؟

● قد أنشرها في مستقبل الأيام ولكن في إطار بحث عن هذا الموضوع.

- لك هذا.

واحتفظت بأخطر ما كتبه شخص عن «جماعة المسلمين» شكري مصطفى.

■■■

هذه بعض صفحات من ذكريات الأستاذ أحمد أبو غالي حفيد الشيخ

طنطاوي جوهري كتبها بعد خروجه من السجن بعامين أي في غضون عام 1973م، وبها يطوي مركب الأسرار قلوعه ويلقي مراسيه، ولا يبقى إلا أن يفكر من وهبه الله عقلًا وفؤادًا ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

«كنا رُفْقة نجلس في مجلس واحد ونسير في مَسِير واحد ولكن شكري هذا كان شحيحًا في الجلوس معنا، وكنت أشعر في شخصيته وعورة؛ لذلك لم أسترح له، وفي صباح أحد الأيام أذكره كالأمس، وكان في يوليو من عام 1967م قال لي الأخ عبدالفتاح ضرغام إن هذا الفتى بحر من العلم. ولكنني أعرضت عن تزكية عبدالفتاح، فلا شكري بحر ولا عبدالفتاح بقادر على قياس المعرفة، شكري عندي لا يزيد عن رَكية ماء ضحلة، وآية ذلك أنني جلست معه عدة مرات لأعرف منتهاه، فأخذ يحدثني عن آخر الزمان والمهدي المنتظر وسرد من ذاكرته أحاديث عن اليمن وأنها ستشهد باكورة المسلمين، ناقشته من الغسق إلى الفجر في فكره هذا وبينت له أن معظم الأحاديث التي يستند إليها موضوعة أو ضعيفة، وكنت قد جلست معه من قبل وهو يحدث بعض الإخوان ورأيت تأثيره عليهم وجحدت قوله وقتها، لذلك أجهدني شكري وهو يحاول إقناعي بصحة رأيه، فواجهته بأنه خرج بعقيدته عن عقيدة أهل السنة والجماعة فقال إن كل القرون التي تلت القرن الأول كافرة، وأن حِدثان هذا الأمر كان وقت قبول التحكيم، وأخذ يشرح تفسير سيد قطب في آيات الحاكمية، وأنا أحذره من الخروج عن المَحَجَّة.

أخذ الإخوان يكتبون خطابات الاعتذار لجمال عبدالناصر فكتب من رفاقي كل من أمين عبدالحميد وعبدالفتاح ضرغام ويونس المطراوي، وتأخر شكري مصطفى ولكنه أجمع أمره وقرر أن يكتب الاعتذار بعد أن أخذ النصيحة كما قال لي من الحاج مصطفى مشهور الذي قال له: هي لله .

كان شكري قد حدثني عن صلته بمصطفى مشهور وقال إنه معه على فكره ولكنني لم آخذ كلام شكري مأخذ الصدق فلم يحدث أن رأيتهما معًا، وزاد على ذلك أن هجره جمع من الإخوان، منهم علي إسماعيل وزايد النمرسي وعبدالفتاح.

أصاب بطني مرض حتى أصبحت ضامرًا من وطأة الوجع فذهبوا بي إلى مستشفى السجن، وقد يرتب الله لنا فتقع أقداره علينا فلا نشعر بعظمتها إلا بعد أن تستبين المسيرة لذلك استشعرت مع هذا المرض معنى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فلم يقل الله إن بعد العسر، ولكن معه، ومع عسر المرض الذي ألمَّ بي قابلت في المستشفى اليسر متمثلاً في رؤيتي للمرشد المستشار الحسن الهضيبي، ولما ناقشته في فكر شكري مصطفى الذي تلقاه من سيد قطب قال إنهم يضعون هذا الأمر نصب أعينهم وإنهم سيكتبون كراسة يردون بها على شكري وأشياعه، كان المرشد قليل الكلام معي ولكنه كان حاسمًا وكان رأيه قاطعًا حين قال إن كلام شكري هو «خَلْف» القول أي رديء الكلام.

دعاني الجمَّال لحضور جلسة خاصة مع شكري وقال: إن شكري ما زال يطمع في تأييدي ومبايعتي. وبالفعل قعدت مع شكري وأقسم أنه يحبني

ويتمنى لي الخير ويطمع أن أكون معه كالغيث، قهقه الجمَّال وقال لشكري: «هو الغيث وأنا الغوث وأنت الليث» فزغده شكري وقال له هذه زغدة الغيث يا غوث، اسكت يا واد انت، لا تتدخل في الحوار بيني وبين عمك أحمد، لمَّا يتحدث الكبار يسكت العيال الرضع، وكانت هذه أول مرة أرى فيها شكري مِهذارًا خفيفًا وشعرت من هذا الهذار أنه سعيد لجلوسي معهم في جلسة البيعة، وفي الجلسة رأيت شابًّا حدثًا جامعيًّا من الإخوان اسمه محمد سامي اشتهر بين الإخوان بالصوت الجميل الرخيم وشابًّا آخر كان في نهاية تعليمه اسمه محمود إبراهيم كان في سجن أبي زعبل قبل أن يأتي إلينا ولشدة نحوله كنا نطلق عليه محمود الناحل، وثالث، اسمه عبدالمجيد كنا نطلق عليه عبدالمجيد البادن لضخامته، فمن المفارقات أن نجتمع في رفقة واحدة مع البادن والناحل.

أخبرنا الناحل خبرًا غريبًا على عقلي هو أن مصطفى مشهور وافق على هذه الجلسة وقال له: إن من سيبايع شكري إنما بايع مصطفى. فهل يفكر مصطفى مشهور ويقرر بعيدًا عن الإخوان؟ وما معنى هذا والمرشد قال لي بنفسه إنه ضد القيح وخلف الكلام الذي نزَّ من فم شكري؟

تحدث شكري حديثًا طويلًا فقال إن طريق الإسلام يجب أن يمر بطريق طويل وإن الطريق يجب أن يكون ظليلًا حتى يقينا عواصف الكفر، والطريق يجب أن يتم تعبيده، وأشار إلى أننا سنخرج في يوم ما من السجن وعندما نخرج لا محيص لنا إلا أن ننشر دعوة الإسلام من خلال كيان له تأثيره على العامة، اقترح شاب حدث من الجالسين أن نلج طريق الجمعية الشرعية،

فقال شكري: إن الجمعية الشرعية لن تقبل وجودنا ولن نستطيع العمل من خلالها وكذلك جمعيات السُّنة، وإنه ليس أمامنا إلا ولوج جماعة الإخوان وقال إن الأستاذ مصطفى مشهور سييسر لنا أمرها، خاصة وأن هناك من يرفضنا وينبذ فكر الشهيد سيد قطب.

شرح شكري الخطة التي يقترحها وهي أن تسير فرقته فرقة المسلمين في اتجاهين الأول علني والثاني سري، الفرقة العلنية ستسير خلفه وتناصره وتذب عنه فيجري عليها ما يجري عليه والثانية السرية تخفي إسلامها ولا تصدح بعقيدتها وتساير الناس في الظاهر وهذه هي الفرقة التي ستلج وفقًا لكلماته إلى الإخوان كما يلج الجمل من سم الخياط، وقبل البيعة قال شكري إنه يرشحني ومعي محمد سامي ومحمود الناحل من ضمن الفرقة السرية وقال إن الأمر سيكون يسيرًا لأن أحمد إبراهيم أبو غالي من الإخوان وموثوق به وصلته طيبة بالمرشد ومحمد ومحمود لهما صلة التابع بالمتبوع بالأستاذ مصطفى مشهور، ثم وضع شكري يده على ظهر «قفص» كنا نعتبره طبلية للطعام ومكتب للكتابة وقال مدوا أيديكم فوضعنا أيدينا على يده وردد هو القسم ورددنا وراءه ولكن قلبي خاصم ما قلته بلساني والله أسأل أن يغفر لي ويعتقني من النار.

وكان قسم البيعة هو (إن الله ربنا ومحمدًا نبينا والقرآن إمامنا ومن كان معنا كنا معه ومن كان علينا كنا عليه، الصاع بالصاع والكيل بالكيل، وأعاهد الله العلي العظيم الواحد الأحد الكبير المتعال على نصرة جماعة المسلمين، على أن أسمع وأطيع في المنشط والمكره للأخ شكري أحمد مصطفى عبدالعال

ومن ينيبه من الأمراء في سبيل إقامة الإسلام والجهاد في سبيله والموت دونه وأعاهد الله أن أهاجر إلى اليمن إذا طلب الأمير مني ذلك أو إلى أي أرض أخرى أو إذا حيل بيني وبين الأمير على أن أظل على جهادي في سبيل إقامة الإسلام وأنا في أرض اليمن وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه)».

■■■

في التاريخ حصان طروادة، وفي التاريخ أيضًا الطرق الصوفية!! كيف يستطيع كيان الإخوان أن يدخل بسهولة ويسر إلى الجيش دون أن يترك ريبة في النفوس التي تراقب وتشك وتعد الأنفاس؟! المسألة لا شك دقيقة، يتوقف عليها إما حياة بجوف الردى، وإما ممات بأيدي العدا، والمطلوب هو أن تخرج الجماعة من هذه المعضلة منتصرة شامخة، تمامًا مثل الساحر كوبرفيلد الذي يتم تكبيله ووضعه في صندوق محكم الإغلاق وقذفه في أعماق البحر والمطلوب بعد ذلك أن ينجو بنفسه، فإذا به بعد برهة يخرج طافيًا على سطح الماء رافعًا يده علامة البهجة فاتحًا إصبعيه علامة الانتصار.

■■■

بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير بعدة أشهر جاء هادم اللذات ومفرق الجماعات ليقبض روح صديقي «العميد حسنين» الضابط السابق بالنيابة العسكرية، اتكأت على عصاي وعلى كتف أحد المحامين بمكتبي كي أحضر جنازة العميد الذي اقتربت منه واقترب مني منذ أن ذهبت إليه في

مكتبه بالنيابة العسكرية في غضون عام 2001م كي أقدم طلب فتح باب مرافعة في قضية النقابيين، ومن بعدها صار العميد حسنين صديقًا لي ألجأ إليه ويلجأ لي بين الحين والآخر، لم يكن مستغربًا أن يحضر الجنازة عدد من المحامين فقد اشتغل المرحوم بالمحاماة بعد خروجه على المعاش، كما أنه كان من الطبيعي أن يحضر الجنازة بعض قيادات سابقة في فرع القضاء العسكري، إلا أنني فوجئت بحضور الأخ «أشرف» الذي كان معي في إخوان منطقة الزيتون وكان في السابق ضابطًا مهندسًا من خريجي الفنية العسكرية وقد بزغ نجمه إخوانيًا بعد الثورة وكان يحضر الجنازة أيضًا «الرائد هاشم» الذي كان قائدًا لي في فترة التجنيد عام 1981م والذي أخبرني أشرف منذ زمن بعيد أنه ينتمي إلى الإخوان ولكنه يخفي خبر انتمائه هذا لأسباب أمنية، وقد أصبح أحد كبار المسئولين في النظام فيما بعد «وبالقطع لم يقف عند رتبة رائد ولكنه نال موقعًا سياسيًّا كبيرًا» ما الذي جمعهما بالعميد حسنين رحمه الله؟ كان العميد حسنين صوفيًّا حتى النخاع، أما أشرف فقد كان إخوانيًّا وهاشم كذلك!! صحيح شاب الفتور العلاقة التي بينه والإخوان خاصة في الفترات السابقة على الثورة، فقد كان متحمسًا للدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح ناقمًا على الإخوان بسبب طريقتهم في التعامل مع المختلفين معهم في الرأي إلا أنه لم يغادر التنظيم.

وفي العزاء بمسجد آل رشدان انفردت بالأخ أشرف: شُف يا أشرف، نحن أحباب منذ زمن بعيد، وأنا أخوك مهما فرقت السبل بيننا، فبحق الأخوة التي جمعت بيننا والعيش والملح الذي أكلناه سويًّا، أريد أن أعرف

منك بصراحة، هل كانت هناك صلة بين الإخوان والعميد حسنين، عليه رحمة الله؟

- لن أخفي عليك يا أخي ثروت أمر الصلة، خاصة وأن الثورة قامت، وما كان سرًّا لا يجوز الإفصاح عنه في أيام مبارك السوداء أصبح مباحًا الآن، ورغم خلافي الحالي مع الإخوان فإنه ليس كخلافك، أنا اختلفت معهم وما زلت معهم، وأنت اختلفت وهجرتنا إلى آفاق أخرى، ونحن الآن في طور التمكين ولا تثريب عليَّ لو قلت لك طرفًا من أشياء لا يعرفها أحد، لذلك سأجيب عن السؤال الذي أقلقك، نعم يا أخي كان العميد حسنين من الإخوان، وكان عضوًا بالمكتب الإداري لقسم الوحدات، كان مسئولًا عن بعض أنشطة إخوانية داخل الجيش.

- ولكنه كان صوفيًّا؟!

- نعم كان صوفيًّا، وهل هناك مشكلة في ذلك؟، ألم تقل أنت في أحد البرامج التلفزيونية على المرشد الدكتور محمد بديع «إنه صاحب قلب صوفي وعقل قطبي» كان العميد حسنين رحمه الله صاحب قلب صوفي وعقل إخواني، لم يكن في الإمكان يا أخ ثروت أن يُعَبِّر الشخص منا داخل الجيش عن عاطفته الدينية دون أن يلفت إليه الأنظار إلا إذا كان صوفيًّا.

- يا الله كانت الصوفية غطاءً لأنشطة الإخوان في الجيش! الطرق الصوفية كانت هي الصندوق الذي اختبأ فيه «قسم الوحدات» فلم تره الأجهزة المخابراتية!!

- وهل كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك؟

- ولماذا الجيش؟ ما الداعي لإحياء قسم الوحدات؟

- لماذا الجيش؟! هذا سؤال إجابته معروفة لديك، ولولا قسم الوحدات ما نجحت الثورة.

- كيف هذا؟ فِكر الإخوان ليس فكرًا ثوريًّا، والجيش وحده هو الذي ناصر الثورة من البداية ثم استوعبها بعد ذلك.

هذا ظنك، فِكر حسن البنا ليس ثوريًّا هذا صحيح، ولكن ادرس من جديد فكر سيد قطب، سيد قطب يا أخ ثروت فكره ثوري، ثم إن الجيش بالتعاون مع الإخوان هو الذي ناصر الثورة، لا تغفل دور الإخوان.

- وما علاقة قسم الوحدات أو الإخوان بوقوف الجيش مناصرًا للثورة في بدايتها؟

- هناك قادة في الجيش لا تعلمهم ولا أعلمهم كانوا أقرب إلى الإخوان من حبل الوريد، وإن كانوا في الظاهر من أشد أعداء الجماعة، وهؤلاء لن أخبرك عنهم بطبيعة الحال.

- هل كانوا يعلمون بالثورة قبل موعدها؟

- كل ما أستطيع قوله لك إنهم ساعدوا في نجاحها، لذلك كان عصام العريان محقًّا عندما قال إن الإخوان يخططون للثورة منذ مدة، وإنهم شاركوا في الثورة منذ البداية، وقتها سخر منه كثير من السياسيين وسخرت أنت أيضًا منه في مقال لك، ولكن هذه هي الحقيقة.

- والخلافات التي بين المجلس العسكري والإخوان؟

- مصارين البطن بتتخانق، ثم إنه لا يوجد خلاف أصلًا، الخلاف فقط مع بعض قادة من المجلس العسكري، لهم طموحات خاصة وصلتهم بالإخوان سيئة، وثق أننا سنستوعب هؤلاء قريبًا.

- أو ستبتلعونهم؟

- ربما.

- بهذا يكون «الجيش والإخوان إيد واحدة».

- لا، تعبيرك غير دقيق، الجيش والإخوان جسد واحد.

- ولكن العميد حسنين كان صديقي ولم يخبرني بشيء من هذا أبدًا، بل كان يناقشني كثيرًا ويهاجم الإخوان وينتقد تصرفاتهم واستغراقهم في السياسة.

- ليس كل ما تراه يا أخ ثروت حقيقيًّا، بطن الإخوان واعر ودهاليزه كثيرة.

- وهل كنتم تعرفون صلة العميد حسنين بي؟

- كنا نعرف طبعًا يا أخ ثروت وإخوانك هم الذين يسروا أمر قيده في نقابة المحامين، أنت فقط قدمت الأوراق وهم قاموا بالباقي.

- ولكن صلتي به لم تكن قوية بالمعنى المعروف، كانت الزمالة المهنية هي أساس الصلة.

- هل تذكر يوم أن طلب منك الدكتور محمد بديع وقت أن كان في السجن

أن تذهب إلى المحكمة العسكرية وتتحسس وتنقب عن أخبار الحكم الذي لم يكن قد صدر بعد في قضيتهم «النقابيون»؟

نعم، في هذه الزيارة تعرفت على العميد حسنين.

- العميد حسنين كان ينتظر زيارتك وقتها، وكان من المفترض أن يخبرك بأي جديد في القضية لتوصله للإخوة في سجنهم.

- ولكنه لم يخبرني بشيء.

- يوم زيارتك له لم يكن قد عرف شيئًا، ولكنه أخبر الإخوة بالحكم قبله بيوم.

- لم يخبرني أنا.

- نعم، ولكنه أخبر أخوة آخرين كانوا على اتصال به.

أظنك تعبث بعقلي! لا يمكن أن يكون العميد حسنين إخوانيًّا! هذا أمر لا يدخل عقلي أبدًا!

- يا أخ ثروت أنا أصدقك القول وما كذبت عليك قط، الإخوان وأنت تعلم أنني أختلف معهم قليلًا، يخططون منذ البداية، منذ حسن البنا، لقيام دولة الإسلام، وغبي هذا الذي يظن أن قيام الدولة يكون بالجلوس في الأسرة والشعبة والكتيبة والاكتفاء بالذكر والدعاء وأذكار الصباح والمساء والخطابة بين الناس، الدولة تقوم بالعمل والجهاد، والعمل يكون بامتلاك أدوات القوة، والقوة تكون في الساعد والسلاح كما قال حسن البنا، والجيش

هو إحدى هذه الأدوات، فمن ظن أن الإخوان كانوا بمنأى عن الجيش والسلاح والقوة فإنه أحمق يهرف بما لا يعرف.

- ولكن العميد حسنين كان رجلًا طيبًا حقيقة ولا أظنه تجسس عليَّ أبدًا.

- أنا أعرف أنه كان يحبك، ولم أقل إنه تجسس عليك؛ إذ لا حاجة للإخوان في التجسس عليك، إلا أنه ظل مصاحبًا لك وفقًا لأمر الإخوة، ولو قالوا له أن ينفض يده منك لتركك فورًا وانقطع عن التعامل معك.

- عالمكم هذا غريب يا أخ أشرف، عالم التنظيمات السرية، معظم الأمور الظاهرة فيه غير حقيقية، وقد يكون خلافك أنت الآخر مع الإخوان مختلقًا، وقد تكون بعض الانشقاقات عليكم وهمية.

أنهى القارئ الشيخ عبدالفتاح الطاروطي الحوار بيننا عندما استعاذ وبسمل ليبدأ في تلاوة الربع الأخير على الكلمة الأخيرة التي قالها لي الأخ أشرف وهو يبتسم: ربما.

وثـــائـــق وصـــور

خطاب أرسله المسجونون من الإخوان في قضية النقابيين لأحد قيادات الإخوان يخطرونه فيه بأنهم فوضوا ثروت الخرباوي لإدارة قضاياهم.

Communication /meeting

Communications/Rencontres
Mitteilungen/Tagungen
Comunicazioni/Incontri
Comunicacion/Reunion

Subject 24 - 11 [illegible]
Sujet
Subjekt
Thema
Tema

URGENT

N.

Dear Dr. D.

السلام عليكم ورحمة الله

تحيات واشواق محب لاخوة . اما بعد

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] Early [illegible]

[illegible]

[illegible]

2 - [illegible]

[illegible]

[illegible] قالوا عنه انه

He is a respectable man

نص الخطاب المُرسل من أحد إخوان أمريكا لأحد قيادات الإخوان في مصر بشأن المفاوضات الجارية بين الإخوان والحكومة الأمريكية

Communication /meeting

Mitteilungen/Tagungen
Comunicazioni/Incontri
Comunicacion/Reunion

Subject
Sujet
Subjekt
Thema
Tema

د- نقل وجود [illegible] المنفق (وقالوا انه ينتظر
الانتظار) اسرائيل [illegible] مناورة [illegible]
[illegible] ولا [illegible] [illegible])

هـ- [illegible] [illegible] انهم [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] المنطق - [illegible]
المرحلة [illegible] اننا [illegible] [illegible] -
وقد [illegible] بالاصدقاء
و- [illegible] [illegible] [illegible] الحوار
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
الحوار ينبغي ان يتم [illegible] وراء [illegible] الحرب
وقالوا اننا ينبغي ان نتخلص من [illegible]
ح- اوصوا طرح مسألة الحوار [illegible]
او [illegible] حتى تصبح امرا واقعيا وقالوا
ان [illegible] للناس [illegible] [illegible]
[illegible]

Projects	Projekt Progetto Proyecto

Target Doel Ziel Obiettivo Objetivo	Start Debut Start Inizio Comienzo	Finish Fin Ende Fine Fin
	3	

*

Idea/Summary Idee/Sommaire Idee/Zusammenfassung Idea/Sommario Idea/Resumen

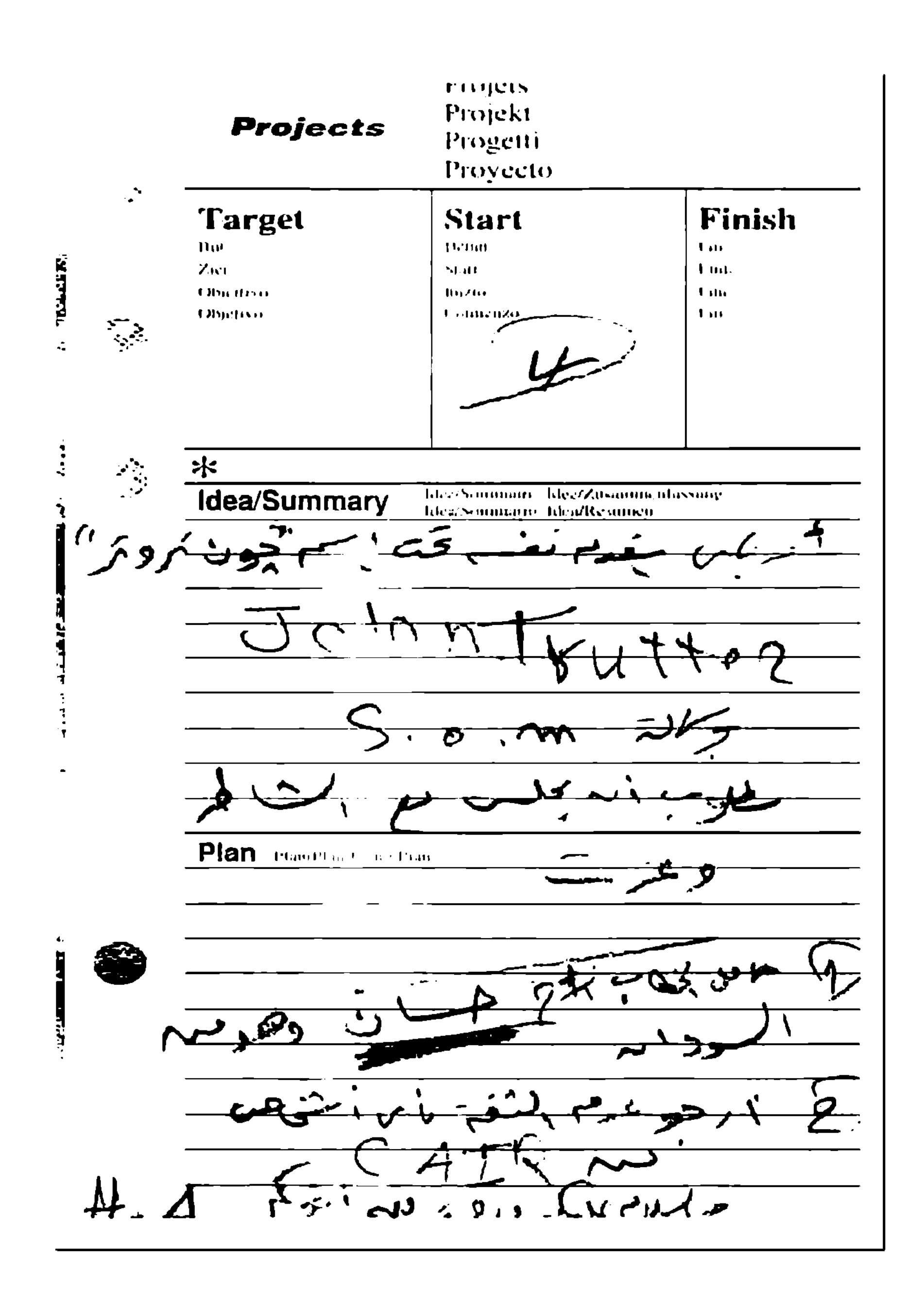
توجيه المعنيين الآتي يتحركوا سياسيًا في ظلال
عام وتمهيد من الأصدقاء ضغوط على الحكومة
للموافقة عليه

[illegible] مع الحوار مع [illegible] و[illegible]
من القضايا الكلية ولا ما تفرضه [illegible] في
المرحلة

Plan Plan/Plan/Piano/Plan

في حدود الحفاظ على كيان الكائن ومنها الحالة
دستوريًا أو شعبيًا ورفع [illegible]
[illegible] الخطة الأولى

ونظرًا لأن [illegible]
[illegible] في المصنف الأول [illegible]
الحوار [illegible]



Projects

Projets
Projekt
Progetti
Proyecto

Target	Start	Finish

*

Idea/Summary

Plan

(١)

بعد صدور الحكم الدستوري بإلغاء المادة ٤٨ عقوبات

ليست الشفاعة ما نريد .... بل العدالة -

حضرة الأستاذ الكبير / محمد علوان المحامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بعد وافر الاحترام والتقدير:

لم يكن وقوفكم معنا بالكلمة الجادة بمستغرب عليكم .. ونعلم مشكورين الصفات

ما لا يجعله إلا أمثالكم المخلصين لا سيما وقد تدرب أحدنا بمكتبكم وما لزمه منه

بعد الوقائع في عبور السنين إلا أن من فضلكم عليكم أو زملائكم لا يمكن أن ينسى بركة

البيضاء وأمن تسبغ بها خير ذكرهم ونظيره ما كانوا يؤمنون به صنيع عليهم حاجة

ونمضي بعمر لحظة ذرى تعاليم السالم هو صابر حقل .. سالم يتهور الآخرون إهماله .

ومشاغلكم حياة لم تنقطع أواصرها حتى بعد انتهاء فترة التدريب على المحاماة .

فقد كنا نحتاج منكم إلى تدريب أرقى إلى أن وصل بنا التعلم إلى أن ما تسلمنا أعلى المبادئ

وقد دب بنظام الحياة وبعض منها الدامل معارف واقعًا يستحق أن يضحي من أجله ...

لا أن يضحي به . هذا وقد قرأنا مقالكم الثمين منذ عدة أسابيع تنشر مقالات

بقلم الزميل الأستاذ / سامح عاشور "نقيب المحامين" وقد أوجدنه الأقدار لمقابلة

السيد / رئيس الجمهورية ولم تكن قضية أمراء من المحكوم عليهم في القضية رقم ١٨ لسنة

عسكرية عليا ضمن نقاط اللقاء .. وكان سيادتكم قد استنكر ذكر السكوت إلينا

فنستغرب أن تكون من أولويات المطالب ..

ولكن في الحقيقة لم نطلب من الأستاذ الزميل شيئًا من ذلك . ولم نذكر لحظة أن

يملي على زمالته أولويات مهامه وقد ترك منصب نقيب المحامين وأعرب عن مشاركته

العاطفية معنا في زيارة خاصة عقب صدور الحكم نشكر له فيها نقيبنا شارة .

ولا ينفي ذلك أننا كنا نرجو ومازلنا أن تكون زمالته هي رسول البحث عن العدالة

لا الشفاعة .

ونستعجل أن أرسلنا إلى سيادتكم رسالتنا أثناء المحاكمة وقلنا فيها : إننا نأمل أن

تكون هذه المحاكمة هي رسول العدالة إلى كل ما يعتبر رفع الظلم مجردة من المفاهيم

لم يرتكبوا إثمًا أو جرمًا إلا حماسهم لوطنهم وأبناء جلدتهم ولم يكن لهم من دافع إلا

الشريف من الغايات . فالتمسوا فيها روح الأمان وروية المستقبل .

وكان من وقفة الدكتور الفاضل أحمد جمعة ورئيس من الوفد وقفة رئيسه في المحكمة وأشاد

الآلة صحيحة عدالة غابت لا نعرف فلنا الإشارة إلى الدكتور / عاطف البنا

أحد الخطابات التي كان يرسلها المسجونون من الإخوان في قضية النقابيين وعلى رأسهم المرشد الحالي د. محمد بديع، للأستاذ ثروت الحرباوي وكان الهدف منها أن يقوم بنشرها في الصحف لتفعيل قضيتهم إعلاميًا



والدكتور محمود السقا . وأجل المحامين حرصهم على سوق الرسائل الواضحة إلى الكافة مثل
المغاضبين تدرج بهم ظلما في أتون الحكم العسكري . من قبضة المعلومات الظالمة ونشرة
الأحكام العاتية .

ولعل رسول العدالة الأول من هذه القضية كان الأستاذ / رجائي عطية .. ولعله كان الرسول
الذي تغرب قومه فلم تصل رسالته . لكن رسولها هذه المرة كان أحد شهود الجريمة
فلم نصدق ما رواه البعض من أن شاهدنا لم تشتره وتكرر شهادتنا أنفسنا فقلنا
" رسول تغرب قومه " وهذا أفضل .
وكان كل ما طلبناه من شاهدنا هو العدالة لا الشفاعة
ولم يكن محكمي المحكمة العسكرية العليا هو طريقة الأصل في إثبات زيف الاتهام .. أو الصمت
عن حلاوة الاعتراف من يحاكمنا بروعة ما اقترفوه . فاستمر نضالنا من أجل التعبير عنه
حقنا من داخل الأسوار متمثلا في سلوك مشهود به الجميع واستماتة لأصحاب الفضل
في مطالبة سامية بالحقوق . ومطالبة بالعدالة في الطعن على الحكم الصادر في الجناية
١٨ لسنة ٦٩ عسكرية عليا .. والذي قررنا فيه أننا نحاكم في قضية بلا دليل ولا شاهد ..
وأن قاضيكم قد شرد بعيدا عما صدر من زيف فجعله لنا أن نصف حكمه بإيجاب
الصواب في طعن قدمناه في مسلك القاضي أمام جهة عسكرية أعلى
ولم تصل رسالة العدالة الثانية حتى الآن .. فقدت طريقها إلى الوجود .. وللمرة
الثالثة كان ما نطلبه هو هو العدالة لا الشفاعة
ولم يضعف من عزمنا أن قارب الحكم الجنائي على الانتهاء .. فإن الذي يحركنا
هو محاولة هدفها إثبات الحق وليس الهروب من المحنة .
بل أن مرور العامين كان هو الدرع الذي تترسب ضده سهام الظلم والدعايات فأظلها
نتاج تهم الصغار أن يوصفوا من شأنه كل قوي ثابت بدور الإسهام لأمم بذلك
يجعلون من صفاتهم شعارا للصغار ويحرمون صور البطولة من نفوس الشباب والأجيال .
فكان عزمنا على إظهار الحقيقة والدفاع عن قضيتنا مستمرا حتى بعد انقضاء تنفيذ
الحكم الجائر والذي هو منه الله إياه فلم يبعد منه شيئا ما فات والله الحمد والمنة .
ولكن نضال الحقيقة لا ينبغي أن يقف حتى تنكشف المحنة .. فحقنا لم ولن تكون من
السجن أبدا وإنما هي تكمن في إلزام الظالم وإنما حتى أطلت علينا المحكمة
الدستورية العليا بحكم النار تحكم بالعدل يقضي بعدم دستورية المادة ٤٨ عقوبات بقراركم
جميعا .

٣

ومرة أخرى تظهر لنا شمس العدالة من جديد .. وحينما يكون الحديث حول القانون وأحكام القضاء .. نجد حديث العارفين والراسخين .. فإذا ضاعت الأقدار فدونه عدل المواقع عدل القضاء الدستوري . فإنه يجب لنا عند الناس أكثر من جهد يتحرى ما صنع علينا عندما الجهاز الدائم في تطوير جميع الوقائع وضبط القانون .

ذلك أن القانون كان يجرم في مواد عديدة ما هو أسبق من الجريمة التامة وهي مرحلة الشروع ... فما أسبغ على الشروع معيار الدقة فأخرج المقرر تعريفا للشروع في الجريمة لكنه لا يختلط الأمر بمجرد الأعمال التحضيرية تلك الأعمال التي لم يجرمها القانون إلا أن تصل إلى مرحلة الشروع .. فيطلق عليها الجريمة الخائبة

ثم كان ذلك النص المخالف لكل قواعد التجريم وهو نص المادة ٤٨ عقوبات الذي ولد في ظل ظروف سياسية محددة ولم تكن حضارة الرائع في مصر تترك هناك وجود الجهة الدستورية العليا حتى تقوم بإلغائه ... فجرمت المادة ٤٨ مجرد الاتفاق على أشياء الفعل المجرم ولو لم يدخل المتهم في مرحلة الشروع ..

فوقع الفقه الجنائي في حيرة صنعها النص العظيم . نص المادة ٤٨ عقوبات .. فبينما رفض الفقه تجريم مجرد الأعمال التحضيرية للجريمة ما لم يبدأ المتهم في الشروع أو يدخل في دائرته اصطدم الفقه بنص المادة ٤٨ والتي تجرم مجرد الاتفاق والنوايا ولم يكن من سبيل للطعن أمام المحكمة الدستورية ذلك أن رغبة النظام قد افتقدها في القضايا السياسية ذات الطابع الفكري والتي تنظر عادة أمام المحاكم العسكرية وعلى أحسن الفروض قد تنظر أمام محاكم أمن الدولة العليا " طوارئ " والتي لم تسمح محاكمها للقانون للمتهم بالطعن أمام محكمة النقض ولو ظلما في تطبيق القانون مما أطال في عمر هذه المادة المعيبة فاقت أعمار أقرانها من المواد المعيبة .. حتى طعن عليها أحد المتهمين في غير القضايا الفكرية أو السياسية .. إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل أن أصول الفقه الجنائي ظلت تبحث عن مخرج لتكييف جريمة النوايا المنصوص عليها في المادة ٤٨ حال كونها تفتقد إلى أركان الفعل المؤثم من ركن مادي أو معنوي وعلاقة سببية . سواء أكانت الجريمة من جرائم الضرر أو من جرائم الخطر فإن القانون قد استلزم لكل عقاب النص مع السلوك المادي .. والذي انعدم بالقطع في جريمة النوايا والتي نصت عليها المادة ٤٨ عقوبات .

ثم راحت آلة التشريع تنتج العديد من المواد والتي رفعت العقوبات الجنائية أمام نوايا لم تخرج من نفس المتهم ثم تعددت الاعتداءات والأفعال فجرمت المادة ٩٨ أ العديد من المنظمات والجمعيات متى كان الغرض منها الدعوة أو الحض على أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الجمعية الاشتراكية ثم تركت النص عاريا من أي تبيان لفعل مادي واحد يكون به

(٤)

اقترانه بوعاء من أنواع الكراهية أو الحض على كراهية المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الاشتراكي .. وظلت هذه المواد هي مملكة التطبيق حتى ولدت المادة ٨٦ والمادة ٨٦ مكرراً وما بعدها كنتاج لحالة العنف الذي جثم على المجتمع المصري في تلك الوقت وصدر القانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٩٢ محدداً معنى الإرهاب في المادة ٨٦ ثم تلت هذه المادة مادة أخرى تجرم التجمعات والجمعيات السلمية وهي المادة ٨٦ مكرراً .. وكانت هذه المادة هي الظلم الظلامي منذ تشريعها ومنذ أمامنا ولا زال كذلك من تخصص ٢٨ تشريع التجربة عليا والمتخصصين فيكرنا بالسجن على تجربة من صفوة علماء مصر وشبابها وكنا "منار عزم وخالد ... منهم هذه المجموعة .. وما كان أمامنا إلا أن نزج بعدم دستورية نص المادة ٨٦ مكرراً على الأقل لطبيعة المحكمة ومكانها ونزاهة قضاتها .. فهي عسكرية بما يجعل قرار الإحالة إليها من حالة سياسية وعجباً أن تدفعنا والحال كذلك إلى نهج الأمر وتجنب الكثير من الألفاظ والدفوع حتى ولو كانت تجعل الطعن من جانبك .. وكان الحديث عنا .... وكان من المثير أن أشرنا إلى بعض عبارات المحكمة الدستورية وكشف مواطن عيب المادة ٨٦ مكرراً والتي تفتت وتشكل الحكم .

" يعاقب بالسجن كل من أنشأ أو نظم أو أدار على خلاف أحكام القانون جمعية أو هيئة أو منظمة أو جماعة أو عصابة يكون الغرض منها الدعوة بأية وسيلة إلى تعطيل أحكام الدستور أو القوانين أو ...... أو ...... ويعاقب بالسجن مدة لا تزيد على خمس سنوات كل من انضم إلى إحدى الجمعيات أو الهيئات .... "

فالنص المذكور قد شارك بلا ريب المادة ٤٨ عقوبات المقضي بالقضاء في تجريم الوفاق والاتفاق . ومن المقطوع به عند أهل الفقه والقانون والقضاء أن استهداف مخالفة الدستور والقانون هو أمر نفسي لا يأخذ طريقه إلى الوجود بل يستحيل أن يأخذ طريقه إلى الوجود إلا بفعل مادي يعاقب عليه القانون .

ومن الجدير بالذكر أن العقوبة في المادة ٨٦ مكرر قد وضعت كمقابل لاستهداف الجمعية لتلك الأغراض من المؤثمة وليس لإنشاء الجمعية دون ترخيص والتي جرمها القانون بجنحة في مواد أخرى متفرقة في قانون العقوبات وكذلك قانون الجمعيات .

ومن هنا فإن حكم المحكمة الدستورية العليا لم يقض بالغاء المادة ٤٨ من قانون العقوبات فقط وإنما قام بالغاء كافة المواد التي تجرم الأغراض والأهداف والنوايا دون أن تكون مصحوبة ... بفعل مادي ... وفي هذا النحو نص الحكم الصادر من المحكمة رقم ١١٤ لسنة ٢١ دستورية على تطبيق هذه القواعد الدستورية على مواد الجمعيات والمنظمات ومنعت التجريم في الجمعيات على مجرد النوايا أو الأغراض ما لم يكن من أفعال تحرياتهم صحيحة الإسناد .

وعلى هذا جرى نص الحكم الدستوري على:

فالاتجاهات المعاصرة للسياسة الجنائية في مختلف الدول منتهية كما تشير المؤتمرات المتعاقبة للأمم المتحدة بشأن منع الجريمة ومعاملة المجرمين إلى أهمية اتخاذ التدابير المانعة لوقوع الجريمة وسن النصوص التي تكفل وقاية المجتمع منها وتجريم الاشتراك في الجمعيات الإرهابية وتنمية التعاون الدولي لمكافحة الجريمة المنظمة. إلا أن شرعية النصوص التي تتخذ كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف مناطها توافقها وأحكام الدستور والتقيد بمبادئه ومقتضياته ومن ثم يتعين على المشرع في هذا المقام إجراء موازنة دقيقة بين مصلحة المجتمع والحرص على أمنه واستقراره من جهة وحريات وحقوق الأفراد من جهة أخرى

فهذا المبدأ الدستوري الذي ذهب إليه النص صراحة في عدم جواز إهدار الضمانات العامة للحريات تحت ذريعة استهداف الاستقرار والصالح العام. هذا المبدأ وضع كل المواد التي دأبت على تجريم النوايا والأغراض في قالب واحد مع المادة ٤٨ في القفص بالعاكر.

إلا أن الحكم الدستوري لم يقف عند هذا المدى الوضيح .. بل أراد أن يضع الإطار الكامل لفلسفة النصوص العقابية والتشريعية فنص على وجوب الالتزام التشريعي بصياغة الركن المادي للجريمة انطلاقا من نصوص الدستور من مواد ٤١، ٦٦، ٦٧ والتي تستلزم جميعا لا سيما المادة ٦٦ من الدستور أن العقاب لا يكون إلا على أفعال مادية ملموسة وليس على مجرد النية أو الاستهداف ومن هنا فنص الحكم صراحة على

وحيث إن الدستور بنص المادة ٦٦ سالفة الذكر قد دل على أنه لكل جريمة ركن مادي لا قوام لها بغيره، يتمثل أساسا في فعل أو امتناع وقع بالمخالفة لنص عقابي مفصحا بذلك عن أن ما يركن إليه القانون الجنائي ابتداء في زواجره ونواهيه هو مادية الفعل المؤاخذ على ارتكابه إيجابيا كان هذا الفعل أم سلبيا ذلك أن العلائق التي ينظمها هذا القانون في مجال تطبيقه على المخاطبين بأحكامه محورها الأفعال ذاتها في علاماتها الخارجية ومظاهرها الواقعية وخصائصها المادية إذ هي مناط التأثيم وعلته وهي التي يتصور إثباتها ونفيها وهي التي يتم التمييز على ضوئها بين الجرائم بعضها عن البعض وهي التي تديرها محكمة الموضوع على حكم العقل لتقييمها وتقدير العقوبة المناسبة لها ولا يتصور بالتالي وفقا لأحكام الدستور أن توجد جريمة في غيبة ركنها المادي ولا إقامة الدليل على توافر السببية بين مادية الفعل المؤثم والنتائج التي أحدثها بعيدا عن حقيقة هذا الفعل ومحتواه ولازم ذلك أن كل مظاهر التعبير عن الإرادة البشرية.

- وليست النوايا التي يضمرها الإنسان في أعماق ذاته - تخرج واقعة من منطقة التجريم
- كلما كانت تحكمت سلوكاً خارجياً مؤاخذاً عليه قانوناً فإذا كان الأمر غير متعلق
بأفعال أحدثت إرادة مرتكبها وتم التعبير عنها خارجياً في صورة مادية لا تخطئها
- العين فليس ثمة جريمة
- ثم سار حكم المحكمة الدستورية العليا على هدى الخطوات العينية من صفحات متتالية
- عمدت عنه بدون رقي الفهم القانوني إلى انه خلص في ترجيحه إلى :
- وحيث إن الرقابة القضائية التي تباشرها هذه المحكمة في شأن دستورية
النصوص العقابية يضبطها مقاييس صارمة ومعايير حادة تلتئم وطبيعة
هذه النصوص في اتصالها المباشر بالحرية الشخصية التي أولى الدستور
- قدرها عناية رصدها على المشرع البناني أن يتجنب الوسائل القانونية السليمة
- سواء في جوانبها الموضوعية أو الإجرائية لضمان ألا تكون العقوبة أداة قامعة
- بالحرية وأن تكون العقوبة التي يفرضها في شأن الجريمة تبلور مفهوماً للعدالة يتحدد
على ضوء الأغراض الاجتماعية التي تستهدفها أو أن يسرج تحرك مجرد رغبة
الجماعة في إرواء تعطشها للثأر والانتقام أو سعيها للبطش بالمتهم كما لا يسوغ
للمشرع أن يجعل من نصوصه العقابية شباكاً أو شراكاً يلقيها ليتصيد باتساعها
أو بخفائها من يقعون أو يحيطونه مواقعها

والآن سيدي الأستاذ هل رأيت بعين اليقين مدى حاجة المحكوم عليهم
إلى عدالة ظاهرة لا إلى شفقة ترتجى .
- لقد شغلنا أثناء نيل العناية أثناء المحاكمة عن أن نخوض في غمار النص
كما ينبغي ... ولكن لم يكن ذلك إلا لأننا كنا نحاكم بأوراق خلت من ثمة
دليل على ما أطلقت عليه النيابة المبيت في مقاومة نصوص الدستور .
بل أن الأوراق والشهود والأحداث ما كانت إلا لتتصارع كي تثبت أننا
نحن المدافعون عن الدستور والقانون
بل أن السيد اللواء رئيس المحكمة العسكرية - وقد وقر في نفسه منذ اللحظة
الأولى خلو الأوراق يقيناً من ثمة دليل أو إشارة عن دليل على نحو مادي ملموس
- يمكن نسبته إلى المتهمين المدنيين - فقد سارع لسؤال شاهد الإثبات الأول
في القضية النقيب أحمد ... سؤالاً مباشراً "أعطني دليل على شيء مما ذكرته في مذكرة
تحرياتك ؟!!" فلم يحر شاهد الإثبات ولم يحر جواباً ذكر على السيد اللواء رئيس

لا

المحكمة لسؤال فيراه شاهد الإثبات لم يكن لديه من سبيل إلى الإتيان بدليل للوجود
له بل إن وجوده من أوراق هذه الدعوى لهو رابع المستحيلات .
فإن نظر معنا بعين المحترم إلى من فصل إظهار صدقنا وهم كثر ، وانظر
معنا بعين العدل إلى من حرص على دفع الظلم عنا وهم أكثر .
سواء أكانت المرحلة التي كنا نعيش فيها بين الوقائع التي حسبت النيابة أشرفت بأنه
الحقيقة أبقى وأدوم وها هي المحكمة الدستورية العليا تخرج بها إلى نور الحقيقة من
جديد إذ أن ما عنيت له محاكمتنا لم يكن إلا استثناء جرى إجراء مع أول علامة
من علامات الصبح الجميل .
وإذا كنا نطالب الآن بصدور القرار الصحيح العادل بإنهاء هذه المرحلة والإفراج
عن جميع المقدم عليهم فوراً . فإننا نتوسم التزاماً فرضته القيادة السياسية على
نفسها أمام الشعب باحترام أحكام القضاء والدستور ، وفعلا كرست في المحكمة
الدستورية العليا ، كما نتوسم أملاً في أن ينتهي هذا الموضوع من موقفنا بعدالة
نطالب بها ولو انتهت سنوات السجن ، وقد قاربت بفضل الله على الانتهاء .
ويسعدنا في معركة الحقيقة هو ما منحنا الله من ثبات وسلام داخلي لم نشأ رائعاً
مانعاً داخل الأسوار ، وثقة نزداد في مستقبل بلدنا الوضاء لم تفلح أن تطفئه
غيوب ظلال البراءة ، والحلم من نزداد قربا منه أي لم نجد يوما من اليقين ..

أرأيت يا أستاذنا الحبيب
إن العدالة لا المشاغبة هي ما نرجى

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مختار نوح
خالد بدوي
المحاميان

ليست الشفاعة ما نريد .. بل العدالة

مختار نوح
خالد بدوي
المحاميان

نص الخطاب بعد نشره في جريدة الوفد

٩٦ [illegible]

كنا رفقة نجلس في مجلس واحد، ونسير في مسير واحد، ولكن
شكري هذا كان شحيحاً في الجلوس معنا، وكنت أشعر في
شخصيته وعورة، لذلك لم أسترح له، وفي صباح أحد الأيام
أذكرها كالأمس - وكانت في يوليو من عام ٦٧ - قال لي الأخ عبد الفتاح
ضرغام إن هذا الفتى يجرحه العلم، ولكنني أعرضت عن تزكية عبد الفتاح،
فلا شكري يجرح ولا عبد الفتاح بقادر على قياس المعرفة، شكري
عندي لا يزيد عن زكيتهما ضحلة، وآية ذلك أنني جلست معه عدة
مرات لا أعرف منتهاها، فأخذ يحدثني عن آخر الزمان والمهدي
المنتظر ويسرد من ذاكرته أحاديث عن اليمن وأنها ستشهد ثورة
المسلمين، فناقشته من الغسق إلى الفجر في فكره هذا وبينت له
أن معظم الأحاديث التي يستند إليها موضوعة أو ضعيفة، وكنت
قد جلست معه من قبل وهو يحدث بعض الإخوان، ورأيت تأثيره
عليهم ووجدت قوله وقعها، لذلك أجهدني شكري وهو يحاول
إقناعي بصحة رأيه، فواجهته بأنه خرج بعقيدته عن عقيدة أهل السنة
والجماعة فقال إن كل القرون التي تلت القرن الأول كافرة، وإنه
حدثان هذا الأمر كان وقت نزول التحكيم، وأخذ يشرح تفسير
سيد قطب في آيات الحاكمية، وأنا أحذره من الخروج عن المحجة.
أخذ الإخوان يكتبون خطابات الاعتذار لجمال عبد الناصر فكتب من رفاقي
كل من أمين عبد الحميد، وعبد الفتاح ضرغام ويونس المطراوي، وتأخر شكري
مصطفى ولكنه أجمع أمره وقرر أن يكتب الاعتذار بعد أن أخذ النصيحة
كما قال لي من الحاج مصطفى مشهور الذي قال له ... هي ...
كان شكري قد حدثني عن صلته بمصطفى مشهور وقال إنه معه على
فكره ولكنني لم آخذ كلام شكري مأخذ الصدق فلم يحدث أن رأيتهما
معاً، وزاد على ذلك أن تجمع جمع من الإخوان حولهم على إسماعيل
وزايد الغرس وعبد الفتاح
أصاب بطني مرض حتى أصبحت ضامراً من ولهاة الوجع فنقلوا بي
إلى مستشفى السجن، وقد يرى بالله لذا تم [illegible] علينا فلا
نشعر بقطتنا إلا بعد أن تستبين المسرة، لذلك استمرت
مع هذا المرض حتى قول الله تعالى "إن مع العسر يسرا"

صورة من مذكرات بخط يد الأستاذ أحمد أبو غالي عن فترة حبسه وتتضمن علاقته بشكري مصطفى وعلاقة بعض الإخوان بفكر التكفير

(٤)
أحمد
صورة مستند
أبو غالي
١٢

فلم يقل الله إن بعد العسر يسرين ولكن معه، ومع عسر المرض الذي ألم بي
قابلت في المستشفى اليسري متمثلاً في رؤيتي للمرشد المستشار حسن
الهضيبي، وحلا لمقتضي نذكر شكري مصطفى الذي تلقاه من حيث طلب
قال: إنهم يطيعون، نصبا أعينهم هذا الأمر وإنهم سيكتبون كراسة
يردون بها على شكري وأشياعه لكلام المرشد قليل الكلام جدًّا
ولكنه كان حاسمًا وكان رأسه قاطعًا حين قال: إن كلام شكري هو
" خلف " القول أي رديء الكلام.
دعاني الجمال لحضور جلسة خاصة مع شكري وقال: إن شكري ما زال
يطمع في تأييدي ومبايعتي، وبالفعل تحدثت مع شكري وأقسم أنه
يحبني ويتمنى لي الخير ويطمع أن أكون معه كالغيث، فهمهم الجمال
وقال لشكري: تقصد الغيث وأنت الغوث وأنت الليث، فزجره
شكري وقال له: هذه نغمة الغيث يا غوث، اسكت يا والد، إنت
لا تتدخل في الحوار بيني وبين عمك أحمد لما يتحدث الكبار
يسكت العيال الرضع، وكانت هذه أول مرة أرى فيها شكري
منهارًا ضعيفًا وشعرت من هذا المنهار أنه سيد جالسي معهم
في منصة البيعة، وفي الجلسة رأيت شابًا جنة جامعيًا من
الإخوان اسمه محمد ... اشتهر بين الإخوان بالصوت الجميل
الرخيم وشابًا آخر كان في نهايته تعليه اسمه محمود إبراهيم كان
في سجن أبي زعبل قبل أن يأتي إلينا ولشدة نحوله كنا نطلق عليه
محمود النحل، وثالث اسمه عبد المجيد كنا نطلق عليه عبد المجيد البادن
لضخامته، ومن المفارقات أن نجتمع في زنزانة واحدة مع البادن والنحل.
أخبرنا النحل خبرًا غريبًا على عقلي وهو أن مصطفى مشهور وافق على
هذه الجلسة وقال له: إن عمر سيبايع شكري إن غلب مصطفى
فهل يفكر مصطفى مشهور ويقرر بعيدًا عن الإخوان؟ وما معنى هذا
والمرشد قال لي بنفسه إنه ضد الفتح وخلف الكلام الذي نزل من
فم شكري.
تحدث شكري حديثًا طويلاً فقال: إن طريق الإسلام يجب أن يمر
بطريق طويل وإن الطريق يجب أن يكون طليلاً حتى نهيئ مواصف
الأخرى والطريق يجب أن يتم تعبيده، وأشار إلى أننا سنخرج
في يوم ما من السجن وعندما نخرج لا يحق لنا إلا أن ننشر

دعوة الإسلام من خلال كيان له تأثيره على العامة . اقترح شاب حدث من الجالسين أن نلج طريق الجمعية الشرعية . فقال شكري إن الجمعية الشرعية لن تقبل وجودنا ولن نستطيع العمل من خلالها وكذلك جمعيات السنة ، وأنه ليس أمامنا إلا ولوج جماعة الإخوان وقال إن الأستاذ مصطفى مشهور سييسر لنا الأمر خاصة وأن هناك من يرفضنا وينبذ فكر الشهيد سيد قطب .

شرح شكري الخطة التي يقترحها وهي أن تسير فرقة فرقة المسلمين في اتجاهين الأول علني والثاني سري ، الفرقة العلنية ستسير خلف وتناصر وتذب عنه فيجري عليها ما يجري عليه ، والثانية السرية تخفي أعمالها ولا تصرح بعقيدتها وتساير الناس في الظاهر وتلك هي الفرقة التي ستلج وبقوة لكيانات الإخوان كما يلج الجمل من سم الخياط ، وقبل البيعة قال شكري إنه يرشح حسني وحجي حسن سامي ومحمود النمل ، إبراهيم حسن ضمن الفرقة السرية وقال إن الأمر سيعتمد على رجلين أحدهما أبو علي من الإخوان وموثوق به عندهم وصلته طيبة بالمرشد ومحمد وحمود لهما صلة التابع بالمتبوع بالأستاذ مصطفى مشهور ، ثم وضع شكري يده على ظهر مقعد كنا نعتبره طبلية للطعام وكاتب للكتابة وقال مدوا أيديكم فوضعنا أيدينا على يده ورددنا القسم ورددنا وراءه ولكن قلبي كان مطمئناً ... والله أسأل أن يغفر لي ويقيني من النار .

وكانت قسم البيعة هو " إن الله ربنا ومحمد نبينا والقرآن إمامنا ومن كان معنا كنا معه ومن كان علينا كنا عليه الصاع بالصاع والكيل بالكيل ، وأعاهد الله العلي العظيم الواحد الأحد الكبير المتعال على نصرة جماعة المسلمين على أن أسمع وأطيع في المنشط والمكره للأخ شكري أحمد مصطفى عبد العال ومن ينيبه من الأمراء في سبيل إقامة الإسلام والجهاد في سبيله والموت دونه ، وأعاهد الله أن أهاجر إلى اليمن إذا طلب الأمير مني ذلك أو إلى أي أرض أخرى أو إذا حيل بيني وبين الأمير على أن أظل على جهادي في سبيل إقامة الإسلام وأنا في أرض اليمن وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه " .



صورة نادرة تجمع بين سامح عاشور ومختار نوح، سامح عاشور في المقدمة ناحية اليسار ومختار نوح خلفه..



صورة من أحد معسكرات الإخوان تجمع بين ثروت الخرباوي وبعض قيادات إخوانية ليس بها جمال تاج وبها د. عبدالرحمن ويرى في يمين الصورة د. محمد محسوب وزير الشئون القانونية الحالي..



صورة لثروت الخرباوي أمام مجلس الدولة في إحدى الفاعليات القضائية التي أقامها لطلب الإفراج عن النقابيين ويرى معه بعض المحامين الذين اشتركوا معه في الدفاع..

الفهرس

أحـــدث إصـــدارات

الأســـاذ

ثـروت الخــربـــاوي

■ ســر المـعـبـد.. الأســرار الخفيـة لجماعـة الإخـوان المسلمين

